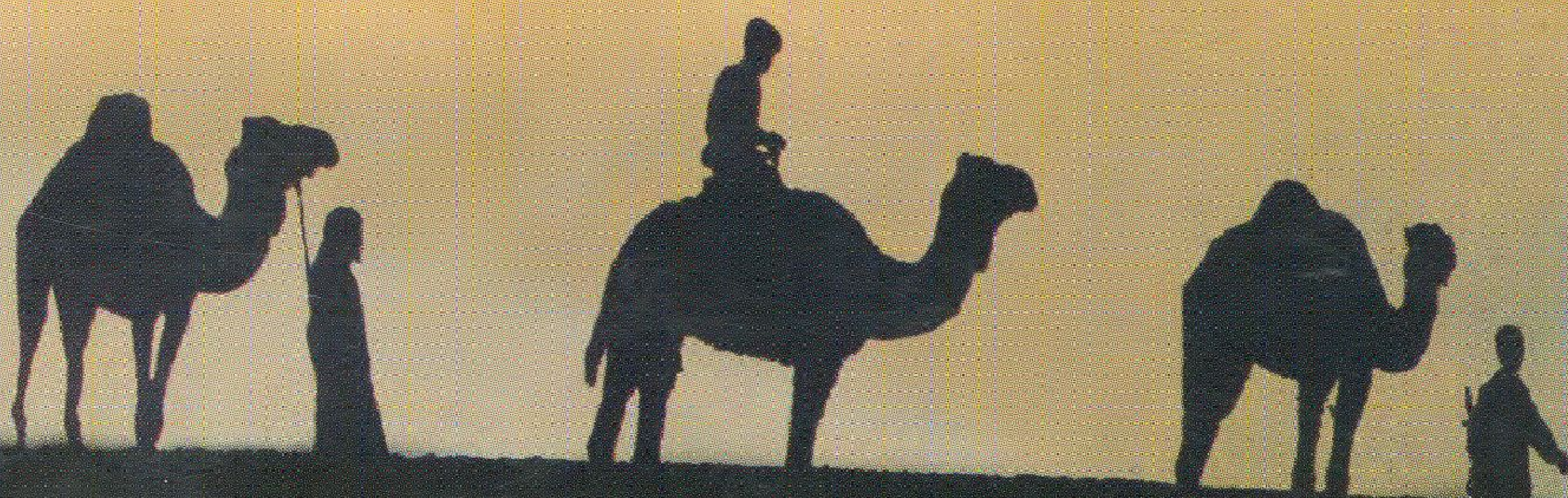
PHILBY

قلب الجزيرة العربية

THE HEART OF ARABIA

الجزء الثاني

هاري سانت جون فيلبي
« عبد الله فيلبي »



مكتبة العبيكان



« الحاج عبد الله فيلبي »
هاري سانت جون بريدجر فيلبي

ولد فيلبي في عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م من أسرة إنجليزية محافظة وكان مولده في سيلان حيث كان يعمل والده بتجارة القهوة.

بعد عودته إلى إنكلترا التحق فيلبي بمدرسة وستمنستر وهناك بدت علامات نبوغه، ثم التحق بعدها بكلية ترينتي Trinity بجامعة كمبردج وتخرج فيها ١٩٠٧م بدرجة امتياز.

ثم درس فيلبي سنة أخرى في جامعة كمبردج اللغتين الفارسية والهندوستانية وذلك عقب التحاقه بقائمة الخدمة المدنية لدى حكومة الهند البريطانية، أمضى بعدها سبع سنوات في الهند وقد درس خلالها اللغة البنجابية والأوردية، وبدأ يتعلم القرآن واللغة العربية مما خوله فيما بعد ليكون ضمن البعثة المتجهة إلى البصرة في عام ١٩١٥م.

ثم كانت بعدها أول بعثة له إلى الجزيرة العربية وكان ذلك في ١٣/١/١٣٣٦هـ - ٢٩/١٠/١٩١٧م.

ثم توالت بعدها بعثاته ورحلاته وزياراته إلى الجزيرة وتوطدت علاقته بالملك عبد العزيز وقد ساعدت رحلاته الكثيرة على تكوين كم هائل من المعلومات الجغرافية والأثرية والتاريخية عن الجزيرة العربية والتي دونها جميعها فيما بعد في كتبه التي سنعرض لها.

أعلن فيلبي إسلامه في عام ١٩٣٠م.

وكانت وفاته في بيروت في عام ١٩٦٠م، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

قلب الجزيرة العربية

سجل الرحلات والاستكشافات

(الجزء الثاني)

تأليف
هاري سانت جون فيلبي

تعريب
د. صلاح علي محجوب

مراجعة وتدقيق وتعليق

د. فهد بن عبدالله السماري
د. محمد الخضيري
أ. عبدالله المنيف
أ. عبدالرحمن الشقير

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سنت جون

قلب الجزيرة العربية / ترجمة صلاح علي محجوب. - الرياض.

٤٨٦ص، ١٧X٢٤سم

ردمك: ٦-٨٥١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٨٥٥-٢٠-٩٩٦٠ (ج٢)

١- الجزيرة العربية - تاريخ ٢- الجزيرة العربية - وصف ورحلات

أ- محجوب، صلاح علي (مترجم) ب- العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٠١ ٢١/٥٢٧٠

ردمك: ٦-٨٥١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ٢١/٥٢٧٠

٩-٨٥٥-٢٠-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م

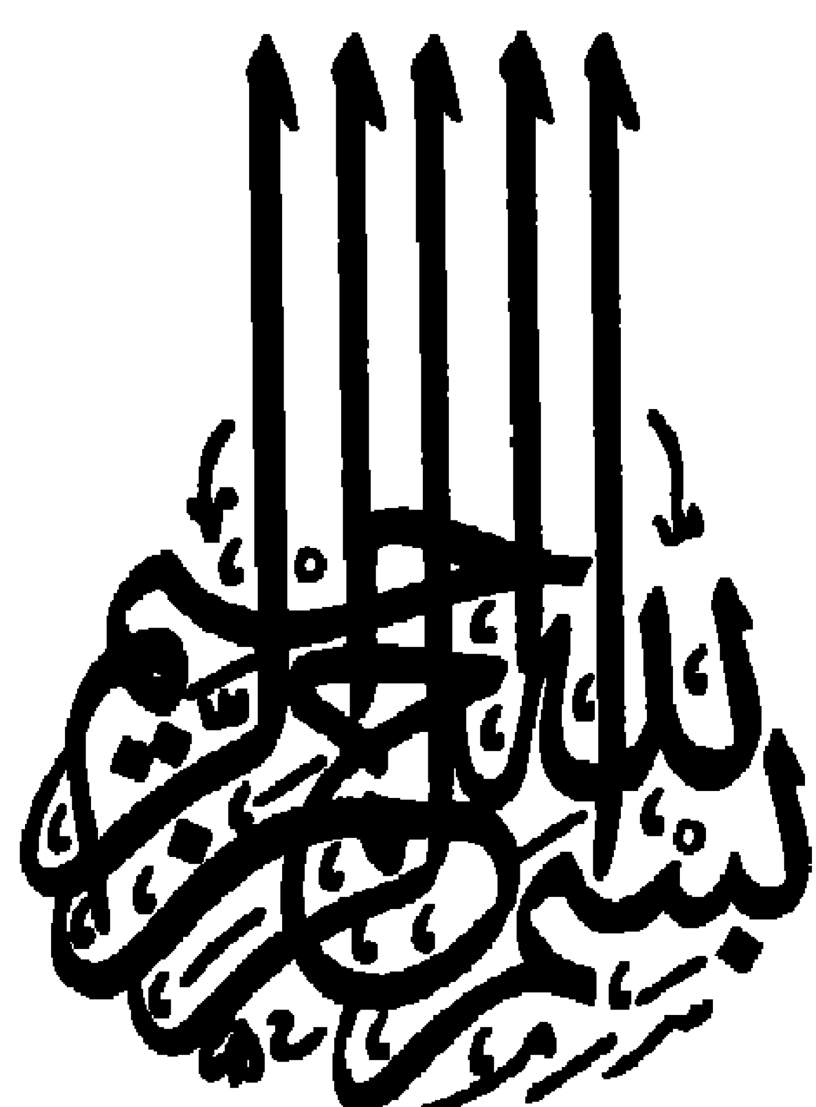
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حيّاً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن

لهـا دوراً إيجابيّـاً يعين على تصور بعض المعـالم الجغـرافيـة إضافـة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيـلاحظ القـارئ الكريم عندما يقـرأ في كتب فـيلبي أنه أمـام موسـوعة مختصـرة لتاريخ المملكة العربية السعـودية غطت حقبة زمنية مهـمة حيث كتب فيلبي بأسـلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغـرافيتـها، وأعلامـها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشـخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهـاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسـته في الارتقاء ببلاده حتى صـارت دولة حديثـة تحظى بتقـدير العالم، وهذا الإعـجاب له مـا يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجـاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتـوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمـية متخـصصة- جـزءاً من خدمة بلادها من خلال إحـياء تاريخها. وقد حـرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتهـا إلى اللغة العربية كمـا جاءت في النص الإنجليزي. ومـع ذلك فإن جمـيع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتـبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة الكتاب والتعليق عليه، والشكر موصول لكلٍّ من الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، والأستاذ عبدالله بن محمد المنيف على جهدهما في المراجعة والتعليق.

والله ولي التوفيق»

الناشر

مكتبة العبيكان

الفصل الثامن

الخرج

عبور وادي حنيفة

كان اعتلال الصِّحَّة الذي نتج عن مواجهة الأخطار والإنهاك اللذين غالبهما في ثبات وجلد لفترة طويلة، هو الذي فرض على داوتي[1] مقاومة الإغراء للاستجابة، عندما اقترح عليه حسين باشا- شريف وأمير مكة في تلك الأيام بكل جديّة- أن يواصل ـ إن كانت له الرغبة- تجواله في الجزيرة العربية، مع وعد بتزويده بخطاب توصية وشهادة بحُسْن السيرة. كان هذا لأربعين عاماً خلت؛ ومنذ ذلك الزمان ظلّ فضول الجغرافيين مستعراً وحماستهم متقدة، واستدام تفكّرهم وتأملهم في ماهية طبيعة الإقليم الجنوبي.

ولكن رغم هذا لم تجرَ محاولة جادّة، أو - على أقلّ تقدير- محاولة ناجحة لاستكشاف مجاهله وأسراره حتى نهاية ١٩١٧م، عندما قمت أثناء رحلتي من الرياض للطائف بوصفٍ من على البُعد من سهل سبيع- لصقعٍ جبلي كانوا قد أخبروني أنّ اسمه هضب الدواسر. وكان -فيما أفادوا- يُطلّ على وادي الدواسر من الناحية الشمالية. لقد كان يدور في خلدي تفكير بأن تكون عودتي من الطائف للرياض عن طريقٍ ينحو ناحية الجنوب بدلاً عن المسار الذي سلكه داوتي وهوبير، اللذان قاما بوصفه، وهو الطريق الرئيس بين القصيم والحجاز. كان مرأى تلك الجبال الغامضة قد شدّ مني العزم لتحقيق تلك الفكرة. وعندما بلغنا الطائف اتفقت مع رفاقي أن تكون عودتنا عن طريق تربة ووادي رنية نحو

---

(١) راجع كتاب داوتي: C.M.D ، الجزء الثاني ، ص ٥٢١-٥٢٢. (المؤلف).

وادي الدواسر، ثمّ عن طريق أقاليم السُّلَيِّل والأفلاج نحو الرياض. بيد أنّ تخطيطي كان قد أغفل ما قد نتعرض له من مصاعب في التنفيذ، خاصة وأننا لم نستشر من بيده الحل والعقد. ولم أجد في الحسين بن علي، شريف مكة وأول ملوك الحجاز، والحليف الوفيّ لبريطانيا العظمى إلاّ القليل من لين الجانب الذي أُعجب به داوتي في سميِّه الذي عاش حينها. تعرّضت لتقريع صريح لمروري عبر الأراضي المقدسة، وحاولت بعناد، ولكن دون جدوى، أن أُثني الملك عن عزمه -الذي كانت تعوزه الكياسة والاحترام- في منعي من عبورها ثانيةً في الطريق المعاكس. وإزاء إصراره، اضطررت لمغادرة جدة عن طريق البحر، آسفاً على ضياع الفرصة السانحة في تلك الظروف، مِمَّا أورثني الحنق والغضب. بيد أنني غيّرت خُطَّتي، دون أن يكون لدي أمل كبير في تحقيق الحلم، لأقوم بزيارة خاصة للجنوب مستقبلاً، إن قُدِّر وتيسّر لي هذا الأمر.

وهكذا أتيت لابن سعود في معسكره في الشوكي، وأنا أتوقّع - وقد أحبطته نتائج مباحثاتي - أن يطلب مني العودة الفورية للبصرة. وكانت أقصى آمالي إن وافق على إعلان الحرب ضد ابن رشيد أن تسنح لي الفرصة لتنفيذ فكرة زيارة وادي الدواسر بعد الفراغ من العمليات العسكرية في الشمال. وللمرة الثانية كان تخطيطي دون التحقّق من رأي من بيده الأمر. ورغم أن ابن سعود لم يكن راضياً تماماً عمّا اقترحت الحكومة البريطانية أن تساعده به، لكنه وافق على الاضطلاع بدوره.

بعد وصوله لهذا القرار، لم يكن ليصعب عليه إضرام نار الحماسة الكامنة في كل العرب للقيام بالعمليات الحربية. إنّ العربي مُتمهِّل بطبعه - وابن سعود ليس استثناءً للقاعدة- لذا احتاج لبعض الوقت حتى تنضج الخطط في ذهنه، لذلك

عرضَ عليّ أن أعود للبصرة أو الكويت لأتركه يخطط لعملياته على انفراد. وكان قد وعد بأن يقوم بعملياته الحربية في رمضان، وكنّا في بداية رجب، وكان عليّ أن أعود لأرى ثمرة جهده بعد شهرين[1].

لقد شرحت سابقاً[2] كيف أنني قاومت الاقتراح الذي لم يَرُقني بالعودة للساحل، وتمكنت من إقناع ابن سعود بأن أقضي تلك الفترة اللازمة للإعداد لعملياته في زيارة الجنوب. لقد تمكنا من الاتفاق على هذا الحل في معسكره بشعيب الشوكي في ١٢ أبريل(نيسان). كانت آثار الربيع على الجوانب المتدحرجة لهضبة العرمة جميلة بهيجة، ولكن الأيّام التي تبقت على انصرام الربيع كانت محدودة واستحضرت في ذهني صورةً للصيف القائظ في تلك البقاع الجنوبية التي كنت على وشك زيارتها، لذا كنت أتعجّل الرحيل لأستفيد فائدة تامّة من الأسابيع القليلة التي تبقّت من الطقس المعتدل.

في إحدى المناسبات استجمعتُ شجاعتي لأقترح ألاّ جدوى من ذهابي للرياض، وأنّه من الأنسب أن أشرع في رحلتي بأقل قدر ممكن من التأخير، لكن اقتراحي قوبل باعتراض حاسم. كانت هناك أسباب منطقية شرحها ابن سعود ليبرّر بها مصاحبتي له في رحلة العودة للرياض، ومن ثمّ الشروع في الرحلة الخاصة بي، وعلى أي حال لن تتوفر المطايا اللازمة حتى يعود أتباعه، ويُعاد متاعه للعاصمة. تمالكت نفسي في صبر وأنا أرى الطقس اللطيف ينفلت يوماً إثر آخر

(١) لم يستجب الملك عبدالعزيز لطلب بريطانيا وإنما واصل حملاته العسكرية لاستكمال توحيد المنطقة بما في ذلك حائل. (المراجعون).

(٢) راجع الجزء الأول، ص٣١١ . (المؤلف).

في عناد، بينما نشأ لديّ إحساس، لا تسانده مؤشّرات أو شواهد، جعلني أظن أنّ ابن سعود قد ندم على الوعد الذي قطعه لي في لحظة كرم.

وصلنا الرياض يوم ١٩ أبـريل (نيســان)، وتعـاقـبت الأيّام دون أن تلوح أيّ إشارات للإعداد لرحلتي، وبـدأت أجري بعض التحريّات الحذرة حـول القصر من إبراهيم، ومن الجنيفي والقصـيبي، ومن المرافقين المخصصين لخدمتي؛ وفي حـقيقة الأمر من أيّ مصـدرٍ قد أستقي منه المعلومات المطلوبة دون أن أعطي شـعوراً بنفاد الصبر. وبعد أن عـادت الإبل من المعسكر أرسلت مجدداً لاستعادة حـيويتها برعي النباتات الربيعية في موقع يبعـد مسيرة يومين أو ثلاثة. وحدثت نفسي؛ لا شكّ أنّ اختيار خير ما يوجد من مطايا سيكون لمصلحتي؛ قليلٌ من الصبر وسيؤتى بالإبل؛ ولكن لم يكن هناك ما يؤكـد لي أنّ أمراً قد صدر في هذا الشـأن، ثمّ صار يتضح لي رويداً رويداً أن الأمر بالفعل لم يصدر. وعندما حللت ضيفاً على تركي يوماً، أحتسي في داره القهوة، تَحدَّث عن رحلتي المرتقبة مؤكِّداً -دون مدعاة للشك- أن العدَّة لهـا قد أعِدَّت؛ ولا بدّ أن ابن سعـود كان قد سـمع عن تحرياتي الدّالة على فراغ الصبر من أولئك الذين ائتمنتهم على السر. بيد أنَّ أبريل (نيسان) أخلى موقعه لمايو (أيار) دون أن تلوح في الأفق علامات مبشّرة، وكان لابدّ لي بعدها أن أصعّد المسألة للوصول إلى قرار بشأنها دون تأخير.

كانت الخطوة الأولى هي عـرض الموضوع على ابن سـعود نفسـه، وفي نهاية إحدى لقاءاتنا المـسائية سألته بوضـوح دون مواراة إن كان يذكر العـهد الذي قطعه على نفسه في السماح لي بالقيـام برحلة للجنوب، وذكرته أنّ الصيف سيحلّ بيننا عمّا قـريب ضيفاً ثقيـلاً. فأجابني: «أنا أذكر الأمـر، ولم أنسه، لكنّي كنت أفكر

أنّك ستواجـه عنتاً كبيراً بالسفـر في هذا الوقت. ألن يكون من الأجدى أن تؤجّل المشروع حتى ينقـضي الصيف؟ حينها سأبعث بـك إلى المكان الذي تريد؟ وإضافة لهذا فـإنّ المشاكل المـرتبطة بالحصـار في الكويت تستـوجب أن تكون هنا، ولكن بالطبع إن كنت تريد الـسفـر فليس هناك مـا يمنع على الإطلاق، إذ أن الإبل على استعداد، ويمكن الإتيـان بها دون تأخير». وكان ردّي: «حسناً، لقـد تقرر سفري من قبل، ولم أخضعه لمراجعة أو تعـديل إذ كنتُ أعتقد أنّ ما يؤجّلُه هو انشغالك بأشياء متلاحقة، وكنت أنتظر أن تخبرني عن موعـده بعد اكتمال الترتيبات الخاصة به. وفيما يختص بمسألة الكويت، فـأنت تعلم أنّ الأمر برُمّته قد سُوِّي تماماً، ولن تكون هناك مشاكل في المستقبل. لقـد أعطيتك كلمة شرف في هذا الشأن. ولكن أيّهـا الحكيم يبـدو أنّك لا تودّ حقـيـقةً أن أقـوم بالرحلة، إن كـان الأمر كـذلك أخبرني، وسأتفهّم الدوافع التي أملته عليك، رغم أنني جدّ حريص على تنفيذ ما أبرم من اتّفـاق». صار الآن الأمر مـرتبطاً بالوفاء بالعـهد الذي قُطع، فـتنازل ابن سعود وهو يحاول إقناعي -عبثـاً- أنّ كل الذي منعه من الالتزام به كان مرتبطاً بما يخشـاه عليَّ من التعب والنصب في تلك الرحلة. ثـمَّ أكّد لي بعدها أنّه سـيؤتى بالإبل على الفور.

في يوم ٤ مايو (أيار) اسـتيـقظت في الصباح لأكـتشف أنّه لم يجـد جديد. وعندما جاء إبراهيم -وهو أوّل من أستقـبل في الصباح- وجدني في أسوأ مزاج. إن العربيّ ينسى بسهولة الماضي الكريه، وهو دائم التفـاؤل بالمستقبل، ولكنّه ينهار بحيث لا يستطيع التصرّف تحت وطأة المشـاكل لحظة وقوعها؛ لذا انسحب إبراهيم سريعاً عندما استـقبلته بخطبةٍ تقريعيّة مطوّلة عن التعويق الذي يتـسبب فيه، وبعد

لحظات قليلة جاء طامي- وقد كنت دائم الترحيب بزياراته- جاء فيما يبدو يلتمس أن أتفاهم بتسامح أكبر مع إبراهيم، ولكنني أفرغتُ كل المتراكمات التي كانت تجثم على صدري عن عيوب صديقه، وكيف أنني منذ أن عدت لأعيش وسطهم كنت أسعى لنسيان الانطباع السيّئ الذي تركه عليّ إبراهيم أثناء الرحلة إلى الساحل الغربي، وكيف أنني كنت في كل مناسبة أواجهُ بأمرين مؤتلفين معاً: تملُّقٌ وخنوع من جانب، ومعارضة مغلَّفة -رغم أنها عنيدة- لرغباتي من جانب آخر. وتوسّلت إلى طامي أن يفعل ما في وسعه للتأكد من أنّ رغباتي يُستجابُ لها سريعاً، وأن يقوم - إن أمكن - بالحلول محل إبراهيم في مسؤولية إعداد الرحلة وفي قيادتها.

وبعد محاولة فاشلة حاول فيها طامي أن يقنعني بأن حكمي لم يكن صائباً على الرجل، انسحب مكتئباً. وبعد قليل عاد إبراهيم مجدّداً، وقابلته بصمت متبلّد مع إحساسي بأنّ اللحظة الحاسمة قد أتت، وأنّ تحقيق مبتغاي يعتمد على رفض كل المحاولات لإعادة العلاقات الوديّة على أيٍّ من الأسس. وقطع فترة الصمت الطويلة وصول عطا الله يسألني إن كنت أودّ تناول الإفطار، وأجبته بالنفي، فجلس مولى القصر مع إبراهيم انتظاراً لأن يصيبني الجوع فأرضخ. وانشغلت تماماً بقراءة كتاب حتى انسحب اختبارالتحمّل لساعتين فقط، نهض إبراهيم وهو يطلق آهةً حرّى، مجرجراً أذياله خارجاً من الغرفة وهو يحاول لمّ شعث كرامةٍ جريحة. وخضعت مقدرتي على التحمّل للاختبار مرّةً ثانية أثناء النهار، عندما ظهر في غرفتي ابن مسلم، وتعابير وجهه الجاد يغلّفها سؤال حائر، متى سأتناول إفطاري؟ وقلت له: «ليس اليوم» فذهب لحال سبيله.

جاء إبراهيم للمرّة الثالثة في الساعة الواحـدة بعد الظهر، وكأنّ شيئاً لم يكن، وقال لي: «إن ابن سعود يبلّغك تحياته وطلب منّي أن أخبرك أن الإبل على استعداد»، وكانت إجابتي: «حسناً، لنتحرّك خلال عشرة أيّام». قلت هذا دون أن أُظهر أيّاً من علامات الرضا لما تسببت فيه مناوراتي من نجاح. فقال إبراهيم: «أنت تهزأ بي، لكنني أقـول لك إنّ الإبل جاهزة» وكـانت إجابتي: «حـسناً جداً، أنا أيضـاً على استعداد، فلنرحل فـجر الغد»، «هذا مستحيل، هناك كثيـرمن الترتيبات لا بدّ من عملها». وأجبته «حـسناً يا إبراهيم، فلنترك الحديث عن هذا الأمر. أنت ترى أنني على استعـداد، أخبرني عندما تكون الإبل مُـعَدّة إعداداً حقـيقيّـاً، سأكـون حينها جاهزاً للركوب». كانت التـرتيبات تجرى للتحرّك صبـاح ٦ مايو (أيار)، واستُغلت هذه الفترة ببذل جـهود نشطة. كانت الإبل التي خصصت لاستخدامـها قد أتي بها بجوار القصـر، وهي تزمجر تتأوه في احـتجاج واضح. وفي أمسـية ٥ مايو (أيار) كانت آخر السـحب الرعدية للخريف تتراكم وهي تتلوى وتتداخـل وتبرق والرياح الجنوبية الغربية تسوقها أمامها فوق ظهر طويق العريض في اتجاهها نحو الشمال.

وفي اليـوم المحدد استـيـقظت عند الفـجر، ومـا لبثت أن نظّمت كل شـأني استـعداداً للرحلة، ولكن الترتـيبات النهـائية لشؤون القـافلة استوجـبت قليلاً من التأخير استغليته لتناول إفطاري ولإجراء لقاءات وداع ثلاثة، كان اثنان منها مع ابن سعود، والثـالث مع أحمد بن ثنيان، وكـانت جميعاً لـذات الغرض. قال لي ابن سعود، «ستشـرع في رحلتك للجنوب؛ هي الزيارة الأولى من نوعها لرجل غربي لتلك الأقاليم، ضع ثقتك بالله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. ليس هناك ما تخشاه أينما ذهبت في حدود بلادي ونفوذي، وبفضل الله فإن إرادتي الملكية تسري هناك في كلّ مكان دون اعتـراض من أحد، وأينمـا ذهبت ستجـد من يرحب بك من

أجلي. انظر، لقـد عيّنت إبراهيم الذي تعرفـه أنت منذ عهـد بعيد مـسؤولاً عن قافلتك، اترك كل الأمر بيده واستـمع لنصائحه، وهناك ابن جِلْهَم الذي لا يعرف أحـد الجنوب وأهله خـيراً منه، فليكـن اعتـمادك علـى الله أولاً، ثمّ على هذين الرجلين لترتيب كل ما يتعلق بمغامـرتك. يمكنك السفر إلى حيث تريد، للأفلاج، أو السُلّيل أو للوادي، ولكن لا تتخطىّ حدود الوادي، إذ لا يوجد بعد ذلك الخط سلامٌ ولا أمان».

وهكذا نزلت إلى بوابة القصر، وتطنُّ في أذنيّ الكلمات الأخيرة لمضيفيّ التي تحذرني والتي تسمح لي بالذهاب لأي مكان آخر أريده. وركبت ورفاقي المطايا في السـاحـة وسرنا فـي تتابع بـطول الطريق الذي يؤدي إلى بوابة المدينـة الشمـاليـة الشرقـية. ثم انحنينا ناحـية الجنوب الشرقي مـتتبـعين المهد الرملي لمجرى سـيول الشمسية، متخطين المقبرة الملكيـة، ومررنا من وراء حافة حزام النخيل لنجد سفح سلسلة تلال دريبات الخيل التي تقدّمنا بمحاذاتها جنوباً حتى تخطينا منفوحة، وبقايا المدينة القديمة التي دُكّت والتي كانت تحمل ذات الاسم. ثم تخطّينا القرية الصغيرة المصانع التي تتوسط النخيل، لنصلَ إلى مـزرعة مزعل المسوَّرة في الطرف الجنوبي للواحة. هنا يقترن مجرى سيول الشـمسية بوادي حنيفة العظيم، بينما ينفصل وادٍ آخر عن مجرى وادي حنيفة الذي تحيط به الصـخور الشاهقة والذي يخترق هضبة طويق. ينفصل الوادي وعرضه ميل واحـد في الباطن، في مكان يقع إلى الشمال الغربي من هذه النقطة جارياً نحو الجنوب الشرقي، وتحدّه صخور طويق المنخفضة على اليمين، ومنحـدر دريبات الخيل اللطيف من الشمـال؛ وابتداءً من هذه النقطة يعرف الوادي باسم حشات دعكنة.

كنا الآن في وسط الوادي، في متاهة معقّدة من المجاري الصغيرة التي تغطيها الحصباء، والتي اقترنت جميعاً لتكوّن مجرى سيول واحد على بعد نصف ميل من المكان الذي يقع أسفل ما تبقّى من قرية الجزعة، التي تقف أعجاز نخيلها المحطمة شاهداً على الأيام التي ازدهرت فيها النخيل في مملكة اليمامة القديمة. كانت الجزعة في يوم ما قرية مزدهرة في واحةٍ خصيبة، ولكن كلّ هذا سوّي بالأرض بفعل الأتراك -كما يقولون- قبل قرن من الزمان، عندما حاول إبراهيم باشا أن يفرض سطوته على نجد.

وفي وقت قريب شهد المكان صراعاً بين أبناء فيصل، بعد أن قضى عمره وهو يحاول أن يوفق بين أمزجتهم المختلفة المتناقضة، وبعد مساعٍ فاشلة للحدّ من الغيرة التي اتقدت من دواخلهم، والتي سجل بلجريف تفاصيل فورانها مع تنبّؤٍ دقيق بما يمكن أن تجري عليه الأحداث مستقبلاً، وذلك عندما روى تفاصيل تجواله في الجزيرة العربية(١). وهكذا فإنّ الجزعة لا تتذكّر إلاّ كإحدى ساحات الحروب العديدة التي حارب فيها عبدالله وسعود بعضهما من أجل السيادة على البلاد الوهابية التي فُقدت في النهاية لمغتصبٍ أجنبي من جبل شمر، والذي قدّر لإمبراطورية فيصل أن تتبع له حتى استعادها مع إطلالة القرن العشرين ابن شاب لابنٍ أصغر لم يؤدِ دوراً في النزاع الذي شبّ بين أخويه.

مات عبدالله دون أن يخلّفَ أبناء، ولكنّ سعوداً خلّف أبناء وحفدة. ولا يُعرف على وجه التحديد الكثير من تاريخ الجزعة القديم، ولكن المعلومات المهزوزة المتداولة تبيّن أنّها كانت في العهد القديم خطاً متصلاً من قرى وواحات

(١) W.G.P الجزء الثاني، الفصل السادس، ص٧٤؛ والفصل السابع، ص١٠٩. (المؤلف).

مزدهرة، وكانت تمتد دون انقطاع هبوطاً إلى مهد وادي حنيفة من العيينة في قلب العارض إلى اليمامة في الخرج؛ حتى دُمِّر الوادي بالفعل المزدوج للجراد والوباء، فانعدمت الحياة في قراه.

كانت القرى فيما مضى ملتحمة مع بعضها البعض، بحيث أنَّ نبأ ميلاد طفلٍ لأحد وجهاء العيينة كان يصل إلى مدينة اليمامة في مساء اليوم نفسه، بعد أن تتناقله الألسن من بيتٍ لآخر، هابطاً الوادي عبر مسافة لن تتمكن أسرع المطايا في أيامنا هذه أن تقطعها في أقلِّ من ثلاثة أيَّام. هكذا تمضي الأسطورة التي تذكِّرُ بمآذن كوس بمغول الهند والتي بنيت عالية - إن كان لنا أن نصدّق القصة - لتعطي حريم الإمبراطور بلاهور إشارةً حول الموعد الذي يقدّم فيه الطعام للإمبراطور في دلهي، إذ لا تسمح لهنّ قواعد التشريفات تناول الطعام قبل سيدهن ومولاهن الإمبراطور. هناك بلا شك أرضية للاقتناع العام بأنَّ الوادي المهجور قد تمتّع في ماضٍ -لعله ليس جد بعيد- بقدرٍ كبيرٍ من الازدهار.

ولكن غياب الآثار والحطام إلاّ في مواقع قليلة متفرقة، يدحض بقوة الفهم السائد من أنّ العقاب الإلهي لمظاهر الوثنية في اليمامة كانت في شكل وباء وجراد قضى على الحياة فيها. وإن حاولنا أن نبحث أسباب الخراب الحالي للوادي لا بدّ أن نفاضل بين خيارين بناءً على ما نعتقده من أنّ المستوطنات الحالية، إضافة لمواقع الآثار القديمة، تسمُ حدود كل المستوطنات القديمة، أو أنّه كانت هناك واحات أخرى قد طمست آثارها تماماً. والخياران المطروحان بناء على الاعتقادين أعلاه، هما أنّ الجفاف التدريجي حل بالمنطقة لفترات طويلة نتيجة لتراجع الأمطار الموسمية، أو أنّ طوفاناً عنيفاً اجتاحها وطمس منها ما طمس. لكلٍّ من النظريتين

الكثير الذي يَدْحَضُهَا. إنَّ بقايا شجرة أبو قباس[1] في وادي العمارية يوضح الهجر والاضمحلال الذي يمكن أن يصيب واحة حُرمت من الماء.

ورغم هذا فإنّ قصّة ازدهار مملكة اليمامة في أزمان قديمة لا يمكن إغفالها بالكلية إذ أن اكتشافات لآبار قديمة تمّت منذ عهد قريب، وحفرت مجدداً بعد أن دفنت ونُسيت منذ زمان بعيد في أجزاء متفرقة من الوادي، مما يعطي دلالة لوجود قرى قامت في الماضي وطمست الآن بحيث لم يبقَ لها أثر. ورغم ما أتوخّى من الحذر اللازم في مثل هذه الأحوال، إلاَّ أنّني أميل لنظرية السيل المدمِّر، وهو أمرٌ جائز الوقوع، وقد سجّل حدوثُه في حالات قليلة بسبب ضيق مجاري أودية الأنهار في الجزيرة العربية، والتي اعتادت على تصريف مياه الأمطار الهزيلة، وعجزها عن التحمّلِ عندما تواجه -مرّةً في الدهر- بأمطار استثنائيةٍ لا تنقطع. تكون مثل هذه السيول نادرة الحدوث في وسط الجزيرة العربية، في منطقة جبل طويق، ولكنّها حين تحدث يمكنها -كما قالت الأسطورة- أن تطمس إمبراطورية.

يميز موقع اقتران المجاري المتفرقة التي تكوّن الوادي المتحد أجمة من أشجار الحوْر، وينحني الوادي انحناءة عريضة نحو اليمين، باتجاه حوض دائري، حيث يقترن به رافدان آخران، هما شعيب دعكنة من ناحية اليسار، وشعيب بقرا الذي ينزل من المنحدر المتموج اللطيف لطويقه من اليمين. توجد هنا مجموعة من البيوت الريفية وسط مزارع الحبوب وهي تابعة لقبائل سبيع والسهول، وتمتدّ نحو

(١) راجع الجزء الأول، ص١٩٣ . (المؤلف).

الشرق من وادي حنيفة إلى مراعي الجبيل والعرمة والدهناء. وهنا أيضاً حاول ابن سعود -كما أخبروني- أن يقيم هجرة للإخوان، لكنه لم يفلح. توقفنا للقيلولة على ضفة بقرا الصخرية بعد أن قطعنا ثمانية أميال من بداية الرحلة.

امتدّ عن اليمين والشمال سهل فسيح من الحجارة الجيرية الرمادية، مرتفعاً على جانبي الوادي، وبرزت الحافة الحادة للجبيل من خلف سلسلة تلال دعكنة الوعرة. هكذا كان المشهد الذي رآه بلجريف قادماً من الاتجاه الشمالي الغربي للرياض، فعظّمه واصفاً إيّاه «بالجبال الزرقاء ذات القمم المثلّمة المسننة لليمامة»[(1)].

بعد أن عبرنا نتوءاً صخريّاً رفيعاً من منحدر طويق، دخلنا ثانية الوادي أسفل دعكنة فور أن غادرنا المسير بعد الظهر، ثم مررنا بأيكة من أشجار الحوْر يسمونها الغاف، وبعدها بلغنا وارتقينا الأرض المرتفعة في الجانب الأيسر، وقد كانت ألواح الحجارة الجيرية البالية قد تحولت إلى سلسلة من درجات سهلة الارتقاء. كان مسارنا لبعض الوقت ينأى بعيداً عن مجرى السيول الذي كنا نلمحه من آنٍ لآخر عن يميننا أثناء المسير، حيث كان يشقّ طريقه عبر مسيل ضيّقٍ عميقٍ شديد التحدّر. ثم التقينا به ثانيةً بعد ميلين من الانحدار عن طريق وهد الـحُفْـنَة وهو صدع عميق تحيط به منحدرات صخرية شاهقة أبلتها عوامل الطبيعة، وترتفع لأربعين قدماً، وبها فجوات شبيهة بفوهات الكهوف تنتشر في كل الموقع مما جعل المكان يبدو كقرص العسل.

---

(1) W.G.P الجزء الأول، الفصل الرابع، ص٣٩٠ . (المؤلف).

تتبعنا ابتداءً من هذا الموقع مهد المجرى المتلوّي عبر وهد عميق تنمو فيه بكثافة أشجار الحـور والسنط والطرفاء، ويضيق عرضـه ويتسع بين ٣٠ إلى ١٠٠ ياردة، وتحدُّه المنحدرات الصخرية الشاهقة من الجانبين، كان ارتفاعها في البداية نحواً من خمـسين قدماً، ولكنه كـان يزداد سريعاً كلمـا هبطنا نحو الأسـفل. ويظهر أعلى ارتفاع بلغه سـيل العام المنصرم خطٌ مزدوج من أعـشاب تافهة لا أهميـة لها. لقد سال مجرى وادي حنيـفة سبع مرات خلال الشتـاء والربيع هذا العام، وفي إحدى المرات كان السيل أكـثر مما تحتمله مـجموعة من سبـعة آبار، هي مجمـوعة «قلبان الحفنة» التي تحطمت مبـانيها رغماً عن أنْ من بناها كان يظنّ أنهـا من القوة بحيث تقـاوم السيـول؛ وتناثرت حجـارة البناء في المجرى الرملي لمسـافة مـيل أو يزيد. ولاحظت هنا وهناك خلجاناً ضحلة، كان ما حَسَبْته منها بين مدخل وهد الـحُفْنَة والحائر أحـد عشر[1]، وكانت تكسـر استمـرارية الجروف الصخـرية على الجانبين حيث تصـرّف المنحدرات ميـاهها نحو الوادي. كانت تـتوج قمم الجروف العـالية بعض المباني الحجرية المهدَّمة، وتبدو وكـأنّها كانت أبراج حراسة في زمان مضى. رأينا في نهـاية الوادي قـبل الوصـول إلى الحـائر ركـام تسعـة آبار تسـمى عـرير (Arair)، شاركت الآبار التي كانت تعلوها نفس المصير.

بلغنا الحائر قبل الساعة السادسة مساءً بقليل، مصاحبين لرشّة يسيرة من رذاذ، وصلناها بعد مـسيرة سـتة عشـر ميلاً من الرياض. تقع الواحـة في حوض قطره ٢٠٠ ياردة، عند التقـاء مجريين هامين مع الوادي الذي يغيّـر الآن اتجاهه الجنوبي

---

(١) شعيب مـريسلة وخصيفان وأم طليح وثلاثة أخرى بـلا أسماء، على الجانب الأيسـر، وخمـسة منها على اليمين بلا أسماء أيضاً. (المؤلف).

فجأة ليتَّجه شرقاً. المجريان المعنيان هما شعيب لحا وشعيب بعيجاء اللذيْن يجريان منحدريْن نحو الحوض الأوسط، من اتّجاه الغرب واتجاه الجنوب الجنوب الشرقي، على التوالي، بين صخور ترسبيّة شاهقة. هذان الرافدان إن صحّت الإفادة المحلية - هما وهدان عميقان يشقان طريقهما عبر حاجز طويق العظيم من الغرب للشرق، ويصبّان في الخليج الصخري العريض في الجرف الغربي للحاجز حيث تقع هجر الغطغط والمزاحمية والبقية التي تتصرف فيه مياه المحمل والعارض عن طريق وادي الباطن أو ضرما. وترتفع الصخور المحيطة ١٥٠ إلى ٢٠٠ قدم، وأعلى الأقسام هو ذلك الذي يعلو فوهتي الرافدين. وفي أسفله كانت تستكنّ قرية الحائر الصغيرة، وهي مكوّنةٌ من جزأين غير متساويين يفصل بينهما شريط أرضٍ عارية. وتتوج القمّة أربعة أبراج حراسة، ثلاثة منها تعلو القرية مباشرةً والأخير فوق الزاوية التي تتكوّن بالتقاء الجانب الأيسر للحا والجانب الأيمن للوادي عند اقترانهما، ويبدو أنّ هذه الأبراج قد أُوقف - منذ زمن- استخدامها للغرض الذي أُنشئت من أجله، وأصبح سلام ابن سعود هو الحرز المانع الذي ينتظم البلاد، ولم يعد ظهورُ غَريبٍ في الأنحاء دلالةً على وجود حشد مسلّح مغير.

كان الجزء الرئيس للقرية هو ذلك الذي يقع بالقرب من مدخل لحا، وهو مربع يبلغ ضلعه بضع مئات من الياردات، ويحيط به سور خفيض مهدّم، وتوجد بداخله سبعون أو ثمانون بيتاً طينيّاً. ولم يكن من ضمنها مبنى فاخر سوى مسكن الأمير المحلي، وهو مبنى طويل مستطيل، ومسجد صغير به رواق مُعمَّد وأقواس مسننة تمثّل تماماً نمط العمارة الدينية في البلاد الوهابية. كان الحائط بلا بوابة عامة

تزينه، بل كانت به فتحات غير منتظمة على بعـد مسافات متقاربة، يدخل ويخرج القرويون من منازلهم الخاصة عبرها. وكان القـسم الآخر من القرية يضمّ مجموعة تتكون من خمسـة وعشرين كوخـاً، أشكالها غير منتظمـة، ولا أسوار لها، وهي تبدو وكأنها ملحقة بالقرية، وكانت تظلّ المجموعـتين صخرة شاهقة، تحميهما من شمس الظهيرة وما بعد الظهيرة.

امتـدّ في واجهة القـرية شريط ضـيّقٌ من أرض مخصـصة لزراعة الحـبوب، وتواصل الشريط لمسافة طويلة مرتقياً «الحا». وكانت نساء القرية عند مرورنا بها في الصبـاح يعملن في همّـة ونشاط يذرّين أكوامـاً عالية مـن الشعيـر الذي تم درسه سابقاً. ولم يكن الحـصاد في الرياض قد بلغ هذه المرحلة، وحتى موعد مـفارقتنا للعاصمة لم تكن عمليات الحصاد قد تقدّمت إلا قليلاً. طُمِرَ مجرى سيول الوادي الرملي على بعد مسـافة قصيرة أسـفل الموقع الذي نصبنا فيه خيـامنا، لتظهر غابة كثيفة من أشجار النخيل والحـور والطرفاء والسنط، وقد غطّت كل مساحة الحوض تقريباً، وتسلقت بوهن ومن غيـر انتظام لمسافة قصيرة، مُحاولـة ارتقاء مجاري لحا وبعيجاء، ولمسافـة أطول، وبكثافة أكبر من الامتداد الشرقي لوادي حـنيفة وبتمعن المكان حـولنا، وضح لنا أنّه في وسط هذه الخـضـرة المدارية الوافـرة توجد بركـة كبيرة، عـرضها ثلاثون إلى أربعين ياردة، وطولها نحو مئـة ياردة، وعمق الماء بها حوالي قدم واحد، ومياهها الجارية في صفاء البلور، إذ لاحظت أنّ جدولاً صغيراً يفترق عن النهـر في طرفه الأسفل وينبسط بعد كل مـسافة مكوّناً مستنقعـاً ضحلاً بعمق بوصات قليلة، ويستمر هكذا دون انقطاع مـسافة ميل واحد في اتجاه مجرى النهر لينتهي في «غدير» في بداية الصقع الذي يسمّى العفجة. هذا الغدير هو الذي يستـخدمه أهل الحـائر كمسـتودع للماء خـلال الجزء الأعظم من فـصل الصيف،

ويقولون إنه يحتفظ بمائه في كثير من الأحيان حتى موسم الأمطار التالي. ويعسه ثم يملؤه كلّ عام سيل وادي حنيفة. شممنا على ضفته عبق بدايات الصيف بسبب لوجود وفرة من الأعشاب في الأسفل، ورقاع الحور الكثيفة في الأعلى. وكنا نسمع طنين حشرات لا تخطئه أذن عند اختراق الأجمات المكتظة بالأشجار؛ وسمعت أكثر من مرّة أثناء الليل غناء البعوض المشؤوم.

الحائر مستوطنة بدوية حقيقية، من النمط الذي يوجد في الخرمة، وهو نوع نادر الوجود في وسط نجد، رغم أنّه ينتشر، بل يسود في الأقاليم الجنوبية كما سيتضح من خلال هذا السرد، كما يوجد شبيه لها في الشمال بخيبر وتيماء[1]. وفي معظم هذه المناطق يتكون أغلب السكان المقيمين من الزنوج، وهم في الغالب رجال أحرار، أصولهم إفريقية خالصة رغم أنّ وجودهم استدام لأجيال متعددة دون انقطاع في الجزيرة العربية، كما تسكن المنطقة أقلية صغيرة من رجال العشائر الذين يؤثرن البقاء مستقرّين في موقع واحد، متخذين الزراعة وسيلة للعيش بدلاً عن الحياة البدويّة بكلّ همومها الرعوية ومخاطرها الخفيّة. حقّ امتلاك الأرض هو حكر على رجال العشائر، سواء أكانوا مقيمين أم متجولّين، يؤول إلى كلّ منهم نصيبه منها وفقاً لقانون الوراثة، بينما «العبيد» - ولا زالت تطلق عليهم هذه التسمية رغم أنها فقدت معناها الأصلي - يفلحون الأرض ويسمّونهم «الكداديد»[2]، يحفرون ويقلبون الأرض ويبدلون العرف في أرض الغير من أجل ما ينالونه من نصيب من الإنتاج. هذه النسب تنطبق فقط على إنتاج التمر والحبوب، ولكن المنتجات الأخرى مثل الخضراوات والبرسيم والفواكه فهي تترك

(١) وأيضاً لحدٍّ ما في منطقة السر. (المؤلف).

(٢) عمال زراعة. (المؤلف).

بحكم العادة بكاملها للمزارعين كمكافأة وحافز على اهتمامهم بتلك الزراعة الطوعية الإضافية التي تعتمد عليها بساتين الجزيرة العربية الصحراوية اعتماداً كبيراً للحفاظ على خصوبتها وعمارها.

وجدنا في الحائر اختلافاً يسيراً في نمط السكان بالقرية، إذ كانوا بكاملهم من الزنوج بما في ذلك الأمير نفسه، وقد يبلغ عددهم ٤٠٠ نسمة، بينما أصحاب الأرض من البدو يتجولون بكاملهم مع قطعانهم في الصحراء سعياً وراء الكلأ، ولا يزورون عاصمتهم القبلية إلاّ في موسم جذاذ التمر، حيث يستلمون مستحقاتهم، وفي شهر الصيام إنْ أتى رمضان في الشهور الجافة من العام -كما يفعل الآن- ولعدد من السنوات الماضية.

عندما رجعنا مرةً ثانية للحائر في رحلة العودة في منتصف شهر رمضان[1]، كان البدو قد بدؤوا يتوافدون للتصييف بها. لعلّ السبب الذي يمنعهم من الإقامة المستديمة في هذه البقعة هو المناخ، إذ أن الوادي الضيّق الذي لا تتعدى مساحته الأرض المرويّة، والذي تحفّ به المنحدرات الصخرية الشاهقة، ويقع تحت رحمة أشعة الشمس الحارقة، ليس صحياً ولا يُغري بالاستيطان الدائم.

هؤلاء البدو من عشائر قبائل سبيع والسهول، كانوا في زمنٍ مضى ذوي انتشار في الصحراء الممتدة بوسط الجزيرة العربية، ولكن منذ عهد بعيد اتجهوا شرقاً أمام الزحف القادم من الغرب لقبائل قحطان وعتيبة. وفقد السهول قبضتهم على مساراتهم الرعوية القديمة حول منطقة الحمرا الجبلية، حيث تمثلهم الآن -كما أخبرتُ من قبل- بقايا من القبيلة، يقيمون في الرويضة وفي عدد من القرى

(١) ١٣ رمضان الموافق، ٢٣ يونية. (المؤلف).

الصغيرة التـي تعتمد عليها. أمّا بقـيّة القبيلة فهم يقيـمون الآن بالكامل شرق خط وادي حنيـفة في تقارب كـبيـرٍ مع مواقع سـبيع. قـاومت القبـيلة الأخيـرة الغزو القحطاني للحـدّ الذي احتفظوا فـيه بجزء كبـير من الأصقـاع التي كانت لهم في الغرب، بما في ذلك وادي سبـيع ووادي رنية حيث ما زالوا يقيـمون. ولكنّ الجزء الذي لم يتـمكّن من المقـاومة الكـافيـة في الوسط، تَمَّ دفـعهم نـحو الشـرق مع السهول. وهكذا فإن سبيع مقســومون إلى جزأين: شرقي وغربي، وتفصل بينهما امتدادات صحراوية شاسعـة. لقد سبق أن تحدثت عن الجزء الغربي[1] في حديثي عن الخرمة والمراعي من حولهـا. أمّا الحدود الغربية للجزء الشرقي من سـبيع فهو وادي حنيفة، على الامتداد من الرياض إلى الحـائر، أو إلى حدٍّ ما للجزء الأسفل من الوادي في الحائر، حيث يرعون في اتجاه الشرق على مـرتفعات الجبيل والعرمة وحتى رمـال الدهناء، وفي سـهل الصمـان الذي يقع في الخلف. ويبلغ التقـدير المحلّي للجزء الشرقي من قبيلة سبيع حـوالي ٣٠٠ خيمة، والسهول حوالي ٢٥٠ خيـمة، وبناءً على هذا، يمكن أن نـقدر مبـدئياً تعـداداً كلياً يبلغ ١٥٠٠ نســمة، و١٢٥٠ نسمة، على الـتوالي للقبيلتين. ولهم حـقوق مكتسبة بحـق التقادم لآبار المياه في العرمة.

يعد سكان الحـائر الأحرار صـعاب المراس فيـما يختص بـكرم الاستضـافة، واستحقّوا هذه الصفة بإهمالهم لإقامتنا القصيرة في بلدهم. لكنّي لم آسف لهذا، إذ في اليوم الأول للركوب، تؤلم الأجزاء الصلبة من حـافة السرج وكذلك الحركة المتـمايلة للإبل العـضلات التي أراحـتهـا الدعة وحـياة المدينة، مـعرّضة الإنـسان

(١) انظر الجزء الأول، ص٢٦٨ وما بعدها. (المؤلف).

للإجهاد، ويزداد النصب كلّما كان السير في الساعات القائظة من النهار. وكنت قد شعرت بصداع يسير وبمبادئ للحمى، فخلدتُ للراحة، ولكنّهم أغروني بالخروج عن خيمتي لتناول العشاء؛ وقام الأرز الذي يتصاعد بخاره ولحم الضأن بجلب الحمى من داخلي إلى السطح، وعادت بي إلى مرقدي وأنا غارق في العرق.

كانت الرياح شمالية قويّة تنفث حفنات من رمال في الوادي تحت سماء مكفهرةً وذلك عند الفجر في اليوم التالي. حينها عاودنا المسير عبر الواحة ويطول الجدول الصغير حتى بلغنا آخر البرك، وهناك ملأنا قرب الماء وتقدّمنا في اتجاه الشرق أسفل الوادي الذي صار عرضه هنا حوالي ٢٠٠ ياردة، تحفُّ به من الجانبين منحدرات صخرية ترتفع أربعين قدماً. تبعثرت هنا على امتداد ميل حوالي خمس عشرة بئراً يسمونها جماعياً العفجة ويجري ليصبّ فيها شعب سليم من جهة اليسار.

وعلى بعد ميل من هذا الموقع- وهو ما يبعد ثلاثة أميال أسفل المنحدر - من الحائر يتغير المشهد بعض الشيء، إذ أن الوادي ينحني نحو الجنوب الشرقي في مهد عرضه ميل واحد وتنقّطه كثبان رملية خفيفة وأشجار الطرفاء. وفي وسط هذه الأشجار وجدنا حطّابين تابعين لابن سعود يعملون في همة ونشاط، يقطعون ويحمّلون الأخشاب على البعير لأخذها للقصر الملكي لاستعمال المطبخ. وينحدر الجانب الأيمن - ولم يعد الآن صخرياً- بلطف، بعيداً عن الوادي نحو سلسلة تلال خفيفة، من تلال طويق تُسمّى العرمة. أمّا عن يسارنا فلقد كان جانب الوادي محدّد المعالم، ومكوناً من سلسلة تلال خفيفة، ومن خلفها سلسلة تعلوها

قليلاً. كانت هذه بداية سلسلة تلال الزويليات التي تجري الآن موازية للوادي لعدّة أميـال. وكان شعـيب رُمّانتين، الذي سُـمّي هكذا لأنّه يهبط من هضـبة صغـيرة مدوّرة، يعلوها ما يشـبه حلمتي الثدي، في سلسلة الزويـليات، حيث يدخل هذا الشعب إلى الوادي في المنحنى، وهو الطريق الذي يسلكه المسافرون من الحائر إلى الأحساء والساحل.

هكذا تقدّمنا لثـلاثة أميال، والوادي يتحـول رملياً بدرجة أكبر كلّمـا تقدّمنا، وأشجار الطلح -وهي العينة التي تحمل الصـمغ- تحلُّ محلَّ الطرفاء تدريجياً. عند بلوغنا هذه النقطة تحاشينا أن نتتبّع الوادي وقـد انحنى، فارتقينا الجانب الأيسر ذي الانحدار اللطيف، وتـتبّعنا الحـافة الخارجـية لسلسلة الزويليات حـتّى بلغنا الربوة المخروطيـة الناتئة التي تسـمّى السوق، بعـدها استمـرت السلسلة تحت اسم طوال السوق.

وسرنا هكذا لمسـافة تربو على أربعـة أميال بمحـاذاة الوتر الذي تكوّن بانحناءة الوادي اليسيرة، والذي تـقع خلف ضفتيه الأبعد سلسلتـا سدير والدواسر. وتبدو في الأولى بوضوح رابيـتان تسمـيان أم عنيق وأم رقيبـة، بينما ارتفعت قـريباً من الجانب الأيمن، وعلى سفح سـلسلة الدويرة الكومة الرملية المخروطيـة المسمّاة نقى المطوّع. ودلفنا إلى الوادي ثانيـة، وتتبعناه لـثلاثة أميـال، ثمّ تركناه لنتخـذ طريقاً يتجه نحو الشرق، فارتقينا جـانبه الرملي الأيمن، ونصبنا خيامنا للقيلولة في وسط موجة رملية تتكئ جزئياً على سلسلة الدويرة وتطمسها في بعض المواقع. ومن قمّة السلسلة وجدت فـرصة عظيمة لأقـوم بمسح المشهد من حولنا؛ تتـابعٌ موحش من سلاسل تلال خفـيفة مصفوفـة، تقترن واحدةٌ إثر أخرى من كـلا الجانبين بمجرى

وادي حنيفة العريض الذي لا تحدّه هنا حدود واضحة، ويستمر هذا النمط على مد البصر إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق.

إلى اليسار ترقد سلسلة الزويليات وتعقبها كامتداد لها طوال السوق، وكانت تسمو من خلفها سلسلة أشقر المراغة مع شعب يُسمّى المراغة، ينحدر نحو وادي حنيفة بين السلسلتين. ومن الخلف أيضاً كانت تلوح الحافة القاطعة للجبيل، تحرس الجانب الشرقي لوادي السلي الذي تقع نقطة اقترانه مع وادي حنيفة على بعد أميال.

وعلى اليمين توجد الأودية العريضة الضحلة، وتقع بينها متتابعة من الشمال للجنوب: سلاسل تلال حفيرة وسويدة وفِرزان. والسلسلة الأخيرة تنتهي في نتوأين مخروطين خفيفين يكوّنان مداخل الخرج.

كانت موجات الرمال التي خيّمنا في وسطها قد بدأت على مسافة ميل أو اثنين في أعلى الوادي، في جوار نقى المطوّع، واستمرّت بطول مجرى الوادي في شكل كثبان رملية متصلة تعلو أحياناً وتهبط أحياناً أخرى حتى تقترب من سطح الأرض، وتارةً تكون في المجرى نفسه ومرّة أخرى تتكوّم فوق الجانب الأيمن، حتى تخوم الخرج.

أثناء مسيرتنا أحرزت بعض التقدّم في التعرف على رفاقي وفي تكوين صورة ذهنية لصفاتهم ومقدراتهم، حيث بدأت المميّزات الشخصية لأفراد المجموعة التي رافقتني من الرياض تتضح؛ إبراهيم وطامي شخصيتان معروفتان من خلال سردي السابق، ولقد كانا الوحيدين اللذين رافقاني الآن من مجموعة جدة. إذ أن سعيد القحطاني الذي جاء يعدو ليودّعنا بحرارة لم تكن متوقعة، ساعة خروجنا من باب

المدينة الذي يقود لمجرى الشمسية، استجاب لدعوتي إيّاه بمرافقتنا بأن وعد أن يلحق بنا في الحائـر، بعد أن يصل إلى داره في المزاحـمية. ولكنّه - حـيثـما هو الآن - فشل في الوفاء بوعده، ولعلّه لم يكن يود الالتزام بـه ابتداءً. وقد احتل رشيد، أو أخو حسنة كما كـان يلقبه أصدقاؤه كعلامة للإعجاب والتـعلّق بأخته، احتلّ موقع سعد اليمـيني دون أن تكون له مزايا خاصة تؤهله لذلك، وكان مـقدَّراً له أن يحتلّ موقع إبراهيم أيضاً. لقد أشرت له من قبل[1] في قصّتي، وسيتكرر مني ذلك بعد هذا. أمّا سعد بن جلهم عميد المجموعة، فلقد كان يتأخر خلفنا معظم الوقت أثناء الركوب، وكان أكثـر حضوراً ورفقةً حول نيران المخيّـم منه في المسير وقت النهار. ومحـمد الدوسري كـان شاباً دائم البســمة، فاتر الهـمّة؛ ويبدو أنّه قـد انتُزِع من أحضان عروسه الأولى، ذات الجمال الطاغي، والتي كـان قد تزوجّها منذ عهدٍ جدّ قريب. لقـد كان نتـيجة لذلك سـاهم الفكر، بيد أنه لم يكن قلـقاً على الإطلاق باحتمالات غياب طويل عن بيته الجديد، ولقد قال لي في الأيّام الأولى للرحلة إن عروسه كانت تجول مع أهلها البدو في تخوم الخرج، ليس بعيداً عن موقعنا. هناك أيضاً ناصر، وهو عـتيبي، وعُبيْد، وهو قـحطاني وقد انضمّا إلينا «كرفـاق» تحسباً لالتقائنا بمجموعات من القبيلتين اللتين ينتميان إليهما. كانت للأول صلة بشكسبير، إذ كان ابناً لطَـلَق الذي رافقه -مع طامي- من الرياض لبريْدة عام ١٩١٤م، وتمكّن من إنقاذه عند حدوث مواجهة حادة مع مجموعة مغيرة من عتيبة.

كانت مجموعتنا تتكوّن في هذا الوقت من اثنين وعـشرين شخصاً، بمن فيهم شخـصي؛ وانقسمـوا لقسمين: للرفـقة والخدمات. ليـس هناك داعٍ للحديث عن

(١) راجع الجزء الأول ص٥٠٧ . (المؤلف).

المجموعة الثـانية بتفصيلٍ الآن، لأنهم لم يكونوا يركـبون معي إلاّ نادراً، إذ كانت خططهم تهـدف إلى الوصول للغـاية التي نحددها كل يوم كـموقع للمـبيت، في أسـرع وقت ممكن. أمّـا عن مـجـموعـة الرفـاق، لنكتـفِ الآن بما أوردناه عنهم كمقـدّمة. بيد أنني تركت ثلاثة من المجمـوعة لأنَّهم يستحقـون أن يُذكروا ببعض الإسهاب. أوّلهم عبدالرزاق؛ من القصر الملكي، كان من خير راكبي الخيول، مثال ممتـاز للشخص الذي لم تخـتلط أرومتـه بعنصر آخـر، ضخم الأطراف وضـخم الشفـتين، مولع بالقتـال لدرجة الخطورة، شجـاع بتهوّر وذو ولاء لابن سـعود لا تشوبه شائبة، وذو إخلاص لكلٍّ عـملٍ يكلّفه به ابن سعود. كنت أتمنّى أن يُنتدب لهذه الرحلة منور وعطا الله، ذويْ الطبع الهيّن، والذين خبرت خدماتهما. ولكن عندما خاب رجائي، نظرت لاخـتيار عبدالرزاق لخدمتـي كنوعٍ من التقدير الخاص لي، إذ أنَّ وظيفـته في القصر حـتى الآن هي الاهتمام بالأمـراء الصغار، محـمد وخالد عند تجـولهمـا على ظهور الخيل حـول الرياض. ولم يترك عـبدالرزاق لي مجـالاً للشكوى خلال هذه البـعثة، إلاّ في بعض الأزمـات التي سيـأتي ذكرها، حيث كـان ولاؤه يجبُّ لديه حسن التقديـر. لقد كان يصحـبني حيث أذهب في كامل سلاحه ليجلس في صبر بجانبي وأنا أمسح المنطقة من فوق قمة أحد التلال، وإن خرجت خلسـة من المخيم لأنفرد بنفسـي، لم يكن يمضي وقت طويل قبل أن أجده بإزائي معرباً عن احتجاجه بأن لا ينبغي أن أفعل أشياء كهذه.

وكان الرجل الـثاني مريّاً فظّاً سـيمـاه كطلعة شـرطي سرِّي؛ كان قـد تخطّى منتصف العمر، وكان وجـهه ذو التجاعيد ينبئ عن صفتين التـقتا معاً، مكرٌ عظيم وطيبةٌ مرحة، كان هذا هو جابر بن فرج، زعـيم فرع سويحيت من فخذ البحيْح، من قبيلة آل مـرّة، أكثر القبـائل شدة في تقاليدها من بين كل قـبائل وسط الجزيرة

العربيــة، وسادة تلك الصحــراء الفسيــحة التي ينبئ اسـمها حــقيقـة عنها – لولا احتــلالهم لها– صحــراء الربع الخالي. صدّقــته –إذ لم يكن هناك مـا يدعوني ألاّ أفعل – حين قال لي إنَّه عــبر في جماعة من عــشيرته الرمال الجنوبيــة نحو ساحل البحر الجنوبي، والذي نظر إلــيه ـ على حد تعبيره– والنجــم القطبي خلفه. كانت الغاية من حملاتهم هي غزو قبائل الــوهيبي الساحلية والعوامر والدروع، إذ أخذوا منهم أعداداً من الإبــل العمانيــة ذات القيمــة العالية مــن نوع فرحة (وهي بيــضاء اللون)، ونوع صفــرا (وهي رمادية). أخبرني جابر الــكثير عن طبائع قبــيلته وعن حيــاتهم في واحــتهم يبــرين، وفي الخيــران أو الآبار المالحة الواقــعة بين الــرمال، وسأتعرض لها لاحقاً.

وأخيــراً هناك مترك بن عــمارة من قبــيلة آل شامــر، وهــم أقرباء العجــمان، ويذكــرون أنّ لهم صلةً مع قبــائل يام التي تقــيم في نجران وفي الجنوب الغــربي، وديارهم هي التلال العالية والأودية شديــدة الانحدار بجبل عليَّة، وهو ذلك الجزء من طويق الذي يقع جنوب العــارض وشمال الفرع. كــان مترك حــادي ركبنا في المراحل الأولى من المسيــرة، ومرّة ثانيــةً خلال الأيام الأخيــرة، ولذلك ما لبث أن صار ـ وظلَّ بعدها – رفــيقي الدائم، وبالرغم من خلافات كثــيرة حدثت إلا أنه بقي صديقــاً موضع التــقدير، لا ينضب معــينه من الفكاهة وحسن التــقدير، وذو معرفة ممتازة بالنباتات يبزُّ فيهــا بقية العرب المولعين بالنباتات. كما أن العربي يولد ماهراً في الركوب وسـيّداً للإبل، فإنه يولد عالماً بالنبــاتات الاقتصادية، إذ تعــتمد رفاهة حيواناته على معرفته بحشائش الصحراء، ولذلك فإنّهم حين يسيرون تلتصق أبصارهم بالأرض بينما لا تكفّ ألسنتــهم عن الحديث عن مزايا هذا النبات أو ذاك كعلفٍ للإبل.

أمّا معرفتـهم بالحشرات والطيور فهي تكاد تنعدم إلاّ من معرفـة بأسماء قليلة. أمّا معلوماتهم عن الحيوانات الوحشية التي تمشي على أربـع فهي معرفة ضبابية أوليّة. كان متـرك ضخم الجثة، تعـوزه الرشاقة وكان قـوياً صُلباً كالفولاذ، قـضى شبابه ابتداء من سن العاشرة في النهب وقطع الطريق في ذات الإقليم الذي كان عليه أن يقودنا عبره الآن. كان عمره في بداية الثلاثـينيات وقد هجر نمط الحياة القديم قبل سنوات قليلة من قبولـه العمل في خدمة ابن سعود الذي جـعل مهنة قطع الطريق غير مربحة بتبنّيه سياسة عنيفة ضد مخالفي القانون.

عندما جلسـنا على قمّة سلسلة تـلال الدويْرة في اليوم الثاني للـرحلة أفضى إليّ مترك ببعض مزاياه، لمعتْ خدوده المحمرّة المنقرة وأنفه الأفطس بالحماسة عندما كان يخبرني عن بعض قصص شبابه الطـائش وعن زوجته الوحيدة وأبنائه الصغار الذين تركهم خلفه في خـيام أهله في العرمة، وعن النباتات والحـشائش الموجودة حولنا، والتي جمع لي منها مجموعة ممثلة لها دون أن أطلب ذلك منه، مع إصرار بأن أكتب ما يُمليه علـيّ من قائمة توضح أسماء واستخـدامات كلٍّ منها. لم أجد من بين الأعراب الذين التـقيت بهم خلال تجوالي من يتـفوق عليه في الاسـتعداد والفخر بأن ينقل علمه ومعرفتـه للآخرين، ولم أحمل لأيٍّ ممن التقيت بهم شعوراً مماثلاً بالإعجاب الحقـيقي. لقد كان يرافقني بين الوقت والآخر أثـناء إقامتي حتى غـادرت الجزيـرة العربيـة، التي تركـتـهـا وأنا آسف لأن الظروف لم تسـمح لي بالاستجابة لدعوته الودودة لقضاء وقت معه في خيام عرب آل شامر.

وتابعنا سـيرنا بعـد الظهر فـي الأودية وفوق التـلال التي تقع جنوب الوادي لمسافةٍ امتدت اثني عـشر ميلاً حتى بلغنا الموقع الذي نصبنا فيه خـيامنا للمبيت في

طرف سلسلة تلال فرزان بالقرب من القمم. وجـدنا في منتصف الطريق قريباً من الطرف الجنوبي لسلسلة تلال حُفَـيْرة، وجدنا البئر الوحـيدة بحفيرة وقـد حفرت لعمق خمس قـامات في منتصف رقعة دائرية عـريضة تربتها من الحجـر الجيري. وكانت مياه البئر راكدة وقد تغيّر لونها، وتفوح منها رائحة كريهة، لعله لم يُسحب منها شيء من الماء لشـهور خلت. تُعد هذه البئـر تابعة لفرعين من آل شـامر هما الفرسان والجنيفر، وينتمي مترك للفرع الأول. كانت تحيط بالبئر دائرة من مخلفات الضأن السوداء التي غيّرت الشمس لونها.

يسمى الشـعيب الذي يقع بين هذه النقطة وسلسلة تلال فرزان، التي تـقترب الآن بالتدريج من طريقنا، يُسمّى شعيب فرج وينحدر نحو الوادي، ولكن يبدو أن ليس في الإمكان الوصول إليه نظراً لوجود حاجز الكثبان الرملية الذي أشرنا له من قبل. كـانت الكثبـان في هذا الموقع ذات عرض كـبير رغـم أنها كانت خـفيـفة. وعندما اقتربنا من الخـرج وصارت أول نخيلها في مرمى أبصارنا، اعـترضتنا واحة السلميـة التي ليس هناك ما يُقال عنهـا. سعت الشمس الآن نحـو الأفق الغربي، فاحترمنا التقليد العربي الذي يمنع السعي للاستضافة في المساء، ونصبنا خيامنا على أعتـاب الخرج، على بُعدٍ يسـير من روابي فرزان، تاركين الـدخول لذلك الإقليم لصباح الغد.

الخرج الشمالي:

تسلّقت قمة الرابية الأعلى من الروابي المزدوجة، مع مترك وقليل من الآخرين لأُمعن النظر قبل أن يلفّنا الليل بستائره السوداء، وأجلنا البصر لنرى مشهداً ممتداً متنوعاً. امتدّ ناحية الشمال الغربي، وعلى مدِّ البصر المنظر الضبابي الأربد لوادي حنيفة بين طرفه الأقصى ناحية سلسلة تلال فرزان ـ التي كانت تمتدّ نحو الغرب من النقطة التي كنا ننظر منها ـ وبين جرف الجبيل الشاهق. واقترن جرف الجبيل هذا مع تلال خفيفة قليلة التموّج في ناحية الشمال، وعلى مقربة من موقعنا هذا، وهو الموقع الذي يجري فيه السلي منحدراً نحو وادي حنيفة، بينما يستمر وادي حنيفة في طريقه بين جانبين جدّ خفيفين، لا يكادان يريا حتى يصل إلى الشديدة، وهي سلسلة تلال طويلة وخفيفة، وتمتد من الغرب للشرق. وهذه السلسلة، بالإضافة لسلسلة أخرى شبيهة تغطيها الرمال تُسمّى برقة سارة، يكوّنان ابتداءً من هذا الموقع حافة وادي حنيفة من جهة اليسار، ولاح على البعد في اتجاه يميلُ قليلاً إلى شرق الاتجاه الشمالي، ومن خلال الفرجة العريضة التي تفصل طرفيْ الجبيل والشديدة، لاح سهل الترابي، بينما ظهر الشكل المعتم للعرمة من خلفه. وعندما رأيت روابي جبل عقلة الصغيرة، التي كنّا قد خيّمنا بالقرب منها في نوفمبر (تشرين الثاني) في طريقنا للرياض.

سرَتْ فيَّ رعشة السرور التي تجلبها رؤية مَعْلَم قديم تعرفه في وسط إقليم غريب. وفي الإطار نفسه كانت سلسلة الشديدة أيضاً صديقاً قديماً إذ كان قد أشير لي على البعد لها في نفس المناسبة، عندما تجاوزنا العرمة، وأخبروني حينها أنّ الخرج تقع من ورائها، وكان ذلك صحيحاً. كان الشكل العاري لعليّة ولمرتفعات

قصيعة الخفيفة، تقع إلى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي على التوالي، وكان يبدو أنهما يلتقيان في الطرف القصي من وادي الخرج في جوار خشم خرطم، وهي أرض رأسية ثقيلة جداً وشديدة التحدّر تنتأ مثل قمة الجبل من سهول الصحراء العظيمة والتي كانت تحجبها عن أنظارنا في هذا الموقع تلال قصيعة. كانت الصحراء المحجوبة عنّا تُسمّى البياض، وتشكّل في حقيقة الأمر بداية الربع الخالي، إذ لا يوجد في كل طولها وعرضها ولا في الرمال التي تقع خلفها ماء ولا يسكنها بشر.

هكذا لاح لنا الإطار الذي تقع الخرج في داخله، والتي كانت يوماً مركزاً لإمبراطورية عظيمة امتدّت من وادي الدواسر في الجنوب وحتى القصيم، ولكنها الآن كالمحمل تقلّصت لتصبح في حالة تبعية للعاصمة المركزية للعارض. لا يعدو الوادي الذي تقع فيه الخرج أن يكون حوضاً طويلاً ضحلاً يتخذ شكل مثلث متساوي الضلعين، قاعدته وادي حنيفة ويمتدّ نحو الجنوب حيث تقع قمّته في خشم خرطم، وتنتفخ جوانبه قليلاً - في شكل غير منتظم - نحو الغرب. يبلغ أقصى طول للوادي من الشمال للجنوب نحواً من خمسة وثلاثين ميلاً ، ويتناقص عرضه باضطراد من حوالي ثمانية أميال في القاعدة لأقل من نصف ميل في الفرجة بين نتوء خرطم وهضبة طويق، والتي ينحدر عبرها أحد الأنهار الثلاثة التي تجعل الخرج نقطة الارتكاز لمستودع المياه في وسط الجزيرة العربية.

هذا هو أول الثلاثة: شعيب العقيمي، والثاني وادي نساح الذي ينحدر من جبليْ البخرا وخشم الضبي اللذين لاحظتهما من قبل من على البعد إبّان رحلتي نحو الغرب من وراء نفود قنيفذة، وينطلق وادي نساح ليجري على جانبيْ طويق

ويدخل الخرج من ركنها الشمالـي الغربي، بطولِ المنحدرات الجنوبية لسلسلة تلال فِرزان. والثـالث هو وادي حنيفـة. ويعطي العقـيمي مـثالاً ممتـازاً للعادة العـربية المربكة، وهي إعطاء تسـميات مـختلفـة لأقسـام من نفس الوادي أو نفس سلسلة التلال، وهو الشيء الذي أعطيت له مـثالاً من قبل في حالة الأقسـام المختلفة من وادي فاطمة. فـالعقيمي هو الاسم الذي يطلق محليـاً في الخرج على ذلك الجزء الذي يجـري بجانب طويق، وهو القـسم الثالث من وادٍ عظيم يـبزّ وادي حنيـفة نفسه، وقـد التقينا به من قبل في الناحيـة الغربية من مرتفعات نجـد. مصدر هذا الوادي العظيم هو سلسلة تلال العلم، ويجري في البداية تحت اسم وادي السِرَه(١) نحو الجنوب، ثم نحـو الشرق بطول الجانب الـشمالي لجبل صـبحا ورمـال نفود الدحي، وحتى حـافة طويق؛ وهناك يتغيّـر اسمه ليصـبح شعيب بِرك، فيـتخطى الحاجز ليظـهر بعد ذاك بِاسْمِ العقيـمي. إنّ العربي منفعي في كل شيء، وأكـثر ما يبدو ذلك في طريـقته في التـسميـات الجغرافـية، والتي يرتطم كلّ المسـافرين في الجزيرة العـربية برتابتها المضـجرة. تكون التسـمية شحـيحة أحيـاناً، وتارة أخرى مسرفة، وتتبع في هذا وذاك المعالم الطبيعية للإقليم نفسه.

لا يوجد فـي الجزيرة العربيـة ما هو أهم من الماء الـذي لن يعيش في غـيابه إنسان أو حيوان، ولكنّ الماء ليس موجوداً فـي كلِّ مكان، ولكن حيثما وُجد يرى العرب ضرورة تركيز هذه الحقيقة في الأذهان بإعطاء المكان اسماً، ثمَّ ينسحب اسم موقع الماء علـى كلّ معالم الإقليم المحـيط به. لنأخذ مـثالاً لذلك؛ هناك مـصدر هزيل للمـاء، إلى الجنوب قليلاً من الخـرج يُسمّى مـشاش النسوان، ومـن خلفه

(١) راجع الجزء الأول ص٢٤٤ . (المؤلف).

توجد صخرة خفيفة هي جزء من البياض، وتنتهي في أرض رأسية؛ ويجري من هذه الأرض الرأسية جدول صغير نحو العقيمي. تسمى الصخرة الخفيفة ضلع مشاش النسوان، وتسمى الأرض الرأسية خشم مشاش النسوان، كما يُسمى الجدول شعيب مشاش النسوان.

ويلي الماء في الأهمية الحشائش في بلد يعني الجفاف فيه إبادة قطعان الماشية والإبل. لا تجري المياه في الأودية الطويلة متصلةً كما تفعل في الأنهار إلاّ نادراً، لذا يصيب بعض أجزاء الوادي الجفاف بينما تنتعش أجزاء أخرى بسيول محلية فتزدان بالحشائش، وقد تفصل بين الجزء الأخضر والآخر مسيرة أيّام عديدة، ويُذهب بالقطعان بحثاً عن تلك الرقاع الخضراء، وإن لم يجدوها قد يتسبب ذلك في هلاكها؛ لذلك فإنَّ العربي يقسّم الوادي إلى أجزاء ويُعطي لكلٍّ اسماً حتى يتسنى له أن يعرفه به. وعندما تأتي الأنباء بوجود مواقع خضراء هنا أو هناك في وادٍ يبلغ طوله مئات الأميال، أو في إحدى روافد الوهاد فيمكن للبدوي أن يضع يده بدقّة على الرقعة المبشّرة، على الخارطة التي يستحضرها في ذهنه، رَغم أنّ القليلين فقط هم الذين يمكنهم ربط الأجزاء المبعثرة ليصوغها بذكاء في وحدة واحدة، أو ذلك الذي يعلم أنّ هذه الأجزاء المبعثرة ما هي في حقيقة الأمر سوى قطعة متكاملة.

يقترن العقيمي ونساح وحنيفة في الركن الشمالي الشرقي للإقليم إلى الشرق من واحة اليمامة ليكوّنوا معاً منخفضاً عريضاً ذا تربة طفالية وطينية، مشبَّعةٍ بالأملاح وتغطّي أجزاءَ كبيرة منها رمالٌ متراكمة تتّجه نحو الشرق لمسافات بعيدة. يقولون إنَّ هذا المنخفض - وقد كان مهداً لنهر قديم - يُمكن تتبُّعه حتى الحاجز

الرملي للدهناء الذي لا يبعد كثيراً، ثمَّ يمرُّ دون حدود قاطعة ولكن دون أن تخطئه عينٌ عبر الرمال، وبعدها يصير حوضاً ضحلاً عريضاً لعلّه لا يختلف كثيراً عن الباطن، ثمّ يمر عبر الإقليم السهلي الفسيح حيث يعترضُه الطريق الذي يربط بين الأحساء ويبرين، وبعدها يمكن تتبعه إلى الساحل الشرقي جنوب شبه جزيرة قطر. وفي هذا المهد توجد آبار الوسيعة في المنطقة التي يعبر فيها العرمة. تبدأ إلى الجنوب من هذا الخط حدود آل مُرّة، بينما تحدُّهم من الغرب - إن كان في مقدورنا أن نتوخى الدقة في أمر كهذا- الحافة الغربية للبياض، من رأس صبحا إلى أرض مشاش النسوان الرأسية، ثم تنحني حدودهم بعدها نحو الجنوب تقريباً بطول الخط الموازي لخط طول ٤٧ْ شرق إلى حدود حضرموت.

تتداخل مسارات الدواسر مع مسارات آل مرّة حتى الحدود الجنوبية للقبيلة الأخيرة ، على خطٍّ وادي الدواسر نفسه، ومن ثمّ تتداخل معهم مسارات قبائل يام من تلك النقطة في اتجاه الجنوب.

يجري شعيب الثليماء - فيما أخبروني- خلف سلسلة تلال القصيْعة التي كانت مرئيّة لنا، ليصرّف مياه المرتفعات نحو صبحا، ومن بعد ذلك تقع آبار قُبشَات الصغيرة الأربعة إلى الجنوب من صبحا، بالقرب من جبلَيْن خفيفَيْن مخروطيّين من البازلت. وبالقرب من هذه الجبال توجد آبار الأمغر، بينما يقع مكان السقيا المسمّى العميْدي إلى الجنوب الشرقي منها، وإلى الجنوب من ذلك تقع أبو حداد وبها ستة أو سبعة آبار - يبلغ عمق الماء فيها خمس قامات -بالقرب من سفح جبل أم الغربان في مهد شعيب يُسَمّى الخوار، ومن ورائه تقع مرتفعات البياض.

كان الليل منعش البرودة بفضل نسمات شمالية. أفقنا صباح اليوم التالي في وقت يسمح لنا بزيارة متفحّصة للمستوطنات التي رأيناها تنقّط الوادي من رابية فرزان. نهضت من فراشي وأنا لا أشعر بالراحة، وكأنني تعرضت لبرد. كانت القراءة في مقياس الحرارة ٥٩ْ فهرنهايت في الساعة الخامسة صباحاً، فتشوّقت للشمس ولكن حرارة الطقس المتزايدة بعد شروقها فشلت في علاجي، كما ساهمت استضافة أميريْ السلمية واليمامة في ازدياد حالتي سوءًا. وعند بلوغنا الموقع الذي أقمنا فيه مخيّم القيلولة في منتصف النهار أفادني العلاج القاسي الذي اتبعته، حيث صمتُ عن الطعام وخلدت للنوم بعد تناول البراندي، ولقد شكا معظم زملائي من نفس الأعراض، واستنتجنا أنّ السبب وراء ذلك كانت مياه الحائر التي تمّ سحبها من طرف البركة الراكدة في طرف الوادي، وليس من وسط الوادي الجاري؛ وإن لم تخنّي الذاكرة، فلقد كانت هذه المرّة الوحيدة التي شكوْت فيها من عِلّة بسبب الماء أثناء إقامتي في الجزيرة العربية، ولقد كانت المرّة الوحيدة التي شربت فيها من مياه قذرة راكدة.

إنّ سيول الجزيرة العربية تجلب الصِّحّة عاماً بعد عام للواحات التي تقع في مساراتها لتغسل عنها أدران وأمراض الموسم، ولكن تكمن الخطورة في البرك التي تتكوّن في نهاية المجرى بالقرب من المستوطنات بعد أن يوشك معين المجرى أن ينضب. لقد كانت تجربة اليوم درساً استوعبته من أجل المستقبل.

كنّا على أهبة الركوب عندما لفتت انتباهي ضحكات مكبوتة للرفاق وهم يوجهون أبصارهم نحو مترك الذي نهضت ذلوله وفرجت ساقيْها وبدأت تتبول بغزارة كما تفعل الإبل عندما تنهض في الصباح، وعندها مَدّ مترك عنقه ليستقبل

البول المفيد على رأسه، بينما كان يستخدم يديه والمشط لتمشيط جدائله المجعدة التي كانت تقطر بولاً. وأشرق وجهه المحمرُّ بالسرور عندما نهض بعد الفراغ من المهمّة ليمشط للخلف شعره وهو يوضّح لي أنّ هذه الطريقة في تنظيف الشعر كانت شيئاً معتاداً في الحياة البدوية. لقد تعرّفت من قبل على استخدام البول للعلاج إذ يعدونه مانعاً فعّالاً ومزيلاً للطفيليات الدقيقة، ولكن استخدامه الغريب لغسل الشعر لم يخطر لي على بال(١).

عاودنا المسير، وبعد ياردات قلائل مررنا بين رابيتيْ فرزان، من فوق سرجٍ خفيضٍ يربط بينهما، ووجدنا على المنحدر الذي يقع مباشرة عن يسارنا نبع فرزان، وهو مصدر قناة الرّي الخفيّة التي تجري شرقاً نحو نخيل السلمية التي تبعد نحواً من ثلاثة أميال.

إنّ تنمية الجزء الشمالي من الخرج تجد العناية الخاصة للإمام عبدالرحمن الذي حدّثني مرّةً أنّ مصدر فرزان وقناته وجدا من أبيه فيصل العناية والاهتمام، ولكنه تعرّض لكثيرٍ من التخريب المتعمّد والإهمال المستديم في عهد الخراب والفوضى الذي نشب بين عبدالله وسعود.

لقد تولّى الإمام الأمر بنفسه منذ عهد قريب، ويأمل أن يعيد للبساتين الملكية في السلمية ازدهارها القديم. وفي هذا الإطار أبدى الإمام آماله في أن أجد الفرصة لأقوم بفحص الموقع والتحقّق من جديّة العمل الذي يجري هناك، وأن أعود إليه بتقرير عن ذلك. وفي الليلة السابقة لبدء الرحلة أرسل إليّ رسالتين مع

---

(١) راجع الجزء الأول ص ٤٦٥ . (المؤلف).

أحمد بن ثنيان وإبراهيم ليذكرني بالوعد الذي قطعته على نفسي لتحقيق رغبته، وذكر بهذه المناسبة أنّ العمال المقيمين بالموقع قد أبلغوه بعثورهم على «مكاتيب» أو نقوش كتابية قديمة. وعند وصولي إلى المكان أسعدني أن أجد أنّ رئيس العمال الذي كان في الموقع مع عماله البالغ عددهم أربعين رجلاً، كانت لديه أوامر بتسهيل مهمتي، وقمت في صحبته وصحبة بعض عمّاله بفحص دقيق للعين والقناة وللخرائب في الجوار، ولكنّ الذي كدّرني أنني فشلت في أن أعثر في كلّ الأنحاء عن أقل أثر لأيّ مكتوبات. وعندما أخبرتُ ابن سعود لاحقاً بنتائج جهودي ليبلّغ بها أباه، قدّمتُ نصيحة حكيمة فيما يختصّ بأمور الرّي، مع اقتراح بأنّ إجراء المزيد من الكشف عن الآثار الموجودة بين الأنقاض قد يؤدّي لاكتشاف كتابةٍ على حجر تُفصح عن مواقع أخرى لمصادر المياه الخفيّة، وعن أسرارٍ لا تقدّر بثمن حول مشاريع القدماء الخاصة بعمليات الرّي. وحسب علمي لم يؤبه لاقتراح الاستكشافات، وقنع الإمام بتنفيذ خطة إزالة الطمي التي اضطلع بها.

يخرج النبع من باطن الأرض من أسفل فوهة غير مبطّنة لحفرة عمودية تهوي إلى عمق أربع قامات في جانب التل. كانت الحفرة في الوقت الحالي معطلة بصفة مؤقتة نتيجة لتراكم أكوام من الحجارة المهشمة وبقايا النخيل والملاط، والتي دُفِعَ بها أسفل الحفرة طبقة إثر طبقة لمنع مرور الماء؛ لهذا كان الجدول -باستثناء برك صغيرة مبعثرة هنا وهناك على امتداد الجدول - جافاً، وكان العمال يبذلون الجهد خطوة فخطوة لتنظيفه من أسفله، أي في السلمية متجهين إلى أعلى نحو المصب، وكانوا في وقت زيارتي قد بلغوا منتصف الطريق بعد أقلّ من شهرين من بداية العمل. عندما يتحرر الجدول سيمرّ الماء منه عبر نفق مخفي قطره ثلاثة أقدام أو أكثر، من النوع الفارسي المعتاد، والذي يُعرف هنا باسم خرز أو ساقي. وبعد

فواصل منتظمة -تبلغ عشر أو خمس عشرة ياردة- توجد فتحات دائرية تهوي من مستوى سطح الأرض إلى المحيط الأعلى من النفق لتسهيل مهام التفتيش الدوري وأعمال الترميم. أمّا في الجزء الأعلى من المجرى فتصبح سلسلةً متعاقبة وقد نُحِتت في صُمِّ الصخور على جانب التل لعمق أربع قامات، وكلما اتجهنا نحو الأسفل يرتفع منسوب الماء بانتظام ليبلغ العمق قامتين ونصف فقط في طرف المجرى الأسفل.

كإجابة عن تساؤلاتي حول النقوش التي أبلغوا بها الإمام من قبل، ذهبوا بي من الساقي شمالاً نحو نتوء خفيف شبه دائري وتغطيه الرمال، ووجدت نفسي في وسط صقع رملي تتناثر فيه صخور مهشمة، ويمتد بعرض كتف السلسلة فوق منطقة يبلغ طولها نصف ميل، ويقلّ عرضها عن ذلك قليلاً. وقال لي الدليل: «لا توجد كتابات هنا، لم نجد كتابات، ولكن ما كتبناه للإمام كان عن هذه الآثار القديمة. انظر إليها حولك» أصابني شعور مرير بالإحباط، وتوجهت لأرى الموقع الذي تغطيه الصخور، لعلّها مقبرة حديثة، لولا كتل الصخور الكبيرة بها لما كان هناك فرق بينها وبين بعد تجشمي لذلك العناء والإحباط مكافأةً. كانت الحجارة منتظمة في شكل دائري حولي محيطةً برواب من الأنقاض لاحظتُ بينها كتلاً بيضاء من مادة شبيهة بالملاط، لعلّها من الجبس لابدّ أنّ هذا كان حطام أعمال يدويّة أنجزها الإنسان في عهد قديم. لعلها كانت مقبرة لكنّها لم تكن ذات طابع حديث. بيد أنّ الاحتمال الأكبر هو أن تكون مدينة قديمة(١) دُفنت معها في خرائبها أسرار هويتها وتاريخها والفاجعة التي أودت بها.

---

(١) كنت قد كتبت شيئاً عن هذه الخرائب (في أوائل عام ١٩١٩م) ولكنني صرفت النظر عن تضمينها في هذا الكتاب لأنّه لم تكن هناك من وسيلة لكشف أسرارها بما لا يدع مجالاً للشك. ولكن السيد =

يتناثر في هذا الحقل الأثري - بصـورةٍ ليس لها نمط واضح ودون تماثل- عددٌ لا يحصى من الدوائر ذات الأحـجام المتبـاينة، ولكن بأشكال متطابقـة. كان قطر الغـالبيـة العظمى من هذه الدوائر في المدى بين خـمس إلى عشـر ياردات. لكن كانت تـوجد هنا وهناك- خـاصّة في الأجزاء الشـرقيـة من الموقع- دوائر أعظم، وكانت أعظمها جميـعاً بقطر لا يقل عن خمس وأربعين ياردة، وتوجدُ في الطرف الشمالي حيث ترقد الرمال المتـراكمة على الأطراف الخارجية للسلسلة، والتي تأتي من وادي حنيفة. لا يقل قطر أكبر هذه الدوائر عن خمس وأربعين ياردة.

كانت الدوائر الأصغر تتّخذ في العـادة شكل روابي صغيرة من التراب يحيط بها طوال محيطها - بعـد فواصل قريبة - كتلٌ حجرية منحوتة بخشـونة ومتراكمة فوق بعـضها لارتفاع يبلغ قـدمين أو ثلاثة. كما كانت توجـد في هذا المكان كتلٌ ذات بناء شبيـه مدفونة في أكوام من الصخـور المهشمة والحجارة الصـغيرة والملاط

= د.ج هوجارث أكـدّ أنها خرائب مـقابر وليس خرائب مـستوطنة. كـانت المواد المكونة لتـراكم فوق أساسٍ من الحـجارة ولكن أبلتهـا عوامل المناخ ليظهـر الأساس الحجـري أسفلها (راجع مـجلة الجمعـية الجغرافية الملكية، مارس ١٩٢٠م). يرى الكاتب أنّه من الأجدر أن نُعزي وجودها لقوّة غير عربيّة، ولكنه يقرُّ أنّ الدلائل المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بالتقدم في اتجـاه صحيح، وأن اقتراح ربط هذه الآثار بالفينيقيين تواجهه عقبات كبـيرة تمنع قبوله على ضوء المتوافر حالياً من المعلومات. كان قـد قَدَّم هذا الاقتراح السير توماس هولدتش على ضوء تشـابه هذه الحجارة الدائرية الموجودة في الخرج مع خـرابات كَشَفَ عنها في البحرين ثيـودور بنت ووضعها أمام الجـمعية الجغـرافية الملكية في عـام ١٨٩٠م. (راجع محاضر الجمـعية الجغرافية الملكية، يناير، ١٨٩٠م). ولكن وفقاً للسيد هوجارث هناك اعتراضات تمنع قبول وجهة نظر بنت التي تقول إنَّ الحجارة الدائرية البـحرينية أصلها فينيقي (راجع مجلة الجـمعية الجغرافية الملكيـة، ديسمبر، ١٩٢٠م، ص ٤٦٣-٤٦٤) (المؤلف).

ويعلو مركـزها لارتفاع لا يتعـدّى ثلاثة أو أربعة أقدام فـوق سطح الأرض. بينما كان هذا البناء المركزي مفقوداً في بعضها.

ظهر في الدوائر الأكبـر خطٌّ من كتل حجرية كبـيرة تنصف الدائرة من جانب لآخر، وفي أكبر هذه الدوائر كان هذا الخط جلياً جداً، كما كانت في داخلها أربع دوائر أصغر، واحدة في كلٍّ جزءٍ من أجزاء الدائرة الأربعة. كانت تسمُ حدود هذه الدائرة العظيمة كتل حـجرية يبلغ ارتفاعها ثلاثة إلى خمسة أقـدام، وتبعد كل كتلة منها حوالي ياردة أو اثنتين من الكتلة المجاورة، وفي بعض الأحـيان كانت المسافات تصيـر أكبـر من ذلك. كان الجـزء المركزي من المساحـة الداخلية يرتـفع لأربعة أو خمسة أقدام فوق سطح الأرض، وكان يشقّـها خطّ من الصخور الجلمودية العظيمة التي ترتفع هي أيضاً لأربعـة أو خمسة أقـدام، ويبلغ طولها أكثـر من ذلك قليلاً، وترقد بين الـشمال والجنوب مع ثغـرة فسـيحة في نـقطة الوسط تتجـه من الشرق للغرب. عندما وقفت في هذه الثغرة مواجـهاً الشمس التي كانت قريبة من الأفق، قفز إلى ذهني وصف بلجريف[١] للأعجوبة الحجرية في العيون بالقصيم، وتأمّلت وفكرّت في احتمـال أنّ الخرائب التي أقفُ بإزائها قد تكون مخلّفات مـعالم أخرى شبيهة تعود للأيّام التي كانت الأصنام معبودة فيها لدى العرب.

(١) كتاب W.G.P الجزء الأوّل، الفصل السادس، ص٢٥١. يذكر بلجريف نقـلاً عن مصادر محلية وجود معالم شبيهة في الرس والخناكيّة، ولكن وفقاً لعلمي فإنّ آخرين زاروا العيون لاحقاً أهملوا تأكيد ما ذكره بلجريف عن الدوائر الحجرية التي ادعّى بلجـريف أنّه زارها. راجع أيضاً الفصل التاسع ص ١٤٠-١٤١ (الحاشية). (المؤلف).

لا أستطيع أن أحكم إن كان التصوّر الذي قفز إلى مخيّلتي يعبر عن الحقيقة أم لا، وهو التصور الذي ينشأ عندما يستحضر الإنسان في ذهنه صورة لأناسٍ يسكنون في مساكن ذات قباب، أو مساكن شبيهة بخلايا النحل، بناؤها من طينٍ يقوم على أساسٍ من أعمدة حجرية، مع وجود دعامة مركزية من الحجر أيضاً. أو التصوّر الآخر الذي يستخدم فيه الإنسان المنطق ويربط بين سكان هذا الموقع القديم وبين بناة الخرز الذي وصفناه سابقاً، وكلاهما يحمل الاسم الذي يعيش حتى الآن، وهو اسم السلسلة التي يقعان بجوارها؛ سلسلة فرزان: فرسان: الفارسيين[1].

أشار داوتي أن «للعربي اهتماماً فطرياً وبدائياً بأصول الكلمات وتاريخها»، وعلى هذا الأساس لا يسعنا أن نتردد في قبول النظرية التي قدمتها هنا والخاصة بتقارب الأسماء، إن تعضّدت على أسس أخرى أيضاً. يبدأ العربي بنطق اسم ما نطقاً غير صحيح، ومن ثمّ يكتب هذا النطق المحوّر مخطئاً في الإملاء، ثمّ يقوم بجرأة ليُخَرّج معنى الاسم الناتج عن الخطأ المزدوج بتعليلٍ عليل. اسم الخرج نفسه يبدو لي على أي حال مثالاً جيداً لهذا الخطأ ذي الأبعاد الثلاثة، إذ أن سبب تسمية الإقليم - وفقاً لإفادة ابن سعود- هو أنّه كان فيما مضى من زمان المصدر أو

(١) يبدو أن المؤلف قد نحا حول هذا الاسم منحًى كان معتمداً على تشابه حرف الزاي مع حرف السين في فرزان وفرسان، والصحيح أنه لا جمع بينهما ولكونه ليس عربياً فقد اجتهد في ذلك محاولاً وضع مبرر لذلك التشابه مع أنه واضح فيه التكلف. (المراجعون).

«المخرج» لمؤن مكة والمدينة من الحبوب[1]، وهو تعليل لم أجد عليه مـأخذاً سوى أنّ به قدراً من البساطة، لا تجد فيمن يعيـشون خارج الجزيرة العربية من يقبله دون تقديم الحجّـة عليه، وهذه الحجة يصـعب الحصول عليهـا في حقيقـة الأمر، لقد غامرت باشتقاق الاسم من ظاهرة طبيـعية مدهشة في داخل الإقليم نفسه، ولكنّني الآن أسبق الأحداث.

إنني أدينُ لجـابر المرّي بالمـفتـاح الـذي أوحى إليّ أنّ اسم الخـرائب له أصل فارسي، إذ كنّـا وقوفاً بجـوار الخرز فـتفحّص القناة والفـتحـات العموديـة عندما أخبـرني بأنه رأى في القطيف نظامَ رِيٍّ مطابق لهذا في حالة عـمل؛ والمعروف أنّ الأثر الفارسي كان مـهيمناً بالقطيف في العصـور الوسطى، وكما سنرى في وقت لاحق في إقليم الأفلاج وكذلك في السّـر والقصيم، فإنّ نظام الخرز كـان معروفاً في أجـزاء أخرى بالجـزيرة العـربية بخـلاف تلك التي كـانت تحت الأثر المباشـر للفارسيين، في حين لم تكن هناك دلائل مؤكدة أو إشارات مـعقولة تشير لاقتراب الفارسـيين منها. ولكنّ المدن - إن جـاز لنا إن نسمّيـها كـذلك - التي تجاور هذا النوع غير المألوف من قنوات الرّي (الخرز) تشبه بعضها، وتختلف -حسب علمي- عن بقية المدن في الجـزيرة العربية، وهذا أمرٌ له أهميتـه ويدعو للتأمُّل. إنّ المواقع

(١) تعد منطقة الخرج من أخصب أقاليم اليمامة قـديمًا، وهي منطقة زراعية ذات غلّة وإنتاج، وخراجها يغطي حاجـة (الحرمين الشريفين) سـابقاً، وهذا سبب تسـميتـها بالخرج. للتـوسع انظر: ابن خميس، مـعجم اليمامة. ج١، ص٣٧١. (المراجعون).

الخربة هي معالم معتادة في الجزيرة العربية إذ أنها نتاج السنوات الطويلة التي تعاقب فيها الرخاء مع الحروب المدمِّرة، ولكن بملاحظة الخرائب التي تعود للفترة التاريخية المهمة التي مَرّت على وسط الجزيرة العربية في القرنين أو القرون الثلاثة السابقة يمكننا أن نتتبّع مظهرين يميِّزان هذه الحقبة ومستوطناتها، والتي استدامت حتى أيّامنا هذه. أولاً: كلُّ المباني كانت طينية دون استثناء ولا تُستخدم فيها فنون البناء، وثانياً: كانت البيوت تُبنى في قلب الواحات وليس في جوانب التلال العارية. والاستنتاج الطبيعي هو أنّ من قاموا ببناء مساكنهم باستخدام الحجارة على منحدرات سلسلة تلال فرزان بعيداً عن بساتينهم وحقولهم التي كانوا يزرعونها في حوض الوادي، كانوا أناساً تختلف طريقة عيشهم اختلافاً بيناً عن طريقة العرب الرعاة القدامى منهم والمحدثين؛ لذا يُفترض أنهم ما كانوا عرباً ولكن غرباء أقاموا في الأرض الغريبة. وإن كان ذلك كذلك، فَهُمْ في غالب الأمر فارسيون توغّلوا نحو الداخل في الوقت الذي كان فيه الساحل تحت قبضتهم[(١)].

قفلنا عائدين من موقع خرائب فرزان إلى القناة، وبعد أن تتبعّنا مجراها لمسافة نصف ميل توجّهنا نحو الشرق عبر السهل الرملي الواقع بينها وبين حوض وادي حنيفة. ثمّ سرنا عبر أراضي الحبوب بمستوطنة البدْع والتي تتخللها -بعد فواصل-

---

(١) استنتاج المؤلف هذا غير صحيح وحاول فيه تأكيد ما ذهب إليه من كون اسم فرزان هو تحريف لكلمة فرسان، وما ذكره المؤلف من مظاهر هي في الواقع سائدة في المنطقة ولا تدل على تأثيرات من خارج المنطقة. (المراجعون).

خرائب طينية لمباني المزارع المهجورة وأيضاً خمس عشرة من الآبار ذات المياه الوفيرة التي توجد على عمق أربع أو خمس قامات. كانت مستوطنة ذات مظهر يوحي بالفقر، تبلغ أراضيها المزروعة حوالي ١٥٠-٢٠٠ فدان. وعلى الجانب نفسه في أعلى الوادي تقع المستوطنة الشقيقة الأصغر، البديْعة، التي كنا قد رأيناها من مسافة أقرب من الموقع الذي أقمنا فيه في الليلة الماضية.

توجهنا الآن نحو بساتين نخيل السلمية على بعد ميل، وعندها لاحت لنا سلسلة تلال الشديدة وهي تقع موازية لنا على اليسار، وتسمُ الحدّ الأبعد لوادي حنيفة، بينما لاحت لنا من أعلى المنحدر رابية صنبعة التي يفصلها عن سلسلة الشديدة منخفض روضة حَنِيّة المعشب.

تقع بساتين نخيل السلمية، التي يحيط بها حائط طيني قصير متهدِّم من الشمال للجنوب في مستطيل غير منتظم يبلغ طوله ميلاً واحداً، وعرضه نصف ذلك، ويدخلها «قناة الري» من ركنها الجنوبي الغربي حيث توجد البساتين الجيدة وكلها ملك للعائلة المالكة، وبعد ذاك بقليل ينضب معين «قناة الري»، بينما تعتمد بقية المستوطنة في توفير ما يلزمها من ماء على عددٍ من الآبار التي يُسحب ماؤها بواسطة الحمير والأبقار، وفي حالات نادرة الإبل من أعماق تصل إلى أربع قامات. تحتلُّ القريةُ الصغيرة التي قصدناها الآن زاوية كوَّنها النخيل في الطرف الشمالي الغربي. لم يكن بالقرية من الأسباب ما يدعونا للبقاء بها طويلاً، إذ دخلنا عبر بوّابة ناتئة في الطرف الشمالي، ومررنا سريعاً عبر ما بدا وكأنّه طريقها الوحيد نحو بوّابة في الطرف الجنوبي، وخرجنا

منها لنجد أنفسنا في وسط بساتين نخيل، ثم تقدّمنا عبر طريق منحنى مسوّر للبيت الريفي «القصر» الخاص بالأمير، وهو مبنى طيني يتميّز بقليل من فخامة عن أكواخ القرويين العاديين، ويقع على حافة بستان نخيل جيّد، علمتُ لاحقاً أنّه أحد البساتين الملكية. ترجّلنا وقادنا أحد خدم الأمير إلى غرفة كبيرة وعالية لكنّها جدّ معتمة، وبعد أن اعتادت أنظارنا على الظلام، اكتشفنا أنّها بلا أثاث إلاّ حصائر ثلاثة توزعت حول موقد القهوة. ولم يكن هناك ضوء أو هواء بالغرفة إلاّ ما يتجشّم منهما مؤونة التسلّل عبر الباب الذي ولجنا منه إليها. وقد وجد رفاقي الوقت الذي سمح لهم بالتهامس حول المكان الذي لم يكن مظهره مضيافاً قبل أن نجد المضيف قبالتنا.

كان سليمان بن عفيصان شاباً، يبلغ عمره نحواً من ثمانية عشر عاماً، وكان قد دُعي ليشرف على شؤون القرية عند مغادرة أبيه سعد بن عفيصان لها. والأخير رجل ذو شهرة كبيرة في نجد، وتشرّفتُ بلقائه بعد أيام قلائل، وكان قد تمّ اختياره حاكماً لإقليم الأفلاج. كان الانطباع السيئ الذي خلفته فينا الغرفة اتسق مع طريقة صاحب الدار الفجّة. ولكنّ التقاليد كانت تفرض عليه وعلينا أن نقبل دورة أو اثنتين من القهوة. وسعدنا مثل ما سَعِدَ هو بإنهاء مجريات الضيافة عند إمرار المبخرة الذي كان إشارة للسماح لنا بالمغادرة. وعندما خرجنا من الغرفة المظلمة نحو الشمس الساطعة وامتطينا الركائب كانت هناك ضحكات مكتومة مرحة اهتزّ لها الرفاق عندما جهر طامي بصوته معرباً عن خيبة أمله لفشله في تهدئة جوعه الذي لا يُكبح.

يبلغ تعداد سكان قرية السلمية نحواً من ٥٠٠ نسمة، بما في ذلك من يعيشون في المساكن المتناثرة حول بساتين النخيل وأغلبهم من قحطان، من قسم آل عائذ الذي تنتمي إليه عائلة الأمير. لاحظت في بساتين النخيل رقاعاً مزروعة بالعصفر وقليل من شجيرات الرمان ومساحات شريطية ضيقة هزيلة من الشعير والخضراوات المختلفة وشجيرات القطن التي تنمو مفرّقة بطول حواف قنوات الرّي.

عبرنا الآن الواحة بعرضها، ووجدنا خارج أسوارها صَفّاً منفصلاً من النخيل غير متصل بغيره، وتتخلله أبراج حراسة متداعية وكذلك رقعة من أشجار أثل مكتمل النمو يجثم على سلسلة رملية خفيفة. وخلف هذا رأينا مساحات من الكثبان الرملية تمتدّ من جانبي وادي حنيفة وتعبر أمامنا لتتحوّل تدريجياً نحو النفود كلّما تقدَّمنا. كان المكان من حولنا والهواء يعجّان بحيوية جراد صغير فقس حديثاً، ويسمونه في هذه المرحلة من النمو جخاخ، ولا يأكله العرب في هذا العمر. حُفرت هناك بئر منذ عهد قريب في بقعة تم تنظيفها من النفود في منتصف الطريق بين السلمية واليمامة. وبعد أن تخطيناها سببت لنا أمواج الرمال الثقيلة بعض العنت بينما كنا نسير في طريقنا إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق قاصدين الركن الشمالي الغربي لواحة اليمامة التي ما بقي منها سوى حطام بئيس من حضارة الأيام القديمة ذات الزخم.

لا بد أن اليمامة القديمة عاصمة المملكة العظيمة قد امتدّت فوق مساحة كبيرة في الزاوية التي تكوّنت بالتقاء واديي حنيفة ونساح، ولم يبق من أثر لها اليوم سوى كتلة متشابكة من النخيل على جانب نساح تحتل حوالي ميل وربع وفي

وسطها أربع قرى صغيرة. أمّا ما تبقّى من المكان فهو غاصٌّ بالرمال التي تمتدّ أمواجها المتكوّرة نحو الجنوب من تخوم وادي حنيفة ولا يمنعها من ابتلاع المستوطنة الحديثة سوى حاجز رقيق من سعف النخيل يحيط بجنبها الشمالي، وبدت من تحت أمواج الرمال في هذا الموقع وذاك خرائب قصور ومبان متداعية بلا أسقف في اتجاه الشمال. ورغم أنها كلها كانت من الطين، إلاّ أنّ احتلالها لمساحة شاسعة ينبئ عن مجتمع مزدهر عاش في أيّام خلت بين جدرانها. كما كان وجود هوة عميقة هنا أو هناك يوضح مواقع الآبار التي دُفنت عبر الزمن والتي كان يحيط بها حائط إسمنتي. ولم نَرَ من خلف هذا في الناحية الشرقية سوى الرمال المتموجة حتى أعلى منخفض صبحاء، حيث تلتقي مياه المجاري الثلاثة لتكوّن سيلاً له القدرة -كما يصوّره الخيال المحلّي- على اختراق حواجز رمال الدهناء نحو البحر.

مهما كان سبب تهدّم اليمامة، فإنّ الخراب والاضطرابات التي حدثت في سنوات أكثر حداثة قد طمست ذكرى تلك الأحداث القديمة. ولا يحفظ أخبار الأحداث التي يهمل المؤرخون روايتها سوى الأساطير. ويبدو جلياً أن العاصمة القديمة لم تكن ضحيّة للوباء والجراد، وتتهاوى أيضاً نظرية الجفاف عندما نستحضر أنّنا نتحدث عن قلب نظام التصريف في وسط الجزيرة العربية، ولا يبقى هناك إذن غير افتراض السيل العظيم ليبرر الأزمة التي حلّت بالمدينة العظيمة. ولعل التمحيص والتدقيق في هذا الافتراض يوضّح أنّ هذا التفسير ليس معقولاً فحسب، بل يتعذّر عدم الأخذ به. البقايا الناجية من المستوطنات تقع بعيداً عن وادي حنيفة، على جانبي وادي نساح، أما الخرائب فهي تقع على جوانب وادي

حنيفة، وعلى هذه الأرضيّة من الحقائق رَجّحتُ نظرية حلول كارثة مباغتة أحالت عمارها خراباً. إن السيول القادرة على إحداث آثار كهذه نادرة الحدوث في الجزيرة العربيّة، ومن المستبعد أن تحدث - إن حدثت - في ذات الوقت في مجريين يعتمدان على مصادر تفصل بينها مساحات شاسعة. أليس من المقبول إذن أن نفترض أنّ سيلاً طاغياً في وادي حنيفة هو الذي تسبّب، ليس فقط في خراب المستوطنات الموجودة في أعلى مساره. ولكن أيضاً في خراب اليمامة؟ لقد حدث هذا للحدِّ الذي أبعدت فيها أجزاء من خرائب اليمامة عن مواقعها الأصلية، كدليلٍ إيجابي على أنّ مثل هذا السيل حقيقة تاريخية.

تابعنا سيرنا من الركن الشمالي الغربي للمستوطنة بطول حدودها الشمالية عبر الرمال المتراكمة التي كنا نلاحظ في وسطها مجموعات صغيرة متفرقة من القبور، وبالقرب من أحد شواهد القبور رأينا ساق نبات غضّ، لاشك أنه تعبير عن احترام والد أو زوجة سلبها الموت من تحب، ولمّا يطوِ ذكرها النسيان. قادنا الطريق من هذا الموقع من خلال فرجة من سياج الشجيرات الخارجي إلى منطقة خالية من الزراعة تقع بها إحدى القرى الصغيرة الأربع التي تكون الواحة، وبعد ذاك التفّت القرى الثلاث الأخريات حولها في شكل نصف دائرة في ظلال النخيل. مرَّ طريقنا خلال القرى بالتتابع حتى بلغنا آخرها، وهي ليست بعيدة عن الطرف الغربي للواحة، ويسكنها فقط الأمير وأقرباؤه. أنخنا مطايانا هنا لتحية الأمير ابن فوّاز الذي بعث بابنه لاستقبالنا واستضافتنا راجياً قبول عذره إذ حبسه المرض عن مباشرة ذلك بنفسه. كان الجوع والنصب قد أخذا منّا مأخذيهما، فقدّرنا ما قُدِّم لنا حقّ قدره ولم نتوانَ في ازدراد الطعام المبسّط الوفير الذي وضع بين أيدينا ونحن نُبدي

بعض الاحتجاج الفاتر على كثرة ما أتوا به من التمر الممتاز ولبن الأبقار الدسم المخثّر وما يرافق ذلك عادة من القهوة والبخور.

كانت كل الأبقار في الجوار تبدو لي هزيلة ومعاقة النمو، بسبب فقر المراعي حول المستوطنات. ولا يقتصر دور الأبقار على إمداد الأهالي باللبن فحسب، ولكنها تقوم بدورها مع الحمير والإبل في أعمال القرويين العادية، ولقد لاحظت مجموعة مختلطة من الأبقار والحمير تقوم بدوس الحبوب في بداية الواحة، بينما كانت مجموعة أخرى تسحب الماء من الآبار التي يبلغ عمقها هنا أربع أو خمس قامات، والتي تعتمد عليها المستوطنة بالكامل، إذ ليست هناك مصادر أخرى للرّي. إن بساتين نخيل اليمامة أكثر كثافة وهي خير من بساتين السلمية، كما تُزرع فيها عينات أكثر تنوعاً من محاصيل مساعدة وفيرة مثل القطن والعصفر والباذنجان والبقوليات والتين والرمّان، مع وجود عنب هنا وهناك ورقاع متفرقة للحبوب، وتوجد هذه المحاصيل في الحدود الخارجية للواحة. ثم لاحظنا هنا وفي مواقع أخرى من الخرج أنّ مراحل عمليات حصاد الحبوب (الشعير والقمح) متقدّمة أكثر مما هي عليه في الرياض، حيث إن كل المحاصيل كانت في هذا الوقت قد جمعت في مواقع الدوس، بينما كانوا في مرحلة قطع المحصول في الرياض.

كانت كلّ قرية من قرى اليمامة الصغيرة الأربع مسوّرة، وكان تعداد السكان بها جميعاً، إضافة للبيوت الريفية الكثيرة المتناثرة في بساتين النخيل يبلغ حوالي ٢٠٠٠ نسمة، يأتي معظمهم من ثلاثة مصادر قبلية: قسم زعب من قبيلة آل مرة. التي ينتمي إليها الأمير؛ وقسم آل عائذ من قبيلة قحطان، وهم أقرباء سكان السلمية، وأخيراً بني هاجر. إضافةً للأرض التي أقاموا عليها مساكنهم، فإن

سكان هذه المستوطنة يمتلكون ويزرعون أراضي الحبوب القصيّة في الهيائم والمنيصف التي تقع على بعد أميال قليلة نحو الجنوب، في وادي نساح.

خرجنا من الواحة من طرفها الغربي، بالقرب من قرية الأمير الصغيرة، ثمّ غيّرنا اتجاهنا لغرب الجنوب الغربي نحو قلعة القرْين التي تبعد ثلاثة أميال عنها.

وبعد أن عبرنا مهد نساح بقليل. وهو الشعيب الذي يجري منحدراً بطول الحافة الجنوبية لليمامة ليصل إلى صبحه، بلغنا خرائب قلعة حراسة قديمة - تتوسط حقولاً مهجورة - وتسمّى مفتول السيح. ووجدنا أيضاً مزارع خربة على بعد نصف ميل في الحدود الشمالية لمزارع فسيحة من البرسيم تسمى القرْين، على اسم القلعة المذكورة، ولكنها تُعرف أكثر باسم السيح، على اسم الوادي الذي يسقيها والذي لا تجف مياهه طوال العام.

تنحدر مرتفعات القصيْعة من ناحية الشرق بلطف إلى الأسفل نحو الحقول، وتقع القلعة في حدودها الخارجية بالقرب من الجانب الأيمن لوادي السيح، على بعد ميلٍ ونصف الميل من النهاية السفلى للوادي، وهناك نصبنا خيامنا.

كانت مستوطنات الهيائم والمنْيصف تقعان ناحية الغرب، ومن خلفهما سلسلة تلال فرزان؛ أمّا ناحية الجنوب، على بعد حوالي ثلاثة أميال، فتقع مصادر وادي السيح. وهي مجموعة من ثلاثة مستودعات مياه طبيعية تغذيها العيون، وتعد المعلم البارز لإقليم الخرج، والمعلم الذي تدين له ليس فقط بازدهارها الذي تمتّعت به في الماضي وما زالت تنعم بخيراته، ولكن أيضاً - وفقاً لاقتناعي - تدين له باسمها.

لا تفصل مسـافات كبيرة بين المسـتودعات المائية الثلاثـة، وفي جوارها تنبعج مرتفعات القـصيعة إلى الخارج قليلاً في اتجاه الغـرب وترتفع بحدّة من السهل إلى تلٍّ يعلوها بمئات الأقدام. أول هذه المسـتودعات المائية هو عين سمحـة، وهو يبعد قليلاً عن سـفح المنحدر، ويتكوّن من صدعٍ عمـيق في صخور الحجـارة الجيرية، وهو بيـضوي الشكل وأبعـاده ثماني خطوات فـي أربعين خطوة. والسطح الأعلى لمياه البركة الصـافية حوالي عشرين قدمـاً تحت سطح الأرض وتنحدر الصخور من كل جوانب البركة الداخلية لتبلغ حدود الماء.

وهناك في الركن الشـمالي الغـربي فتـحة ضيّـقة لا بُدَّ أن الإنسـان هو الذي نحتهـا، وهي المخرج الوحيد لمياه البـركة، وتصبُّ في مجرى السيح. أمـا البركة الثانية فهـي عين الضلع، وهي مختلفة إذ أنها تقع في صدع في جـانب التل نفسه وهي أكبر من سابقتها وشكلها أقل انتظاماً، وترتبط بقمة المرتفعات بمسيل صخري شديد الانحـدار وشبيـه بالمدخنة. وطول البركـة في المتوسط مـئة ياردة وعرضـها سبعون ياردة، وشكلهـا العام دائري تقريبًا، وجوانبها المكوّنة من الصـخور الجيرية يتباين ارتفاعها عن سطح الماء تبايناً عظيماً، إذ يبلغ أعلاها أربعين قدماً في الجانبين الجنوبي والشرقي، بينما لا يتعدّى في الجانب الشمالي ثلاثين قدماً. أما في الجانب الغربي فإن الانحدار نحو الماء يتدرّج بلطف.

والمستـودع المائي الثالث هو عين أم خـيسة، ويبـعد أكثـر من نصف ميل إلى الجنوب الغربي من حافة المرتفعات، ومنسوب المياه بها لا يبعد سوى قدم أو قدمين تحت مستوى سطح الأرض، وعلى عكس الصخور الشاهقة التي تحيط بالمستودعين الآخرين فـإن الأرض هنا تنحدر بلطفٍ نحو حـافة الماء، كما تحفّ بهـا في امتنان

الشجيرات والقصب والأعشاب. وتغطي هذه البركة مساحة تفوق البركتين الأخريين، حيث إن متوسط طولها ١٥٠ خطوة، ومتوسط عرضها ٨٠ خطوة.

تلفُّ المياه القاتمة بهذه البرك الرائقة -التي يقال إن الإنسان لم يسبر غورها- عتمة مظلمة، وهي تتوسط تلك القفار. وهناك اعتقاد عام يؤمن به العرب الذين يدفعهم الفضول لتحسس المخفيّ من أسرارهم، بأنّ هذه البرك لا قاع لها، وأنّها تنحدر دون عائق نحو البحار المدفونة في باطن الأرض. ولأنني لم أكن أملك من الوسائل ما أستطيع بها أن أتحقق من صدق زعمهم، أو أن أؤكد أنه لا أساس له من الصِّحَّة، فإنني قنعت بمجاراتهم ومشاركتهم قناعاتهم، وكنت أعجب للشفافية المعدنية للمياه وأنا أشاهد رفاقي يقفزون- إذ يستطيع كل العرب فعل ذلك - إلى أعماقها مرحاً ولهواً، وكنت أعجب أكثر وأنا أشاهد هبوط الأحجار الجلمودية العظيمة تُرمى داخل البرك فتهوى طاردة فقاقيع الهواء حتى تختفي عن الأنظار في أعماق بعيدة. كل ما يُمكن قولُه بيقين هو أنّ هذه المستودعات المائية العظيمة تستمدّ وجودها من ينابيع مخفية في باطن الأرض، وأنها لأجيال متعاقبة لعلها منذ بدء الخليقة استُخدمت لريّ حقول الخرج التي كان نماؤها الزراعي العظيم في أزمان سحيقة قد أفرز الفكرة الخاطئة الشهيرة التي تقول إنّ اسمها قد اشتُقَّ في تلك الأيام التي كانت فيه الخرج المصدر الرئيس (المخرج) للحبوب التي تحتاجها مكة والأراضي المقدسة.

نحن نعلم على وجه اليقين من القرآن ومن مصادر أخرى أنّ الحاجة الماسة للغذاء والتي نشأت نسبة لتزايد السكان في مكة قد أوجبت في أيّام ما قبل الإسلام تسيير رحلات قوافل منتظمة للمواقع التجارية الكبرى في الجزيرة العربية، وأنّ

النبي نفسه شارك بحيوية في عدد من المعامـلات التجارية لعشيرته في اتجاه الشام، ونعلم كذلك بوجود معاملات نشطة بين مكة واليمن، ولكن لم يصلنا دليل لتأكيد النظرية التي تقول إن إقليم الخرج، أو حتى مملكة اليمامة كان لها على الإطلاق ما يؤهلها للمـساهمة بفـعالية في إطعام قلب الجـزيرة العربية في عـهدها الوثني[1]. لهذا؛ ومن منـطلق المساحة المحـدودة لأراضي إقليم الخرج، يمكنني أن أمـتنع عن قبول التفـسير الذي يشاع عن مصدر اسم الخرج والذي اسـتهوى سكان المنطقة إذ يُرضي نزعة الفـخر لديهم؛ وأقدّم عوضاً عن ذلك التـخريج، تفسيـرًا آخر فرض نفســه عليّ بقوّة لا تقـاوم عندما اطّلعت لأول مرة على حـفر الماء العظيـمة التي فرغت لتوّي من وصفها.

لقد نوّهت من قبل أن تسمـية العرب للأماكن وغيرها ترتبط بالمعالـم الطبـيعية ذات الصلة بمصـادر المياه في بلادهم الصـحراوية، وسأبيّن في فـرصة لاحـقة أن مقاطعة الأفلاج وإقليم السر قد استمدّا اسـميهما من أشياء بديعة كتلك التي نُسِبَ إليهـا اسم الخرج. لن يكون شـاذاً أو مستـغرباً -والحـال هذه - إن استمـدّ إقليم الخرج اســمه من هذه البرك المتـميزة الرائعـة، ولكن الصعوبة تنجم عند مـحاولة التوفيق بين الاسم - كما هو - وبين اسم الظاهرة الطبيعية التي استُمِدَّ منها.

بيد أنّ المهمة ليست فيما يبدو بالغة الصعوبة إن تذكرنا ابتداءً: أنّ عيون الخرج تقع في صدوع عميقة بين الصخور، وبوضـعها هذا لا يعجزها إلهاب خيال الناس

---

(١) الواقع أن جهل المؤلف بأهميـة منطقة الخرج في مجال الزراعة في العصـر الجاهلي، والإسلامي لا ينفي دورها في إمداد مكة المكـرمة وغيرهـا بالمؤن الزراعية الأسـاسية، وقـصة ثمامـة بن أثال -وهو من سادة اليـمامـة، قاعدة الخـرج- في منع الحنطة عن قـريش مشـهورة ومـعروفـة في كتب التـاريخ والسـيرة. (المراجعون).

للتفكير فيها. ثانيًا: هناك عيون في كثير من المواقع الأخرى بالجزيرة العربية - وهي كهذه العيون - توجد في صدوع صخرية، رغم أنها في حقيقة الأمر ذات طبيعة مختلفة؛ ويُعزي خيال العامة وجودها لسقوط النجوم، ولذا يسمونها خفس (أو صدع). ثالثًا: إنّ الصوت (ق) في نطق العرب المعاصرين قد يستعاض عنه بالصوت (ج)، مثلاً كنطق الاسم جاسم بدلاً عن قاسم. وأخيراً هناك الكلمة (خرق) وهي مرادفة لكلمة (خفس)، وكلاهما بمعنى صدع أو شق، واستُخدم تصريف هذا الاسم للجبل الكهفي البديع الموجود بأطراف الرياض، إذ يسمّى (أبو مخروق).

لقد فقد العرب منذ زمان الحس باللغة والبلاغة والفصاحة التي ميزّت أسلافهم في عهد الجاهلية[1]، لذلك لا تحقّ لنا الدهشة الآن إن تقبّلوا دون اعتراض تخريجاً يصعب الدفاع عنه لاسم إقليم الخرج في حين أنّ في الجوار تعليلاً معقولاً لا يضلّ الطريق إليه من يبحث عنه. لقد أحدث الزمن تغيّرات كثيرة في نطق اللغة العربية القديمة، وتسبّب انحطاط العلم - الذي فشلت نزعة التجديد السلفية الحديثة في وقفه[2] - في أن يتابع القلمُ اللسان، وكان هذا التحوّل اللغوي الذي يراه الطالب التقليدي باعثًا على الأسى، شيئاً جديراً بالاهتمام في نظر الباحث

(١) يبالغ المؤلف هنا في محاولة فرض استنتاجه من خلال الاتهام بأن العرب فقدوا بلاغتهم اللغوية وهذا غير صحيح، وليس ما توصل إليه عن طريق الافتراض سبباً كافياً لتأييد ما ذهب إليه المؤلف لتفسير أصل اسم الخرج. (المراجعون).

(٢) الواقع أن الدعوة السلفية التي خرجت من نجد كانت من أكبر أسباب نهوض الحركة العلمية والأدبية في تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ويبدو أن المؤلف لم يتح له فرصة دراسة حجم تأثير هذه الدعوة المباركة بطريقة مناسبة. (المراجعون).

الذي يدرس تطوُّر اللغات، إنــني لا أجد اعتراضــاً عملياً، كــما لا أرى اعتــراض ناشئًا عن مــخالفة علم أصول الكلمات للنظرية التي تشــتقّ اسم الخرج من الخرق الذي يعني الشق أو الصــدع، ولذلك فإنّ الإقليم يســتمدُّ اســمه من العــيون التي تشكّل الآن - كمــا كانت على الدوام - مــعلماً أخّاذاً. تتطلب النــظرية تحويراً في الإملاء ـ إن كان هناك من يبــحث عن الدقة التقليدية - ولكنهــا لا تتطلّب تحويراً للنطق، وهي تتفق ليس فــقط مع كل معيار عــملي، لكنها أيضاً تســتند إلى تأييد قوي من التماثل في اشتقاق أسماء أقاليم مثل السر والأفلاج.

توقفت اثــنتان من العيــون الثلاث عن العطاء، أو مــاتتا كــما يقــول العرب. نضبت الينابيع التي كــانت تغذّي العينين الأكبــر، أو لعل مياهها وجدت مــخرجاً خفيّــاً، وكانت النتيــجة أنّ مناسيب الماء في هذه العيــون قد انخفض عن مــستوى القنوات الجانــبية التي كــان الماء يمرّ عبرهــا إلى الخارج؛ بينما بقــيت عين سمــحة بمفردها تؤدي مُهمّــتها التي كانت تعينها عليها رفيقاتهــا. يصدر وادي السيح -كما أسلفت - من الركن الشمالي الغربي لهذه العين، على عــمق حوالي عشرين قدماً تحت سطح الأرض، ثمّ يجري من هناك في اتجاه الشمــال ساقياً في طريقه المزارع على أرض تمتدُّ لأربعة أو خمسة أميال.

كانت هذه العين فــيما مضى من زمــان مع عين الضلع وعين أم خيســة تغذى بواسطة قنوات ري من نوع الخــرز، وهي مــا زالت مــوجودة حــتى الآن ولكنهــا خربة. نُحتت كل هذه المجاري في الصخور الجيرية بالأرض المرتفعة التي يبدأ فيها السيح مسيرته على سطح الأرض، ليتــبع بعد ذلك الانحدار الطبيعي للأرض نحو منخفض وادي نساح.

لا بدّ أنّ الرّي من هذه الينابيع أو «عيون الخرج» كما تُسمّى هذه البرك مجتمعة كان متبعاً بهذا الإقليم منذ زمان، ويبدو أنّ نظام قنوات الري التي بقيت صالحة حتى أيّامنا هذه كانت - كما هو الحال مع فرزان- من صنع الإنسان في مستعمرة فارسية حديثة نسبياً [(١)]. كما أنّ استخدام الخرز هنا، هو دليل قوي على ذلك. وجدنا هنا أيضاً شبيهاً للخرائب الدائرية التي وصفناها سابقاً؛ وعند ارتقائنا للمنحدرات التي تقود إلى المرتفعات المجاورة لعين الضلع، سرّني أن أجد أكواماً من الأنقاض منتشرة على القمة وهي تشابه ركام الحجارة التي تنصب كمعالم. ورغم أنّها كانت لا تثير القدر نفسه من الاهتمام مقارنةً ببقايا المباني الواضحة المعالم في فرزان، إلاّ أنّها كانت منتظمة بطريقة متماثلة كما يُتوقَع أن توجد في مستوطنة لأناس متحضّرين أو في المدافن الخاصة بهم، أو في شيء مثل ذلك. وكان وجودها في أرض مرتفعة يؤكد بوضوح أنها لم تكن ذات أصل عربي [(٢)].

كانت بقية الدوائر تبدو موحّدة المساحات ولا يزيد قطرها على عشر ياردات في كلّ الحالات، واشتملت على أكوامٍ تختلف ارتفاعاتها بين ثلاثة وخمسة أقدام، ولم تكن من الصخر كما في فرزان، ولكن من قطع صغيرة من الحجارة الجيرية الكلسيّة التي يتكوّن منها الجبل نفسه ومن ملاط الجبس. كانت هناك أيضاً رقعةٌ من المباني المهدّمة إلى الغرب من عين أم خيسة مباشرة على السهل المسطّح، ولكن

(١) يصرّ المؤلف هنا على وجود التأثير الفارسي في منطقة جنوبي نجد من خلال وجود نظام الخرز وهو نظام إسلامي لجلب مياه الشرب وهو موجود في أكثر المناطق. ولا يدل على التأثير الفارسي كما أشار المؤلف. (المراجعون).

(٢) يكرر المؤلف هنا استنتاجه الخاطئ متجاهلاً وجود العديد من المدن والبلدان في المنطقة في أرض مرتفعة وأصلها عربي. (المراجعون).

هذه كانت من الطين والجبس، وقد تكون بقايا مستوطنة عربية عادية تعود لأزمان حديثة.

تمتد الأرض الزراعية التي تعتمد على الرّي من وادي السيح لمسافة أربعة أميال من الجنوب للشمال، ويبلغ عرضها في المتوسط حوالي ميل واحد. وهي تشكل جزءاً من الممتلكات الخاصة بابن سعود الذي نذرها كلها لخدمة الإسطبلات الملكية التي أنشأها هنا لحفظ ورعاية وحماية صغار المهور وفحول الجياد، والجياد الأخرى التي لا يكون هناك احتياج لها في الوقت المعني لاستخدامه أو استخدام أفراد أسرته، في حالتي السلام والحرب.

قلعة أو «قصر» القرين هو مبنى مستطيل من الطين أبعاده ١٥٠ ياردة في ١٠٠ ياردة، ويحيط به حائط مرتفع تقوم عليه بعد فواصل عدد من الأبراج على كل جانب، وله بوّابَة ناتئة هائلة في الجانب الغربي. يُقسّم حائطٌ الجزء الداخلي إلى قسمين: القسم الجنوبي وهو الذي تقود إليه البوابة الرئيسة ومساحته ١٠٠ في ٥٠ ياردة، ويحتوي على غرف المخازن اللازمة ومسكن المشرف على «القصر» وأسرته، وسائسي الخيل الذين يعملون تحت إمرته.

أمّا القسم الثاني الذي تقود إليه فرجة في الحائط الداخلي الذي يفصل الدار إلى قسمين، فهو مربع كبير يحتلّ بقية القلعة، وينقسم بدوره إلى إسطبلين مكشوفين لترويض الخيول، يفصل بينهما طريق تحيط به على الجانبين أسوارٌ طينية خفيفة. وتوجد في الطرف الشمالي بئر عمقها أربع قامات، وبجوارها حوض ترابي مسطح كبير لتشرب منه الحيوانات، كما كان كلٌّ واحد من الإسطبلات مزوداً بصفوف من معالف الدواب الدائرية الطينية، والتي كان يُكوَّم فيها لارتفاعٍ عالٍ،

البرسـيم - الذي يُؤتى به من المزارع- مرتين كل يوم، وكانت الخـيول تطعم فيـها وهي مقـيّدة بحبال طـويلة، وكانت تمتدّ بجـوار الحائط سقيـفة [تعريشـة] مهلهلة تُحفظ فيها الحيوانات للوقاية من الشمس في ساعات النهار القائظ.

وفي وقت زيارتي كـان هناك حوالي خمـسين رأس من الحيـوانات في المبنى: خمسة أو ستة من الفحول الجيّـدة وحوالي اثني عشر من المهور الصغيرة الواعدة، وكانت البـقية أفـراس من نوعيات مـختلفة، واثنـين من الإبل وبغل واحد. لم أرَ الحيوانات تتلقّـى أيّ نوع من النظافة أو الرعاية، ولا تخضع للتـمرين أو التدريب على الإطلاق، ولا يسـمح لها تحت أيّ ظرف بمغـادرة المبنى. كانت الإسطـبلات تنظّف من البقايا بعد فـواصل زمنية بعيدة، والحيوانات المتسخة الـبائسة المنتقاة من خير خيول نجـد تقف أمام المسؤولين عن رعايتها في أكوامٍ مـتعاظمة من الأوساخ والروث، وهي تطعم ذلك العلف الغني.

ولكنها رغم كلّ ذلك لم تكن تعـاني بالقدر الذي يُتوقع أن يفـرزه العيش في ظلّ هذه الظروف الاستثنائية والمعاملة السيـئة. وعند ذهاب الخيول لساحات الوغى تكون جلودها لامعة وطاقتها جيـدة لتحمّلِ العنت والحرمان. ولكن كان هناك داء متفش بكثـرة بينها، وهو داء غريب يغيّـر الشكل الخارجي كثيراً، ولـكن باستثناء هذا، يبـدو عديم التـأثير، ويـسمّـونه دباس، ويُعزى للإصـابة بطفـيلي يأتي مع البرسيم.

ويقولون إن هذا الداء ينحـصر في الخيول ذات اللون الأبيض فـقط، وبعد أن تفحصت الحيوانات الموجودة في القلعة يمكنني أن أشهد على صِحّة هذا القول، إذ بدت على الخيول البـيضاء والرمادية كتـلٌ بشعة من البقع المتقـرّحة، وهي أعراض

المرض، بينما كانت بقية الحيوانات من جميع الألون الأخرى محصنةً تماماً ضد المرض، باستثناء تلك التي تشوب لونها نقاط أو خطوط بيضاء، أو حتى شعيرات بيضاء، وهذه الخيول يكون تأثرها فقط في المواضع التي توجد فيها هذه الأجزاء البيضاء.

لم أحصل على تعليل من المشرف على الإسطبلات ولا من العرب المرافقين لي عن سبب العداء السافر الذي لا هوادة فيه لهذا الداء ضد اللون الأبيض، وعجزه التام عن التأثير في كلّ درجات الألوان الأخرى، لكنّهم كانوا واثقين من المعلومات التي أكدّوها من أنه لا تترتّب على هذه العِلّة آثار مرضية دائمة باستثناء التأثير على النظر، إن أُصيبت هذه الحيوانات بجوار العينين. ولا أدري إن كان الاختصاصيون البيطريون على علمٍ بآثار المرض أم لا، أو إن كانوا يعرفونه باسم آخر. ولكنني بعد انقضاء بعض الشهور ذكرت الأمر في بغداد لداؤد بك داغستاني، وهو مُرَبٍّ متحمس للخيول ومحبٌّ عظيم لها، وعلمت منه أنه يعرف المرض، ولكنّه أعطاه اسماً آخر نسيتُهُ لسوء الحظ.

البرسيم هو المحصول الوحيد الذي يُزرع في حقول القرْين، ويكوّن الغذاء الرئيس، أو لعلّه الغذاء الوحيد لحيوانات الإسطبلات التي تتمتّع في حالات نادرة بوجبة من الشعير. تدلّل المهور الصغيرة الواعدة كثيراً في مرحلة نموها، ولقد رأيت بعض المهور (عمر عام) تحوّل لأكل الشعير بعد أن تتم تربيتها في السنة الأولى من أعمارها على لبن النوق والتمر، وهذا هو النظام المتّبع في إسطبلات عبدالله بن جلوي في الهفوف. ويأتي العشب الصحراوي الرطب النصي في المرتبة الثانية في تغذية الجياد في الجزيرة العربية تالياً للبرسيم.

الخرج الجنوبي:

فارقنا عين أم خيسة صباح يوم ٩ مايو (أيــار) متجهين نحو الغرب فوق صقع موحش من التربة الرخوة المشبعة بالأمـلاح، والذي يفصل بقايا حطام ما كان يوماً في الماضي اليمامة المتألقة عن مجمـوعة من المستوطنات الحديثة المزدهرة التي أعيد إعمـارها بدرجة مـعقولة بفـضل إصرار أهلهـا، رغماً من الظروف غـير المناسـبة والمعاناة التي لم تنقطع أثناء العـقود الأخيرة من القرن الماضي، فـعاد لها بعض مما اشتُـهرت وتميّـزَت به بين أقالـيم الجزيرة العـربية في الماضي من النشـاط الزراعي والتجاري.

ويعوق مجرى وادي السيح الرملي الضيّق الذي يشق هذا السهل العاري، سيلُ العقيمي العظيم في محـاولاته المتقطعة لبلوغ مخرجه الطبيعي في شـعيب صبحا. وبعد ميلٍ أو نحوه بلغنا المستوطنة الأولى، وهي الأكثر حداثةً من مستوطنات الخرج العصرية. هنا وعلى أنقاض موقع لقريةٍ صغيرةٍ خربةٍ من عهود حديثة، وفي وسط حقول الحبوب المـتدة التي تتخللها رقاع من أشجار الأثل جـيدة النمو، تقف قرية الضبيعة وهي من أحدث المستـوطنات الكثيرة التي أنشأها ابن سعود في بلاده لدعم حركـة الإخوان. في الوقت الذي قمنا فـيه بالزيارة لم يكن قد مـضى عام منذ أن وصلت طلائع من فخذ بني عامر لقبيلة سبيع، بعد أن خصص لهم ابن سعود هذا الموقع لبناء هجرتهم، ووضعوا الأساس للمســجد العظيم الذي كانت تزين واجهته سبعة عشر من الأقواس المسننة التي اشتهـرت بها العمارة الإسلامية السلفية، كانت هذه الواجهة الأنيـقة تغاير بصورة صـارخة مجموعـة مبانٍ طينيةٍ مربعـة بائسةٍ يبلغُ عددها حوالـي مئة وتحيط بالمسجـد فـي غيـر نظـام أو تماثل. وقد خصصت لسكن

أهل الهجرة. تكفلت الدولة كالعادة بإنشاء المسجد الذي تدلُّ ضخامته على أنَّه قد صُمِّم ليخدم مجموعة أكبر ممن يسكنون هذه القرية في الوقت الراهن. كانت القرية في مرحلة الجنين، ولا بد أن ابن سعود كان يتوقع نمواً سريعاً لسُكَّانها إذ أخبرني بأنه يتوقع أن يكون من بين سكانها خمس مئة من الرجال الأقوياء في عمر التجنيد العسكري، وأخبرني أنّه وزّع عليهم ٣٠٠ بندقية لاستخدامهم كمجموعة. أمّا زعماء القرية فهم مبارك بن دليم وفارس بن رقاص وغنيم بن هُدَيْهِد، وجميعهم من فخذ بني عامر الذين أشرتُ سابقاً [1] لطردهم من جوار الخُرمة في غرب نجد على يد بني ثور. ولا يتعدّى تعداد سكان الضبيعة الآن في تقديري، ٥٠٠ نسمة، ولكن قد يكون هناك نحواً من ١٥٠٠ آخرين ينتظرون ورود الفرصة السانحة للاستقرار هنا بعد أن يُفرغَ من تخصيص الأراضي الزراعية لهم، وبناء المزيد من المساكن حتى يضمنوا السكن ومصدر الرزق، أمّا في هذه الأثناء فهم يتجولون مع قطعانهم في المراعى. ولا يوجد نخيل بالهجرة حتى الآن، بيد أنني مررت برقاع كثيرة مخضرّة زُرعت بشجيرات الرمان والقطن والعصفر والبصل وما إليها، ويبدو أن محصول الشعير كان وفيراً استناداً على ما رأيت من الجذامة المتبقية في الأرض بعد حصاده. ويبدو أن الماء كان وفيراً في الهجرة، كما توفّر رقاع أشجار الأثل ما يكفي من أخشاب لأغراض البناء.

تقع قرية وواحة نعجان على بعد حوالي نصف ميل جنوب الضبيعة ويفصلها عنها وادي العين، وهو مجرى سيول ضيق ينزل من منحدرات طويق المجاورة ويمرّ عبر أجمة من أثل تسمّى روضة غُريفة على بعد ثلاثة أميال إلى ناحية الغرب.

(١) راجع الجزء الأول، ص٢٦٥ . (المؤلف).

وقد أشاروا لي قبل ذلك إلى موقع خرب صغير إلى اليسار كانت تحتلّه قرية نعجان فيما مضى، ولكن أدهشني في الهجرة الحالية رغم صغرها الرخاء والازدهار اللذان يبدوان عليها. بيد أنها متناهية الصغر ومستطيلة الشكل لا يتعدى طولها وعرضها ١٢٠ و ٧٠ خطوة، على التوالي، ويحيط بها سور طيني عالٍ وسميك وبه مدخل واحد في الجانب الغربي. وتقع القرية في رقعة تمت إزالة أشجارها وسط إحدى مجموعتي النخيل التي تكون الواحة، ويبلغ تعداد سكانها حوالي ٣٠٠ نسمة.

عندما قام عبدالعزيز بن رشيد في عام ١٩٠٣ أو ١٩٠٤م بمحاولته الفاشلة لضمّ الخرج تحت جناحيه[1]، حلّ دون إنذار بقرية نعجان هذه وتغلّب على العدد القليل من الرجال المدافعين عنها، وعسكر وسط بساتين النخيل الكثيفة بالواحة استعداداً لمهاجمة الدلم، عاصمة الإقليم التي تقع على بعد حوالي أربعة أميال نحو الجنوب، وفي الغد بعد أن قنط رجال القرية من التصدّي للاعتداء تمكنوا من إبلاغ الرياض بما حدث من ابن رشيد وعن نواياه بمهاجمة الدلم. حينها قام ابن سعود دون أدنى تأخير بإعداد قوّة حُشدت على عجل وتحرك قاصداً الدلم[2]، والتف بعيداً عن مخيّم عدوّه الذي لم يكن يعلم بتحركاته ليصل إلى غايته ويكمن بجنوده بطول حدودها قبل بزوغ الفجر. وقد أخبرني إبراهيم الذي كان حينها في خدمة ابن رشيد ومن ضمن القوة المهاجمة، كيف أنّ قوات شمّر الواثقة من النصر

---

(١) يقصد المؤلف معركة الدلم في عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) وليس في عام ١٩٠٣م، أو ١٩٠٤م. (المراجعون).

(٢) ما ذكره المؤلف هنا من تسلسل الأحداث غير دقيق فالملك عبدالعزيز كان موجوداً بمنطقة الخرج قبل وصول ابن رشيد إليها. (المراجعون).

تقدّمت مع تباشير الفجر عبر حقول المحمدي المكشوفة التي كانت تفصلهم عن هدفهم، وكيف أنّهم كانوا يهنئون أنفسهم على السرعة والسرّية التي أنجز بها زعيمهم الحملة وعندما صاروا على بعد ياردات من حافة بساتين النخيل التي كانت تبدو في الظاهر دون حراسة، تعرّضوا لوابل إثر آخر من نيران البنادق القاتلة التي لم تكن متوقعة. وولّى الجيش المغير الأدبار دون إخضاع الأمر للتفكير، مخلّفين وراءهم في الحقل عدداً كبيراً من القتلى، بينما جمع ابن سعود قوة كبيرة من المحاربين المحليين الذين أخرجهم من مخابئهم ظهوره المسرحي المفاجئ ونصره الساحق، وتعقبوا فلول الجيش المندحر الذي ترك وراءه كل المؤن والثقيل من المتاع بحثاً عن النجاة عبر وادي السلي حتى بلغوا حدود بلادهم. وهكذا تم إنقاذ الخرج، ولم يضعه ابن رشيد بعد ذلك مطلقاً في دائرة اهتمامه.

تتكوّن الدلم عاصمة إقليم الخرج الحالية، إضافة للمدينة التي تحمل ذلك الاسم من أراضٍ زراعية شاسعة وتقع في قسمين: واحة الدلم نفسها، وأراضي المحمدي التي يزرعون بها الحبوب، والأخيرة تقع بين واحة الدلم وبين نعجان وتربتها طفلية خصبية، ومساحتها شاسعة تبلغ وفقاً لتقديري ٢٥٠٠ فدان، وتتخللها البيوت الريفية «القصور» والآبار وهي مخصصة لزراعة القمح والشعير باستثناء عدد قليل من بساتين النخيل في الطرف المجاور للواحة. وكانت المحاصيل قد حصدت قبل بلوغنا هذا المكان، ولكن مواقع الدوس المبعثرة التي تحفّ بها أكوام الحبوب العالية والتبن كانت تحمل الدليل على وفرة الحصيد. كان سكان الدلم هم ملاك معظم هذه الأرض، وكانت «القصور» وعددها حوالي مئة تضم عدداً من الخدم والعمال وأسرهم، وقد يبلغ تعدادهم ١٠٠٠ نسمة قد يزيد أو ينقص. ويبلغ عمق الماء في آبار المنطقة ست أو سبع قامات، ويفصل حافتها

الشمالية عن نعجان شريطٌ رملي ضيِّق، بينما كانت تحدّها من جهة الشرق مرتفعات القصيعة على بعد ميل، ومن ناحية الغرب جبال صخرية ناتئة تسمّى أبا ولد، وخشم الكلب، وتشكل حدودها الجنوبية الحافة الشمالية للواحة، وهي كتلة متراصة من بساتين النخيل تفصل بينها على مسافات متقاربة رقاعُ مكشوفة من حقول الحبوب والخضراوات، وتمتدّ حوالي ميلين من الشمال للجنوب، وحوالي ميل واحد بالعرض، وتستمدّ خصوصيتها العظيمة من موقعها إذ تلتقي في جوارها عدد من الأودية التي تنزل من منحدرات طويق لتقترن مع شعيبي السوط القادم من الحوطة والعقيمي الذي يعوق مساره هنا كثبان عرق الضاحي الرملية العالية التي تعترضه - مخفيةً وراءها الوجه الخارجي من مرتفعات القصيعة - لتصل إلى الطرف الشرقي للنخيل. وأثناء سيرنا عبر قلب الواحة تعذّر عليّ أن أفك سرّ شبكة مجاري مياه الرّي المعقدة لأعرف الأجزاء المكوّنة لها، ولكن يكفي لفهم نظام التصريف في المنطقة أن نعلم أن العقيمي يتلقى آخر دفعة له في الدلم قبل أن يختفي في صبحا. وتستخدم الإبل في الغالب لسحب المياه من آبار الدلم التي يبلغ عمقها ست أو سبع قامات، كما هو الحال مع آبار المحمدي، واستخدام الإبل لسحب الماء دلالة واضحة وملموسة لثراء المدينة الذي تؤكده - دون مدعاة للشك- الكثافة العظيمة للبساتين ووفرة ما يزرعونه من المحاصيل المساعدة التي يجدون لها سوقاً رائجة في المدينة. وتكثر هنا زراعة القطن رغم أنّه ما زال يُزرع في الحدود الفاصلة بين البساتين والمزارع، كما توجد خضراوات متنوعة، وتكثر الفواكه مثل الرمان والعنب والبطيخ والليمون والتين والمشمش والخوخ وما إليها.

تتناثر هناك مجموعات صغيرة من المنازل في الواحة، ولا تستحق وصفها بالقرى الصغيرة إلا بصعوبة. وهناك أيضاً البيوت الريفية المنعزلة «القصور»، إلاّ أن

معظم السكان يتركـز وجودهم في المدينة أو «الحلة» كما يسـمونها، والتي تقع في فراغ عميق على الجـانب الشرقي من كتلة النخيل. تحيط بالمدينة أسـوار قوية عالية ترتفع لخمسة وعشرين قدماً وتتوّجها حصون في كلٍّ من الأركان، وبعض فواصل في بقية السـور. كما تمتدّ المدينة فوق مسـاحة كبيرة مكوّنةً شكلاً سداسـياً، أبعاده كما يلي: الحائط الشـمالي طوله ٥١٠ أقدام، وبه بوّابة على بعد ١٣٠ خطوة من طرفه الشرقي، مع وجود برجين في طرفيّ الحائط، واثنين آخرين بينهما؛ والحائط الغربي طوله ٤٠٠ خطوة، وبه بوابتان - لا تفصل بينهما مـسافة كبيرة - بالقرب من منتصـفه، وفـيه أربعة أبراج، واحـد على كلٍّ من الطرفين والبـابين؛ والحائط الجنوبي طوله ٥٣٠ خطوة وبه بوّابة يعلوها برج على بعد ٢٤٠ خطوة من الطرف الشرقي، كمـا يوجد برجان، واحد على كلٍّ من الطرفين، أما الحائط الشـرقي فبه ثلاثة أبراج.

وأخيـراً هناك حائطان يكوِّنان شكل (L) ويصلان بين أطراف الحائـط الشمالي والحائط الشـرقي. وطول الجزء الذي يمتد بين الشـمال والجنوب يبلغ ١٧٠ خطوة والآخـر الذي يمتـد بين الشرق والغـرب طوله ١٠٠ خطوة. ليس هـناك مخـرج للمدينة من النـاحية الشرقـية حيث يواجـه الجانب بكامله النفـود أمّا هيكل المدينة الداخلي فهو بسيط ومنتظم. ويصلُ طريق طويل بين البـوابتين الشمالية والجنوبية، ويرتبط الطريق نفـسه بالجـانب الغربـي حيث يذهب لكلٍّ بوابة في ذلك الجـانب طريقٌ عرضي، كمـا يوجد عدد من الطرق الجانبيـة تربط كلّ أجزاء المدينة مع هذا الطريق أو ذاك. وهناك قلعة عظيمة تحـتلّ كلَّ الركن الجنوبي الشرقي للمدينة التي تكوِّن أجزاءٌ من سـوريْها الجنوبي والشـرقي الحائط الخارجي للقلـعة، وترتبط هذه الأسوار لتكمِّل الإحاطة بالقلعة بحوائط داخلية ذات أطوال مماثلة، أوّلهما: الحائط

الذي بُني من البوابة الجنوبية بطول حافة الطريق الرئيس، والآخر: يربط طرف القلعة الشمالي بالنقطة المقابلة لها في السور الشرقي. وهناك مساحة خالية فسيحة تتوسط المكان بين الواجهة الشمالية للقلعة وبين المساكن الموجودة في ذلك الجانب، وتمتد من الطريق الرئيس إلى الحائط الشرقي وتُستغلّ بصفتها موقعًا للسوق. كما توفّر احتياجات السكان أيضاً عدد من المتاجر على الطريق الرئيس وفروعه العرضية التي تصله بالأبواب الغربية. ويقع «الجامع» الكبير بمحاذاة الطريق الرئيس بالقرب من البوابة الجنوبية، كما يواجه مدخل القلعة. أمّا المساجد الأخرى فهي موزعة في المدينة. تحتلّ البيوت السكنية بقية مساحة المدينة، معظمها من طابقين وهي جيّدة البناء وفسيحة بصورة غير طبيعية، بل لعلها بتطرّق. تتخلل كل المكان سيما الغنى والثراء، ويتّصف سكانها بقدرٍ وافر من الاعتداد بالنفس والرضى المفرط عن الذات. وقد يبلغ عدد السكان ٨٠٠٠ نسمة، بما في ذلك سكان القرى الصغيرة المنعزلة والمنازل الريفية «القصور»، ومعظم السكان من قبيلة الدواسر ويختلط بهم بعض بني تميم وقحطان والعبيد وغيرهم.

كان خبر وصولي إلى المدينة قد عُلم وانتشر، وكانت معارضة مجتمع المدينة للزيارة سلبيةً. ولكن عندما تلقى الأمير ناصر بن عبدالله وهو دوسري- خطاب توصية من ابن سعود- وكان إبراهيم هو الذي سلّمه إليه- عاملني بكثير من الاحترام والتقدير وسمح لي بكلّ الإمكانات لتفقّد المدينة وضواحيها، واستضافني ورفاقي في غرفة استقبال فسيحة بالقلعة عندما قمنا فور وصولنا بزيارة رسمية له، ومرّة ثانية في المساء. وفي المناسبة الأخيرة سمح لي بارتقاء سطح المبنى لأشاهد المدينة بينما ذهب الآخرون للمسجد لأداء صلاة المغرب. لفَّ المكان لفترةٍ قصيرة صمتٌ عميق لم يكسره سوى ترتيل الأئمة أثناء الصلاة واستجابة المصلين في ستةٍ

من المساجد. كانت الطرق خالية تماماً، ولكنني لاحظت مجموعات من النساء تجمّعن على أسطح المنازل القريبة هنا وهناك، وهنّ ينظرن بفضول وتعجّب للكافر الغريب الذي لا يصلّي الصلاة في وقتها المعلوم.

كان أمير الدلم- إضافةً لتصريف شؤون مدينته - يمارس هيمنة عامّة على أمراء قرى الخرج الأخرى، خاصة في قضايا النزاعات بين القرى والأمور الخاصة برفاهية الإقليم بكامله، كما كان المسؤول الوحيد عن إدارة المنطقة البدوية. لم يكن يُطلق عليه وصف أمير الخرج، ولكن رغم أنّه لم يكن سوى المقدّم بين أكفاء - هم بقية الأمراء - لكنه كان يتمتع بشيء من التبجيل والاعتبار اللذين يرتبطان بوظيفة كهذه نظراً للأهمية المتعاظمة للمسؤوليات الخاصة والصلاحيات الاستثنائية التي يتمتع بها. إنّ الإقليم بوصفه مركزاً للبدو يضفي صعوبة وأهمية على المسؤوليات الإداريّة، إذ أنّه ملتقى لعناصر مختلفة لا تكون طوال الوقت على وفاق، وعلى سبيل المثال هناك الدواسر الذين يقطنون وادي العقيمي، وآل شامر الذين يسكنون في جزء عليّة من مرتفعات طويق، وهناك قبائل سبيع والسهول في منطقة وادي حنيفة. وتقع مسؤولية تصريف الأعمال القضائية المحضة على عاتق «قاضي» المنطقة، وهو أيضاً يتخذ من الدلم موقعاً لتصريف أعباء وظيفته، أما مسؤولية الأمير القضائية فتنحصر في التوقيع المصدِّق للأحكام، ومن ثمّ تنفيذها، سواء أكان ذلك في القضايا الجنائية أم المدنية. وتقع على عاتق الأمير مسؤولية جمع الزكاة وبقية الموارد المالية وتصريف كل الأعمال الإدارية والتنفيذية وصلاحياته في هذا الشأن واسعة ، كما أن تفصيلها غاية في البساطة، إذ أنّ عليه أن يُقرر في كلّ ما يُعرض عليه من أمور إن استطاع ذلك، وإلا فإنه يحوّل الأمر إلى الرئاسة في الرياض.

نصبنا خيامنا خارج المدينة مباشرة، في ركنها الجنوبي الغربي على شريطٍ من أرض رملية بين المقابر المحلية ورقعة معزولة من أرض مخصصة لزراعة الحبوب يحيط بها سياج من الأثل، وعندما تجمعنا لوجبة الغداء تحت الظُّلَّة التي كانت تنصب عادةً لرفاقي أثناء الوقوف في رائعة النهار القائظ. حينها عرّفني إبراهيم بدوسري شاب اسمه محمد، ولعلّه في الثامنة عشرة من عمره، كان قد حضر لمخيّمنا لتوّه على أمل أن يتخلّص من رأسين من الخراف كان قد أحضرهما من خيام أهله في هضبة العرمة البعيدة، وفشل في بيعهما في المدينة، في حين أنّ مبعوثينا عادوا دون أن يتمكّنوا من ابتياع ما يلزمنا من لحم للرحلة التي تنتظرنا. في كلّ الوقت الذي أمضيته في الجزيرة العربية لم أرَ رجلاً بلغ من الكمال الجسدي ما بلغ ذلك الشاب، الذي نُحتت تقاطيع وجهه بنعومة والذي كان جسمه لدناً مطواعاً وقوياً كجسم مُهر، وكان حديثه وطبعه المنفتح السار خلواً من التعصّب الذي يستهدف الغرباء في البلاد السعودية ليقف حاجزاً دون التقارب السريع والحميمية. لقد تجشّم كل العناء وأتى طاوياً لكلّ تلك المسافات ليكسب قليلاً من الدولارات ببيع خرافه، ولكنه عندما علم أننا نتّجه نحو الأفلاج وأننا كنّا في حاجة لصحبة من يعرف المنطقة التي سنمرّ عبرها، تطوّع بمرافقتنا كدليل، وأصبح من الآن عضواً في جماعتنا. ومنذ تلك اللحظة بقي بجانبي طوال الوقت خلال الأيّام التي قضاها بيننا، ولقد أفادني بكمٍّ هائل من المعلومات عن الإقليم الذي عبرناه، والذي كان يعرف كلّ بوصة فيه، وكان ما أعطانا في هذا الجانب أكثر مما أخذه منا من منحة ماليّة.

عندما كنت أتجوّل حول المخيّم في المساء، وقبل أن ينحسر عن السماء الوهج الضوئي الأخير، لاحظت أربع نساء تحملُ كلٌّ واحدة منهن إبريقاً مليئاً بالماء وهنّ

في طريقهن إلى موقع معيّن في المقبرة، إلى أحد القبور التي تم حفرها حديثاً في الرمال. كان هؤلاء النسوة - كما قلن لي - طلائع مجموعة الدفن ومُهِمّتهنّ إعداد اللَّبِنْ الطيني الذي يُستخدم لتغطية الفتحة التي يرقد في أسفلها الجثمان، قبل أن يُهال عليه التراب. تُحفر القبور في هذا الإقليم إلى أعماق تصل من أربعة إلى خمسة أقدام للرجال، ويعمّق القبر قدماً آخر في حالة النساء.

ويقدّر الحفّارون في كل حالة العمق المطلوب بالتقريب قياساً على قاماتهم أنفسهم يكون عمق القبر في حالة الرجال حتى ارتفاع صدر الحفّار عندما يقف منتصباً في حفرة القبر، وفي حالة النساء، حتى ارتفاع رأسه. إنّ ما يعلّلون به هذا الاختلاف بين الجنسين هو أنّه يحقّ فقط للوالد والأخ والأقربين النظر إلى المرأة حتى وإن كانت ميّتة، والعمق الإضافي يضمن ألاّ يستطيع أيٌّ من المارّين من الرجال أن يرى غير متعمّدٍ الجثمان في قبره، بعد حفر القبر إلى العمق المطلوب.

يتواصل الحفر وإزاحة التراب عن وسط القبر الذي يُسمى اللحد، وفيه يُدَلّى الجثمان على جانبه، ويكون الرأس متجهاً نحو الشمال والوجهُ مستقبلاً «للقبلة». يُكسى (يكفن) الجثمان في حالتي الرجال والنساء بملابس بيضاء، «غترة وثوب وسروال»[1]، وكلها مخيطة مع بعضها البعض لتصبح كلُّ أجزاء الجسم والأكف والأقدام والوجه مخفية عن الأنظار، والاستثناء الوحيد هو في حالة الأطفال الذين تُكشف وجوههم جزئياً. بعد أن يُوضع الجثمان في لحده ويغطى بطبقةٍ من اللبن الطيني ويُردم القبر بالتراب الذي يُدَكُّ إلى أسفل ويُرش عليه الماء بطريقة تجعله لا يعلو فوق سطح الأرض إلاّ ببوصات قليلة. بعد هذه المرحلة هناك اختلاف آخر يميّز النساء عن الرجال، وهو أنّ قبور الرجال تُوسم بحجرين، أحدهما في جانب

(١) الصحيح أن المتوفى يكفن بقماش واحد أبيض يطوى به مجرداً. (المراجعون).

الرأس والآخر في جـانب الأقدام. أمّا النسـاء فيتمـيزن بحجـرٍ إضافي يوضع في منتصف المسافة بين الحجرين. وهذا التمييـز يتعارض مع المبادئ السلفية الملتزمة، وتبدو العلة منه ضرباً من الخرافات، كان التعليل الوحيد الذي سمعته عن الأمر أنّ النسـاء يكنّ بعد الممـات - كـما هنّ في حـياتهن - أكـثـر طيشـاً وأقل اتزاناً عن الرجال، لذلك تحتاج أرواحهنّ لوزن إضافي ليُـبقيهنّ في قبورهن، وإنْ أهمل هذا الاحتياط يرجعن ليُنزلنَ الكوارث بأزواجهن الناسين لهنّ [1]. إن كان هذا التعليل سائداً بين الناس حقيقةً، فـإنّه لا يُدهشني إذ أنّ البسطاء والجهلاء من الرجال رغم كل التعـاليم والتأكـيدات التي أتت بهـا إليهم مبـادئهم العقـدية لا يُنتظر منهم أن يتحللوا من كل آثار المخاوف والأوهام المتوارثة من أسلافهم.

أفقنا صباح اليـوم التالي في الوقت المناسب، وتحرّكنا تسوقنا نسمـات شمالية صحوة، وكان جهاز قياس الحرارة الذي سجّل ٥٣ْ فهرنهايت فقط في صباح اليوم السابق، قـد سجّل الآن في الرابعة صـباحاً ٥٧ْ فهـرنهايت، إنّ الأوقات معـتدلة الحرارة جدّ قصـيرة في هذا الموسم. كانت المراحل الأخيرة من سـيرنا النهاري في العادة منهكةً بقدر كبير، وعندما ابتعدنا عن حافة الواحة التي يُعرف الجزء الجنوبي من نخيلهـا باسم عيضـار، صار طريقنا موازياً لعـرق الضاحي، واخترقنا سـهلاً فسيحـاً تبدو فيه - بعد فواصل - آثار الزراعة، وتحـدّه من الجانب الغربي سلاسل تلال خشم الكلب، وأبو خـيالة التي تتلوها على البعد سلسلـة تلال شعارة والشط المعتم لجبل عليّة، بينما تناثرت في السـهل عن يسارنا المنازل الريفية «القصور» في

---

(١) يلاحظ أن المؤلف لا يتردد في نشر أكثر ما يسمعـه أثناء رحلاته، حتى ولو كانت من «أحاديث خرافة»، والواقع أن قبور النساء لا تختلف عن قبور الرجال في شيء. (المراجعون).

اتجاه كثبان عرق الضاحي، التي انتصب من خلفها منحدر بوهيث الصخري الشاهق الوعر امتداداً لسلسلة القُصيْعة. وكان طريقنا يمرّ بجوار، أو يخترق ثلاثاً من مجموعات النخيل وهي بُلَيْسة التي تبعد ميلين عن النقطة التي بدأنا منها مسيرة اليوم، وبعد نصف ميل آخر زُميْقة، وهي قرية صغيرة مسوّرة تحيط بها خرائب لمساكن ورقاع مفرقة من النخيل مع مساحة كبيرة من أراضي الحبوب، وأخيراً فُريحْ وهي المستوطنة الأخيرة من ناحية الجنوب، إذ أنَّ المُشْيرفة التي تبعد ميلاً عنها، وتقع غرب طريقنا لا تعدو أنّ تكون مجموعة من الخرائب.

بعد مسيرة ساعتين بلغنا النفود التي تجرى هنا بميلٍ إلى داخل السهل وتكسوها غلالة رقيقة من شجيرات الغضا. وواجهتنا الرمال العميقة التي تتراكم مكوّنة سلسلة من رواب عالية عارية، ودلفنا بين اثنين من أكبر هذه الروابي حيث قادنا الطريق لاجتياز قمّة النفود، ثم هبطنا بحدّة من الجانب الآخر نحو بركتين كبيرتين لكنهما ضحلتان، أولعلهما كانتا بقايا مياه السيل. يُسمّى المكان خبر الكُدن، وهو منتجع أثير لدى البدو ويقال إنه معلمٌ دائم لا ينضب معينه من الماء، أبعاد هذه البرك حوالي ١٠٠ في ٥٠ خطوة للأولى، و ٥٠ في ٥٠ خطوة للثانية، وتحيط بها الرمال من كل الجوانب وتغذيها المياه المرتدّة من العقيمي والتي تسيل منحدرة بين الحدود الشرقية للرمال ومنحدر الحجارة الرملية الشاهق الذي يسمّى دغرة، حتى يعوق تقدّمها حاجزٌ من الرمال يصل الاثنين معاً. لا أستطيع أن أجزم أنّ هذا المجرى هو بقايا فرع قديم للعقيمي، نفذ من خلال مرتفعات القصيعة ليقترن مع شعيب الثليما الذي يصرّف مياهها في اتجاه صبحا في نقطة أسفل منبعه، ولكن أجمع الكلّ على صِحّة هذا الزعم. والذي لا شك فيه هو أن شعيب الثليما هو مركز نظام التصريف في المرتفعات المحيطة بالمكان، ومن روافده شعيب أبالذر

وشعيب جـدعان اللذين بدا لي أنهمـا يسيلان منحدرين نحـوه من الركن القصي لصخـور دغرة الشـاهقة وتوقـفنا لسحب الماء من البـركة التي وجدنـا بعض رعاة الدواسر يسقون قطعانهم منها.

تبعنا حافة النفود لمسافة ميلين وبعدها خرجنا من الرمال لتدلف إلى رقعة ممتدة من تربة طينيـة شقـقتـها أشـعة الشـمس تقع في الوسط بين الرمـال والصخـور الشاهقة. لاحظنا جوار البرك قـطيعاً من الغزلان تسير مبتعـدةً عبر التلال الرملية، وكثيراً من طائر الطهيوج يتكاثر حول الماء ثم ينفضُّ عنها طائراً في السماء. ولكنَّ مروري بهذا الموقع يرتبط في ذهني بالعدد الذي لا يُحـصى من حشرات الجُدْجُد- التي يسمّـيها العرب وجْـوج - والتي غزت أجمـة الغضا، وحامت حـولنا عندما اختـرقنا الأجمـة لتقع على ملابسـنا وعلى رواحلنا دون أن يتوقّف لبـرهة واحدة طنينها الثاقب.

لم تكن عجائب الخرج قد انقضت بعـد، إذ قادوني نحو سفح منحدر دغرة الصخري لأجد صَدْعَيْن في الصخر، كان أولهما أقلّ إثارةً، إذ كان -لارتفاع كبير - مليئاً بأنقاض الصخور المتساقطـة من جوانب المنحدر الصخري، رغم أنّه - فيما قالوا لي - كـان مليئاً بالماء في أيّام خلت، ورغم أنّ أبعـاد الشق كانت ٣٠ خطوة في الطول وعشرين في العرض. ولكن الصـدع الثاني لم يكن يبعد سوى ياردات قليلة عن يمين الأوّل. كان اسمه خفس دغرة، ويُـظَنُّ أنّه تكوّن نتيجة لسقوط نجم في الموقع، وكان ظاهرة مدهشة، فلقد كان هوّةً متعرّجة في جانب الجبل، وكانت أجزاء من الجبل تتـقوّس فوق هذه الهوّة لتغطّي نصـفها، بينما كان يحيط بنصـفها الآخر حائط صخري ينحدر بحدّة لمسافة ٤٠ قدماً حتى يبلغ مستوى الماء الذي كان يملأ الحفرة صافياً معتماً مـغطى جزئياً بالزّبد. كان الصدع دائرياً تقريبًا بقطرٍ يقارب

٧٠ باردة، وكـان يحيط به في الجـانب البعـيد من الجـبل سبـعة أعـمدة مـزوّدة بالبكرات لسحب الماء «مقامات»، اكتشف العرب ذوو الرغبة العارمة في سبر أغوار الأسرار الدفينة نفقاً يبدأ أسفل مستوى الماء ليقود إلى باطن الجبل، ولكن إلى أين؟ هذا ما لم يتمكّن من معرفته أحد.

يمتدُّ أمامـنا الآن مثلث الخرج الجنوبي الذي لا يسكنه أحد ولا تُـزرع أراضيه، ليس هنا سوى وادي العـقيمي والقنوات الصغـيرة التي تقترن به آتيـةً من سلاسل التلال الجارية على الجانبين. تقع إلى الغرب جروف شديدة التحدر هي شعارة وأم ريشـة، ومن خلفها يبـدو طويق، أمّا في الشرق فـإن نتوء النفود المسـمى حليوة اصطفّ مع سلسلتي فَـزَّر وخرطـم، ونتأت في طرفـها القـصي الأرض الرأسيـة المدهشة خشم خرطم متجهـة نحو خط طويق المنبعج ليسم الموقع الذي ينحدر منه العقيمي من المرتفعات الخلفية في طريقه لحوض الخرج. تنتهي رمال عرق الضاحي قبالة خفس دغرة في قمّة رملية ظاهرة تُسَمّى مبدى الخفس، ولكن شريطاً ضيقاً - كنا قد عبرناه- من كثبان الرمال يسمى عرق المرداسية يصل رمال عرق الضاحي مع طرف نفود حليوة، ولكن رغم هذا يترك ممراً لشعيب نعيّم الذي ينحدر بين الأخير وسلسلة دغرة ويلتقي بعدها بالعقيمي.

قطعنا السـهل الذي كان تارةً عـارياً وحجـرياً، وتارة أخرى تغـطيه أجـمات صغيرة من الرمث والسنط في بضع ساعات، وبعـد توقف وراحة في مهد شعيب الأرطاوية، كنا نحتاج إليها حقيقـة في ذلك النهار القائظ واصلنا السير بينما كانت تحيط بنا المشـاهد الرتيبة نفـسها. وعندما اقـتربنا من رأس المثلث أصبـحت تقاطع السهل مجاري السـيول الصغيرة التي تغذّي العقيمـي، وعبرنا هذه المجاري واحداً

إثر آخر، والمجاري هي: النهيدين ومطيـرية ودهلة وخويْش، حتى بلغنا في النهاية فرجةً ضيقة تسيل مياه العقيمي عن طريقها في زمن السيل.

رأينا من هذا الموقع الشـريط الضيّق الـذي يفصل بين طويق وسلسلة خـرطم التي تسم الحدود الغربية لصـحراء البياض العظيمة، رأيناه وقد أصبـح أكثر عرضاً بفضل مـرتفعات سـمريات الحـجرية الكئيـبة الموحشـة التي تنتأ نحـو الشرق من منحدرات طويق. كـانت الأرض الرأسية العارية لخشم خـرطم تعلو في جلال من فوقنا على هامة الـطرف الغربي للسلسلة والتي تجري بعد ذلك نحـو الشرق. أمّا العقيـمي الذي يحمل ميـاه تصريف المرتفعات التي تقع خلفـه فيشقّ طريقـه عبر الحاجز فـي قناة ضيقة مـتعرجة تنحـدر سريعاً نحو بداية السـهل حيث تكوّن في وسط الصخور المحيطة به خليجـاً له عدد من الأذرع بفعل السيول المتكررة، وتحفّ به وفرة من النباتات ومجموعات من أشجار السنط القوية لتشهد على تعاقب كثير من السيـول المانحة للحيـاة، والتي لا بد أن يكون مرورها عبـر هذا الممر مشـهداً عظيماً. لقد نزلت السيول أربع مرات خلال الموسم المنصرم، ولا يمكن توقع مزيد من الماء قبل حلول الشـتاء القادم. وتابعنا مـسيرنا في اليوم التـالي ابتداء من رأس الممر الضـيق، متتـبعين المجرى المتـعرج الذي كان مـهده الرملي المُغَطَّى بالحـجارة يجري بين جـانبين محـددي المعالم يرتفعـان في المتوسط لأربعـة أقدام، ولا يزيد عرض المجرى عن ثلاثين إلى أربعين ياردةً. وعندما بلغنا هذا الموقع كانت الشمس قد قاربت المغـيب فقنعنا بنصب خيامنا للمبـيت تحت ظلّ صخور الخشم الترسـبية العادية. والتي كانت قمتها تسمو لارتفاع ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قدم فوقنا.

بينما أطلقت الإبل لترعى ، وتوزّع رجالنا في المكان بحثاً عن حطب الوقود، وذهبت أنا في معيّـة مترك ومحمّد لقـمّة رابية صغيرة قـريبة، حيث أطللتُ على

مشهد جيّد جامع لـلأرض التي تركناها خلفنا، وتلك التي سنُقدم عليها من غدنا. لقد غادرنا إقليم الخـرج الآن، وكانت المستوطنات مختبـئة عن أنظارنا خلف رمال عرق الضاحي الذي انتـصب كثيب مبـدأ الخفس كمعلمٍ بارزٍ في طرفـها القريب. ولكنّ السهل المرتفع العظيم الذي بدا أمامنا ناحـية الجنوب، لا بد من الحديث عنه في إطار وصفنا لهذه المرحلة من رحلتـنا، إن لم يكن لسبب آخر، لأنّه يكوّنُ كلّ الجزء العلوي من العـقيمي، ويمتد نحـو مستجـمع ينظّمُ تصريف المياه في صـبحا والأفلاج. لاح لنا السهل من الموقع الملائم الذي اخترناه في شكل بيضوي فسيح، لعلّ عرضه كـان عشرين ميلاً في أعرض المـواقع، وكانت تحفّ به التلال من كل جانب. وقف من خلفنا خشم خرطم مع سلسلة تلال خـرطم التي تمتد من شرقه وحتى سلسلة تلال قصيرة مزدوجة القمّة تُسمى القُرِيْبين، ثمّ تنحني سلسلة خرطم بعـد ذلك نحـو الجنوب لـتنتـهي في تلّ دائري منخـفض يُـسـمى أم العظمـان. واصطفّت مع تل أم العظمان هـذا مُنحدرات صخرية منخـفضة تُسـمّى الحُليْليّات وتنحو قليلاً نحو الغرب من نقطة تقع جنوباً بالقرب من أرض رأسية تُسمّى خشم دغمة.

وتحازي خشم دغـمة من الخلف الأرضُ الرأسية البعيـدة: خشم المشاش التي تقع في نهـاية سلسلة تلال منخفـضة تتـجه نحو الجنوب. وبدت لـنا أرض خشم المشاش الرأسية من علـى البعد وكأنها تلتقي بمنحنى المنحـدرات الخارجية لطويق، وهوالمنحنى الذي يطوّق الوادي في جانبه الشـرقي من السمريات بالقرب منا وعلى مدّ البصر. وكانت الروابي الصغيرة تتوزع هنا وهناك لتكسرَ رتابة السهل الذي امتدّ أمامنا لمسافـة تقارب أربعين ميلاً، ليتوعّدنـا برحلة كئيبة موحشـة حتى نخرج من إطاره.

كان قائدنا عندما بلغنا مشارف الخرج، محمد الدوسري الشاب الذي كان قد تزوج منذ عهد قريب[1]، وحينها أخذ مني الإذن ليقوم بزيارة خاطفة لعروسه التي بقيت في الأنحاء مع أهلها ريثما يفرغ من شأنه ليأخذها لبيتها الجديد. ويبدو أنه لم يواجه صعوبة في الاهتداء لضالته، كما أنه كان على علمٍ بتحركاتنا إذ أنّه لحق بنا أثناء مسيرة النهار رغم أن خطتنا لم تكن محددة وتُركت تماماً للظروف. عاد الرجل راضياً عن هذه الساعة التي لم يكن يتوقعها، ولم يخجل عندما انفجر الرفاق يحيّون عودته في بذاءة مرحة. كان طامي بوصفه خليعاً متمرساً هو الذي واجَه العريس العائد بإبداء ملاحظات بذيئة متهتكة، ودلّل على استمتاع صاحبنا بشهر العسل بأن أشار لقميصه الذي اتسخ ببقعة طينية في موقع الكتف. لقد كان محمد بلا شك راضياً عن عروسه، وعندما أخبرنا بالمهمة التي يقوم بها أمليت عليه قائمة طويلة بالملابس التي يحتاجانها هو وعروسه.

تابعنا المسير صباح اليوم التالي مرتقين وادي العقيمي الذي تَرَكَتْ فيه السيول الأخيرة علاماتٍ لا تمّحى لتدلّل على مرورها به، ليس فقط على النباتات المورقة التي استمدّ منها جانبا القناة الزخرف والزينة، ولكن أيضاً ببرك الماء المتناثرة التي أنخنا بقربها في ظلال مجموعة كبيرة من أشجار الأثل والسنط لتناول وجبة إفطار سخيّة مكونة من لحم ضأن بارد وأرز كانا قد أعدّا أثناء الليل. كان الوقت مازال باكراً وكنا قد قطعنا تسعة أميال، لذا واصلنا طريقنا الذي اتبعنا فيه تارة انحناءات القناة، وعبرناها تارات أخرى، ثمّ عبرنا - واحد إثر آخر- أول طريقين من طرق الإبل المعتادة التي تنتشر في جميع الاتجاهات من موقعٍ بالقرب من الحوطة نحو

(١) راجع المتن صفحة ٣٢ . (المؤلف).

صحراء البياض حيث يسلكها الباحثون عن الحشائش لتوفير العلف لأنعام الحوطة والحلوة. أحد هذه الطرق يتابع شعيب أم العضمان الذي ينحدر عن جبل يحمل الاسم نفسه، وهو الشعيب الوحيد الذي يمدّ العقيمي بالماء الوفير في مسيرته حتى هذه النقطة. ولاحظنا بالقرب من هذا المكان أيضاً آثار زوج من الذئاب يبدو أنهما بقيا لبعض الوقت يلهوان في المهد الرملي للقناة بعد أن شربا من البركة التي وقفنا بقربها.

وبعد خمسة أميال أخرى سرناها مرتقين الوادي بعد أن تجاوزنا منافذ ثلاثة لروافد صغيرة تغذّي العقيمي، وهي خُرَيْصة من الشرق، ومزعب وحزمية من الغرب، بلغنا أول الغدران الثلاثة التي تُسمّى جماعياً غدران حلفاوي، وجاءت التسمية من شعيب حلفاوي الذي يقترن بالعقيمي بعد مسافة قليلة آتياً من الجنوب حيث ينشأ عند سفح خشم المشاش. حوّلنا الآن مسارنا بصفة نهائية بعيداً عن خط العقيمي الذي يجري في اتجاه الجنوب الغربي نحو طويق، وضربنا في الأرض فوق سهل رملي متموج عارٍ عن النبات، ثمّ تركنا الغدير الثاني - وهو الذي يوجد في موقع التقاء حلفاوي والعقيمي - بعيداً عن يميننا، وتحركنا باتجاه الغدير الثالث، وهو أكبرها وكان يسمُ موقعه أمامنا على البعد خطٌّ من أشجار السنط في مهد مجرى حلفاوي.

لم يكن هناك ما يغرينا بالتأخّر كما كنّا نأمل أن ننيخ للقيلولة بقرب الغدير، على أن نقيم تلك الليلة بموقع يسمح لنا ببلوغ الأفلاج في مساء اليوم التالي. ولكن آمالي تبدّدت حين أصاب الإحباط رفاقي نتيجة لارتفاع درجة الحرارة، وبعد قليل وجدت نفسي في معية عدد قليل من الرفاق وقد تقدمنا كثيراً عن بقية

القافلة. ورغم هذا تابعت المسير مُدّعياً أنني لم ألاحظ المؤشرات الواضحة للرغبة العامة في التوقف، وعندما تجاهلتُ موقعاً يغري بالتوقف، به مجموعة كافية من أشجار السنط العالية بجانب الطريق، فاض برفاقي الكيل إذ كان هذا أقصى ما يمكنهم تحمّله. وكنت قد تجاوزت تلك البقعةِ الظليلة كثيراً عندما جَدّ ابن جلهم في سيره خلفي ليلحق بي ملتمساً أن آمر بالتوقف قائلاً: «هذا أحسن للمقيل، والماء بعيد يا صاحب، خلينا ننزل بِهَذا ونرتاح ونمرح الماء». ولكن محمداً كان قد طمأنني أنّ الغدير لم يكن بعيداً، وكان خوفي -من إجهاض أملي في تخطّي ذلك الغدير بمسافة كبيرة إن لم نبلغه قبل التوقف للقيلولة- هو الذي جعلني أرفض التماس ابن جلهم الذي عاد خائب الرجاء ليخبر رفاقه بقراري.

جرى تشاور حول العصيان وقررت المجموعة التي كانت خلفنا بالإجماع النزول في ذلك الموقع المختار. وصاح إبراهيم محاولاً إرهابي بقراره: «يا صاحب نقيِّل بهذا»، وأجبته ملتفتاً من فوق السرج دون أن أتوقف: «قيِّلوا انتو بكيفكم، وأنا واللي معي بكيفنا». في هذه اللحظة كنت متقدماً أمام الآخرين بمسافة كبيرة، وحيداً بمفردي ولكنني لم أكن آسفاً أن قد حانت اللحظة التي لم يكن منها بدّ،وهي المواجهة بيني وبين إبراهيم التي كانت قد تأخرت تحيُّناً للظرف المناسب، وها هي تأتي نتيجة لمخالفة صريحة منه لأوامري. واصلت سيري برفقة مترك الذي أرسله إبراهيم لإقناعي بالعودة بعد أن عاد محمد خائباً، وبعد أن تجاوزنا المتمردين بمسافة ميل رأيت أنه ليس من المناسب متابعة السير أكثر من هذا لسببين، أولهما: أنّه لا ينبغي الاقتراب من مواقع الماء دون إكمال الإجراءات التحوطية اللازمة، وثانيهما: لرؤيتنا قطعاناً ترعى في الأنحاء دلالة على وجود رعاة من الدواسر في المنطقة. وأنخنا مطايانا في السهل العاري ونشرنا فرشنا تحت ظل

شجـرة سنط غير ظلـيلة، استعـداداً لقضاء السـاعات القائظة مـن النهار في ذلك الموقع، ومعنا فقط بقايا الماء الذي كنت أحمله معي في زجاجة والتي تقاسمتها مع رفيقيَّ، بينما كان لي عزاءٌ إضافي في غليوني تحمل مـترك بشجاعة غياب القهوة، ورغم أنّه كغيره من أبناء جلدته يحبّ مسرّات الحياة، إلا أنّه تمرّس على تحمّل كل الصعـاب نتيجـة لحياة المشقـة التي عاشهـا من قبل وتحمّل غـياب القهـوة بعد أن عارضت رغبته في الإتيان بها من المخيَّم الآخـر. وقضينا فترة القيلولة بين الحديث والنوم، بينما كان المحمدان يتبادلان مواقعهما بين مخيمنا والمخيم الآخر.

كـان جهـاز قيـاس الحرارة يقـرأ في السـاعة الثـالثة درجـة قريبـة من ١٠٤° فهرنهـايت، ساعتئـذٍ أفقتُ من نوم خفيف عنـد وصول إبراهيم وبقية المجـموعة لموقعنا،ومرور «الحملة»، إذ كـانت عادتنا إرسال جماعة الخـدمات أمامنا من موقع المقيل لتصل قـبلنا للموقع المحدد لمخيم المبيت، بيـد أنني لم أظهر أنني كنت على علم بوجودهم، وتظاهرت بالنوم لأسـمع ما يقولونه، واستـمتعت بسمـاع الكثير الذي قالوه عن عـدم عقلانيتـي. وفي النهاية جلست وكأنني أفـقت لتوّي من نومٍ أعاد إليّ حـيويتي، وأبديت دهشتي لوجـودهم بيننا، وطلبت من متـرك أن يعمل على نصب خيمتي وإعداد القهوة، وفي هذه الأثناء خاطبت المجموعة قائلاً: «ماذا تقولون عن تصرفكم اليوم وأنتم ترون أنّ ابـن سعود قد أعطى إبراهيم وابن جلهم -عندماجاء ليودّعني - أوامر صريحـة بأنّهم مسؤولون عن سلامتي وراحتي، ولم يكن يحقّ لهم تحت كل الظروف أن يتـركوني بمفـردي، وكان عليـهم أن يطيـعوا أوامري كما لو كانت أوامره هو؟ ورغم هذا عندما صار لكم الخيار بين أن تتبعوني أو تتبعوا إبراهيم أجمعتـم على اتباعه، وبفعلكم هذا قد أقررتم له بأنه رئيس هذه الحملة وليس أنا. إذن ليكـن الأمر كذلك، ولكن من الآن فصـاعداً توجهـوا إليه

طلباً للعطاء ولا تأتوا إليّ. والآن لماذا أتيتم جميعاً إليّ؟ أنا لا أريد منكم أحداً، وأنا راضٍ بالقرار بأن يذهب كلّ مِنّا بمعزل عن المجموعة الأخرى، وأن يخيّم كلٌّ بمفرده. اذهبوا إن أردتم إلى حيث تودّون، أنتم وإبراهيم، ولكنني قررت أن أبقى هنا للمبيت. إنّ طمعكم وكسلكم هو الذي حدا بكم للتوقف بينما كان الطقسُ معتدلاً يسمح بالمسير، أمّا الآن وقد أخذتم كفايتكم من الطعام والمنام تودّون أن تسيروا رغم أنها أكثر ساعات النهار حرارة. كان كلّ ذلك القلق للوقوف كما ادّعيتم من أجل الإبل التي ما وجدت شيئاً تقتاته في موقع «مقيلكم»، والتي تودّون أيضاً ركوبها فوق السهول الحارقة في أكثر أوقات القيظ حرقاً. افعلوا ما بدا لكم، ولكنني سأبقى هنا للمبيت، ولن تشتكي الإبل من شيء. ولكن هذا ليس كل شي، أريدكم أن تشهدوا؛ يا طامي عندما كنا في الطائف وجدة لقد أسررت لك عمّا كنت أعانيه على يدي إبراهيم أثناء المسير، ثم أخبرتك ثانية قبل أن نبدأ هذه الرحلة عن مخاوفي من أنّه سيكون سبباً في مزيد من المشاكل، ولكنك تعهدت بألا يحدث شيء من هذا، ورغم ذلك، وعند أول سانحة برهنت الأحداث صدق حدسي إنّه هو الذي ضلَّلكم جميعاً، وسيفعل ذلك مستقبلاً. لذلك دعونا لا نبرح هذا المكان حتى نقرر إن كانت رغباته أحقّ أن تُتّبع أم رغباتي. دعوه يتولّى القيادة، لا ضير في ذلك وسأتبعه حتى تنتهي هذه الرحلة، ولكن اسعو إليه، وليس لي لتحقيق الربح، وسيحكم بيننا ابن سعود في نهاية الأمر».

قلت هذا ودلفت إلى خيمتي متجاهلاً كل المحاولات التي بُذلت لتهدئة خاطري وحنقي، ورغم التماسات المجموعة لمواصلة السير. لم يجرؤ على الاقتراب مني سوى مترك ومحمد فقط أثناء فترة ما بعد الظهيرة، وأحضر لي

الأخير غزالاً صغيراً عمره يوم واحـد، كانوا قد التقطوه أثناء السير، وقاوم الحيوان الصغيـر كلّ محاولات إسقـائه اللبن، ولكنه سرًى عني بمحاولاته المتـمردة للهرب من القيـد الذي كان قد رُبط إلى وتد في داخل الخـيمة. ورغم كل مـا حدث من تحوّلات وندم في مخـيمنا، فلقد قررت أن أواصل في إصرار إظهـار عدم الرضا، لا سيما نحو قادة المجموعة من أجل تصحيح مـسار علاقاتنا مستقبلاً. وبعد وجبة المساء التي تناولناها في صـمت مطبق ذهبت لأنفرد بنفسي في خيـمتي وأنا أسائل نفســي عن الأثر الذي أفرزته العـاصفـة التي هبّت من جرّاء أحـداث اليوم وعـمّا ستتركه من أثر على العلاقات المستقبلية بيننا. كان على إبراهيم -على أيّ حال- أن يفكر ويتأمّل في الأسباب التي قادتني لمهاجمته علناً، وما كان ليلوم غير نفسه على ما حدث. كنت مُـصراً على أن أتابع القضيـة حتى نبلغ فيهـا قراراً، وكنت على يقين من أنّ بُغض العرب الطبيـعي ومقتهم لتطاول مُدّة الألم سيـساعد على الأقل في تحقيق أغراضي، وهي السيـر بسرعة معقولة خاصة عبر الأجزاء المـقفرة الكئيبة من الرحلة الطويلة التي تنتظرنا.

لقد كان حكمي على الأمـور وتقييمي لها صائبـاً، ولكنّ الصراع لم يكن قد حسم بعد. وبعد أن اغتسلت في الصباح انضممت للحلقة حول نار المخيّم كالعادة ولكنني تركت - بطريقـة لفتت الانتـباه - الأمر لإبـراهيم ليعطي إشـارة البدء في المسير.

كانت الجولة الأولى في مسيرة اليوم جدّ قصيرة، إذ أن الغدير الذي كان علينا أن نسحب الماء منه، كـان على بعد ثلاثة أميال ليس إلاّ. كـان الطريق حتى ذلك الموقع يسيـر فوق سهل عارٍ متـموج، وكان يقتـرب تدريجياً من شعـيب حلفاوي

الذي تسم موقعه أشجار السنط، والذي كان يبعد مسافة ميلٍ إلى اليسار من موقع مبيتنا، وكان الطريق يسير أيضاً موازياً لخطّ سلاسل تلال دغمة والمشاش التي تمتد على بعد ثلاثة أميال إلى الشرق، بينما كانت تلوح بعيداً في الغرب مرتفعات طويق الممتدة التي ارتفع على هامتها شكلان مخروطيان قالوا لي إنّهما يسمان الموقع الذي يصدر منه وادي برك نحو السهل. وعبرنا نفس هذا الشعيب على بعد نصف ميل من الموقع الذي يلتقي فيه مع شعيب حلفاوي قبل أن نبلغ الغدير الذي يقع في مهدِ الشعيب نفسه على بعد نصف ميل أعلى نقطة الاقتران المذكورة.

وجدنا الحملة بجوار البركتين الكبيرتين الممتلئتين بمياه الأمطار اللتين تكونان الغدير وكان أفرادها يسحبون الماء اللازم لأعمال الطبخ. ترجّلت لأدخن غليوني في هدوء بينما كان الرفاق يملؤون قرب الماء. كانت تحفُّ بمجرى الوادي على الجانبين أشجار السنط جيدة النمو أعلى وأسفل برك، ورأينا بجوار مصدر الوادي الذي ينبع من سطح الأرض الرأسية - خشم المشاش - موقع ماءٍ دائم خاصاً بالدواسر، وهو مكوّن من مجموعة من الآبار غير المبطنة، أو بالأحرى ثقوب ماء، تُعرف باسم غريب: مشاش النسوان. كان مهد النهر مكوّناً من كتل عظيمة من صخور الحجارة الجيرية، وتغطيه صخور جلمودية ضخمة، والتي تركت بفضل الماء والخضرة الوافرة فوق حوافها أثراً جميلاً في خضم تلك الصحراء المقفرة العارية.

عندما عاودنا المسير، تتبعنا الجانب الأيمن لشعيب حلفاوي لمسافة ميل واحد حتى الموقع الذي ينحني فيه الشعيب بحِدّة إلى الخلف عائداً نحو خشم المشاش. ويقترن به في جانبه الأيسر شعيب كبير من منحدرات طويق هو شعيب طلحة.

وفي هذه النقطة عـبرنا المجـرى الصخـري الذي يضم رغمـاً عن ذلك كثـيراً من الأشجار، والذي لاحظت فيه بعض البرك تفيض بالماء بين الصخور. ثم تركنا هذه من خلفنا وتتبّعنا تارةً شـعيب طلحة الذي كانت تغطيه الحصـباء، أو كنا نسير إلى جانبه حتى اقترن بشعيب بعيجة. وبعد ذلك أخذ الأخير يبتعد عنا تدريجياً ناحية اليمين نحـو طويق، وواصلنا نحن فوق سـهل سطح هائل مكوّن في مـعظمه من تربةٍ طفلية ناعمة ولكن مع وجود خطوط قليلةمن الحـصباء. امتدّ هذا السهل نحو مرتفـعات انصلح وهـي رقعة جـرداء تصلُ الجانب الغـربي للبيـاض مع الأطراف الشرقية لطويق، وبذا تكوِّن الحـدود الشمالية ومستجـمع الأمطار لشبكة التصريف الواسعة المكونة من المجاري التابعة لنظام تصريف صبحا.

واصلنا السير في مجاهدة ونصب فوق الأرض المقفرة المسطحة الرملية دون أن تُسَرِّي عنا رقعـة معشبة أو خضـراء، وكانت تلهب ظهورنا أشعة الشـمس الحارقة التي لا ترحم. كانت النسـمة الجنوبية الرقيـقة تهبُّ علينا في بداية السيـر ولكنها تراجعت لتترك سكوناً مُمضّاً لا تحركه نسمة أو هواء.

كانت الحرارة الحارقـة والبطون الخاوية قد جعلت رفاقي يخـتلسون النظر نحو الحملة التي كانت تحمل كالعـادة خليط اللحم والأرز البارد الذي كان يُعَدُّ ليلاً من أجل إفطار الغد، ولكن لم يرتفع صوت مطالبـاً بالتوقف لبعض الوقت، بل على النقيض من ذلك كانت هناك رغـبة لزيادة السرعة التي نسير بهـا. وتنفيذاً لقراري فقـد كنت أمشي تابـعاً وليس قائـداً، وكانت ذلولي التي تسـتجـيب لرغبـاتي قد أفسحت المجـال للآخرين للتخطّي، وكنت في بعض الأحيان أسـير خلف الحملة نفسها، وكان مترك ومحمد يتـأخران في بعض الأحيان ليحثاني على زيادة السرعة

فيلقيان محاضرة عن ضرورة الترفق بالمطايا في الحرّ القائظ. وبعد أن فشل طامي من تحمل الجوع عاد إلى المؤخرة محتجاً بصوت جهير معلناً أنه سيموت إن لم يجد طعاماً، ولكنني أخبرته أن عليه أن يُخبر إبراهيم بما هو فيه من بلاء، إذ أنّه الذي كانت مقاليد الأمور بيديه الآن وفقاً للقرار الجماعي الذي اتخذوه في اليوم السابق، وأخبرته أن قراري بعدم التدخل في سلطاته قرار لا رجعة فيه. اعتاد العرب على تحمّل غياب الطعام، لكنهم لم يكونوا يستطيعون الصبر على تأخير تناول ما بأيديهم من الطيبات. وانقلب الشعور العام الآن ضد إبراهيم، إذ أنه سبب متاعبهم. تراجع إبراهيم ليحاذيني حيث كنتُ أسير في مؤخرة الركب وهو يحتج بأنني فهمته خطأ، وصار يؤكد لي بحماسة زائدة أنه لن يعصي لي أمراً في المستقبل. ولكنني أخبرته أنني لا أود أن أناقش الأمر معه، إذ أنني قد توصلت إلى قرار لا رجعة فيه وهو أن يصبح هو القائد الوحيد، وعندما أصرّ على مناقشة الأمر حثثت ذلولي بالإسراع تاركه خلفي وهو يستجدي العفو بصوتٍ جهير.

في هذا الوقت كنا نقترب بسرعة من حافة مرتفعات انصلح التي كانوا يُلقبونها أم الركبان لأنها كانت موقعاً أثيراً لعصابات النهب الذين كانوا يختبئون بين طيات المرتفعات لينقضّوا وينهبوا القوافل المارة بين الحوطة والخرج والإقليم الجنوبي. وفي تلك الأزمان كانت قبائل المنطقة هم الذين يثيرون الرعب في الأنحاء بالنهب المتكرر، ولكن في الآونة الأخيرة ساد الأمن والسلامة في هذا الصقع الخطر، ويعود الفضل في هذا للإجراءات الشديدة التي تبنّاها ابن سعود لمنع قطع الطرق ولاستغلال الجهود والطاقة التي كانت تبذل في السابق في هذا الجانب نحو أعمال أكثر فائدة. صار رجالٌ مثل مترك وآخرين من الجماعة المرافقة لي، الذين كانوا يوماً ما يعيشون مستخدمين دهاءهم على حساب مواطنين

مسالمين أثرياء، صاروا الآن راضين عما ينالونه من مرتبات دائمة من خزينة الدولة كأجور لهم على عملهم كرسل للدولة.

تسمى التلال الخارجية لهذا الصقع مُداحيّات وهي تقع في اتجاه الشرق، بينما نجد برقية إلى الغرب، وبينهما يمتد السهل الآن كالوتد العريض، بينما كانت تظهر من حين لآخر رقاع رملية تتحللها شجيرات السر وتغطيها نباتات متفرقة من عشب الآضر المخضر. وهذه النباتات هي التي أكسبت السهل في هذا الموقع اسم شعيب، ويبدو أنّ مياه الصرف تنزل فيه من المرتفعات في طريقها لشعيب حلفاوي. وتابعنا المنخفض حتى بلغنا في النهاية حزمة من الكثبان الرملية ارتقينا من خلفها ارتقاءً حاداً مستخدمين ممراً ضيقاً لنبلغ المرتفعات نفسها، واخترقناها في الموقع الذي تفترق فيه طريق القوافل التي تأتي من الجنوب لاتجاهين؛ يذهب أولهما إلى الحوطة والآخر إلى الخرج.

وتابعنا المسير وعبرنا مجرى مائياً صغيراً يُسمى قُريع الذيب، ثم شعيب نسلة نفسه. وكانت خلفية كل واحد منهما روابي عارية مقبضة تغطيها الحجارة، ولكن الأخير كان مهده الرملي شديد الانحدار ومائلاً وعريضاً يجرف جانبه في المنحنيات. ووفقاً لما أستطيع تأكيده فإن هذا الشعيب يقترن في النهاية بشعيب مداحيات رغم أنه يحمل قليلاً من الماء في حالاتٍ نادرة. ورأينا في الجوار بركة ماء مما أعطى مؤشراً لمرور السيل منذ عهد قريب، ولكن ثقوب الماء التي احتفرت في الرمال إلى الأعلى قليلاً كانت جافة، رغم أن الماء يمكن الحصول عليه هنا دون صعوبة بحفر ثقوب جديدة في أي مكان في المجرى. كان الذي يفصل شعيب انصلح من وادي الخبي الذي هبطنا إليه الآن عبر منحدر مقفر طويلٍ لطيف التدرج

سلسلة تلال منخفضة. وقبل ساعة من منتصف النهار بلغنا رقعة من السنط عند رأس شعيب الخبي الذي يقترن في النهاية مع انصلح، وكنا قد سرنا لمدة خمس ساعات دون توقف منذ أن غادرنا غدير حلفاوي. حينها قُدِّم إليَّ التماس أخير لأعطي الإشارة بالتوقف، لكنني لم استجب، واضطر إبراهيم لإعطاء الإشارة.

أتى إليّ الآن وفدٌ مكون من ابن جلهم وطامي وأبلغاني التماس إبراهيم للصفح عما بدر منه، وألحّ عليَّ طامي أن أعفو عنه واعداً إياي أنه لن يفعل شيئاً يثير حنقي مستقبلاً. كان هذا الأمر الآن قد طال أمده وكان الإجهاد الذي تحمّله الجميع أثناء النهار دليلاً كافياً على روح الندم من المجموعة بكاملها، لذا أرضيت نفسي بأن طلبت من ابن جلهم وطامي أن يتعهدا أمام الجميع بأن يكونا مسؤولين عن تصرفات إبراهيم مستقبلاً، ثمّ أعلنت وسط ارتياح من الجميع أنني قد عفوت عنه متجاوزاً عن تصرفاته السابقة شريطة ألاّ يكون هناك مجال في المستقبل على الإطلاق لازدواجية القيادة، وألاّ ترتفع الهمهمات المعارضة. وقد بدا إبراهيم في هذه الأثناء خجلاً وهو يشغل نفسه بنصب خيمتي، وتساءل إن كان قد عُفي عنه. تحدثنا بعد ذلك كثيراً وكان المؤشر لإعادة العلاقات الوديّة هو ظهور الوجبة التي طال انتظارها كثيراً والتي أوفيناها حقها.

الفصل التاسع

الأفلاج

١- الطريق:

كان أعلى موقع تتجمع فيه الأمطار يبعد نحواً من ثلاثة أميال جنوب المكان الذي خيمنا فيه للقيلولة، وكانت تجري وتحيط به بين الشرق والغرب؛ بين طرفيْ البياض وطويق حوافٌ صخرية خفيضة لكنها محدودة المعالم، وبذا كان يشكل حاجزاً طبيعياً بين مرتفعات انصلح الوعرة وسهل ظهرة الرجد الصحراوي الممهد، ثم ينحدر إلى أسفل بلطف شديد نحو سهل الأفلاج. وأنا الآن على ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، و٤٠٠ قدم فوق الرياض التي كنا نقع جنوبها، و٩٠٠ قدم فوق اليمامة، قياساً على أدنى منخفض في سهل الخرج. وكان ارتقاؤنا من ذلك المنخفض تدريجياً وغيرَ مدركٍ بالحس، ولكنه تدرج مستمر.

ولكن شعيب الخبي كان آخر الأودية المتجهة نحو الشمال وآخر روافد العقيمي من ناحية الجنوب، وكان علينا ابتداءً من الآن الهبوط في طريق يتجه جنوباً، لتقاطع مسارنا المجاري المائية القادمة من طويق متحنيةً في الاتجاه نفسه في طريقها لصحراء البياض. ولاح لنا هذا القفر على يسارنا على البعد باهتَ الصورة كشطٍّ خفيض يتجه نحو الجنوب من المعلم المعروف خشم المشاش، ونظراً لمظهره الخادع - إذ يبدو أكثر ارتفاعاً مما هو عليه في الحقيقة - فإنهم يسمونه الحقاف أو الصخرة. وعند سماعي لهذا الاسم لأول مرة أثار فيَّ تساؤلاتٍ عن تلك الأصقاع الرملية الغامضة البديعة التي تظهر في معظم خرائط الجزيرة العربية والتي وصفتها

كثير من الأعمال الجغرافية الخاصة بالإقليم تحت اسم الأحقاف[1]. إن التشابه أو في الحقيقة التطابق بين الاسمين - إذ أن العرب المعاصرين ينطقون الاسمين حقاف - أوحى إليّ للحظةٍ أنني كنت أنظر للتلال الرملية الأولى للربع الخالي، ولكن ما لبث هذا الوهم أن تبدّد بعد أن أوضح لي الرفاق أنهم يطلقون ذلك الاسم فقط على الصخرة الظاهرة أو الحافة الخارجية للسهل الواسع المسمى البياض، وهو قفرٌ أرضُهُ ثابتة ومسطحة وتغطيها الحصباء وتُشبه ظهرة الرجد رغم أنها تفوقها كثيراً في المساحة. لم يكن لرفاقي علم بالأصقاع الرملية التي تحدثت عنها حتى جابر المرّي الذي كان يعرف الصحراء الرملية العظيمة وأجزاء كثيرة منها مثل الجافورة وخيران، ولكنه لم يسمع قط باسم الأحقاف.

كانت الحرارة مرتفعة أثناء الساعة الأولى بعد التوقف، وسجل مقياس الحرارة في خيمتي ١٠٦ْ فهرنهايت عند الظهر، ولكن بعد ذلك هبّت ريحٌ شمالية عاصفة لطّفت الجو، وهبطت القراءة في مقياس الحرارة لتبلغ ١٠٠ْ فهرنهايت عندما واصلنا المسير في الساعة الثالثة عصراً. كانت تخط المرتفعات الحارقة خطوط من الحصباء السوداء هنا وهناك، وكان المكان يعجّ بمجموعات كبيرة من الضب وهو نوع غريب من السحالي المصفحة ثقيل الجسم ولكن سرعته مدهشة. وكانت هذه الحيوانات عند رؤيتها لنا وهي ترقد تحت الشمس، تسرع كالبرق للاحتماء

(١) هناك سورة في الجزء السادس والعشرين من القرآن باسم الأحقاف، وهو إقليم كان يحمل ذلك الاسم في مملكة عاد في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية التي أهلكها الله بارتكابهم المعاصي بعد أن امتنعوا عن الاستجابة لتحذيرات النبي هود. (انظر الحاشية صفحة ١٤٤). ويوضح سيل (في صفحة ٤٠٦) معنى الاسم كالآتي: «الأحقاف هي جمع حقف وتعني الرمال التي تتراكم بطريقة ملتوية أو لولبية، وهكذا فهو اسم لموقع في إقليم حضرموت حيث عاش قوم عاد». (المؤلف).

بالدهاليز الأرضية التي يعيشون فيها. والضب الحكيم هو الذي لا يغامر بالابتعاد عن جحره أكثر من أقدام قليلة ليسرع إليه عند رؤية أي عدوّ محتمل وعند أول إنذار. لكن أحدهم كان أكثر جرأة ؟أو أقل حرصاً من رفاقه فمتعنا بمشهد مطاردة مثيرة كلفته حياته، إذ أن محمداً عندما رآه بعيداً عن أي ساتر في أرض فسيحة قفز عن سرجه لمطاردته بينما حاول الضب الهروب. وبدأ الضب بداية جيدة إذ كانت له مزيّة معرفة موقع جحره، وكان محمد قد صمم على الإيقاع به. كانت المعركة في بدايتها واستخدم الحيوان الصغير كل الحيل اليائسة مغيراً اتجاهه، ومتخذاً مساراً متعرجاً، ودار حول مطارده ببراعة تدعو للإعجاب. وكانت له مزية أخرى، إذ أن المهاجم الذي يمسك بهذه الحيوانات بطريقة غير حذرة يتعرض لعضات عنيفة تخشاها العرب كثيراً، ولكنه فقد إحساسه بالاتجاهات، وفي النهاية وبعد فاصل من الصراع سقط ضحية للمناورات الباهرة لمحمد الذي أمسك به مسكةً آمنة من وراء الكتفين، وعاد به منتصراً لنراه قبل أن تريحه السكين من العذاب. كان طول هذا الضب أكثر من قدم ويصنفونه جضا أي له سنتان من العمر، وهو خير أعمارها طعام للإنسان، ورأيت بعض عينات من الضب بلغ طولها قدمين وجسمه يناسب ذلك الطول، وهو في العادة يتبع إلى جحره ثم يستخرج منه، وتعده العرب طعاماً مترفاً لا يقل عن الدواجن. ولكن ليس هناك في رأيي ما يبرر هذا التقييم والمكانة إذ أن اللحم الموجود بذنبه الشائك (العكرة) والذي يعدونه أجود مذاقاً من بقية الجسم له طعم «سمكي يكاد أن يكون غير مستساغ».

اكتمل محصول صيدنا بجربوع استُخرج بعد حفر جحره، وطائر طهيوج تم الحصول عليه في ظروف غريبة. وكان أربعة من هذه الطيور يطعمون بالقرب من

طريقنا عندما اقتربنا منهم، ولعلّ بُطأهم وثقلهم لم يسمح لهم ببذل جهد سوى أن جثموا منكمشين في الرمال ظنّاً بأنهم هكذا يختبئون عن الأنظار عندما مرّت إبلنا بإزائهم. ولكن محمد الآخر كان قد استخرج بندقيته وعبّأها قبل أن ينزلق بهدوء إلى الأرض، ثمّ استتر من وراء شجرة شوكية صغيرة، وأطلق النار عندما خلا منّا المكان، وعندها قفزت الطيور الأربعة لارتفاع ياردة في الهواء ليحطوّا في ذات الموقع وقد أخذ منهم الرعب كل مأخذ، وأطلق محمد ثانيةً ونهضت ثلاثة طيور وداروا حولنا ثم هربوا تاركين الرابع على الأرض وقد أُصيب، ومن المحتمل أن الطلق الناري الأول كان قد أعاق أحدها عن الطيران وأن رفاقه قد قفزوا للهواء وعادوا لموقعهم معه شفقة به، أو أنّ الأربعة لم يحسوا بالخطر المحدق بهم وقد أصابهم الحرّ القائظ بالدوار حتى رأوا أحدهم وقد لاقى حتفه. كانت الضحية قد أصيبت بكسر في الرجل إضافة لجرح عميق في البدن.

ورأينا كثيراً من الغزلان أثناء النهار، ولكن لم تكن بالقرب الذي يسمح بالمطاردة، بينما خيّبت آمالنا الصغيرة المتمردة التي بذلنا جهداً كبيراً لتهيئة الظروف المناسبة لترحيلها على إحدى مطايا الحملة، إذ راحت ضحية الحرارة القائظة.

توّج نصبٌ كبير من ركام الحجارة هامة الصخرة في الموقع الذي شقّ فيه طريقنا المكان من مرتفعات انصلح ارتقاءً لمرتفعات رجد التي سرنا في سهلها الفسيح الذي لا تشوبه سوى كتل بازلتية[1] كبيرة هنا وهناك، وهي ما يسمونها في

(١) من المحتمل أن الروابي السوداء الكثيرة والتلال الموجودة في هذا الصقع وإلى الجنوب منه لم تكن من البازلت، بل حجارة رملية لسوء الطالع لم تصل إلاّ منذ عهد قريب، والعينات التي جمعتها من الجزيرة العربية ليقوم الاختصاصيون بتحليلها، وللأسف لم يتم التحليل بعد. وكنت في حقيقة الأمر قد تركت العينات مع أمتعتي الثقيلة التي وصلت متأخرة. (المؤلف).

هذا الإقليم الجنوبي هلا. وسرنا في اتجاه الجنوب وقبل أن ننصب خيامنا للمبيت بقليل كنا قد عبرنا طريقاً واضح المعالم يجري من الشرق للغرب بين مراعي البياض من جانب، وآبار قَلْها والورهية من جانب آخر، ويبعد الجانب ستة أميال عن الآخر. ثم سرنا حوالي سبعة أميال أثناء فترة ما بعد الظهيرة حتى بلغنا أول شعائب رجد وهو رافد لا اسم له يغذّى شعيب ديّة الذي ما بلغناه بعد. وقررنا أن نتوقف، ووجدت هنا في شجرة شوكية كثيفة عشّ صرد أو صلد وبه أربعة أو خمسة أفراخ لم يكتمل نمو أجنحتها بعد، وكانت الأم تحوم محلقة فوق الفروع العليا للشجرة لا تكترث لسلامتها هي بقدر اهتمامها بسلامة أفراخها، وكنت حينها أقوم بفحص العش، ويبدو أنها فعلاً من عائلة الصُّرد وألوانها بيضاء وسوداء ويعرفونها في شمال نجد باسم صبرى.

عندما واصلنا المسير صباح اليوم التالي عبرنا طريقاً آخر يقود إلى آبار قَلْها قبل أن نبلغ شعيب ديّة وهو أول الشرايين لنظام رجد الصرفي. يلتقي في أعلى هذا الموقع شعيبي الدُّرَيْعي وغُلْغُل ثم يعبر الشعيب المزدوج طريقنا في اتجاه الجنوب الشرقي ليقترن بشعيب شُطَاب - الذي عبرنا مهده المعشب والذي تكسوه بكثافة شجيرات المرخ والسلم - بعد ميلين من نقطة الاقتران. بدأت الآن المرتفعات في التموج اللطيف بعد أن كانت منبسطة حتى هذا الموقع. وكان طريقنا يهبط عبر سلسلة من الدرجات السهلة نحو سلاسل من التلال السوداء المختلطة في غير ما اتّساق، وسرنا بطول مهد شعيب الغينة الرملي المليئ بالأشجار. ثم أنخنا هنا بقرب بُريكة صغيرة من مياه الأمطار لتناول الإفطار، وتروّت في البريكة إبلُنا قبل أن نواصل سيرنا بجوار هضبة بارزة سوداء اللون وذات شكل مخروطي، وتحمل اسم ضليع العبيد، ثمّ تخطيناها لنخرج بعدها عن المجرى نحو مرتفعات متموجة

من الحصباء التي كان سطحها مقسماً إلى مربعات من اللون الأسود والبني، وكان اللون الأسود يسود أكثر كلما تقدّم بنا المسير حتى هيمن على المشهد في كل مكان حولنا، وبدا أمامنا وكأنّ حريقاً هائلاً شبّ في عهود قديمة وأحال المكان - لأميال عديدة في كل الاتجاهات حولنا إلى رماد[١]. يمكن أن تكون لهذا الحقل البركاني المتسع صلة بالمكان الذي يُسمّى حرّة السودا[٢] التي أخبرَ داوتي أنها تقع في منطقة طويق على مسيرة نصف يوم، ولكن لم يكن لها من الجلال ما كان لكتل الحرات العظيمة الموجودة في الحدود الغربية. وقد تكون هذه هي الطرف الأقصى لامتدادٍ شرقي للمرتفع العظيم الذي تمتد كتلته الرئيسة نحو الجنوب مذكّرةً بمردة حرة نواصف[٣].

تقدمنا للأمام لنجد شبكة من الشعاب الصغيرة التي تعرف جماعياً باسم أمهات شبيرم تعبرُ الأراضي السوداء القفر في طريقها لتقترن بشعيب الغينة الذي ابتعد تدريجياً - بأشجاره الخفيفة - عن طريقنا. أفسحت لنا بعد ذلك سلسلة سوداء منخفضة تقع من وراء هذا المنخفض المجال لرؤية حوض عريض في الأسفل، وانحدرنا نحوه قاصدين رابية يعلوها نصب من ركام الحجارة يسمُ موقع الآبار في الجانب الأقصى. ونحو هذه النقطة بدا مجريا سيل عريضان هابطين من جوانب طويق عبر الأراضي الوعرة. وأراح الخطّان الأخضران النظر في خضم تلك القفار الموحشة بألوانها السوداء والبنية والرماديّة ليقترنا معاً أسفل النصب، ثمّ

(١) راجع وصف الآنسة بيل للصفا شرق جبل الدروز في كتاب (The Desert and the Sawn) ص ١١٥. وما بعدها. (المؤلف).

(٢) راجع كتاب الصحراء العربية (C.M.D. Arabia Deserta) الجزء الثاني ص ٥٤٢. (المؤلف).

(٣) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٦٣، وص٢٦٧. (المؤلف).

يمرّ المجرى المتحد نحو شعيب الغينة، ثم يتخطاه. كان الشعيب الشمالي منهما يسمى وادي العرس والآخر وادي المراء، والاسمان يذكِّران إن لم يكونا طرفاً في أسطورة تتحدث عن زواج ريفي تمت فيه الخطبة وحفل الزواج ودخول الرجل بعروسه بالقرب من ثقوب الماء المسماة مشاش العرس في موقع التقاء الواديين. حدث هذا الزواج في مناسبة يبدو أنها كانت التقاء قسمين متحاربين من أقسام الدواسر، حضر أحدهما من الشمال - كما فعلنا - أسفل وادي العرس، وهبط الآخر بطول المراء من مراعي طويق. وهناك منخفض بين المجريين، وكانت هذه السلسلة تحجب الفريقين بعضهما عن البعض حتى التقيا في الفضاء حول الآبار حيث دارت مشاورات سلمية لسبب غير معروف بدلاً عن المشاحنات والاستعداد للقتال، ثم تحوّلت على الفور إلى سلام دائم بزواج ابن أحد الشيوخ بابنة الشيخ الآخر. ترتبط ذكرى عقد القران بمجرى المراء، بينما ترتبط ذكرى وليمة الزواج بمجرى العرس.

أما الآبار فهي حفر غير مبطنة حُفرت في مهد المجرى الرملي لعمق أربعة إلى ستة أقدام في مواقع متعددة تغطي مساحات كبيرة. كانت هذه الآبار قد أفرغت تقريباً من محتواها بفضل تجمع من الرعاة الدواسر وخرافهم، وكانوا يحتلون المكان عند ورودنا إليه، ولكن إبراهيم استطاع - لا أدري إن كان بطريقة لطيفة أو خشنة - إقناعهم بحاجتنا الماسة فتركوا لنا إحدى الآبار واستعار منهم وعاء كانوا يستخدمونه لسقيا الخراف. هذه الأوعية تتكون من قاعدة أملودية بارتفاع قدمين وقطر يبلغ الطول نفسه ويوضع من فوقها جلد يستقبل الماء الذي يسحب من البئر. احتللنا إحدى الآبار للفترة القصيرة التي أنخنا فيها للقيلولة. وعندما ينضب معين الماء في البئر كان يتجدد سريان فيه بإجراء المزيد من الحفر في القاع الرملي. وكانت المياه بطبيعة الحال غير نظيفة لكنها كانت مقبولة وذات برودةٍ منعشة.

وعندما عاودنا الرحلة بعد الظهر سرنا بطول حافة سلسلة وثيثيات بين الشعيبين اللذيْن ارتفعا بحدّة عند بلوغهما الجانب القصيّ من الحوض نحو نتوء حجري، ثم هبط الطريق بعد الوصول لقمّة النتوء هبوطاً حاداً بلغ مداه مئة قدم في اتجاه السهل الفسيح الذي كانت تحيط به مرتفعات صحراوية غير محددة المعالم وذات حواف منخفضة وتتقطعها رقاع مفرقة ومُعْتِمَة. عند رؤية هذا المشهد حيّاه الجمع تحية رجل وصل إلى غايته بعد أن هدَّه المسير «لا إله إلاّ الله، انظر يا صاحب! أُسَيْلَة(1) أمامنا». صاح محمد عندما توقفنا هنيهة لننظر إلى مسقط رأسه، وواصل حديثه «ومن ورائها ناحية اليسار تقع الجفرة، حيث توجد مزارع وحقول الحبوب وهناك ليلى والعمار وصالح وهذه هي الأفلاج وهذه هي بلدي؛ وهناك حيث سنقيم ليلتنا تسكن زوجي».

(1) وتسمى أيضاً (وسيِّله) و(أوسيِّله). (المراجعون).

٢- الأفلاج الحديثة:

«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر» كانت هذه الكلمات هي العصب لترنيمة قادتنا أثناء مسيرة النهار فوق قفار رجد المحرقة. كان الحداء الذي يترنم به منفرداً محمدٌ الشاب تكرّره المجموعة كما هو دون اختلاف، وليس بترديد لازمة خفيفة خلفه. لم أكن قد سمعت الحداء من قبل، وأدهشني أنها كانت منسجمة مع رتابة المكان من حولنا، ولكن رؤيتنا للحمى أمامنا حوّل المزاج على الفور بين رفاقي وعمّهم الفرح والحبور، وصاروا يتقافزون في مرح كالأطفال وهم يغنون أغاني مبتذلة عن الحب والحرب والسفر، وتارةً أخرى يهمزون مطاياهم المنهكة في عدوٍ محمومٍ لاصطياد غزال صغير مررنا بقرب مربضه في السهل المعشب.

ووفقاً لتقديري فإن قُطْر سهل الأفلاج يقلّ قليلاً عن أربعين ميلاً، ويضمّ الأراضي المنخفضة للإقليم. أما المناطق التابعة لها في مرتفعات طويق فستكون هناك فرصة للحديث عنها بمناسبة مروري بها في رحلة العودة. أمّا السهل فهو حوض دائري فسيح يميل قليلاً من الغرب للشرق، وتحيط به تماماً الحافة الشرقية لهضبة طويق من أحد الجوانب، والصخور المنخفضة للبياض من الجانب الآخر، باستثناء فرجة ضيقة في الجانب الشمالي لمحيط السهل، والتي تحجبها الصخور الجنوبية لهضبة رجد. وتربة الحوض طفلية رملية خفيفة وتغطيها تماماً الأعشاب الصحراوية وفي بعض المواقع تنتشر فيها أشجار قصيرة كثيفة باستثناء الربع الجنوبي الشرقي للدائرة الذي تغطي سطحه حجارة جيرية سهلة التفتت، وهو بعد عارٍ وقاحل ويرتفع قليلاً فوق سطح السهل.

وتمتدّ قطرياً بعرض الحوض من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي أرض عريضة ذات خصوبة تفوق خصوبة بقية الأرض، وكانت تختلف اختلافاً بيّناً عن الصحراء التي كانت تحدُّها من الجانبين رغم أن طبيعتها كانت تتغيّر هنا وهناك بأمواج رملية منجرفة. كما كانت توجد بها بقايا وآثار حضارة طواها النسيان منذ عهد بعيد، وأيضاً آثار تعطي إشارات معقولة عن صناعات معاصرة. وفي هذا الجزء من السهل يمكننا أن نتتبع بمؤشرات واضحة ثلاث مراحل محددة المعالم للتاريخ المحلي: التاريخ القديم، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الحديث. فالتاريخ القديم تمثله آثار قوم عاد في الوسط، وتاريخ العصور الوسطى تمثله فترة عنزة في الجنوب والعصور الحديثة وما تحتله الدواسر الآن ومركز ثقله في الشمال.

وكنا نتجه الآن نحو الطرف الشمالي نحو آخر بقعة في الشمال، أي القطاع الحديث. هبطنا من آخر رفٍّ صخري للرجد في الزاوية التي يكوّنها الرجد مع المرفق الناتئ من طويق نحو السهل. كانت تقع أمامنا مباشرة على البعد واحةُ ليلى التي قادنا الطريق نحوها في اتجاه الجنوب عبر هضافة وهو منخفض تغطيه الشجيرات ويجري من جانب طويق في اتجاه الجنوب الشرقي بطول حافة مرتفعات رجد التي تصرّف مياهها في ذلك المنخفض من خلال أودية صغيرة يُغطيها الحصى وتجرى نحو شعيب العرس. سلكنا الطريق الرئيس لمسافة ميل ثم حوّلنا مسارنا نحو الجنوب الشرقي في اتجاه أُسيلة من موقع يسبق قاعدة الأفلاج الأمامية بقليل وهي مزارع قريبة شجرية خربة، والتي تروي القصص المحلية أنه كانت تحيط بها

زراعة منتشرة قبل نصف قرن من الزمان، في عهد فيصل[1]، رغم أن آبارها المهجورة قد ماتت منذ زمان. وكانت تتناثر الروابي البازلتية هنا وهناك في مجرى هضافة، الذي أخلى السيل الآن لرقعة ممتدة تربتها طفلية رخوة تغلّفها الأملاح وتغطيها أعشاب الرمث ويقطعها مهد رملي لشعيب أم الجرف الذي كان يتلوّى بين جانبين يرتفعان لقدمين نحو حقول الحبوب بأُسيلة.

قال لي محمد: «انظر هناك أحد قصور جرفة في اتجاه الشرق، والأرض حولها أرضي أنا وأخوتي الثلاثة وأبناء عمومتي الأربعة، ولقد تمكنّا أخيراً في العام الماضي من إعدادها للزراعة بعد جهد وتكلفة مالية عالية، والآن استأجرها منّا الحضر (أي رجال المدينة) في أُسيلة لقاء ٥٠٠ صاع من القمح في السنة. وتوجد بالأرض ثلاث آبار سحب عمقها عشر قامات، لذلك كان جهد حفرها عظيماً، وفي كل عام في وقت الحصاد نأتي من المراعي لاستلام حصصنا من الريع. ولقد اتخذت زوجة من الحضر تعيش في أُسيلة مع أهل أبيها، ولكنني لا أراها إلاّ لماماً، ولكن -إن شاء الله- عندما تأذن لي الليلة أو غداً سأقوم بزيارتها. ونحن نقدّر أن المسافة بين أُسيلة والأحساء تستغرق اثني عشر يوماً عبر البياض، ونحن نسقي الإبل مرّة واحدة أثناء الرحلة في أُسيلة قبل أن ندلف إلى الدهناء. هناك تلٌ صغير إلى الجنوب من أرضي، أتراه؟ إنه هناك في حافة الصحراء، نحن نسمّيه مريقب، وعلى قمته يجلس الرعاة يراقبون قطعانهم وهي ترعى».

اقتربنا من غايتنا. وكانت القصور مصطفّةً في خط طويل حسبت منها أربعة عشر، ستة منها خربة واصطفت بجانبي أم الجرف في شريط ضيّق من الأرض

---

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

المزروعة بالحبوب مع رقاع متفرقة من البرسيم والعصفر وشجيرات رمان متناثرة بامتداد ميلٍ أو نحوه حتى قرية أُسيلة الصغيرة وما يحيط بها من بساتين النخيل. وكانت بساتين النخيل في أُسيلة خمسة بساتين متناهية الصغر. سحبنا عنان المطايا وخيَّمنا بجوار إحدى القصور الكبيرة على حافة المجرى، وبدأ الإعداد لوجبة المساء. ولم يأبه أحد من أهل الناحية بقدومنا ولكن أثيرت احتجاجات فظة عندما تقدم إبراهيم ليجمع بعض الحطب لاستخدام المخيّم.

وكان رد فعلهم هو حجارة قذفوها نحونا وإساءات وجهوها لزعيم المعارضة الذي نكص على عقبيه لينضم إلى رفاقه دون أن يسبب أي نوع من المشاكل بعدها. وسألت محمداً: «ولكن أين أم الشناظر التي تظهر على خارطتي بالقرب من أُسيلة؟» فأجاب: «لاأدري، ولكن كل هذه أُسيلة حتى بساتين النخيل هناك، ولكن الاسم الآخر لم أسمع به على الإطلاق».

ولكن كان معنا رجل حضري من الخرج يدعى عبدالعزيز وكنا قد التقينا به سائراً بمفرده على قدميه في اليوم الأول لنا في ذلك الإقليم، وكنا نساعده بإعطائه الفرصة للركوب من وقت لآخر والسماح له بالإقامة معنا في المخيم ومشاركتنا طعامنا.

قال لمحمد «ألا تعلم؟ إننا نخيّم الآن في أم الشناظر، إنها ليست سوى اسم البئر التي سحبنا منها الماء الآن، إحدى آبار أُسيلة، ولكن الغريب أن دارك هنا ولا تعرف قريتك بالقدر الذي يعرفه غريب لم يرَ المكان من قبل، ولكن الإنجليز لا تفوت عليهم فائتة، هم يعرفون كل شيء ويستفسرون عن كل شيء، حتى أسماء النباتات والحشرات؛ كما رأينا».

معظم المياه في أسيلة مـالحة «هَمَاج» كما يسمونهـا، ولكن المياه العذبة توجد في ثلاث آبار وهي أم الشناظر، بالقرب من مـخيمنا، واثنتان أخـريان بالقرب من القرية الصغـيرة في الطرف الجنوبي للهجرة، وعمق الماء فيـها في المدى بين ثماني إلى عشـر قامات. بسـاتين النخيل بالقرية بسـاتين هزيلة تتداخل مع أجـمات من الأثل وشجيرات متفرقة من الرمان والقرية نفسها ليست سوى مجموعة من البيوت البائسة، عددها حوالي ثلاثين، وكل سكان القرية من الدواسر من فخذ آل حسن، وعددهم بالتقريب ٢٥٠ نسمة بما في ذلك سكان القصور. ويكتمل المشهد بوجود مزارع قليلة منعزلـة في الجوار في الجزء الشرقي من السهل وتحـيط بالمزارع حقول الحبوب مثل النهقة وبداخلها بيتان ريفيان «قصور»، وهي ملك لأمير ليلى، وهناك صباح الخير إلى الجنوب منها، وقصر رَوَّاس في موقع يبعد قليلاً ناحية الشرق.

في الصبـاح الباكر مـن يوم ١٤ مايو (أيار) قوّضنا المخـيّم متجـهين إلى ليلى العاصـمة الحديثة للإقلـيم والتي تبعد حوالي سـتة أميـال إلى الجنوب الغربي من أُسيلة خـرجت امرأتان كالعـادة لجمع الحشـائش لأبقار الآبار على جانب مـجرى صغير يسـمى ويطن يعبر السهل العاري من الغرب للشرق، وعند رؤيتـهما لموكبنا متقدماً عبر السهل وقفتا مـذهولتين هنيهة - لابد أن شائعات قدومي قد سبقتني - ثمّ أنزلتـا أحمالهـما من حـزم العشب على الأرض، واسـتدارتا وهربتـا في ذعر أمامنا. ولم تنجح صرخـاتنا المطمْئِنَة في إيقافهـما، ولم يكن من اللائق أن تصلا إلى المدينة قبلنا لتحكيا مـا أصابهما من ذعر بسببنا، لذا دفع مـحمد ذلوله للحاق بهما وما لبث أن عاد بهما، وجثت المرأتان الخائفتـان أمامه على ركبتيهما تتوسلان بصرخات تدعو للرثاء طلبـاً للرحمة. ولكم ارتاحتا وتعجبتا عـندما مررنا بإزائهما دون أن نعيرهما التفاتاً. وقال لي طامى عندمـا نهضتا عائدتين لحزم العشب الملقى

على الأرض: ترى، لم يحدث أن رأتا رجلاً شبيهاً بك من قبل ويحدثهن معلمهن أنكم تأكلون الرجال وتغتصبون النساء حيث ذهبتم إنهم ليسوا سوى جماعة من الجهلاء والبسطاء».

قوبلنا بكثير من الفضول غير المؤذي من الناس عندما بلغنا المبرّز وهي قرية فسيحة لكنها مهدمة، تقع في زاوية من الواحة في ركنها الشمالي الغربي حيث استقبلنا إنابةً عن الأمير تابعُه، وهو دوسري من حاشيته يدعى محمد، وقادنا بطول الحافة الغربية للنخيل لفناء رملي عارٍ في قبالة البوابة الرئيسة لليلى وهي البوابة الغربية. ويقف حائط ليلى وأبراجها التجميلية الصغيرة إلى الخلف قليلاً من وراء حاجز رقيق من النخيل في صورة ذات سحر غير معتاد، وقابلنا في أرض المخيمات مبعوثان آخران للأمير أحضرا معهما زاداً وفيراً لإقامتنا: وهي خمسة من الأغنام، وطبقين كبيرين من أجود أنواع التمور المحلية، ودلة كبيرة من البن اليمني والذي يسمّونه بَرِّيَّة لأنهم يستوردونه هنا بالبر[1]، وكثيراً من الخضراوات ولبن الأبقار وبرسيماً للإبل. وتركت لإبراهيم أمر إعداد هدايا الرد ليعود بها الخدم إلى أميرهم، وكذلك مهمة إعداد مخيمنا بينما ذهبت أنا ومعي طامى وآخرون من المجموعة دون تأخير لتحية الأمير. قادنا طريق ضيّق من مخيمنا عبر مزارع مسوّرة إلى البوابة الغربية التي كان يدعم حائط المدينة في أحد جوانبها صفٌ من أعمدة تنتصب فوق مهد مجرى السيول. بينما كان في الجانب الآخر نتوء عن خط الحائط، ذلك كان مسكن الأمير العالي المحصّن «قصر الشيوخ».

(١) المعروف أن سبب التسمية يعود إلى مكان زراعتها وليس إلى طريق جلبها كما أشار المؤلف. (المراجعون).

بدخولـنا للمدينة انحنى بنا الطريـق إلى اليمين، وبعـد خطوات قليلة وصلنا لبوابة القلعة العظيـمة التي تواجه السوق المستطيل الأبعاد. وبعـد المدخل مباشرة، وفي صالة ضيقة معتمة حوائـطها مزودة على الجانبين بأرائك طينية خفيفة، جلس سعد بن عفيصان، حاكم مقـاطعة الأفلاج التي انتقل لإدارتها منذ عهد قريب من وظيفـةٍ قليلةِ الأعباء هي إمارة قـريته بالخرج، ويُعرف ابن عـفيصان في نجـد كلها كرجل قوي لا تلين شكيمته، مع التزام صارم بالتعاليم السلفية، ولقد كان أيضاً - وفقاً لظني - ذا مقـدرة عالية من الحكمة والتصرف واللطف مما جـعله يتمتع بمزايا عديدة نتج عنها نجاحه الذي وضح في إدارته لقبيلة صعبة المراس، كثيرة المشاكل، كمـا بدا جلياً في شعبـيته. كـان الرجل يبدو في منتصف العـمر أو أقل من ذلك قليلاً، ومظهره في مـلامح الوجه والبنية مثالاً للنجـدي؛ نحيل ولكنه ليس طويلاً وبه شيء من وسامة، رقيق عظم الخد وله لحية خفيفة وذقن مستدقّة، وصوته حاد بعض الشيء. وبعد أن فرغنا من التـحايا الرسمية أجلسني الأميـر على المقعد إلى يمينه ودارت أقداح القهوة، وذهب القـدح الأول له وأخذه -وهذا أمرٌ صحيح من ناحية المراسم رغم أن عبدالله بن جلوي الذي لم يكن حاكماً لمقاطعة فحسب، بل أحد أعضاء العائلة الملكية كان سيفعل العكس- وقُدّمَ إليّ القدح الثاني.

أخبرته عن تجربتي في الخرج ومستودعات الماء العظيمة التي اعترف لي بأنه لم يرها، وقال لـي: «ولكن انتظر لدينا هنا ينابيع أكثـر عظمة من تلـك الموجودة في الخرج وستـراها غداً. أمـا وادي الدواسر فلم يجرِ فـيه الماء لثلاثة أجـيال خلت، ولكن في العـام الماضي في رمـضان جـعله الله يفـيض بالماء في المجرى القـديم واخترق حـاجزاً رملياً لمسافـة تبلغ مسيرة يومين في العـرض، وجرى الوادي حتى

كمدة. اسأل متعب هنا وهو أحد شيوخ الوادي الذي وصل هنا الآن في طريقه للرياض». قال هذا ملتفتاً لشيخ القبيلة الذي كان جالساً إلى يسار الأمير بينه وبين أحد أعيان المدينة، أظنه أحد أفراد بيت العجالين وسألت الشيخ: «إن لم تكن في عجلة عظيمة من أمرك لبلوغ الرياض، أترافقني في رحلتي للوادي ثم نعود معاً لابن سعود؟ وابتسم الأعرابي قائلاً: وش المصلحة؟» ويمكنني ترجمة هذا السؤال كالآتي: «هل تكون المكافأة بقدر العناء؟». وطلبت من إبراهيم لاحقاً أن يتابع مناقشة الاقتراح معه، ولكن يبدو أن متعب فكر كثيراً فيما عُرض عليه ولم أره بعدها. وعلّقت في حضرة الأمير مشيداً بالحالة الأمنية المستقرة في الإقليم الواقع بين الخرج والأفلاج. وكان رد الأمير: «نعم في السابق لم يكن هناك سوى القليل من الأمن في هذه الأنحاء، ولكن الشكر لله ومن بعد للسياسة الرشيدة لابن سعود أن تغيّر كلُّ ذلك، وحتى القبائل المتنافرة تُغير على بعضها البعض فقط بعد أخذ الإذن من ابن سعود، وإن لم يفعلوا تعرضوا للعقاب»[1].

«منذ عهد قريب هاجمت قبيلة معسكراً لقبيلة أخرى وقتلوا اثنين منهم ولكن ابن جلوي زجّ بسبعة من المعتدين في السجن. ولم يمض وقت طويل منذ أن سمحت لجماعة من إحدى القبائل لمهاجمة يبرين حيث سيرجعون قريباً إن شاء الله، إذ مضى أسبوعان منذ أن بدؤوا رحلتهم في الصحراء بعد أن أعدّوا لها العدّة إذ كانت كل ذلول تحمل قربتي ماء وشوالاً من التمر، وعندما يقتربون من هدفهم يتركون قرب الماء في الصحراء ليغيروا على هدفهم، ثمّ يقفلوا عائدين لالتقاط

(١) يقصد أمير الأفلاج هنا أن تحرك قبيلة ضد أي قبيلة أخرى لأي سبب من الأسباب لابد أن يكون بعلم الملك عبدالعزيز وإذنه وذلك لضبط الأمور في المنطقة وإشاعة الأمن والاستقرار. (المراجعون).

قربهم من حيث تركوها، إذ ليس في كل تلك الصحراء ماء، وفي هذا الموسم حتى الإبل لا تحتمل العطش إلاّ بصعوبة. لقد كنا في ليلى طوال الوقت مساندين أوفياء لابن سعود ضد العناصر الخارجة على القانون. إن مساهمتنا العسكرية المعتادة هي ٣٠٠ رجل ولكن في حالات الخطر الاستثنائية نرسل رجالاً أكثر، مثلاً قبل اثني عشر عاماً قام ابن رشيد، مدعوماً بكتائب عديدة من الجنود الأتراك[١]، ومعه بعض المدفعية متقدماً نحو القصيم. في تلك المناسبة ذهب ٨٠٠ رجل من ليلى وحدها للانضمام لقوات ابن سعود ونُظّم هجوم معاكس عظيم في هديّة، حيث اقتلع الله الجنود الأتراك، ثم اقتلعهم ابن سعود، وعاد بقاياهم إلى بغداد ليتركونا في سلام».

بعد مرور المبخرة علينا للمرة الثالثة، رأيت هذه السانحة مناسبة للاستئذان في الانصراف من حضرة الأمير الذي كنا نازلين في ضيافته لعدة أيام قادمة، والذي سأجد لهذا السبب مناسبات كثيرة للقائه مجدداً. لم يكن قد نهض لملاقاتي عندما دخلت عليه في البداية، لكنه نهض الآن ليعجّل بانصرافي. ولكنه كان بعد ذلك ينهض لملاقاتي ولوداعي. ولقد سمعت لاحقاً من إبراهيم أن الأمير أقرّ أن تلك كانت أول تجربة للقاء مباشر له مع كافر، وهي تجربة برهن فيها على أنه خادم وفيّ لابن سعود، واعترف أيضاً أن التجربة لم تكن بالسوء الذي كان يتوقعه.

ذهبت مع رفاقي للسوق، وهو مستطيل الشكل وليس متسعاً، يحدّه من أحد الجوانب حائط القلعة، ومن الجهات الثلاث الأخرى صفوف من متاجر ذات طابق

(١) راجع كتاب بلجريف (G.L.B. The Desert and the Sown). ص ٤٦-٤٧. وقعت هذه الأحداث في شتاء عام ١٩٠٦/١٩٠٧م. (المؤلف).

واحد، ستة عشر متجراً في كلٍّ من الجوانب الطويلة وأحد عشر في الجانب الثالث. كان الفناء الذي يتوسط المتاجر مكتظاً بالمشترين وبالباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم في سلال مكشوفة أو على الأرض الرملية، حزمة أو حزمتين هنا من أعشاب الصحراء أو البرسيم، وهناك سلة فاكهة أو خضراوات، وكمية جيدة من الملابس المنسوجة في المنازل والمصبوغة بلون أزرق باهت، ويقال إنها مستوردة من الأحساء.

علمت أن ليلى هي المدينة الوحيدة التي تضمّ سوقاً مهماً في الأفلاج ولكن التعاملات في السوق أظهرت قدراً متوسطاً من النشاط التجاري. ويجري عبر الطرف الأعلى من السوق الطريق العام المهم والوحيد الذي يشق المدينة ويربط بين بوابتها في الأطراف الشمالية والجنوبية. وبعد خروجنا من حضرة الأمير دلفنا عبر البوابة الجنوبية إلى طريق جانبي يقود عبر بساتين نخيل لقرية الجفيدرية الصغيرة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للواحة. هنا تمهلنا في سيرنا متخذين الطريق الرئيس الضيق المتعرج من البوابة الشمالية حتى البوابة الجنوبية، وهكذا مررنا بالواجهة الغربية لـلقرية وهي أبعد ما تكون عن الانتظام، وبها أيضاً بوّابة -أما الحائط الشرقي فهو يقود مباشرة إلى بساتين النخيل وليست له بوابة- ثم عدنا إلى خيامنا حيث كانت وجبة الصباح قد أُعِدَّت. وبقي معنا من حاشية الأمير الذين لهم ما يربطهم بنا عمل، بينما تجمّع حول المخيّم على بعدٍ ما مجموعاتٌ صغيرة من سكان المدينة - أغلبهم من الأطفال والنساء - يحدّقون في الغريب الكافر. كان ما دفع الناس للتحلّق حولنا وفقاً لما أحسسته هو الفضول ببساطة وليس المعارضة والعداء، ولم يحدث قط أن تعرضتُ لمضايقة أثناء تجوالي حول المدينة والواحة، ولكن قد يكون الفضل في هذا للأمير الذي أعلن على الملأ متوعداً أنه

سيقطع اليد اليمنى لأي شخص يتحدث عني، ولم يكن ليتردد في تنفيذ وعيده إن دعا الحال. وقد أثبتت الحادثة التي وقعت بعد ظهر اليوم الذي وصلنا فيه أنّ هناك في المدينة من ساءهم وأحنقهم كثيراً السماح لي بالحضور إلى دياره.

جاس الكرى خلال المخيّم، وجلستُ أنا أقرأ في خيمتي عندما شعرت بأصوات غاضبة في الخيمة المجاورة. وبعد دقيقة رأيت أحد خدمنا خارجاً منها ومعه آخر من جماعة الحملة وهما يحملان سيوفهم و «المشعاب»[1]، وأسرعا في اتجاه بساتين النخيل وهما ينويان شراً. وصحت منادياً إبراهيم الذي كان حينها نائماً: «يا إبراهيم! إبراهيم، أين ولماذا يذهب هذان الاثنان؟ ماذا حدث؟ اطلب منهما أن يعودا حتى لا يتسببا في إثارة مشكلة». وعند نداء إبراهيم لهما، عاد الرجلان اللذان كانا قد خرجا دون إذن. وسألهم إبراهيم عن الأمر وأجاب أحدهما «ذهبنا أنا وهذا إلى بئر هناك في أحد البساتين للاغتسال قبل صلاة العصر، وعندما كنا نغتسل أتى صاحب البستان إلينا مع بعض خدمه وطردنا وهو يصيح «كُفارٌ»، ولم نكن مسلحين لذا عُدنا لنأخذ أسيافنا لنريهم أنه لن يفلت من العقاب من يسيء لخدم ابن سعود». عندها وبّختهم أنا على انجرافهم وفرط حماقتهم، وانقضت الأيام الثلاثة التي بقينا فيها هناك دون أن تتكرر مثل هذه الحادثة.

وفي وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة اعتدلت درجة الحرارة قليلاً، وكانت قد بلغت ١١٢° في الساعة الواحدة بعد الظهر، فخرجت في جماعة قليلة من

---

(١) المشعاب: عصا الإبل(*). (المؤلف).

(*) المشعاب مصطلح محلي يقصد به العصى الغليظة والتي عادة ما يحتفظ بها المسافرون عبر الصحراء لاستخدامها لأغراض متعددة ومنها الدفاع عن النفس، أما ما يستخدم في حث الإبل والماشية على المسير فيطلق عليه العرق وهو أصغر حجماً من المشعاب. (المراجعون).

رفاقي لتفحص الواحة وهجرها. وكانت الواحة تمتد لمسافة ميل بين الشمال والجنوب، وبساتين النخيل فيها مهملة بعض الشيء رغم أنها كانت منتجة لأنواع ممتازة من التمر: أجودها وأعلاها سعراً السري والصفري وكلاهما من التمور كبيرة الحجم، وهناك نوع يُسمّى نبوت سيف تمرته صغيرة ولكنها شديدة الحلاوة، ولكن يشيع الناس أن أكلها يسبب الحرارة رغم أنني تناولت كميات كبيرة منها أثناء إقامتي دون أثر ضار. أما العينات المحلية الأخرى فهي خضري ومقفزي ومسكاني. وهناك أيضاً الكثير من حقول الحبوب في وسط الواحة وكذلك في أطرافها، وخاصة في الجانبين الشرقي والجنوبي، وهناك أيضاً التنوع المعتاد: البرسيم، وشجيرات القطن التي تزرع كفواصل، والرمان والتين والأعناب. والمشهد العام للواحة ينبئ عن ازدهار سابق ويوحي باضمحلال حالي، ولتعليل ذلك لا بد من الرجوع للتاريخ العاصف للمقاطعة أثناء النصف الثاني من القرن السابق. وجدت البساتين الواقعة في الجانبين الشمالي والشرقي وقد زحفت عليها الرمال المتحركة، وأخبروني أنّ هذا الأثر حديث نسبياً. وفي أسفل القرية يوجد عدد من هياكل لمباني بلا أسقف هي «القصور» كانت تَحْرس في زمان مضى هذا الركن من الواحة ضد اعتداءات المستوطنة المجاورة المنافسة: السيح.

كانت المبرّز حتى نهاية عقد السبعينات من القرن الماضي هي المستوطنة الرئيسة لواحة ليلى، ولكنها في السنوات التي تلت وفاة فيصل، أحالها خليفته عبد الله إلى الحالة التي هي عليها الآن نتيجة للدور الذي أدته إنابة عن أخيه المنافس سعود، أثناء الصراع بينهما. وحتى بعد ذلك لم يكف سكانها عن إزعاج منافسيهم في ليلى التي أعاد بناءها -لتصير على ماهي عليه الآن- عبدالله الذي ارتقى بها لتصبح عاصمة للواحة. وقالوا إنّ معركة حامية الوطيس دارت قبل

سنوات قليلة في الفناء بين المدينتين ونجم عنها مقتل خمسة عشر رجلاً مما أثار حفيظة ابن سعود على المبرز، الذي أعاد السلام إلى المنطقة بنفي المجموعة التي تسببت في الحوادث عن مسقط رأسهم المبرز. وأسوار مدينة المبرز مهدمة للحدّ الذي لا يمكن إعادة ترميمها. وتستخدم بيوتها التي فقدت أسقفها كحظائر لقطعان الخراف والأغنام الكثيرة التي رأيت أطفال القرية يعودون بها مساءً بعد أن خرجوا بها صباحاً للرعي. ولن يكون من السهل تقدير تعداد السكان بالمستوطنة حالياً، ولكنني حسبت حوالي مئة طفل مع القطعان وقد يكون التعداد الكلي ٥٠٠ نسمة.

ليلى أو غصيبة كما يسمونها أحياناً لتميّزها عن الواحة التي توجد بها هي المدينة الوحيدة، ولذلك فهي المركز السياسي والتجاري للمقاطعة ولقد ربحت بفضل ما حدث من كوارث لمنافستها، ونمت سريعاً في السنوات الأربعين السابقة بعد أن كانت قرية ليس إلاّ، لتصبح مدينة مسوّرة جيدة يسكنها ٤٠٠٠ نسمة، معظمهم من فرع العجالين التابع لقسم عجلان من قبيلة الحسن كانت القبائل هنا تتنازع من أجل السيادة بدافع من حب النزاع والقتال، ولكن في الأوقات الأخيرة زال التنافس على السيادة المحلية إذ أن ابن سعود الذي استطاع لم شمل رجال القبائل، أيقن أن العنف والكراهية التي تقود للتشاحن من أجل السيادة المحلية تجعل السلام بعيد المنال. لذا سعى لاجتثاث كل أسباب النزاع والشقاق بأن جعل الأقسام المختلفة التي تسكن معاً في ذات المرتبة وجعلهم كلهم تحت إمرة حاكم يعيّنه هو ويخضع لإشرافه المباشر.

وتحتل مدينة ليلى موقعاً مركزياً في الجانب الغربي للواحة، يتوسطها مجرى السيول: باطن الأحمر الذي يصدر مجراه الرئيس بالقرب من حمر في مرتفعات طويق ويتجه نحو الجزء الجنوبي من الواحة ماراً عبر الَخرْفَة والعَمَار نحو السيح. أما الرافد الذي يجري نحو ليلى فهو يدخل المدينة تحت السور بجوار البوابة الرئيسة، ويخرج منها مجدداً بالقرب من البوابة الشمالية نحو منخفض في ذلك الجانب. تسمو عن يمين البوابة الرئيسة الكتلة البديعة «قصر الشيوخ» أو المسكن الرسمي للأمير الذي تعلوه أبراج الزينة العالية في كل أركانه، بينما تقف في الركن الجنوبي الغربي للمدينة قلعة لا تقل روعة عن قصر الشيوخ هي مسكن معجب بن تركي زعيم العجالين، بينما يسكن رفيقاه في زعامة الفرع نفسه: حزام ابن خزام، وثلاّب بن فلاج، في مساكن في قلب المدينة. لقد تحدثت بما يكفي عن السوق ولكنني لم أرَ الجامع الرئيس. أما الجزء الشمالي الغربي للمدينة، على الجانب الأيسر لمجرى السيول فيحتله الفقراء، بينما تنأى عناصر العبيد المحررين بسكنهم في مجموعة من المباني المنعزلة. كانت القرى الصغيرة: مرير والخريمي تقعان خلف الأسوار في الجانب الشمالي للمدينة في اتجاه المبرّز. أمّا قرى الجُفَيْدرية ورُماحي فهي التي تكمل قائمة الهجر في هذا الموقع. وقرية رماحي الصغيرة ماهي إلاّ مجموعة مهملة ومهدّمة من البيوت تحيط بالمسجد الأنيق الواقع في قلب الواحة. ويبلغ تعداد السكان في هذه المستوطنات مجتمعة - كما أخبرني الجميع - نحواً من ٦٠٠٠ نسمة.

وتقع إلى الجنوب الشرقي من واحة ليلى على بعد ثلاثة أميال، بساتين نخيل السيح التي وإن كانت حتى الآن أكثر واحات المقاطعة ازدهاراً، إلاّ أنها تبدو وكأنها جزء من الأفلاج القديمة بحكم وضعها الجغرافي والتاريخي وكذلك لنمط

الزراعة بها. وكانت قرية وواحة العَمار الصغيرة تقع على بعد ميلين من مخيمنا في اتجاه الجنوب الغربي التي قمت بزيارتها في اليوم التالي لوصولنا لليلى. وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي من الموقع نفسه تقع مجموعة قوامها ثلاث واحات متلاصقة: الَخرْفَة والروضة والصغو التي سرنا عبرها عندما واصلنا رحلتنا نحو الجنوب في اليوم الثالث.

وتحيط بواحة العَمار من الجانب الشرقي موجات عالية من الرمال التي يظهر أنها زحفت وخربت جزءًا كبيراً من الأراضي الزراعية التي انحصرت الآن في شريط ضيق من النخيل طوله رُبع ميل ولا يتعدى عرضه نصف ذلك. وفي وسط الواحة تقف قرية صغيرة تحيط بها أسوار عالية مزينة بأبراج ولها من الارتفاع والسماكة ما لا يتناسب والوضع الحالي للمستوطنة. طول واجهة القرية من الشمال للجنوب يبلغ مئة خطوة والواجهة من الشرق للغرب تبلغ مئتي خطوة. ويتوسط المستوطنة طريق يقود من البوابة الجنوبية المهدمة إلى فتحة في الحائط تُستخدم باباً. وفي الجانب الشمالي يقع قصر الأمير وهو مبني من طابقين تحيط به أسوار طينية سميكة ويعلوه برج ضخم. وأمام القصر يوجد المسجد العام، على الجانب الآخر من المساحة الصغيرة التي تتوسط القرية.

بساتين النخيل هنا ليست كثيفة وغير معتنىً بها، وهي تحيط بالقرية الصغيرة، من كل جوانبها باستثناء الجانب الجنوبي حيث توجد بعض حقول الحبوب وتتناثر هنا وهناك بعض المزروعات المساعدة؛ قليل من القطن وقليل من أشجار الخوخ والرمان، وشجيرة أو اثنتين من الليمون ونوع من البرتقال يسمونه «ترنج». ينبئ اسم الواحة عن هوية أهلها الذين ينتمون لآل عمار؛ أو الفرع الرئيس لقسم

آل عمار من قبيلة آل حسن، وكانوا فيما مضى جماعة قوية إلاّ أن الزمن وسوء الطالع قلّل عدد أفرادها في مستوطنتهم الأصلية فصاروا لا يتعدّون ٥٠٠ نسمة.

الَخْرَفة هجرة فسيحة ولكنها جدّ فقيرة، بساتين نخيلها متدهورة ولا يعتني أحد بحقول الحبوب ولا بأيكات الأثل والسنط، وتتناثر فيها بعد فواصل يسيرة منازل ريفية مهجورة ومهدّمة ومجموعات من البيوت البائسة. ولا يكسر رتابة المشهد الخرب المتهدم بها سوى قرية صغيرة، ذات مساكن طينية مهدمة وفي وسطها قصران جميلان بناؤهما حديث نسبياً. أحد هذين هو مسكن محمد بن شخبوط زعيم عناصر الغيَيْثَات الذين يسكنون هذه الهجرة، وهم قسم مستقل من الدواسر، استوطنوا في هذا الموقع منذ عهد قديم. أما القصر الثاني ويسمى قصر الضيكان يخص فيما يبدو أحد أفراد القسم نفسه، وقد يكون المنزل الحضري لمحمد بن عقيان زعيم الجزء البدوي للغييثات الذين توجد مراعيهم في مرتفعات طويق حول مستوطنة الأحمر. إن بالغنا في تقدير عدد سكان الَخْرَفة فيمكن أن نقول إنهم ١٠٠٠ نسمة، كما قالوا لي جميعاً، ولكنني أتّجه بتقديري لعدد أقل من ذلك، إلاّ إذا سلّمنا باكتظاظ السكان في حدود تلك القرية الضيقة التي قدّرت أبعادها بالتقريب كما يلي: ٧٠ × ٥٠ ياردة. يفيض الأحمر كل عام ليغمر الجزء الشمالي من المستوطنة في وقت السيل.

ويعتمد السكان على الآبار التي تختلف أعماقها بين ٥–٨ قامات وفقاً لحالة الموسم، لتسقيهم ومحاصيلهم طوال العام. وقد تعاقبت قصور خربة مع رقاع من أثل في خط يفصل الخرفة عن واحة الروضة المجاورة، في اتجاه الجنوب والتي يسكنها فرع آل مبارك من العمارية، وهم أبناء عمومة سكان عمار. وقد يبلغ

تعداد سكان هذه الهجرة ٥٠٠ نسمة موزعين على ثلاث قرى صغيرة متجاورة: رقيصية في الشمال، والروضة نفسها في الوسط، وهي الأكبر بين الثلاثة، وقرية ثالثة في الجنوب لم أعرف اسمها.

ولم تختلف بساتين النخيل وحقول الحبوب المحيطة بهذه القرى إلاّ قليلاً عن تلك المحيطة بالخرفة، إلاّ أنها تقل عنها بؤساً وتصغرها مساحةً؛ ولكن القرية الوسطى تميزت عمّا يحيط بها وبدت كدُرَّة صغيرة من درر المعمار. وكانت أبراج الزينة التي تعلو أركان سور القرية ومئذنة الجامع تكوّن مجموعة بديعة من القباب المدببة التي تسمو عالياً فوق مستوى البيوت البائسة الموجودة في الأسفل. وكانت واحة الصغو المتناهية الصغر والتي لا تتعدى مساحة قرية صغيرة مسوّرة تقع جنوب الروضة مباشرة للدرجة التي يُظنُّ معها أنها جزء منها، وبها بعض القصور المتفرقة، وتحيط بها مساحات صغيرة من بساتين النخيل مع رقاع من حقول الحبوب، ويعيش بها عدد لا يتعدى ٣٠٠ نسمة. يقود الطريق بعد هذه الواحة نحو الجنوب عبر قفار رملية بديعة تبدو باهتة على البعد.

والمواقع السكانية في الأفلاج الحديثة هي أسيلة وليلى والعمار والخرفة والروضة والصغو، وعمودها الفقري هو مجرى باطن الأحمر. عندما تجوب في هذه البلاد يتلقاك في كل مكان ما يوحى بالبِلَى، ويعيش هنا عنصر بشري، يحيا حياة ضنك في وسط حطام بيوت كانت فيما مضى مزدهرة، وتحيط بها حقول وبساتين كانت فيما مضى مثمرة، ولاشك أن السلام قد حلّ في النهاية بالمكان، ولكن لمّا تظهر هناك بعد علامات الكدِّ والمثابرة التي يمكنها - وليس غيرها- أن تعيد بناء الحيوية التي أوهنتها الحروب. وقال لي الأمير عندما جلسنا معاً في أمسية

اليوم الثـاني من إقامـتنا، وكنا على السطح في قصـر الشيـوخ: «ما رأيَك في هذه البلاد؟ ألم تكن غنـية في عهـود مضت؟ ألن تعود كـما كانت مـرة ثانية إن أراد الله؟» وكانت إجـابتي له: «هناك القابلية لأن تصـبح أرضاً غنية، ولكن كـما هو الحال في الخـرج لا يقوم الناس بمحاولات لاسـتخدام الـوسائل المتاحـة لهم. لقد رأيت صـحارى في بلاد أعـمرها أهلهـا فاخـضرّت بالسـقيا، ولا أرى أن تـترك صـحـاريكم دون زراعـة والماء مبـذول لكم وهو تحـت سيطرتـكم، بينمـا يمكننا باسـتخدام الآليـات المناسـبة والمضخـات الضخـمة أن نغـرق هذه الصحـارى من مستودعاتكم المائية العظيمة. يمكنني أن أقنع السلطات البريطانية لتخصيص مضخة كهذه لاستخدامكم». ثم قال لي: «إن كانت هذه هي إرادة الله فستخضرّ كل هذه الأرض، والله إننا لانسأل إلاّ الله، ومن بعده ابن سعود».

وشعرت أنني قد أغـضبته دون أن أقصد، فسـارعت أؤكد له أنني ناقشت أموراً كهذه مع ابن سعود، وأنّ الإجراء الطبيعي هو أن الحكومة البريطانية سوف تُمدّه- إن رغب هو في ذلك – بالآلات الزراعية. ثم سـألني بإصرار: «ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا شك أن الذي يحـرك صداقـتك مع ابن سـعود هو الغش، وإلاّ فلمـاذا أتيت إليه؟ ولماذا تجوب بلادنا مسافراً في أنحائها؟ يقولون إنك تستفسر عن كل شيء وتسجله في الورق».

أكدت له أنه لا حاجة لنا في قفار نجد العارية، بل إننا نود أن نخلّص أنفسنا من أعباء بلاد أخرى أكثر ثراءً وعطاءً، أجبـرتنا الضرورة المحضة على الإبقاء عليها تحت سيادتنا ونديرها حتى نتمكن من إعداد ترتيبـات بديلة، وأننا سعينا لصداقة ابن سعود والعرب على وجه عام كوسيلة لإقامة الأمن والسلام على حدودنا والمحافظة عليهما.

ثم أجاب: «الله أعلمُ»، هكذا دون اقتناع بما سقتـه من حجج وأضاف: «وابن سعود هو خير من يعلم ما يرضي الله وينفع المسلمين، نصره الله على الكافرين». أدهشتني بعض الشيء نظرته لجـماعتـه، إذ أنّ ابن سعود كـان يتحدث مـعي عن أبناء الوادي بصـفة خـاصة على أنهم من أكـثر الناس وفـاءً وارتبـاطاً بالقضـية. بيـد أن تعليل الاختلاف بين وجهتي نظر السيد ووكيله بسيط ويسير إذ أن الأخير يعد أنّ الغاية هي أن ينذر الناس أنفسهم للعقيدة الجديدة، وهو أمر لم يستوعبه بعد رجال القبائل الذين لم ينالوا حظاً من المعرفة والتدريب.

في الساعة الخـامسة صبـاح يوم ١٧ مايو (أيار)، وبينما كانت مُـعدات المخيم تُحَـمَّل على البعـير اسـتعـداداً لمواصلة الرحلة، ذهبت يرافـقني طامي وقليل من الآخرين للمـدينة لوداع الأمير الذي كنت قد بعـثت له ببعض الهدايا البـسيطة في الليلة الماضية. وكانت قاعة القلعة مهـجورة في تلك الساعة الباردة ووجدت سعد ابن عفـيصان جالسـاً في عدد كبيـر من تابعيه في غـرفة كبيـرة مظلمة في الطابق الأرضي، وكانت الحـملة - التي حدثني عنها - قـد عادت لتوّها خائبـة الرجاء، وكان قائدها سـهمي بن سهمي زعـيم قسم الهواملة من قبـيلة الحسن، وهو رجل طويل رشيق، وكان حينها يتـحدث عن تجربته وهو ممدد بطوله على الأرض بجوار الموقد: «الله يسلمك يا الأمير».

ثم واصل حديثه بعد أن حياني الأمير وبعد أن أخبرني عن الموضوع الذي كان قيد الحـديث: «سرنا سبعة أيام ليـلاً ونهاراً، وبلغنا أعتاب مـوقع يبرين قبل بزوغ الفجر، فأنخنا المطايا وبعثنا العيون صوبهم بينما كنا نصلي الفجر ونخلد لشيء من الراحة. ولكن عاد عيوننا ليخبـرونا أنهم على سلسلة التلال يقومون بالمراقبة. ولم

يكن هناك مسوّغ للانتظار، إذ لم يكن عدونا يسمح بالنزال المباشر، إلاّ أن نأخذهم على حين غرّة. وخشينا أن يعلموا بوجودنا فيجدّوا في أثرنا، لذا ركبنا المطايا ثانية وقفلنا عائدين، وها نحن بين أيديكم حفظكم الله والله إن إبلنا لجائعة عطشى». فقال الأمير :«متعك الله بالقوة يا سهمي» والتفت إليّ قائلاً: «والله يا صاحب هذا السهمي لم يحدث أن عاد قط من حملة من قبل دون أن تكون إبله محملة بالغنائم».

٣- الأفلاج القديمة:

إن الاعتقاد المحلي الجازم هو أن مقاطعة الأفلاج تمتعت في الماضي البعيد نسبياً بدرجة من الثراء والازدهار تفوق بقدر كبير كل ما صار إليه شأنها في العهود اللاحقة. وهذا الاعتقاد تؤيده -بما لا يدع مجالاً للشك- البقايا والآثار الكثيرة لحضارة لم يُعرف لها مثيل في الجزيرة العربية المعاصرة، وهي موزعة على امتداد يقارب عشرين ميلاً من الشمال للجنوب في الجانب الشرقي للجزء الصالح للسكن، فوق وحول المنحدرات الغربية لمسطبة وعرة خفيضة من الحجر الجيري تسمى الغضرا، وتمتد نحو الشرق حتى تبلغ الإطار الذي يحيط بقفار البياض. كان قلب هذه الحضارة بلا شك هو لسلسلة المستودعات المائية العميقة البديعة التي تغذيها الينابيع، والتي بقيت إلى يومنا هذا تنادي آذاناً صمّاء لاستغلال المصادر الزراعية في المنطقة التي تركت لعاديات الزمن حتى عمَّها الخراب.

كانت المستودعات المائية في قمة الهضبة، إلى الشمال قليلاً من النقطة المركزية للصقع، بينما يبدو أنه كان هناك مركزان أو أكثر للسكان في تلك الأيام السعيدة، أحدهما في اتجاه الطرف الشمالي للصقع بالقرب من واحة السيح الحالية، والثاني في اتجاه الجنوب بجوار رقاع نخيل غوطة البائسة. يقع كل الصقع إلى الجنوب من مجرى باطن الأحمر الذي يمر طرفه الشرقي عبر بساتين السيح، كما أنّ الصقع يقع إلى الشرق من خط يمرّ إلى الجنوب من ليلى ويتجه إلى شرق البديع. ولعل الصقع المذكور لم يكن قط ذا عرض كبير رغم أننا قد نفترض أن واحة منطقة البديع - والتي سميتها أنا الأفلاج الحديثة- لم تكن قد تُركت دون زراعة عندما كانت بقية المقاطعة في قمة ازدهارها.

ويسم حزام من الكثبان الرملية الحدودَ الغربية للأفلاج القديمة، وقد يسمُ أيضاً الحدود الغربية للأرض التي كانت مزروعة في السابق من مياه المستودعات. كان هذا الحزام الرملي عميقاً وعريضاً في جزئه الشمالي، ثم تضاءل حجمه في اتجاه الجنوب حتى صار شريطاً ضيقاً من الرمال السطحية بالقرب من البديع.

لم يكن الوقت المتاح لي في الرحلتين اللتين قمت بهما من أجل فحص هذه المنطقة الرائعة يسمح لي بالتقصّي والمسح الدقيق للإقليم أو للارتفاعات التي كانت تتحكم في تصميم نظام الرّي المعقد الشاسع الذي رأيت آثاره في كل جانب. ولكن مجرى السيول الذي يعبر سهل الأفلاج، وموقع المستودعات المائية نفسها، وتنظيم الرّيّ، كل هذا جعلني أتصور نظام الري.

كان السهل ينحدر بانتظام من الغرب للشرق، إلاّ أن انحداره كانت تقاطعه هضبة الغضرا المرتفعة التي تبرز نحو الغرب من حدود البياض باندفاع نصف دائري، وينحدر السهل بتدرُّج إلى أسفل في الاتجاه نفسه مع منحدرات جانبية تقع في الشمال والجنوب وتقترن بالتدريج وهي تتراجع نحو الشرق متناغمةً مع الانحدار العام للسهل. ثم إن المستودعات المائية توجد على رفٍّ جوار قمة المنحدر وتتفرع منها قنوات الرّيّ منتشرة في انحدار نحو الخارج في اتجاهات الشمال والغرب والجنوب. ورغم أنّ تصوّري لنظام الري في ذلك الزمان مبنيٌّ على ما رأيت آثاره على الأرض، إلاّ أنني لا أستطيع أن أجزم أنه كان في حقيقة الأمر كذلك، ولكن الشواهد تعضّد تصوّري هذا، وهو أولاً يتكون من سلسلة من القنوات التي تمتد من المستودعات الشمالية وتسيل نحو الشمال لتسقي نخيل السيح، وثانياً هناك قناة مخفية لم أتمكن من التعرف على رأسها رغم أنّ الجزء الظاهر منها في النقطة التي رأيتها فيها كانت تجري نحو الجنوب في اتجاه غوطة،

بينما كانت هناك مجموعة ثالثة من القنوات - التي لا تُستخدم الآن - تجري في اتجاه غربي أو شمالي غربي من جوار المستودعات المائية نحو خرائب قرية قديمة تسمّى مخاضة في مهد باطن الأحمر.

والعيون أو مستودعات الأفلاج المائية هي تكرار - بيد أنّها أكبر- لعيون الخرج التي وصفتها سابقاً. وكما هو الحال مع سابقتها يُقال إنها بلا قاع وتغذّيها ينابيع خفية توقف بعضها عن العطاء، ومثلها أيضاً تدخّل الإنسان لينحت المخارج منها ويعدّ متاهة من القنوات المخفية من نوع الكاريز، والتي كانت تحمل مياهَهَا فيما مضى من زمان - ومازالت- نحو حقول الحبوب المحيطة بها ونحو بساتين النخيل. والمياه الداكنة الصافية -كما تبدو داخل الحفر نفسها - تجرى في أنهار ضحلة مترقرقة وبنفس الشفافية التي تتصف بها مياه الخرج ولكن نقاط الاختلاف بين المجموعتين صارخة كما هي نقاط التشابه. يوجد هنا من الحفر مالا يقل عن سبع أو ثمانٍ إن جاز لنا أن نحسب الحفر التي لا يوجد بها ماء الآن، والتي امتلأت بالتراب. كانت حفر الخرج الثلاثة ذات أحجام متقاربة، وكانت مساحة السطح في المتوسط ٦٠٠٠-٧٠٠٠ ياردة مربعة، ولكن تلك الموجودة في الأفلاج كانت متباينة، تبدأ من حفر جدّ صغيرة طولها عشر ياردات وعرضها ثلاث على السطح، وتتدرج المساحة حتى تصل لمساحة بركة عادية طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها ربع ميل، في أعرض أجزائها.

كانت مستويات الماء في هذه الحفر أقرب للحافة مقارنة بمستودعات الخرج باستثناء عين أم خيسة، بينما كانت الحوائط الداخلية الشاهقة لعين الضِّلَع وعين سمحة مشابهة لاثنين فقط من عيون الأفلاج. وأخيراً بينما كان ترتيب الحفر في الخرج عشوائياً دون أن تبدو بين الثلاثة صلة، كانت تلك الموجودة في الأفلاج

متقاربة جداً ومـرتبة بعد فواصل بطول محيط قوس طويل وكـأنها سلسلة متصلة، إن لم تكن دلالة على أنّ كلّ المجموعـة كانت حوضاً واحداً يوماً مـا - كما يمكن أن يكون هذا حالها الآن تحت السطح- ومن ثمّ انفصلت لتكوّن وحدات مختلفة. إنّ الطمـر الكامل لما يبدو أنه كـان إحدى هـذه الحفـر - وأبعادها ليـست قليلة- والحجم المتناهي الصغر لأخرى قد يعني أن عمليات فصل قد جرت في الماضي أو أنها ما زالت جارية. ولكن لا ينبغي لي أن أتعـدّى على مجالات تقع خارج مدى البصر، ويكفي أن نسجّل الحقائق كما هي.

كان القوس الذي تصطف فيه الحفر يقع بالتقريب بين الشمال والجنوب. بينما كانت أطراف القوس تشير نحو الغرب على رفٍّ فوق الهضبة، وتقف خلفه صخرة شاهقـة غير منتظمة الأبعـاد، أطول وأكثر أقسـامها ارتفاعـاً تجاور الطرف الجنوبي للرّفّ وكانت تحيط بالبحـيرة التي ذكرتها من قبل وهي آخر المسـتودعات المائية من الجانب الجنوبي وتسـتمد اسمـها: أم الجبل من حقـيقة أن الصخرة تنـحدر بحدة لعمق عشرين أو خـمسة وعشرين قدماً نحـو الطرف الأعلى للساحل ذي المنحدر اللطيف الذي تغطيه الحصباء، وهو الذي يجري للحافة الشرقية للبحيرة.

هذه البحيرة هي بلا منازع أكـثر المعالم الطبيعية روعة بالأفـلاج، بل بالتأكيد في كل الجزء الداخلي من الجزيرة العربية حـيث لا توجد أسطح مائية أخرى ذات صفة دائمة بهذه الأبعاد. حدث في أزمـان سابقة أن زار الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة العرب زوار أوربيون، وأوردوا -بناء على معلومات سـماعية محلية- تقارير عن وجـود بحيـرة عظيمـة في مكان ما في الأجـزاء الداخلية للجـزيرة العربـية، وأطلقوا عليها اسم بحر سلوم، وبناءً على ذلك قـام راسمو الخرائط بوضع بحيرة هائلة المسـاحـة على خرائطهم مـع تعليل وجودها بأنهـا نتجت عن تدفق مـيـاه

وادي الدواسر في حوضها الفسيح. وكان تطبيق معـايير علمية أكثر حزماً، إضافةً لسكوت بعض المكتـشـفين البارزيـن عن ذكر هذا الأمـر، أمـثال بيـرتون وداوتي وبوركـهارت وآخرون ممـن كانت لهم المقـدرة على استنبـاط وتمحيص المعلـومات المحلية، أدى سكوتهم عن الأمر لرفع هذا المعلم عن الخرائط ذات السمعة الحسنة، استناداً على أنه معلم وهمي. بيد أن راسمي الخرائط القديمة كانوا في حقيقة الأمر أقرب للحقيقة من خلفائهم.

زعم بلجـريف أنه زار الأفـلاج أثناء تجواله، وكـان يمكنه أن يجنب راسـمي الخرائط خطأه وخطـأ الأجيال التي تبـعته، إذ مـرّ بالجانب الآخـر وترك لي شرف إعادة بحيرة الجغرافيين القدامى لخارطة الجزيرة العربية مجدداً، رغم أنها في حقيقة الأمر ذات أبـعاد مـتوسطة إذا مـا قورنت بتلك التي رسـموها في السـابق، كـما تختلف عنها في نواحٍ أخـرى. إنّ ما يدعو للدهشة أنّ وجود مثل هذه الـبحيرات ومجموعة المسـتودعات المائية في الخرج والأفلاج بقيت كلّ هذا الوقت مسـتعصية على اكتشـاف الرحالة والمكتشفين الكثـيرين الذين لا يعرف الكلال إليهم سـبيلاً، والذين تمكنوا من على البـعد، وبناءً على مـعلومات الأهالي المحليـين وحدها أن يضعـوا على الخارطة مـجمـوعة واحـات الأفلاج ووادي الدواسر - إن لـم نذكر الأخريات - قريباً جداً من مواقعها الحقيقية.

ولا بد لي أن أعتـرف أنني كنت أجهل وجـود هذه المستـودعات المائيـة حتى وجدت نفسي على حـافة حفر الخرج. ولـكن لا يصعب - في اعتقادي- مـعرفة الأسباب التي أدّت لهـذا الوضع الشاذ: في المقام الأول: فإنّ العرب يسمُّـون حفر المستـودعات هذه العيون أي الينابـيع ولا يبذلون جهداً للتـمييز بـينها وبين الينابيع

العاديــة الأخرى التي توجـد في الأصقاع المخـتلفة، وثانيـاً: المدهش حقـاً هو قِلّة العرب الـذين تجشمـوا مؤونة الحـضور لزيارة هذه المعـالم من خارج المنطقـة التي تغذيها هذه المصادر المائية. وهذا ينطبق أكثر على حفر الأفلاج، إذ أنّ عيون الخرج معروفة بدرجة أكبر.

وتتـخذ بحـيرة أم الجـبل - إلى حدٍّ مـا - شكل الحدأة، مع ذنب مـستـدق وأجنحة ملحوظة تمـتدُّ على الجانبين في الجزء الجنوبي. إنها تـقع في قاع منخفض ضحل فـسيح، وتغطي المسـاحة التي تحفّ بجـوانب الماء أعشـاب وفيـرة ونباتات البردي والقـصب التي رأيت في وسطها أبقـاراً قزمية تـرعى. ولاحظت أيضاً في طرف البحيرة الشمالي -ولكن فوق مستوى الماء بمسافة- انخفاضاً لمجرىً ينحو في اتجاه الشرق ولعله كـان قناة أو مجرى مائيـاً في الأيّام التي كان مستوى الماء فـيها يصل إلى مستويات أعلى. وإن كان الأمر كذلك فلا بدّ أنها هُجرت عندما انحسر الماء عنها نتـيجة لفشل الينبـوع الذي يغذيها إذ أن البحـيرة توصف الآن بالموت أو السكون، ولذلك لا فائدة منها لأغراض الرّيّ إلاّ إذا استُخدمت وسائل آلية لتغذية القنوات التي تنحدر منها.

وتوجد فـي الطرف الشمالـي أرض عالية تطـلُّ على مشهـد شامل للمنـطقة المحيطة، ورأيت من هناك بعيداً إلى جهة الشرق حافة البياض المهجورة والتي يُقال أنّ أقرب أطرافها في هذا الاتجاه يبعد مسيرة يومين عن هذا الموقع، أي حوالي ٥٠ ميلاً، وتحتلُ المساحة بيننا وبينها قفارُ الغـضرا ذات الحجارة الجيرية والتي قد تحتوي -أعماقها التي لم يكتـشفها أحد- على بحيرات وحفر شـبيهة بتلك الموجودة على حافتـها الغربية، رغم أن هذا احتـمال بعيد. وتقع مـجموعة واحات الخـرفة نحو الغـرب، والبديـع إلى الجنوب منهـا، وتبدو على البـعـد سلسلة تلال باهتـة من

مرتفعات طويق؛ وإلى الشمـال تقع ليلى والسيح، وإلى الجنوب مروان والواحات المجاورة.

وتجاور البحيرة من الناحية الشمالية أصغر اثنتين من حفر الأفلاج وهما قريبتان لبعضهمـا في وسط فناء معشب، وتُسَمَّيان معاً أم الحبّاب وكل منهـما ميتة، إذ أن الينابيع التي كانت تغـذيهما قد توقـفتا عن العمل، ولقد بـحثت دون جدوى عن مؤشرات قـد توحي بأنهما استُخدِمَتَا من قبل لأغـراض الرَّي. إحدى هاتين هي الحفرة المتناهية الصغر التي أشرت لها من قبل، بينما الثانية بيضوية الشكل، طولها حوالي ٦٠ ياردة وعرضها في أوسع المواقع يبلغ ٤٠ ياردة.

يأتي تالياً في التـرتيب مستودع دائري يسمّى أم العـظمان وقطره حوالي ١٠٠ ياردة، ومن طرفه الشمالي تجرى قناة مخفيّة لتؤدي دوراً حيوياً فيما تبقى من نظام الرَّي القديم. وترتفع حوائط المستـودع المائي لمسافة ستة أقدام تقريبـاً فوق مستوى سطح الماء بكل الجوانب، كما أنّ الطرف الأعلى من القناة المخفيّة والتي تتخللها - بعد فـواصل - فتحات الريّ الدائرية العـمودية، والتي كانت تحت مسـتوى سطح الماء بمسافة كبـيرة، وقالوا لي إنها تبلغ أربع قامات. ولابد أن الينبـوع الذي يعتمد عليه المستودع مفعم بالحيوية حتى يستطيع أن يحافظ على مستوى الماء بهذا الارتفاع فوق المخـرج الذي يصـرِّف المياه، ولكن الإهمـال الطويل للخرز [قناة الـري] قد أسهم بلا شك في تقليل سرعة سريان الماء فيـه، وبالتالي في الحفاظ على مستوى عالٍ من الماء في المستودع.

يقع إلى الشـمال من هذا المسـتودع المائي، وفـي مكان ما بالقـرب من النقطة المركزية لمحيط القوس تجويفٌ معشب كبير، ولكنه الآن جاف تماماً رغم أنّ اسمه أم الضبابة، كـما توجد قناة ري مفـتوحة مهـملة تتجه شرقاً من طرفـها الجنوبي ولا

تختلف عن تلك التي وصفتها عندما تحدثت عن البحيرة العظيمة، وهذا يدلُّ على أنها كانت في زمان مضى مستودعـاً كمثيلاتها. تؤيّدُ الروايات المحلية هذه الرأي، إذ يقولون إنّ القناة المهـجورة حفـر فيها آل مـرة ليزودوا مخـيمهم بالماء استـعداداً للرحلة التي تستغـرق أربعة أيام عبر الصحراء الرملية العظـيمة في الأيام التي كان خلافهم فيها مستعراً في المنطقـة، وحين كانت ترجمة هذا الخلاف لأعمال عدوانية ممكناً أكثـر مما هو الآن تحت المراقبـة اللصيقـة لابن سعـود. إن كانت هذه الرواية تستند على حـقائق ثابتة فهـذا يعني أن المستودع كـان مستخـدماً في عهود قـريبة نسبـياً. والرواية قـد تـكـون مـختلـفة، ولـكـن وجود القنـاة نفسـهـا يشـكّلُ برهاناً كافيـاً لصحـة النظرية القـائلة بأن المنخفض لا بد أن يكون قد احتوى على الماء في الماضي.

كنت بلا شك سـأنال ثمرة تجشـم العناء إن تتبعـت القناة في الصحـراء حتى نهايتها البعـيدة، إذ كان من المحتمل أن أكتشف مسـتوطنات مهجورة من الماضي. ولكن لضيق الـوقت استبـعدت هذه الفكرة، هذا؛ إن لم أذكـر عدم رغبـة رفاقي لتحمّل المشاق التي كـانت ستنجم من تنفيذها. لقد كان اليوم الذي قـمنا فيه بهذه الرحلة للمستـودعات المائية أحد أكثر الأيام التي قضـيناها في الأفلاج حرارة. كنا في منتصف شـهر مايو (أيـار) في خط عرض ٢٢ْشمـال، وكانت أشعـة الشمس تهوي بـحممـها عـمودية على رؤوسنا. ورغم كل مـحاولات رفـاقي لاختـصار التجوال بين المخلفات البـالية لمملكة كانت عظيمة فيمـا مضى، تمكنتُ من إبقائهم في العراء حتى بقيت ساعة واحـدة لبلوغ منتصف النهار، فهم جوعى وعطشى إذ كنا قد غادرنا مخيمنا بعد الفجر بقليل. كان لدينا مرشدان تكرّم الأمير بتخصيصهما لهذا الغرض، أحدهما – اسمه محمد كان داكن البشرة وهو دوسري فظ، والآخر

-سعد- وهو قحطاني مرح قصير القامة. وعندما رأى هذا الأخير عزمي على البقاء هناك لأطول فترة أستطيعها انصرف بكليته للعمل، وكان يوجه انتباهي بالغمز أو الإشارة كلما لاحظ أن رفيقه قد استلقى. ولم يحاول بقية رفاقي، وهم إبراهيم ورشيد ومترك وثلاثة أو أربعة آخرون إخفاء ما أصابهم من ملل، أو نسيان حاجتهم لتناول الإفطار. وبعد أن رأينا الينابيع الثلاثة الأولى، أي تلك الموجودة في الطرف الشمالي للقوس قال لي محمد: «لقد رأيت الآن الينابيع، دعنا نذهب». لقد كان يبدو جائعاً للحد الذي لا يسمح له بالإدلاء بالحقيقة، وفعلاً وبعد قليل من التحقيق والتهرّب من الإجابة، قال لي: «إن هناك المزيد من الينابيع، ولكنها جد بعيدة». وبغمزة من سعد علمت أنه كان يكذب مجدداً بخصوص مواقعها. وقلت: «انظر، إن الأمير قد أخبرني أن هناك ينابيع عديدة، ولقد رأيت ثلاثة منها فقط؛ ووالله لن أفطر حتى أراها جميعاً، فإن كنت تعرف مكانها خذني إليها، وإلاّ فإنني سأبحث عنها حتى أجدها». كان هذا كافياً لمحمد. لقد كانت بقية الحفر والبحيرة في الجوار.

أخبرني الأمير والآخرون أنّ الأفلاج ووادي الدواسر يتمتعان في حقيقة الأمر بصيف أكثر اعتدالاً مقارنة بالشمال وقالوا: «كل ما تجنب تبرّد»، ومهما كان السبب وراء هذه الظاهرة الغريبة فلا بدّ أن أقرّ أنّ تجربتي خلال هذه الرحلة قد أثبتت صحّة هذا الرأي. وحقيقة أخرى علّلوا بها انخفاض درجات الحرارة هذا العام بصورة غير معهودة، وهي أن أمطار الشتاء كانت غزيرة بصورة استثنائية. لقد جرى السيل في باطن الأحمر سبع مرات خلال الموسم الذي انقضى قبل وقت قليل، وقد برّد السطح الذي تمرّ فوقه الرياح في هذه الأيام ويصحب ذلك هبوط

في درجات الحرارة. كانت الرياح الجنوبية أقلّ فعالية في هذا المضمار من النسمات الشمالية التي كانت على الدوام منعشة وجدّ باردة في بعض الأحيان.

وكانت المستودعات الثلاثة المتبقية تقع خلف تجويف أم الضيابة إلى ناحية الشمال في صقع معشب يبلغ طوله نصف ميل. وكان أبعدها في اتجاه الجنوب وهي أصغرها، وتتخذ شكل بركة دائرية تقريباً يبلغ طولها حوالي خمسين قدماً، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً، ويحيط بها حائط منخفض لكنه حاد، ويرتفع لقدمين فوق مستوى الماء بكل الجوانب باستثناء الجنوب حيث يوجد جانب من تلٍّ صخري شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه حوالي اثني عشر قدماً تهوي بحدّة لحافة الماء. يعرف هذا المستودع باسم أم الجرف في إشارة للمنحدر الحاد الذي تحدثنا عنه. ولم ألاحظ وجود فتحات خارجية تسمح بانسياب الماء إلى خارجها، وأحسب أنّها تُعدُّ من الحفر الميتة.

يُعرف كلٌّ من المستودعين الآخرين باسم البحرة، وهما مسطحان مائيان حيّان متوسطا المساحة مع ميل إلى الكبر. يكوّن المستنقع -الذي يقع إلى الجنوب- شكلاً نصف دائري وغير منتظم بطول ٥٠٠ ياردة وعرض ٦٠ ياردة، بينما يقل الثاني عن الأول أبعاداً، حوالي ٣٠٠ × ٥٠ ياردة وهو بيضوي في شكله تقريباً. ويقف الحاجز في كل منهما مرتفعاً لقدم واحد فقط فوق سطح الماء ويزهو بحُلَّة عظيمة من القصب والأعشاب الخضراء، ولكلٍّ فتحة في جانبها الشمالي يسيل عبرها الماء نحو قنوات الري ترى فتحاتها الدائرية بارزةً فوق الرمال المتحركة التي تنتأ من الصقع الرملي الذي لاحظنا وجوده على بعد أقدام قليلة من حدود هذه المستودعات. ويقارب عمق الفتحات الدائرية العمودية نحواً من أربعين قدماً في الطرف الجنوبي للمجرى الذي تتراكم فوقه الرمال لتكوِّن شطاً عالياً، بيد أنّ

ارتفاعه يقل تدريجياً كلما تتبعناه بعرض الشط الرملي، وبعد ميل تقريباً تختفي الفتحات العمودية، ويصبح المجرى مكشوفاً حتى يبلغ السيح. ويسمون هذا المجرى عين سمحان، ويعد الفرع الرئيس لنظام الرّي الذي ما زال فاعلاً. تلك القنوات التي تبدأ من البحرة الجنوبية وأم العظمان تمرّ تحت الحاجز الرملي لتقترن بسمحان في نقاط عديدة بطول مجراه. وأما المجاري المكشوفة التي تتكوّن بعد عبور الرمال - وهي فيما يبدو أربعة - تطلق عليها أسماء تحاكي وتذكّر بأسماء قنوات الأحساء الجارية: مجسور، وجّاج، برابر، ومنجور، بهذا الترتيب من الجنوب للشمال. وبعد نقطة التقاء منجور- وهو الأخير - مع سمحان يقترب المجرى من مجرى باطن الأحمر، وبعد ذلك يجري موازياً له حتى يصل كلاهما للمساحات المزروعة في السيح.

وواحة السيح هي المستوطنة الوحيدة التي تبقّت على قيد الحياة من المستوطنات التي كانت تعتمد على نظام الري المتجه شمالاً، وهي المستوطنة الكبيرة الوحيدة الباقية من كل مستوطنات الأفلاج القديمة، وهي في الوقت نفسه أكبر الواحات وأكثرها ازدهاراً في كل الإقليم، وتدين ببقائها الذي لا بد أنه كان متصلاً عبر الأزمان -كما تدين بوضعها المهيمن كمركز زراعي- للظروف التي جعلتها لحسن طالعها لا تعتمد في الماضي أو في الحاضر على عامل وحيد من العوامل التي تتحكم في الثروة في الإقليم منذ البداية. وكان موقعها المميز -الذي جعل مجرى السيول في باطن الأحمر، ومجرى سمحان المستديم يحيطان بها من الجانبين- قد أمكنها من الاستغناء عن أحدهما إن اقتضت الظروف دون تأثير كبير، وفقاً لما كانت عليه أحكام المناخ في السنين المتعاقبة، كما كان يمكنها الاعتماد على الري الصناعي من المستودعات المائية لتتجاوز بها فترات الجفاف وإن طالت ولتتغلب بها

على ما قد ينجم عن تراجع معدّلات الأمطار في الأراضي المرتفعة في منابع السيول. كما كان يمكنها الاعتماد على السيول لتسقي بساتينها إن احتلّ عدوّ المستودعات وحطّم مجاري الأدوية أو غيرّ مسارها. وكان حسن الطالع هو الذي عصمها من تطابق كلّ الظروف السيئة التي تمنع عنها كل مصادر الماء والتي كان يمكن أن يضرّ بها ضرراً بليغاً.

بعثنا برسالة في المساء من ليلى لزعيم عائلة الأشراف نخطره فيها برغبتنا في تناول الإفطار معه. وكان محمد دليلنا الفظ يؤيد بحماسة أن نتوجه مباشرة للقرية عبر الطرف الجنوبي القصي للواحة بعد أن فرغنا من زيارتنا لمنطقة المستودعات المائية ولكن خططه المبنية على الخداع ملأتني بالعناد والرغبة لمعارضة أي اقتراح يصدر عنه. لذلك تركنا مجرى سمحان لنتتبع المهد الرملي العريض لباطن الأحمر متوجهين نحو الطرف الشمالي لبساتين النخيل. وينقسم مجرى السيول إلى فرعين قبل أن يبلغ الواحة بقليل، ويجري أحد الفرعين إلى اليمين إلى داخل حيش كثيف من النخيل، بينما يواصل الفرع الآخر مساره في الاتجاه الشمالي الشرقي يحفّ بالطرف الشمالي للواحة جارياً بينها وبين بستان نخيل مسوّر يسمى الطويرقي ويتوسطه قصر ضخم جيد البناء. كنا قد تتبعنا هذا الفرع حتى وجدنا أنفسنا على الجانب الأقصى من الواحة، وسرنا بطول حافتها نحو الجنوب لقرية الأشراف الصغيرة، وهكذا اتخذنا طريقاً كاد -بعد أن بلغنا غايتنا- أن يصير دائرة كاملة حول المستوطنة، ولكن في طريق عودتنا لليلى سرنا عبر قلب الواحة التي حملت معي عنها انطباعاً عاماً بدا جيداً.

تقع واحة السيح على بعد حوالي أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من ليلى، وثلاثة أميال شمال منطقة المستودعات المائية، وتكوّن شريطاً من بساتين نخيل

كثيـفة، ويمتد لميلٍ ونصف من الشمال للجنوب، بعـرضٍ لعله يبلغ نصف ميل في المتوسط. تسقي سيول باطن الأحمر الجزء الشمالي من الواحة ويُتحكم في مياهها -في موقـع انقسام المجـرى إلى فرعين- بـاستخـدام سدّ غـير منتظم من الـتراب والأغصان المقطوعـة ويحول حسب مقتـضيات الضرورة لتحـويل انسياب الماء بين الفرعين. كان الـفرع الذي اتبعناه يُستـخدم عادة لتصريف الميـاه الزائدة في أوقات السيل العظيم، بينمـا كان الفرع الآخر والروافد الكثـيرة التي تخرج منه إلى داخل الواحة تُستـخدم لأغراض الرَّي. وكانت السيـول الاستثنائية هذا العام قـد فاجأت الزُّراع أثناء نومـهم ومرت بكمـيات جد كـبيـرة وبعنف كاسح إلى داخل بـساتين النخيل، فتركت آثارها في المستوطنة بتكسـير الحوائط الفاصلة بين البساتين وانتزاع السياجـات والبوابات وما إليهـا. ويسقي وادي سمحان الجـزء الجنوبي من الواحة وهو حزام متصل من نخيل عظيمة يوليها أهلها كل عناية.

يقسم طريق مـركزي يسمى سـوق الحيش الواحة طـولياً إلى نصفين تقـريباً، ويبدو أنّه الحدّ الفاصل بين المجموعتين اللتين تقتـسمان حقوق الملكية في المستوطنة بنسب متقاربة: عنصر الدواسر الذين يقطنون إلى شرق الطريق، والأشراف والملاك العبـيد إلى غـربه. ويبلغ عـدد أسر الأشراف حـوالي ثلاثين ويكثـرون في معـية مواليـهم والمزارعين في قرية السـيح أو السيح الأقـصى، كما يسـمونهـا دائماً في الطرف الجنوبي للواحـة، بينما يسكن الملاك وهم في الغـالب من قسم القـصيم، قرى الزيدي والفويْضِليَّة في الركن الشمالي الغربي للواحة، وفي أكواخ متناثرة بين البـسـاتين. والملاك من الدواسـر هم في الغـالب بدو غـائبـون عن القـرية، من مجـموعـات آل عمار وتميم وقـينان، ويزرعون بواسطة مـزارعين عبـيد، رغم أن عائلات قليلة من آل حـامد الذين كانوا قد انضـموا لتنظيم الإخوان قد اسـتوطنوا

بصفة دائمة في قرية متناهية الصغر تُسمى قصور خلف، بين السيح والقطين التي تسمى أيضاً السيح الأدنى، وهي قرية تقع في زاوية من حزام بساتين النخيل الواقعة في الجهة الشرقية للواحة. أمّا القطيْن فهي رئاسة آل عمار وجماعات أخرى من الملاك البدو الذين يشكلون أيضاً سكان قرى أثمرة ورفاع وقصر المناعي في الحافة الشرقية للرقعة المزروعة، ويشاركهم المكان زُرّاعهم من العبيد. ويشكل العبيد الأحرار غالبية سكان الواحة، ولعلّ عددهم الكلي يبلغ ٣٠٠٠ نسمة. لقد سكنوا في هذا الموقع لأجيال كثيرة متعاقبة، إذا جاز لنا أن نحكم من مظهرهم العام فلا بد أنهم قد تهاجنوا مع جيرانهم العرب بدرجة كبيرة رغم أن التزاوج بين العرب والعبيد أو بين العرب والخلاسيين سواء كانوا رجالاً أم نساء قليل الحدوث، ويُنظر إليه بازدراء. وقد يبلغ عدد الأفراد المكونين لأسر الأشراف ٢٠٠ إلى ٣٠٠ نسمة، ويعتمد ٢٠٠٠ آخرون منهم على الواحة لإمدادهم بالتمر والحبوب التي يأتون في الموسم للمطالبة بنصيبهم منها. هكذا يبلغ التعداد الكلي للواحة حوالي ٦٠٠٠ نسمة يسكن منهم ٤٠٠٠ فقط بصفة دائمة.

إن عماد القرية هو بلا ريب محصول التمر، واشتُهر تمرها بالامتياز. ويفوق عدد العينات المزروعة هنا عددها في أي مكان آخر بالإقليم، رغم أنّ أهم هذه العينات هي تلك التي أشرنا إليها من تمور ليلى[١] إضافة للتمر، فإن هناك الكثير من الحبوب والبرسيم والعصفر والخضراوات المختلفة، كما يُزرع القطن في أماكن متفرقة رغم أن الملابس المنسوجة محلياً لا يلبسها سوى أكثر الناس فقراً، كما تنمو شجيرات العنب والرمان وأشجار الفاكهة الأخرى جيداً تحت ظلال النخيل. وقد تزايد في الآونة الأخيرة الاتجاه لحفر الآبار لأغراض الرّي لدعم مصادر الماء

---

(١) راجع المتن، ص ١١٤ . (المؤلف).

المذكورة سابقاً ونتيجة لهذا تزداد مع الأيام الرقعة المزروعة، ويعود الفضل في هذا لعدد من الباحثين عن الاستثمار من تجار ليلى الذين عندما شعروا بالأمان في السلم الذي أتى به حكم ابن سعود للبلاد، أصبحوا يبتاعون الأرض كلما وافق سكان السيح على بيع جزء منها. ويبلغ عمق الماء في آبار هذه المنطقة حوالي ثلاث قامات.

كانت قرية القُطَيْن فيما مضى مسوّرة كما كانت أكبر مما هي عليه الآن، إذ أنّها دفعت الثمن لدورها في إيواء المتمردين في الحركة المجهضة في عام ١٩١٢م، وبعدها لم يُعَدْ بناء السور الخارجي مجدداً. وعدد البيوت بالقرية حوالي ١٥٠ بيتاً تنقسم إلى كتلتين لا تتخذان أشكالاً محددة وتقعان على جانبي أحد فروع باطن الأحمر. فضلت مجموعة كبيرة من سكان القطين السابقين البحث عن أرض جديدة يقيمون عليها دورهم بدلاً عن إعادة بناء ما تهدّم، وكانت النتيجة أننا نرى قرى صغيرة حديثة هي قرى أثمرة ورفاع المتجاورتين والواقعتين خارج الحافة الشرقية للنخيل مباشرةً، للدرجة التي يحسبها المراقب مستوطنة السيح نفسها، والتي بقينا بها عدداً من الساعات قبل أن نعود لمخيمنا بعد زيارتنا للمستودعات المائية.

ترجلنا أمام القرية الصغيرة غير المسوّرة التي تبرز إلى خارج النخيل من حافة السهل العاري في شرق الواحة، وسرنا بطول طريق ترابي لمسكن محمد بن فهد أمير الواحة وشيخ الأشراف المحليين. كان مبنى فخماً إذا ما قورن بالبيوت الطينية التي تحيط به، ولكنه كان مثلها من الطين المجفف ومن خلال الطرف الأبعد من فناء صغير محاط بسقيفات أو إسطبلات، دلفنا عبر باب كبير لصالة تتخذ شكل

الحرف الإنجليزي (T) وتستخدم كقاعة للقهوة، وهي كل ما رأيته من المنزل بالداخل. وتحتوي القرية الصغيرة إضافة لمسكن الأمير على مسجدين صغيرين وقليل من المتاجر الصغيرة التي تكوّن السوق، و٢٠٠ دار سكنية.

وكان مضيفنا محمد شيخاً بحق. يبلغ من العمر ثمانين عاماً ولكنه كان مرحاً ودوداً متوسط الطول، ذا هيكل نحيل قوي ومظهر يوحي بالرزانة. لقد كان بلا شك يبدو أصغر سناً من ابن أخيه الطويل المقوّس الظهر، الشديد الهزال وهو فهد ابن عواض بن فهد الذي كان يساعده فيما تقتضيه واجبات الضيافة. وادّعى الأخير أنه لمّا يبلغ الأربعين من العمر بعد، رغم أنه يبدو حقيقةً أقرب إلى القبر من عمّه المسنّ القوي، إذ أنّ الاثنان ارتحلا إلى الرياض بعد مغادرتنا للأفلاج مباشرة عندما كنّا في طريقنا للجنوب فأصابته وعكة بعد بلوغه العاصمة وتوفّي بها قبل أن نعود نحن إليها.

لم ألاقِ طوال إقامتي بالجزيرة العربية ترحيباً وكرماً ومبالغة في الاستضافة بقدر ما لقيته مجموعتنا في هذه الدار الودودة المرحبة. كان إبراهيم قد تغنى لي بكرم وصفات ذلك الشيخ دون أن يبخل عليه بمحاسن الأوصاف، ولكنّ تقريظه لم يكن ليوفي الرجل حقه. لقد كان كرم محمد مضرب الأمثال في الشرق كله حتى بالمقارنة بعهد حاتم الطائي نفسه. وهنا في قلب الجنوب وقف رجل لا يهاب شيئاً ، غير ملتزم بالتعاليم السائدة، يعلن ويمارس عقيدة أسلافه التي لم تكن عقيدة جيرانه. رجل مستقيم في كل تعامله الذي كان يستفتي فيه ضميره وليس ما يراه الناس، مفرط الكرم إزاء الفقراء والمحتاجين، وافر الشهامة كما أثبتت أفعاله أثناء تمرّد عام ١٩١٢م. لقد اعترف بعدها بجرمه بأن فرَّ عندما ظهر ابن سعود. وفي يوم تنفيذ أحكام الإعدام في ليلى ظهرَ بطريقة مفاجئة أمام الملك

وأمام الملأ واضعاً حبلاً للشنق في عنقه ولم يطلب شيئاً سوى العقاب على ما قام به. ولكن دماء الشهامة تجري بنقاء لا مثيل له في شرايين بني عنزة[١] إذا ما قورنوا ببقية العرب، وما زال ابن فهد يحكي كيف أنّه هُزم هزيمة كبيرة في ذات المجال الذي يجيده؛ مجال الشهامة إذ تفوق عليه العاهل الملك بأن عفا عنه. وليس لدى ابن سعود الآن من هو أكثر ولاء منه ولا مستشاراً أحقّ بثقته. وعندما عدت راجعاً إلى الرياض تمتعت بلقائه مرّةً أخرى في ديوان الملك، وتمتعت بالاستماع لمناقبه تُمتدح أمام الملأ بواسطة ابن سعود. كان الذي يدهشني على الدوام كأحد أهم مزايا الحكم السعودي هو ضمُّه لكثيرين ممن أدوا أدواراً قيادية في معارضة سيادته وحكمه، ولكنهم عادوا لخدمته نتيجة للصفعات الموجعة التي تلقوها منه في ميدان المعركة ولشهامته حيالهم في ساعة نصره. لقد كان هذا درساً آخر استمدّه من إخفاقات أسلافه.

كان مظهر محمد الخارجي يخفي قلباً في صفاء الذهب. ومرّت الساعات القليلة التي قضيتها في قاعته المضيافة كهنيهة خاطفة في واحة باردة تحيط بها بيداء العلاقات الإنسانية العربية القفر قبل اثني عشر جيلاً أتى أسلافه - فرع من أشراف اليمن - من ديارهم في جوار نجران استجابة لقوة الدفع التي دفعت بفائض السكان منذ عهود قديمة من جنوب غرب الجزيرة العربية في انسياب مستمر نحو الشمال الشرقي عبر شبه الجزيرة الصحراوية[٢]. يقول المثل «اليمن رحم (أو مهد) العرب

---

(١) يبني المؤلف هنا كلامه على أن الملك عبدالعزيز من عنزة والصحيح أن آل سعود من بني حنيفة. (المراجعون).

(٢) أما الروايات التي يتناقلها الأشراف في نجد فتقول إنهم من الحجاز وقدموا منه في أزمنة متباينة، أرجعها البعض إلى القرن الثالث الهجري في المدة التي حكم فيها الأخيضريون منطقة نجد. (المراجعون).

والعراق المقبرة»[1] أتوا إلى الأفلاج بحثاً عن ديار جديدة، ووجدوا نظام الرّي القديم في حالة خربة رغم أنه كان قابلاً للإصلاح، فاستقروا بين بساتين السيح التي أصبحت ملكهم؛ جزء منها انتزاعاً وجزء آخر بالشراء من الملاك الدواسر الذين أتوا في الوقت نفسه معهم أو سابقين لهم. وتمتلك العائلة في الوقت الحالي حوالي نصف الواحة بعد أن فقدوا أجزاء من ميراثهم بالبيع للمضاربين المستثمرين من أهل ليلى. كانت إجابة مضيفي «نحتاج ونبيع»، بطريقته الصريحة المميزة رداً على تعبيري بالدهشة لتفريطه في البساتين الغنية التي كانت في حيازته. وحكى لي أنه عندما كان شاباً - قبل سنوات عديدة- زار الرياض مصاحباً لوالده، وهناك رأى الإمام عبد الرحمن الذي كان حينها رضيعاً يحمله موالي القصر، ولا بد أن مولده هو نفسه كان في حوالي عام ١٨٤٠م عندما احتلّ ابن ثنيان عرش نجد، وليس كما أعلن هو نفسه - في عهد الإمام تركي الذي سبق ذلك التاريخ بعشر سنوات أو أكثر[2].

عندما جلسنا متكئين على الحوائط في القاعة بالقرب من الموقد، أداروا علينا أقداح القهوة والبخور على فترات متقاربة، وكانت القهوة من البن اليمني الحقيقي، إذ لا يحتمل أحد أي نوع آخر من البن في جنوب الخرج. وكان رجال القرية يأتون من حين لآخر لارتشاف قدح من القهوة ولسماع الأخبار. لم تكن الحرب تهمهم إلاّ قليلاً إذ كانوا راضين عن عزلتهم طالما استمرت حركة القوافل منسابة، وهي التي تجلب البن إلى داخل البلاد من اليمن البعيدة، وتعود إليهم

(١) «اليمن رحم والعراق قبر العرب» في بعض الأحيان تستبدل بكلمة «رحم» كلمة «مهد». (المؤلف).

(٢) كلام المؤلف هنا غير دقيق لإن الإمام عبدالرحمن ولد في عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) وعبدالله بن ثنيان تولى حكم الرياض خلال الفترة ١٢٥٧- ١٢٥٩هـ (١٨٤١-١٨٤٣م). (المراجعون).

بالأقمشة والسكر من موانئ الأحساء. وأثارت البوصلة وآلة التصوير اللتان أحملهما فضول الجميع ولكنهم لم يتمكنوا من استيعاب الغرض من آلة التصوير التي افترض محمد أنها نوع من المقرب (التلسكوب)، ولقد أفاض عليّ من الشكر والعرفان عندما وعدته بإعطائه منظار ميدان هديّة له، وهو وعد أنجزته فور عودتي للمخيَّم. وكان الأثاث الوحيد الموجود بالقاعة هو حصائر خشنة مصنوعة من سعف النخيل مدت على الأرض بزيادة سجاد وسرج جمل وُضِعَا على شرفي. وجلس محمد وابن أخيه قبالتي بالقرب من الموقد يضطلعان بمسؤولية عمل القهوة ويتناوبان الاختفاء من القاعة إذ كانوا يُعِدُّون إفطارنا. ولكنهم أحضروا في البداية طبقاً ضخماً من التمر وقصعة من اللبن المخثّر البارد المنعش، وهو ما شربنا منه كثيراً. ثم جاؤوا بالوليمة يسبقها بساط دائري جد كبير، وبعد أن فرشوه في وسط القاعة ظهر الموالي يحملون إناءً دائرياً مسطحاً قطره حوالي ثلاثة أقدام وبه مقدار من ثريد قمحي يتصاعد بخاره، طُبخ في اللبن، وقطع من الخبز المخضل في اللبن، وفوق هذا أضافوا «السمن» بسخاء من قصعة خشبية، وفي النهاية أحضروا إناء اللحم؛ أطراف شاةٍ كاملة كوّموها فوق الثريد القمحي أو «الجريش» كما يسمونه، وهو شبيه بالبرغل الذي يؤكل في سوريا أو «القيمي» نجد.

قال مضيفنا: «سَمّ» وبعدها انسحب هو وابن أخيه مكتفياً بالراحة النفسية التي تجلبها عليه رؤيته لنا ونحن نهوي على طعامه الجيّد بشهية عظيمة أثارها طعامه نفسه. هوينا نحو القصعة الضخمة بعزم أكيد إذ كان الجوع قد أخذ منا مأخذه، وعندما نهضنا عن مائدة الطعام لم نخلّف وراءنا سوى العظام. وقلنا للمولى الذي أحضر لنا طَسْتاً لنغسل فيه أيدينا: «أنعم الله عليكم»، وبعدها عاد محمد ثانيةً

واحتلّ موقعه بجوار الموقد مستنكراً كلمات الشكر التي أسبغناها عليه، شارعاً في إعداد القهوة بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث. وعندما علم من إبراهيم أنني أدخّن أصرّ على ألاّ أقيم بيننا الحواجز فاستجبت بإشعال غليوني. كان هذا الموقف - رغم أنه يبدو صغيراً - نقطة أضفتها لمزاياه، بيد أنني لم أدخّن على رؤوس الأشهاد ثانيةً في كل الفترة التي قضيتها بالبلاد السعودية إلاّ لمرّة واحدة، وكان ذلك في القصيم. وقال مضيفنا: «والآن عليكم أن ترتاحوا»، وخرج ليعود ثانية بوسائد وبعض الأبسطة، ثم ذهب تاركاً إيّانا لساعة نمنا خلالها، وتم إيقاظ رفاقي لصلاة الظهر ثم أخذنا الإذن للانصراف من مضيفنا الذي يندر أن يكون هناك صنوٌ له في أي مكان، وبعدها عدنا لخيامنا في ليلى.

رأيت في الجنوب قريباً من السيح، وعلى بعد ميل واحد شرق مجرى سمحان بقايا مهدمة لما كان يوماً سوراً محيطاً به قلاع بالية. كان السور منتصباً في بعض المواقع، وكانت تغطي السهل بين هذه الخرائب الطينية وبين الوادي روابٍ من الحجارة والملاط تشبه النصب التذكارية. وكانت هذه الروابي تشبه تلك التي رأيتها في سلسلة تلال قصيعة في أعلى المستودع المائي: عين الضلع بالخرج. وكانت هناك مجموعة ثانية من خرائب مشابهة منتشرة حول مسطحات الحجارة الجيرية في منطقة الحُفر. قد يكون هذا المكان موقعاً لقرية عظيمة درست أو مقبرة من الماضي، ولعلها من أصل فارسي، إن جاز لنا أن نحكم من طبيعة نظام القنوات الموجودة بجوارها والذي يعطي مؤشراً لهوية أولئك الذين اخترعوه. ولكن الثابت أنه ليس هناك أثر مشابهٍ لها -سواء كانت مدينة أو مقبرة- في مصادر تاريخ العرب الذين أهملوا هذه الروابي التي انتشرت فوق مساحة شاسعة

وركزوا اهتمامهم على الحوائط الطينيـة والقلاع التي كانت جليّة واضحة رغم أنها كانت تحتل مساحة ضيقة، وقد تكـون من عهود حديثة نسبياً، ولعلهم بفعلهم هذا حافظوا دون وعي منهم على بقايا من عهد قـديم مما قد لا ينسب لأسلافهم، وقد لا تمتّ بصلة لبقايا النصب الـتذكارية، ولكن لعهود أسبق لتـاريخ الأفلاج، حيث أنهم يسمّون الخرائب قصيرات عاد، وتحكى عنهم القصة التالية:

حكم هذه الأنحاء في عهود بعيدة ملك عظيم يسمى عاد بن شداد الذي اتخذ وبُار عـاصمـةً له، وهي على مـسيـرة شـهر في الرمـال الجنوبيـة بجوار حـدود حضرموت. وغَرَّت عاداً قـوتُّه ومدى ازدهار مملكته فنسى الله. ورغم التحذيرات التي ساقها إليـه نبي الله هود فقد شرع في بناء عاصمـته كجنة في الأرض. وفي وسط الحدائق التي أقـامها لمتـعته أحـاط نفسه بحـراسة عظيمـة قوامهـا ألفان من المحاربين المختاريـن، واحتفظ في إسطبلاته بألفين من الجياد المطهـمة نادرة المثال، وكان بين يديه حـشد من العذارى قـوامه ألفان مـن الفتيـات. ولكن هناك حدود لإمهـال الله للعاصين من عبـاده، فأنزل عليهـم سخطه وغضب الله عليـه ودمّره بالريح الغربية الـعقيم، التي هبّت عليه ثمانيـة أيّام دون توقف، ودفنت عاداً وكلّ عظمتـه في بحر من الرمال التي تعـرف حتى الآن بالربع الخالي نسـبةً لخلوّها من الحيـاة. وكان مصـير عاد من المواضـيع الأثيرة المتكررة في القـرآن لتحذير عـبدة الأصنام بمكة من مغبّة التيه والضلال[1].

تركت دراسة الجزء الجنوبي من الأفلاج القديمة، وهو ليس أخّاذاً كسابقه- وإن لم يقل عنه إثارة - لأقـوم به في رحلتنا من ليلى للبـديع في المرحلة القادمـة من

(١) راجع القرآن الكريم، الجزء السابع. (المؤلف).

رحلتنا للجنوب. لهذا وبعد أن فرغنا من زيارة مجموعة قرى الخرفة الواقعة في الطريق المباشر المتجه للجنوب، انعطفنا في سيرنا نحو الجنوب الشرقي من الصغو في صباح يوم ١٧ مايو (أيار).

كان علينا أن نعبر شريطاً رملياً ضيّقاً وهو امتداد للنفود الثقيلة المتجهة شمالاً، وبعدها وجدنا أنفسنا ثانيةً في هضبة الغضرا المكونة من الحجر الجيري والتي كانت تنحدر بلطف نحو الغرب وتقاطعها بطريقة متشابكة بقايا القنوات التي تتفرع فيما يبدو -استناداً على اتجاهاتها- من قناة رئيسة تستمد مياهها من بحيرة أم الجبل. كانت هذه القنوات في أغلب الأحوال قد حفرت على سطح المنحدر، ولكنّ واحدة منها أو اثنتين كانتا مبنيتين بالكامل على مستوىً أكثر ارتفاعاً من الأخريات، ويبدو أنهما كانتا قناتين كبيرتين. بينما كانت الأخريات روافد لهما. كان الحجر الجيري على السطح يفسح المجال أحياناً لرقاع من تربة رملية متماسكة ورقاع مالحة تغطيها بكثافة شجيرات الحمض التي وجدنا في إحداها عُشّاً لحمَّرة[(١)] به ثلاث بيضات. وكانت توجد هنا وهناك هضاب صغيرة دائرية، تكوينها خليط مجعّد من الحجر الجيري والجبس، بينما تجري سلسلة منخفضة من رواب سوداء يُصنّفونها «هلا» أي صخور بركانية سوداء. في حين أنها قد تكون من الحجر الجيري. وتمتد هذه السلسلة بطول قمّة المنحدر مخفية وراءها صقعاً من مرتفعات سوداء متموّجة، ويبدو سطح هذا الصقع مغطّى برمال ناعمة تغطيها بكثافة حصباء صغيرة سوداء وقطع صخرية أكبر لها اللون نفسه.

(١) طائر في حجم العصفور، لم أستطع تحديد هويته. (المؤلف).

وجدنا في إحدى تجاويف هذه المرتفعات حقلاً متوسط الكبر من الخرائب به بقايا شبيهة بالنصب، وكان بالقرب منها رقعة بائسة من الحيش أو النخيل البريَّة. وبعد ذلك مباشرة وجدنا أنفسنا في وسط ساحة دائرية ممتدة من ركام الحجارة بلغ قطرها -كما قدّرته من قمة رابية مسوَّدة في ركنها الجنوبي- ميلين أو نحو ذلك.

بعد ذلك دلفنا مباشرة إلى منخفض عريض، كان في مهده خط من النخيل المبعثرة دونما اتساق يسقيها جدول جارٍ. ولا بد أنّ هذا الموقع كان مركزاً سكانياً في الأزمان الغابرة، ولكنني بحثت دون جدوى في المنخفض نفسه عن مؤشرات لسكن بشري قديم أو حديث، ولم يكن هناك شيء سوى بيتين صغيرين خاليين، يبدو أنه يستخدمهما في زمن الحصاد أولئك الذين يزورون المكان لخراص التمر.

وتابعنا الجدول مرتقين المنحدر إلى منبعه حتى بلغنا النقطة التي بدأ فيها، خارجاً من مجراه المخفي ليمر في مجرى ضيق لا يتعدى عمقه قدماً واحداً يسمى الجدول عين سويدان، ولا يعلم من أين ينبع، ويسمى بستان النخيل غوطة أو غوطة سويدان.

باستثناء هذه المعلومات اليسيرة لم أستطع أن أحصل على أي إشارات عن تاريخ هذا الموقع، أو عن هويّة من سكنوه فيما مضى من زمان. وما تبقى من نخيلها يمتلكه أهل الرزيقية، وهي قرية متناهية الصغر قوامها ستة بيوت مبعثرة في رقعة النخيل الهزيلة، ومساحتها قليل من الأفدنة، وتبعد ميلين نحو الجنوب بعرض سهل عارٍ من الحجارة الجيرية، ولا تعدو المستوطنة أن تكون حزام نخيل طوله ميل واحد وعرضه في المتوسط ٢٠٠ ياردة في مهد مجرى الثوير المائي الذي يهبط من مرتفعات المنطقة.

أما القرية نفسها فهي مجموعة بائسة من البيوت الطينية التي تبلغ نحواً من أربعين بيتًا، وتقع في الجانب الجنوبي لحزام النخيل تحت صخرة شاهقة أثرت فيها كثيراً عواملُ التعرية، وتكوّنت من نتوء في الغضرا يتجه نحو الغرب.

وكان سطح الغضرا مغطىً بخرائب حجرية كما هو سطح المنطقة كلها. وكان مهد المجرى المائي يعاني من تأثير الأملاح، والنخيل تسقى من آبار يقال إن مياهها مالحة. كما كانت البساتين في الطرف الغربي أكثر كثافة من تلك الموجودة أسفل المجرى المائي.

سرنا الآن في اتجاه الجنوب الغربي عبر هضبة وعرة متموجة، من الحجر الجيري، نحو بنّه، وهي آخر المستوطنات وأبعدها من ناحية الجنوب في إطار المستوطنات القديمة الواقعة في منخفض المجرى المائي المسمّى خر، وهو الشعيب المقابل للثوير من الجانب الجنوبي للمنبعج.

ولكن في منتصف الطريق بين مروان وبنّه بلغنا رقعة ثانية كبيرة في مساحتها وتملؤها الخرائب الحجرية التي كانت موزّعة حول منخفض شبيه بفوهة بركان قُطره حوالي خمسين ياردة مع حافة مرتفعة فوق سطح الهضبة وتبدو كأنها رابية صغيرة غارت قمتها.

ومن الجائز أنها بقايا حصن أو مبنىً آخر ولكن وجود قنوات مهجورة في نقاط مختلفة في الجوار توحي بأنها كانت في الأزمان الغابرة مستودعاً مائياً لينبوع مثل الحفر الشمالية. ومهما يكن الأمر فلا بد أنها كانت أيضاً موقعاً لنشاط إنساني في الماضي، إذ أن المؤشرات للأعمال اليدوية التي خلفها الإنسان كانت جليّة في

كل النواحي. وكان هناك منخفض ذو طبيعة مشابهة على بعد نصف ميل مع قنوات تتجه نحو مجموعة من قصور مهجورة تبعد حوالي ميل واحد من نخيل بنة.

تتكون مستوطنة بنّة من قصر وحيد وحزام نخيل يبلغ طوله ربع ميل، وعرضه خمسين ياردة، ويُسقى من جدول مائي جارٍ يسمّى خريزان، ولا يعرف المزارعون مصدره رغم أنّ قناته مكشوفة في بعض أجزائها ومغطّاة في أجزاء أخرى، وبها فتحات الري العمودية الدائرية التي يمكن تعقبها لمسافة ميلين إلى ناحية الغرب من النخيل. في الوقت الذي قمت فيه بزيارة المستوطنة كان هناك عدد قليل من العبيد يقومون بالعمل في الفتحة العمودية الأخيرة والتي كان يبلغ عمقها ثلاث قامات تقريباً لمحاولة زيادة انسياب المياه الذي كان ضعيفاً للغاية. وكانوا يقومون بنظافة المجرى ولكنهم فيما يبدو كانوا يعملون على غير ماهدىً إذ أنهم اعترفوا أنهم لم يكونوا يعرفون الاتجاه الذي يأتي منه الماء.

وكان من الواضح أن الينبوع الذي يُغذّي المجرى المائي يفقد حيويته بالتدريج. وكأنّما كانت نخيل بنة على وشك أن تأخذ نصيبها من المصير الكالح الذي حاق بكثير من مستوطنات الأفلاج القديمة.

كان أمير البديع قد أخبرني أنّ العمال الذين كانوا يحفرون في المكان لتطهير قناة خريزان وجدوا حجراً غريباً عليه كتابة منقوشة. لذا عندما ذهبت إلى بنة كان يحدوني أمل عظيم في أن أكتشف بعض الوثائق التي قد تعطي مؤشرات عن تاريخ حضارة الأفلاج القديمة، لكن خاب رجائي، إذ أن العبيد الذين استجوبتهم بدقة عن الأمر لم يتمكنوا من إبراز شيء ذي أهمية سوى قطع بلورية غليظة

وشرائح من الحجر الجيري متحبّبة كالبللور. إنّ الزمن والبحث والتقصّي الدقيق هما الكفيلان بحلٍّ المعضلة التي يمثلها انتشار الخرائب والبقايا البالية في هذه المنطقة -إن قُدِّر لأحد مزودٍ بكل ما يستلزمه هذا التقصّي أن يزور هذه الأنحاء- ولكن حتى ذلك اليوم سيبقى تاريخها مغلفاً بالغموض. كلّ ما نعلمه يقيناً هو أنّ الإنسان قد عاش هنا حياة مزدهرة في وقت ما، ثمّ زال الرخاء ولم يَعُدْ ثانيةً ولا ندري إن كان السبب هو حماقة الإنسان أم قانون الطبيعة.

٤- أفلاج القرون الوسطى:

رغم أننا لا ندري من كانوا سكان الأفلاج القدماء، لكن الآثار المتبقية حتى يومنا هذا من الأعمال اليدوية تجعل الاحتمال الأكبر هو أنهم ما كانوا من سلالة عربية وأن أرومتهم التي انفصلوا عنها ليستعمروا أجزاء في عمق الجزيرة العربية، كانت ذات حضارة أعظم من كل الحضارات المحلية التي سادت حينذاك بين الجماعات المختلفة في الجزيرة العربية باستثناء حضارة السبأيين في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. إن استمرار مخلفات قديمة في الأفلاج ذات صلة بقوم عاد حتى يومنا هذا، وكذلك قلة المتوافر في أيدينا من معلومات، إضافة لما نعلمه من أنّ المرتفعات الجنوبية الغربية كانت على مرِّ العصور مصدراً للهجرة البشرية التي زادت أعداد السكان بالجزيرة العربية.

كل هذا يجعلنا حذرين في أن ننسب ونجعل مصدر الحضارة القديمة في أقاليم وسط الجزيرة العربية هو الشرق بدلاً عن الغرب. ولكن من ناحية أخرى فإنّ غياب الخرائب من النوع الموجود في الأفلاج والخرج عن كل المواقع الأخرى بطول الطريق المؤدي من الأفلاج للجنوب وخاصة وادي الدواسر، وكذلك التشابه العظيم في نظام قنوات الري في الأفلاج والخرج من جانب مع تلك الموجودة في الأحساء ومنطقة القطيف من جانب آخر، وكذلك ما نعرفه من أن الساحل الشرقي للجزيرة العربية كان فيما مضى من زمان -ولفترة طويلة- تحت هيمنة الفرس[1]، كل هذا يجعلنا ننظر إلى الشرق وليس للجنوب الغربي لتفسير الظواهر التي نجدها في هذه الأنحاء.

---

(١) لم يكن مشرق الجزيرة العربية تحت هيمنة الفرس بل كانت السيطرة عليه عربية بحتة ثم أعقبها سيطرة العثمانيين عليه إلى أن تنازعها في ذلك البرتغاليين في فترات ليست طويلة ثم أصبحت تحت السيطرة العثمانية والعربية بالتناوب ثم آلت إلى العرب. (المراجعون).

ليس من الضروري أن نتجشم عناء التحقق من أمر لا نستطيع حسمه، ومهما يكن الأمر فليس هناك من شك في أنّ استعماراً لاحقاً حدث لإقليم الأفلاج من الجنوب الغربي في موجات غزو متلاحقة، خلفت ثلاث منها على الأقل آثاراً وأناساً في الإقليم. إحدى هذه؛ غزو الأشراف قبل ثلاثة قرون، وهو أمرٌ أشرت إليه سابقاً عندما تحدثتُ عن واحة السيح، وتتجلى في واحة البديعة الآثار الأخرى.

وقبل أن نغادر ليلى لنعاود المسير نحو الجنوب كان لا بُدّ لنا أن نجري بعض التعديلات اليسيرة في مجموعتنا لنملأ الخانتين اللتين شغرتا، إذ أن المحمّدين ما كانا يستطيعان مواصلة الرحلة معنا بعد حدود الأفلاج بسبب ديات دم لما تحسم بعد مع فخذ الوداعين من قبيلة الدواسر الذين كان علينا أن نمرّ بأرضهم بعد أن نغادر إقليم آل حسن. لقد سبب لي ذهاب الفتى الذي انضمّ لمجموعتنا في الدلم أسىً حقيقياً، وسأتذكره دوماً كأحد المبرزين القلائل؛ زميع ومترك وجابر وحسن وعرفاني وقليل من الآخرين، وكلهم قدموا لي خدمات جليلة أثناء إقامتي في الجزيرة العربية.

وعندما بلغنا أم الشناظر حيث تقيم زوجته التي لم يرها منذ أشهر، لم يشأ أن يتركنا قبل أن يفي بالتزامه معنا، وجاء إلينا في اليوم التالي في ليلى وبقي معنا حتى اليوم السابق لرحيلنا، حيث فارقنا عائداً إلى داره. مثل هذه الأشياء نادرة الوجود بين العرب، ولم يشأ طامي أن تمرّ هذه الحادثة دون أن يهزأ بالرجل، ولكن كانت لمحمد الغلبة في التناوش. ولم يكن هناك من سبب يجعل محمداً يندم - على الأقل فيما يخصني- للالتزام الحرفي بعهده. لا أشك في أنّ الرجل كان سيرافقنا نحو الجنوب لولا المطالبة بدية الدم التي نجمت عن قتل أخيه لرجل من الوداعين، ولقد ظلّ لسنوات طويلة يحاول جمع المال اللازم للدية التي حدّد العُرف قيمتها

بمبلغ ٨٠٠ دولار تدفع لأولياء الدم. ساهم ابن سعود بمبلغ مئة دولار للصندوق الذي بقي عليهم جمع أكثر من ثلاث مئة دولار أخرى حتى يكتمل وهو الأمر الذي سيستغرق عدداً من السنوات. أمّا سَمِيُّهُ فلقد كان لا مبالياً ولم يكن له ما يميزه، ولقد دلّت السنوات الخمس التي قضاها محباً للراعية -التي أصبحت زوجته الآن-، على روحه العاطفية التي ما كان للمرء أن يتوخّاها فيه لما يبدو عليه من مظهر باهت وهمّة فاترة، ولم أستطع مقاومة الشعور الذي انتابني من أن حجّة دية الدم التي ادّعاها مع الوداعين لم تكن سوى غطاءً لمحاولة العودة المبكرة لعروسه.

لكنني لم أعترض على ذهابه على أمل أن نستطيع أن نستبدل به شخصاً آخر من قبيلته يكون أكثر مقدرةً على التفاهم والتواصل. ملأنا الخانتين الشاغرتين بأن ضممنا إلى المجموعة رجلاً يدعى صالحاً وهو من مواطني وادي نجران وأحد أفراد قبيلة عرجا الذين ينحدرون من قبيلة يام، وبذلك يدّعون قرابةَ رحم مع آل شامر والعجمان - مثل حداة ركبنا. وكان الآخر طويرش وهو ودعاني من فخذ الخنيش وكان موطنه في السُلَيِّل، وكانت طريقته في الحديث تستعصي على الفهم، إضافةً لخنّة أنفيّة رهيبة وطباع جافة فظة لا تَسُر. وفوق كل هذا كانت تعوزه لحدٍّ كبير الصفة التي ادّعى إبراهيم أنه قد تعاقد معه بسببها، وهي المعرفة بالإقليم. وعرض رجل آخر خدماته في ظروف غريبة بعض الشيء.

كنا ركباناً نخترق واحة الخرفة وكنت قد انفردت في مقدمة الركب عندما لاحظت أحدهم يلبس عصابة الرأس الخاصة بالأخوان متجهاً نحوي من أحد الجوانب، ولأني لا أود أن أؤذيه بتحية لا مبرر لها تابعت سيري وكأنني لم أره. لكن تحركاته كانت مقصورة تماماً وعندما اقترب مني محاذياً بادرني: «سلام عليكم»، وأجبته: «وعليكم السلام»، ثم صحبني وطفقنا نتحادث. أخبرته عن

وجهتنا وسألته بعض الأسئلة عن الوادي فأجابني بحديث رجل لرجل دون أن يبدي امتعاضاً لرفقتي أو رغبة في الإسراع ليذهب عني بعيداً. أخبرني أنه أحد إخوان سبيع بالضبيعة وأنه كان بالقرية عندما مررنا بها، وأنه سمع عني، وأنه كان في طريقه إلى البديع ليبتاع «ذلولاً»، ولكن كان من المحتمل أن يفوق سعر الذلول ما بحوزته من مال. فقلت له: «انظر، إن كنت بحاجة للمال لماذا لا ترافقني إلى الوادي؟ وعند عودتك سيكون لديك من المال ما يكفي لشراء الذلول».

كانت فكرة ضمّ رجل مثله لمجموعتي بمحض إرادته أمراً قد راق لي، ولدهشتي أبدى استعداده لمرافقتنا. لذا دعوته إلى تناول طعام الإفطار معنا وأن يقوم في الأثناء بترتيب الأمر مع إبراهيم للانضمام للمجموعة. وافترقنا بعد الإفطار وأنا أظنُّ أننا سنلتقي ثانية في البديع، لكنني لم أره بعدها قط، وعلمت فيما بعد أن إبراهيم ثبط همته، لأسباب منطقية خاصة به.

استمر الشريط الرملي الذي ذكرته سابقاً والذي يفصل بين الأفلاج القديمة والأفلاج الحديثة، واستمرّ ممتداً نحو الجنوب بطول الحافة الشرقية للغضرا حتى نقطة تقع خلف واحة البديع. وتمت زراعة خط عرضي من الأثل «صدّاً» منذ عهد قريب لحماية الواحة من تراكم الرمال التي تأتي بها الرياح الشمالية، ولكن يبدو أن المحاولة لم تكن ناجحة إذ أن الرمال تكوّمت عالياً في الجانبين الشمالي والشرقي للواحة، وقد تأثرت بساتين النخيل كثيراً بهذا السبب.

تقع واحة البديع على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من ليلى، ويقال إنها كانت المستوطنة الرئيسة للإقليم أثناء المراحل الأولى للغزو العربي الذي أتى من الجنوب الغربي. وتحتل الواحة مساحة أربعة أميال مربعة. جزء كبير منها تغطيه بساتين نخيل رديئة مبعثرة، بينما بقية الأرض - ولعلها أكثر من نصف المساحة

الاجمالية- أرض قاحلة توجد بها رقاع متفرقة من أراضٍ مخصصة لزراعة الحبوب، أو مناطق سكنية، أو خرائب لمساكن قديمة. يتفرع شعيب حصرج بعد أن ينبع من مرتفعات طويق لفرعين يجريان بالعرض ويسقيان الأجزاء الجنوبية والشمالية من الواحة تحت اسم حرم وخر، على التوالي.

وتنقسم الواحة إلى ثلاثة أجزاء محدّدة هي سلمى وقرينة وهدّام. والحد الفاصل بين الجزأين الأولَيْن -اللذين يضمان معاً كل المساحة المسكونة والمزروعة- هو مجرى خِر، في حين أن جزء هدّام الذي يقع شرق وشمال شرق سلمى ما هو إلاّ خرائب مبعثرة في اضطراب لمدينة كبيرة درست وغطّت معظمها الرمال المتحركة. جزء سلمى أو القسم الشمالي، الذي يحتل حوالي ثلثيْ كل الأرض الصالحة للزراعة يُسقى من مجرى سيول حرم الذي ينضب معين سيله عند بلوغه بساتين وحقول ذلك الجزء، كما يسقى بدرجة أقل من مجرى الخر، وهو الأقوى بين المجريين ولا يزود قرينه بالماء فحسب، لكنه من القوة بحيث اختطّ لسيره عبر الزمن مجرى عميقاً عبر هضبة الغضرا التي تمسّ المستوطنة في هذا الموقع ليصل في النهاية لبنّة. وخلافاً لهذا فإن بساتين الجزأين تعتمد على آبار عديدة أعماقها في المتوسط بين سبع إلى ثماني قامات تُسحب مياهها عادة بواسطة الإبل. وتشابه الزراعة بالواحة ما رأيناه في المستوطنات التي تقع إلى الشمال، ولكن البديع تسمُ الحدَّ الجنوبي لزراعة الرمان الذي لا يوجد -لسبب ما- في مستوطنات وادي الدواسر.

تقع رابية قرين البارزة على بعد ميل واحد شرق قرينة فوق هضبة الغضرا وتطلّ على الجانب الأيمن للخر. ويحيط بالرابية حقلٌ متسع من الخرائب من بقايا الحجارة التي يعود تاريخها بلا شك للحقبة التي وصفناها في الفصل السابق،

ويمكن أن نعدها جزءاً من مستوطنة بنة القديمة وليس البديع. ولقد نقل لي الأمير أن أول سكان البديع فيما تحكيه الروايات القديمة هم قبيلة أو عائلة الأصفر التي لا يعرف شيء عن تاريخها سوى أنهم طردوا أو أُبيدوا على يد عشيرة الجملان التابعة لعنزة الذين احتلوا الإقليم -أو على الأقل- هذا الجزء منه، قبل أن يتقهقروا بدورهم تحت ضغط الدواسر، ليذهبوا نحو الشمال قبل حدوث مواجهة عاصفة. ولم يخلّفوا وراءهم ما يوحي باحتلالهم للإقليم سوى أثر واحد سأعرض له بعد قليل، وبقي حتى يومنا هذا في مرتفعات طويق التابعة للأفلاج. باستثناء الخرائب القديمة في قريْن، فإنّ أول موقع استيطان في البديع هو بلا شك ما تمثله خرائب هدّام التي تنبئ أسوارها الطينية القوية ومبانيها المهيبة أنها كانت مدينة محصّنة ذات حجم ضخم وأهمية كبيرة - ولعل عنزة هي التي بنتها وهي أول موقع إذا ما أهملنا ما رُوِيَ لنا عن الأصفر، والتي قد لا تمثل سوى أسطورة هلامية عن الماضي السحيق كأسطورة أرض عاد بالسيح.

مهما كان الأمر فإن عنزة قد احتلت -إن لم يقوموا ببناء- هدّام التي ظلت تلالاً من الحطام والخرائب عبر الأزمان التي ظلت في ذاكرة التاريخ، أو لعلها أحيلت إلى تلك الحال بفعل الدواسر المغيرين، الذين استبدلوا بالمركز العام الذي أقام فيه أسلافهم قرىً متناثرة تدلّ أكثر من أي شيء آخر على الغيرة الضيقة والتحزب الدموي الذي جعل اسم القبيلة مضرباً للأمثال في وسط الجزيرة العربية. كان سكان البديع -كما هو الحال مع بقية الإقليم- من مجموعة الحسن، ويحتل قسمي القرية حتى يومنا هذا سلالة المستقرين الأوائل: قسم الصخَابرة في سلمى، والشكرة في قرينة.

في الجزء الأول (سلمى) يوجد عـدد من القرى الصغيـرة و القصور، وسلمى هواسم أكبر هذه القـصور، وتقع في قلب الواحة على وادي حرم، وتتصل مـعها قرية صغـيرة أخرى تسمى سوق، وكوّنت الاثـنتان فيما يبدو قـرية واحدة، حتى أزيلت التحصينات المحيطة بهما معاً بواسطة عبدالله بن سعود[١] عندما هبت هناك انتفاضة وتمرّد ضد سلطانه في نفس الوقت الذي قامت فيـه حركة المبرّز تقريباً. ما زالت هناك بقايا قـائمة للحائط القـديم، لكن سوق لا تعدو عمليـاً أن تكون قرية صغيرة مكـشوفة تكثر فيها الأسـوار العالية[٢] والحصون السـميكة بسلمى، والتي يجوز أن عبدالله قد تركها دون أن يحطمها، أو أن بناءها قد أعيد بعد ذلك.

لا يوجد بالقريتين معـاً سوى خمسين بيتاً. أمـا القرى الأخرى في هذا الجزء فهي بُطينة التي تتكون من ثلاثين بيـتاً، وأم الزُّبيّرة ومشرف. والقريتـان الأخيرتان خربتان، وتقع مشرف على بعد ميل خارج حدود الواحة من الناحية الشمالية. أما مستـوطنات الجزءالجنوبي فهي قـرْينة نفسها وهي قـرية متضامَّة بهـا حوالي ثلاثين مسكناً، وقـصر العلا وهي قـرية أصغر وبهـا قصور متناثـرة. يبلغ تعداد السكان بالبـديع تقريبـاً ١٠٠٠ نسمة، رغم أنـه يمكن مضاعـفة هذا الرقم إن أخـذنا في الحسبـان عناصر البدو الذين يعتمدون عـلى الواحة. وكانت الرقعة المزروعة فـيما مضى من زمان محاطةً فيما يبدو بســور، ولكن لـم يتبق منه إلاّ أجزاء متفرقة بعد أن دمّرَ الأجزاء الأخرى عبدالله بن سعود، أو -وهذا أكثر احتمالاً- دَمّره الدواسر أنفسهم عندما احتلوا الناحية في البداية.

(١) الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي. (المراجعون).

(٢) ارتفاعها حوالي أربعين قدماً. (المؤلف).

رحب بنا أمير سلمى عند وصولنا، واسمه مرضي وهو من قسم الصخابرة التابع للدواسر. وأولى الأمير أمر راحتنا واستيفاء متطلباتنا كل عنايته وحرصه رغم تقدمه في السن، وتناول معنا الوجبة في الليلة التالية، وتجلّت لنا شخصيته الباهته وعزوفه عن الحديث رغم أنه أخبرني بما سجلته هنا عن تاريخ الواحة، ولقد كان هو نفسه شاهد عيان لرد فعل عبدالله. أما ابنه محمد فلقد كان في حوالي الأربعين من العمر، وكان متحدثاً لبقاً وذا شخصية محببة. ولقد تكرّم بمرافقتي في زيارتي لبنّة بحثاً عن الحجر المنقوش. أما الجيل الثالث للعائلة نفسها فهو ابن محمد الذي رافق جده عندما تناول معنا الطعام.

٥- على حافة الربع الخالي

تقع صحراء البياض الشاسعة إلى الجنوب من الأفلاج، وتجري حافتها الغربية في اتجاه الجنوب تقريباً لمسافة تربو على مئة ميل من خط عرض الخرج. ويمتدّ من هذه القفار نتوء ذو رأسين نحو الغرب ليلامس المنحدرات الخارجية لهضبة طويق التي يتحول تصريف مياهها جزئياً - بعد أن يحبسها هذا النتوء - نحو الشمال والجنوب ملتفاً حوله لتجري المياه بطول الخطوط الأكثر انسياباً. أما الجزء الأكبر من مياه التصريف فيتّجه نحو الكتلة المركزية لانبعاج البياض، فتدفعه للوراء بين الرأسين لتكوّن إسفيناً عريضاً هو الخليج المطوّق الذي يسمى المقرن. وهناك يكوّن المجريان العظيمان اللذان يسيلان من هضبة طويق، وهما الشُّطَبَة والضُّبَعيَّة: أودية عريضة تحفّها الأشجار وينحتان مساريهما بعمق ويحملان المياه في النهاية عبر حاجز الأحقاف نحو الصحراء، ويتركان الكتل الصخرية الصلبة متناثرة في المنخفض فيبدو وكأنّ به تلالاً متفرقة.

في أزمان سابقة مازالت في ذاكرة المعاصرين - إن كان لنا أن نصدّق الروايات المحلية بشأنها - حين لم يكن هناك من الأمن ما يسمح بالسفر الآمن، وحين كان منخفض المقرن جافاً - إلاّ في موسم السيول - كانت القوافل تتخذ مساراً دائرياً بطول الجوانب الخارجية لهذا النتوء الصحراوي في طريقهم للأفلاج عن طريق واحة الشطبة الصغيرة الواقعة في طيّات طويق، والتي كانت الموقع الوحيد الذي يمكن أن تستقي فيه القوافل في طريقها بين حمام والبديع. ولا بدّ أن طول الرحلة حينها كان يُعادل طولها الحالي مرّة ونصف، إذ أن الطريق الجنوبي الغربي المباشر وهو الذي اتبعناه للسُلَيّل يسير عبر نتوء البياض بطول قاعدته ويمرُّ بإزاء برك المقرن

وهي مصدر ماء تتوسط المسافة بين البديع وحمام. هذا الطريق المباشر طوله حوالي ١٢٠ ميلاً.

بعد أن غادرنا البديع سرنا ثمانية أميال، وقادنا الطريق فوق ما تبقى من سهل الأفلاج الذي كان سطحه ينحدر بلطف نحو الجنوب الشرقي، كما كانت تربته طفلية رملية خفيفة تتعاقب مع شرائط عريضة من الحصباء مع قدر وافر من نباتات قصيرة خشنة. وفي منتصف الطريق عبرنا المهد الرملي الخفيض لشعيب مُسرجة، وهو مهد للسيل صغير يأتي من المرتفعات.

وبعد ذلك بقليل بلغنا حدود الإقليم في مهد شعيب الحنو الواضح المعالم، وهو مجرى مائي رملي عرضه حوالي خمسين ياردة ويجري بين شطين ارتفاعهما قدمان من غرب طويق بطول الجنب الشمالي لنتوء البياض ثم يضيع في القفار في ناحية الشرق. وكانت على جانبي المجرى المائي الكثير من النباتات؛ شجيرات الشار والسلم وأعشاب متعددة الأنواع.

بعد ذلك بلغنا ربوة صغيرة تسمّى خفيسة، يلتصق بها مجرى للتصريف يحمل الاسم نفسه . كانت هذه الربوة تسم البداية للقفار الحقيقية، أو الامتدادات الشاسعة من الصحراء المغطاة بحصباء رمادية اللون لا يحدها سوى الأفق الذي ارتقت إليه بدرجة تحدُّرٍ ولا تكاد تحسّ. اطلعتُ من قمة الربوة على مشهد فسيح متسع بيد أنه لم يكن يوحي بشيء. كان من ورائنا سهل الأفلاج الرتيب مع بقاع خضراء صغيرة، وكان يسند السهل من الخلف حاجز طويق. وكان أمامنا الربع الخالي -الخالي من الماء- وكنا على وشك أن نعبر حافته إذ أن العرب يعتقدون

-وهم محقون في ذلك- أن البيـاض هي حافة الربع الخالي، رغم أن الرمال التي يقصر عليهـا الجغرافيون ذلك الاسم تقع على مسـيرة أيّام عديدة في اتجاه الجنوب والشرق. كان التموّج اللطيف لطليعتها مثل أمواج بحر تتكسر على خط الساحل. وكانت الصحراء الناعمة تسـتكنُّ خلف محيط هادي التموّج يضرب في هذا الموقع وذاك بسلاسل تلال وعرة.

ترك مرور عـدد لا يحصى من القوافل طريقـاً عريضاً حفـر عميقـاً في التربة القاسية بطول قناة شعيب سدير الذي يصرّف مـياه المنحدرات الشمالية لهذه المنطقة في اتجاه الحنو.

وسرنا وقد أخذ منا النصبُ مأخـذه بطول هذا الشعيب في وسط تلك القفار، حتى بلغنا بدايته في أرض وعرة وَسَمَت التمايز بين التصريف الشمالي وذلك الذي ينحدر نحـو منخفض المقـرن. ولم يكن هناك معلمٌ يحـيي موات المشـهد الرتيب الممتد لمسـافة أربعين ميلاً بعرض الرأس الأول للنتوء الصـحراوي الذي تحدثنا عنه سابقاً. ووجدنا في موقع ما بجـوار الطريق نصباً صخرياً غريب الشكل مكوّناً من ألواحٍ صخـرية حادة اصطفّت امـتداداً لمر. وكـان المر نفسـه مبطناً من الجـهتين بألواحٍ شبيهة امتدت منه نحو الطـريق، وكان في الجوار لوحان صخريان مسطحان يبعـدان عن بعضهـما مسـافة خمسـة عشر قـدماً. كانوا يسـمون هذا المكان تمرة الهضاب. ماذا كان يعني هذا الاسم؟ ومن كان هضاب؟ هذا ما لم يستطع أحدٌ أن يدلني عليه.

وبعد ثلاثة أو أربعة أمـيال إلى الأمام تقف شجرة طلح وحـيدة، وهي موقع

مفضّل لتمضية القيلولة، وتعرف باسم شجرة عوّاد. وبعد ذلك، وعلى بعد مسافة مشابهة، وبالقرب من منبع الشعيب كانت توجد رقعة بها نصبٌ صخرية تشبه لحدٍ كبير خرائب الأفلاج القديمة رغم أنها كانت بعيدة كل البعد عن أي مركز محتمل لسكن البشر. لذا ما كان من الممكن ربطها بالأفلاج. هنا تخللت سطح الصحراء سلاسل تلال متناثرة تباينت ألوانها من اللون الرمادي للون الأسمر الفاتح مع خطوط ورقاع من اللون الأسود، حيث غطت الحجر الجيري طبقة خفيفة من الحجر الرملي مع زوائد مسطحة القمة أو مخروطيتها وقد دكن لونها وكأن ذلك بفعل النار.

كان أول ما مرّ بنا في الطريق من مظاهر الحياة مجموعة من نساء الهواملة – وهم قسم شيخ سهمي – يشققن طريقهن من مخيمهن في جوار المقرن، قاصدات ليلى لابتياع بعض المؤن. كان عدد النساء نحواً من اثنتي عشرة وكن يركبن معاً أمام أربعة أو خمسة من الحراس المرافقين الذين تبادلنا معهم التحايا والأخبار. ولقد أبدوا سعادتهم بعودة زعيمهم من مهمته في يبرين ولكنهم شعروا بالإحباط عند سماعهم بنتيجتها. وبعد ذلك بقليل مررنا بمجموعة قوامها ستة من العبيد من قسم ولامين الوادي، وكانوا في طريقهم – كما أخبرونا- بحثاً عن الثروة في مهاد اللؤلؤ في الشاطئ الشرقي.

هكذا يفعل كثير من سكان الداخل، ويعودون في معظم الحالات بعد عدد من سنوات الكدح ببضع مئات من الدولارات تكفي للزواج ولتأمين بيت مع قليل من الضأن أو ناقة إن تيسّر ذلك، وليعيشوا بعدها في غنىً نسبي لبقية أيامهم في الحياة. بيد أن بعضهم لا يرجع ثانية حيث يستهويهم سحر حياة البحار أو ترف

الحياة المدنية فـي بلد بعيد. أخبرنا أفراد تلك الجـماعة أنهم سيسيرون لـليمامة ثم يتوجهون بطول صبـحا ليستقوا من آبار الوسيعة جنـوب أبي جفان ثم عبر الدهناء للأحسـاء. وهناك طريق مباشـر بين الوسيعة والأحـساء يمر بطريق آبار الوسيـعة، ولكنها مغامرة لا يقدم عليها إلاّ من يعرفون هذه الأنحاء معرفة جيدة يضمنون بها ألاّ يضلوا طريقهم في البياض، وهناك يقطعون فيـها ٥٠ ميلاً هو عرض الصحراء التي ليس فيـها طرق أو مسارات مطروقـة. أخبرني بكل هذا متـرك الذي كان قد سلكها من قـبل. ومررنا قبل أن يحلّ الظلام بمجـموعة أخـرى في قافلة محمـية صغيرة من الإبل. كانت تسع من الإبل محمّلة بِبُنّ اليـمن المعبأ في أكياس كبيرة، يحتوي كل منهـا على ثمانين وزنة[١] من الثمـار الغالية، وكـانوا في طريقهم إلى الحوطة، وهي الحـدود الشمالية المعـتادة لتجـارة البن في الوقت الحالي، إذ أن بنّ اليمن يُعدُّ ترفـاً في الرياض وما بعدها، ويأتي به من سوق الحوطة من يسـتطيعون دفع ثمنه.

قمت في البـديع في اليوم السابق بتـدخين آخر ما تبـقّى لي من تبغ. وكنت أتوقع متـاعاً من الكويت ولكن لم يـصل حتى غادرنا الرياض، وكـنت قد تركت أمراً أن يُرسـل إليَّ على جناح السرعـة بعد وصـوله، ولكن لم يكن هناك من أثر له. كان المستقبل في هذا الجانب يبدو قاتماً -جَد قاتم- إذ ليس التبغ فقط بل أفلام آلة التصوير أيضاً كانت قد شارفت النـهاية، ولقد كان السفر دون هذه الضروريات محنـقاً مؤلماً. بيـد أنّه لم يكن هناك مـا يمكن عمله سـوى الصبر بقـدر الوسع.

(١) راجع الحاشية صفحة ٢٤٤ . (المؤلف).

وكانت الصعوبة في الحصول على أفلام تفوق العجز عن شراء التبغ بدرجة واحدة ليس إلاّ، إذ أن بحث إبراهيم ورفاقه عن التبغ في الأفلاج أسفر عن عثورهم فقط على كمية ضئيلة تقل عن ربع أوقية[1]، وهو ما يملأ فنجان قهوة، وطلبت صاحبته - وهي امرأة من السيح - بكلٍّ صفاقة مبلغ دولارين. كان الثمن المطلوب يدلُّ على محاولة للربح الخسيس وهو أمرٌ لم أقِرُّه، وتابعنا سيرنا بلا تبغ، وبقينا هكذا - بلا تبغ- لمدّة عشرين يوماً أخرى إذ لم يكن في الوادي شيء منه. بقيت منتظراً تبغي الخاص حتى يوم ٦ يونيو (حزيران). لقد أحسّ إبراهيم ورشيد بوقع نفاد التبغ بنفس الحدّة التي أحسسته بها، ولكن من العدالة أن أسجّل أنهما في اليوم الأخير أصرا على تخصيص ما تبقى من تبغ لاستعمالي دونهما، وكانت النتيجة أن دخّنت ثلاثة غلايين بعد أن توقفوا هم عن التدخين. بعدها صرنا جميعاً بلا تبغ، بيد أنّ إبراهيم لجأ لكشط الرماد عن كل غلايينا وقام بتدخين ما تجمّع لديه منه.

كانت الهضبة المتموجة التي تتكوّن من سلسلة من المنخفضات تُعرف كلها باسم الكرمديات، وهو اسم مشتقّ من الكرمدية[2]، اسم أكبر هذه المنخفضات. كانت هذه الهضبة هي الحد الفاصل بين التصريف المتجه نحو الشمال وذاك المتجّه نحو الجنوب. وكل واحدة من هذه المنخفضات مستقلة عن رفيقاتها، وفي مهادها جميعاً أشجارالسنط والشجيرات الأخرى. ووقفنا على الأرض المرتفعة التي

(١) الأوقية وحدة وزن تعادل حوالي ٢٨ جراماً. (المؤلف).

(٢) أسماء أخرى لهذه المنخفضات هي: نقعة الشجيرة ومُسْرَحَة ونقعة العبيد وأبو طلح وأم السمرة. (المؤلف).

تفصل الواحدة منهـا عن الأخرى وأصبح بإمكاننا أن نطلّ على مشـهد بدت أمامنا فيه الأجزاء المرتفعة في منخفض المقرن وهي: سلسلة التلال الصغيرة المثلّمة المكوّنة من الحجـارة الجيـرية والتي تسمّى الفـرد، وسلسلة تلال مـغالي في اتجـاه الغرب والجنوب الغـربي نحـو طويق، ثم السلسلة والجـبل ذو القـمّة المسطـحة المسـمّى الكدرات، وسلسلة التلال الخفيضة ختيْمِيّة في الاتجاه الجنوبي الشرقي عن يسارنا. وكانت تبدو في اتجـاه الجنوب، صوب آبار المقرن سلسلة عقـرة السوداء والمخروط الأسود المسمّى عبيْد المقرن والسلسلة الصـفراء الطويلة المسمّاة برقة السكون والرابية السوداء المدوّرة: الدنّان التي تسمُ موقعاً لجُبٍّ مـاء خامد. وبدأت أمامنا في السهل رقاع داكنة من أشجار جيدة النمو، إلاّ أن المنطقة كلها بدت وكأنّها تعرّضت لحريق هائل.

كانت إبل الهواملة ترعى منتشرة في المنحدرالمتجه جنوباً وفي المجاري الضحلة لشعيـبَيْ مريخة وهاوي، وكانت أعدادها تزداد كلمـا دلفنا وتوغلنا في المهد الذي تغطيه الأشجار وهو مهد شعـيب هوزعية الذي ينبع في سلسلة تلال الفرد. بعدها دلفنا إلى شعيب الشطـبة: أحد الواديين العظيمين لمنخفض المقـرن. دلّ وجود بئر سحب مطمورة عنـد التقاء هذين الشعيـبين لموقع سقيا قديم احـتلت مكانه إحدى الظواهر العجـيبة للصـحراء: وهي الخفس. وبلغنا هذا الموقع بـعد عبورنا لحـاجز كثـيف من أشجار السنط جيـدة النمو وأشجـار السرح، وأشجار أخـرى. وكانت البركة وهي واحـدة من ثلاث برك تكوّنت منذ عهد قريب - إذ يبـدو أنها تكوّنت في زمان يتـذكره المعـاصرون الآن - وصـار صقع المقرن مَـعبَّـرا للطريق الجنوبي العظيم وموقعاً مفضّلاً للبدو في ترحالهم وراء قطعانهم.

تزامن وصولنا للخفس الأول حيث أنخنا للقيلولة لمدة أربع ساعات، تزامن مع استقاء دوري للهواملة الذين حضروا ومعهم إبلهم الضخمة الداكنة اللون. تُعرف إبل الدواسر بأحجامها الكبيرة وكميات اللبن الوفيرة التي تنتجها. ويحضر الهواملة للخفس كل أربعة أو خمسة أيّام من البياض والمراعي الأخرى الموجودة في الأنحاء. ونُصبت الخيام في مجموعات تناثرت في كل الوادي، وكانوا يردون الماء جماعة إثر أخرى، وهي عملية تَستغرق منذ ابتدائها حتى الفراغ منها ما يربو على اليومين. وكانت خيام هذا القسم من القبيلة تتكون من قطع قماش سوداء قصيرة مهلهلة توضع فوق أعمدة قصيرة، وفي بعض الحالات لم تتعدَّ الخيام شرائح من حصير سعف النخيل تُفرش على أعمدة وتغطيها بعض فروع الأشجار التي تحتطب من الأشجار المجاورة. وكونها قاعده عامة كانت كل خيمة تؤوي عائلة واحدة، ولكن في بعض الأحيان - كما أخبروني - يُمكن لأخوين أن يتدبرا أمرهما بالإقامة في خيمة واحدة، وتحتل الأسرتان طرفي الخيمة دون فاصل بينهما ودون عقد. لم يُظهر البدو احتجاجاً لإقامتنا بينهم بل أفسحوا لنا المجال لنسقي إبلنا بالطريقة التي تروق لنا، بيد أنهم لم يبذلوا جهداً للتقارب معنا رغمَ أنّ مجموعات من النساء والأطفال الذين لم يكن هناك ما يشغلهم قد داروا في فضول حول خيمتي. وأجرينا معهم مناقشات لشراء ذلول لأنني كنت حريصاً على أن أعود ومعي حيوان ممتاز حقاً لأُهدَيهُ لابن سعود، ولقد قمت بتفحّص ناقة كانوا قد طلبوا ٣٠٠ دولار ثمناً لها، ولكن لم يتم الشراء إذ أنّهم لم يوافقوا على اشتراطنا بأن نعيد الناقة إليهم بعد التجربة إن لم تَرُقْ لنا.

اتخذ الخفس الذي خيمنا بإزائه شكل النجمة، صدعٌ في الأرض يبلغ طوله نحواً من خمسين ياردة، وعرضه ثلاثون، ويبلغ عمق الماء حوالي ثلاثة أقدام في

المنتصف مع انحـدار لطيف نحو الشواطئ. وكانت تحيط بـالخفس أجمة كثـيفة من الأشجـار الظليلة، وموقـعهـا على أحد جـوانب الوادي بالقرب من سـفح سلسلة البياض، وكانت متصلة مع مجرى سـيول الشطبة بواسطة عدد من المجاري الضيقة. ويلتقي وادي الشطبة الذي يسيل من منحدرات طويق بطول الجانب الشمالي لسلسلة تلال مُغالي، مع شعـيب الضبعية الذي ينحدر بطول الجـانب الخارجي لنفس التلال ليكوّنا معاً مجـرى واحداً يمرُّ عبر صخور البياض الشـاهقة بين رابية الدنّان وسلسلة عقرة. ويحدث التقاء الشعيبين هذا على بعد ميل واحد - أسفل طريقنا - من الموقع الذي كنا فيه عند رابيـة من الحجر الرملي يسمـونها برقة المانع. ويمرُّ شعيب صـغير يسمى أم العطور عبـر فجوة مركزية في سلسلـة مغالي ليقترن بـالشطبة بالقرب من برقة المانع. لقد ذكـرنا من قبل شعيب هوزعيّـة الذي ينحدر من سلسلة تلال فرد، وكذلك رَافدَيْه: شعـيب هاوي وشعيب مُريخة: وتكتمل شبـكة التصريف لمنخفض المقرن بشعيب سحب الذي تجـري مياهه نحو الضبعية من مـرتفعات فردة ابن موّاش وهو الرأس الثاني لنتـوء البياض. يمتدُّ لســان رملي ضيّق نحو طويق بين مـرتفعات مغالي وفردة ابن مواش ليفصل شعيب الضـبعية عن شعيب سحب الذي يجمع عند مروره بطول صـخور البياض ومـياه صرف عـدد من المجاري الصغيـرة المنحدرة من المرتفعات في ذلك الاتجاه.

وبعد أن يلتقي وادي الضبعيـة مع وادي سحب، يجري الوادي المشترك بطول صخور البيـاض الشاهقة، أسفل سلسلة تلال عقرة في مجـرى الطلح. كما يوجد بالوادي الخفسان الآخران على مـقربة من بعضهما ولا يفصل بينهمـا سوى مسافة ميلين. ويبلغ طول الخـفس الأصغر منهـما حوالي ٢٠ ياردة وعـرضه ١٥ ياردة، وهو صدعٌ عـميق لا يبعـد كثيـراً عن سفح الصخـور الشاهقة ويغطّى مـهده الماء

لارتفاع قدمين. بيد أنّ حـواف الصدع ترتفع بحدّةٍ لستة أو سبـعة أقدام مع وجود منحدرات حـادة تقود إلى حافة الماء في مـواقع متعـددة يستخدمـه الإبل والرجال للوصول إلى الماء. كان الخفس الثالث هو أكبر الثلاثة، وكان يتخذ شكلاً مستطيلاً بطول ثمـانين ياردة وعـرض عشـــرين ياردة، تحـيط به وتظلله أشـــجـار طلح طويـلة، يحتوي الخفــس على حوالي ثلاثة أقدام من الماء، وترتفع الحواف حوالي قدمين فوق سطح الماء. وكان عدد كـبير من البدو قد تجمعوا حـول الخفس ليسقوا إبلهم.

نصبنا خيـامنا تلك الليلة في مجرى سحب أسـفل صخور البيـاض الشاهقة. وفي صباح اليوم التـالي تابعنا المسير مرتقين صخور البـياض إلى طرفها الأعلى في قـمـة الرأس الثـاني للنتـوء المذكـور، تاركين سلسـلة فـردة ابن مـوّاش عن يميننا ومُسَـيْجَرات عن يسـارنا. بعد هذه النقطة التي تسمُ الحَدَّ الجـنوبي لإقليم الحسن، وبداية حدود مـجموعات الوادي، هبطنا فـوق سطح البياض المتمـوِّج الوعر لنبلغ شعـيب عُذَيِّر، وهو شريط ضـيّق تكثر به الشجـيرات وتحيط به من أحـد الجوانب صخـور البياض الشاهقـة ومن الناحية الثـانية شعيب خـفيض[1] يواجه منحدرات طويق الخارجية وشعيب مرّان الذي تتصرف من خلاله مجاري منحدرات طويق في هذا الجانب، ويجـري الشعيب الخفـيض هذا موازياً لغديّر نحـو الجنوب -أي نحو وادي حمام-. ويـغطي مهد الشعـيب غطاء كثيف من أعشـاب الثمام وشجـيرات السرح والسلم ويغطيها جراد خامد وجراد ذو صوت ثاقب، وكان الأخير في أعداد لا تحصى. وكانت سيول الموسم الماضي قد خلّفت عـدداً كبيراً من البرك في أجزاء

(١) يسمى: أم جدار. (المؤلف).

من المنخفض، سقينا إبلنا من إحداها. وحلّق حـولنا على ارتفاع كبير نسرٌ أو طائر مثله، وكانت الغزلان البيضاء التي تـعرف باسم الريم كثيرة جداً، وأضفى نوع من الطيور على المكان لوناً زاهياً، وأظنه الزرياب الأزرق.

لم يكن سيرنا أثناء النهار طويلاً، ولكن الإبل رغم حصولها على ماء لم تكن تتوقعه أبدت علامات الإنهاك. وعندما لاحت أمـام أبصارنا نخيل مستوطنة حمام على القرب، قـررنا التوقف قبل بلوغ المستـوطنة. وزاد عدد أفراد مجمـوعتنا في المقرن برجلين من قسم الدمنان التابع لقبيلة آل مرة كانا في طريقهما إلى السُّلَيِّل، وكانا قليلي الكلام ولم تجلب صحبتهما لنا البهجة، ولم يكسر رتابة الرحلة سوى مرور قـافلة تحمل البن قـوامها سـبع عشـرة من الإبل في طريقهـا إلى الأفلاج. وتعرّض طامي في اليـوم السابق لحادثـة غريبة لم تظهـر آثارها إلاّ الآن. كان هو وابن جلهم قد توقفا من أجل شربة ماء.

وبينما كان طامي منهمكاً وقد دفع برأسه إلى الخلف ورفع يديه يمتصّ الماء من قربة رقيقة، تحركت ذلوله فجأة إلى الأمام وتسبب ذلك في أن اشتبك أصبع قدمه الصغـير في سـرج ابن جلهم وكاد أن يُبـتر إذ انكسـر العظم منه ونتـأ من خلال الجلد. تمّ لفُّ الأصبع المكسور بقطعة قماش قذرة ونُسيت الحادثة حتى مساء اليوم التالي حيث شكا طامي المسكين ألماً ودواراً وأوى إلى فراشه دون أن يتناول عشاءه. وظل يواجـه صعوبة في المـشي لعشرة أيّـام بعدها، ولكنه بعـد ذاك التأمَ جـرحه واستعاد حيويته، ولـم يمض وقت طويل حتى استعاد الأصبع شكله الطبيعي وزالت كل آثار الكسر.

٦- وليم جيفورد بلجريف في الجزيرة العربية

نُشر في عام ١٩٠٤م كتاب خلاب مهم يحمل اسم «التوغُّل في الجزيرة العربية» The Penetration of Arabia، كتبه السيد د.ج هوجارث، الذي يمتلك - إضافة لإنجازاته الأخرى الكثيرة -معرفة لا تجارى عن شبه الجزيرة العربية وكلّ ما بها. ولقد اغتنم فرصة التوقف عن محاولات اكتشافها فجمع كثيراً من المعلومات الحديثة عن ذلك البلد المجهول. ولقد بنى جهوده على المعلومات التي أورثها للعالم خطٌ طويل من المكتشفين والباحثين عن الحقيقة أو عن الربح أو الشهرة أو المغامرة. إنني أدين لذلك الكتاب الذي صحبني في كل تجوالي، أدين له بالإلهام الذي قادني بعرض الجزيرة العربية في العام الماضي، ودفع بي الآن لما وراء آخر الحدود التي طرقها كل من سبقني في اتجاه الجنوب. ولست مديناً للكتاب وحده ولكن للكاتب نفسه الذي أسعدني الحظ بالتعرّف عليه في جِدّة في نهاية رحلة لم أكن لأقوم بها لولا تلخيصه لكلّ ما كان معروفاً حينئذٍ عن هذه الأنحاء.

في ظلّ هذه الظروف قد يبدو من غير اللائق أن أنتقد عملاً أدين له بقدر كبير. ولكن فيما يختص بنقطة واحدة لا تكون هناك مندوحة عن الانتقاد، بل يصبح لزاماً عليّ أن أقوم ببعض التوضيح. بيد أنّ انتقادي ليس موجهاً نحو السيد هوجارث أو الاستنتاجات التي توصل إليها من الدلائل التي كانت بين يديه، ولكنها موجهة نحو شخص آخر وثق هوجارث في أعماله كثيراً ووضعها في مرتبة تضاهي ما توصّل إليه هو نفسه، بل وضعه في مقدمة المصادر التي بني عليها دراساته عن الجزيرة العربية. وسيظهر لاحقاً كيف أنّ وليم جيفورد بلجريف المغامر

اليسوعي[1] لا يستحق إلاّ قليلاً من تلك الثـقة. ولكنني أودُّ أن أوضّح من البداية أن أولئك الذين يعرفـون الجزيرة العربيـة من الداخل سيوافـقونني على معـارضة الحكم الذي أطلقه هوجارث عنه: «إن نظرنا لكلّ مكتشـفي الجزيرة العربية وأخذنا في الحسـبان كلّ مـا يتّصل بالاستـكشاف من ناحيـة المساحـة التي تمّت تغطيتـها والمخاطر التي جوبهت والنجـاح الذي تحقق، نجد أنّ داوتي وحـده هو الذي يمكن -بعدلٍ- مقـارنته ببلجريف»[2] لقد كان داوتي مؤلف كتـاب «الصحراء العربية»- أعظم ملحمة في كـل أدب الرحلات- رجلاً نسيج وحده، ولا تمكن مـقارنته بمن سبقـوه أو أولئك الذين لحقوا به في صحـاري الجزيرة العربية. وكـان أبعدهم عنه وأقلّهم شأناً مـقارنةً به هو بلجريف الذي كـان ما كتـبه عن رحلاته - كمـا يقول السيد هوجارث - مناقضاً لما توصّل إليه هو نفسه[3]. وأضيف أنا أنّه كان مناقضاً لهوجارث في كلّ شأنه. وقبل سنوات عديدة عندمـا كنت صبياً في المدرسة قرأت رحلات بلجريف وأُعـجبت بمغامراته المدهشة، ولم أكن أحلم بأنني سـأعيد قراءة الكتاب ثانية بفكر ناقد في الجزيرة العربية نفـسها في محاولة فاشلة لأطابق الحقائق التي أتحصل عليهـا من تجربتي الشخصية مع سـرده الذي اخترع حقائقـه وصاغها بمهارة كبيرة.

باءت محاولاتي للمطابقة بالفشل، إلاّ إذا افترضنا أنّ الحقائق الطبيعية للجزيرة العربيـة قد حـدثت فيهـا تعديلات جـوهرية في نصف قرن انقـضى منذ زيارته.

---

(١) انضم بلجريف إلى الرهبانيـة اليسوعية في لبنان، وطاف المشرق متنـكراً بزي طبيب سوري، وزار الجزيرة العربيـة بصحبة بطرس الجـريجيري -بطريرك الملكيين الـكاثوليك- ثم ترك الرهبانية والتـحق بالعمل في السلك الدبلوماسي. توفي سنة ١٨٨٨م العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١ (المراجعون).

(٢) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٣٠٧. (المؤلف).

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٧. (المؤلف).

وافتراض كهـذا رغم أنه غير وارد لذاته إلاّ أن الذي ينفيه بالكامل هي الصفحات الحبلى بالمعلومات للكتابيْن العظيميْن اللذْين ترك فيهما داوتي -الذي زار البلاد بعد خمس عشـرة سنة- وصفاً كاملاً ونهـائياً صالحاً لكلّ الأزمان لكلٍّ مـا رآه وقاساه أثناء مغـامرته. لقد كان من حـسن طالعي أن تسلّمت الكتابين عبـر صديق(١) لم أكن أعرفـه شخصـياً أثناء إقامـتي بالجزيرة العربـية وأن أقرأهمـا وأنا أنظر لبعض المشاهد التي أوحت بكتابـتهما واللذين يحملان عنـها وصفاً رائعاً. وبحمـاقةٍ تميّز المتطاولين دقّقتُ في ذلك السرد متصيّداً ما يمكن أن يكون بها من أخطاء، فوجدته بلا أخطاء. سـيكون استطراداً بعـيداً عن جـوهر سـردي إن أطريت على كـتاب داوتي أكثر من هذا.

كان بلجـريف نمطاً آخر من الناس. كان سـرده على الدوام محيّراً ومـراوغاً، وكان دخـوله في التفاصـيل الطبوغـرافية أي الوصف الدقـيق للأماكن وللسـمات السطحية مربكاً للغاية. وكان أمامي خياران: أن أستبعد الدلائل التي أتوصل إليها أنا مستخدماً حواسّي، أو أن أسقـط بياناته ووصفه المناقض للحقائق والمعالم، وأن أعدها نتـاجاً لتفاهة كامـنة وثرثرة لمدّعٍ عديم الملاحظة. ولقد تَبَنَّيتُ غريـزياً الخيار الأخير حتى ازدادت معـرفتي بالبلاد وتمكنت أن أرى ما رأيت من منظور أوضح، حتى صـار من المستحيل عـليّ أن أعتمد على تقـاريره خاصةً عندمـا قام بوصف رحلاته التي قيل إنّها أول ما كُتب من مشاهدات أوربي للإقليم الواقع بين الرياض والأفـلاج. كانت كـتاباته عن هذا الإقليم هـي دليلي الوحيـد أثناء الأيام الأولى لرحلتي نحو الجنوب. ومن ثمَّ توصّلت لنتيجة هي أن بلجريف لم يقم في حقيقة

(١) مونقابن (J. Mungavin) ، كان حينها الوكيل السياسي بالبحرين. (المؤلف).

الأمر بزيارة إقليم الأفـلاج على الإطلاق. كانت المناسبة الأولى التي أبديت فـيها هذا الرأي صراحةً مع ملخـص للأدلة التي بنيت عليها هذه النتيـجة هي تقرير عن رحلتي للأقاليم الجنوبية كتـبته فور عودتي للرياض، وطبع لاحقاً كمـذكرة رسمية في الهند وفي مصر. وبعد عـودتي إلى إنجلترا بقليل، وفي يوم ٢٨ أبريل (نيسان) ١٩١٩م وجهت الانتـباه لهـذا الموضوع بطريقة أكـثر إيجازاً فـي ورقة عن جنوب نجد، قُرِئت أمـام الجمعيـة الجغرافية المـلكية. وفي هذه المناسبة اعـترض هوجارث متحدّياً النتائج التي توصلت إليهـا في هذا الشأن، ومعترضاً على الأدلّة التي بنيت عليها نتـائجي. واستجابة لذلك التـحدي صعّدت هجومي عـلى صدق بلجريف على نطاق أوسع. وبعد مضي عام تجدّدت لديّ الفـرصة في ورقة ثانية قُرِئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية وجـهت فيها هجوماً قاسياً على وصف بلجريف للدهناء، وهو وصف لم يكن جديراً بالثقة. أرضاني أن تلقّيت تأييداً قوياً لوجهة نظري من جهة لم أكن أتوقعها، بينما امتنع السـيد هوجارث من إبداء تعليقات إضافية حول الأمر. أثارت المسألة قدراً كبيراً من الاهتـمام في مجالات أخرى ولها من الأهمية ما يستدعي مناقشتها هنا تفصيلياً لسببين. الأوّل: أن بلجريف ليس حياً بيننا ليدافع عن نفسـه، لذا يستـحق أن يكون الحكم لصالحه مـا لم تكن الأدلّة ضده دامـغة، وثانياً: لأنّ تاريخ التوغّل في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكـتب كتابة مرضية حتى يتبيّن موقع بلجريف بين المكتشفين المتعاقبين للجزيرة العربية وهو الأمر الذي اتضح الآن.

لا يمكن أن ينكر أيٌّ ممن قرؤوا كـتاب السيـد هوجارث أنه قد كـان لبلجريف خلال السنوات الماضية أثر قوي عن التصـوّر الأوربي للجزيرة العربية. ولكن نسبة للتزايد البطيء والمضـطرد في معرفة الأجـزاء الداخلية لشبـه الجزيرة العربيـة، فإنَّ

ذلك الأثر بدأ في التناقص. وأنا على يقين أننا الآن نعرف ما يكفي ليسوّغ لنا أن نراجع مراجعة شاملة وجهة نظر السيد هوجارث حين قال: «لابد أن نعتمد على بلجريف كحجة لنا فيما يخصُّ الجزء الأكبر من جنوب نجد، إذ ليس هناك غيره، وفي الأحساء نحن نعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على أيّ من الآخرين»[1]. وفيما يلي آمل أن أوضّح أن بلجريف وقع في الخطأ عندما تسبب في رفض النتائج التي توصّل إليها أسلافه في إطار دراسة جغرافيا الجزيرة العربية. صحيح أنّ أسلافه توصلوا إلى تلك النتائج بمعلومات حصلوا عليها عن طريق وسيط، ولكنها كانت رغم ذلك أكثر قرباً للحقيقة من معلوماته هو شخصياً. ووقع في الخطأ أيضاً عندما تجاهل مسؤولياته نحو الأجيال التالية له فأعطانا تقارير تفصيلية عن بعض أجزاء الجزيرة العربية لتؤيدها الحقائق. ولقد اعتمد إلى حدّ كبير أكثر على مخزونه من الخيال.

تتبعت من الأحساء إلى الرياض - ولكن في الاتجاه المعاكس - الطريق الذي سلكه بلجريف في آخر مراحل رحلته الطويلة. وكانت إقامتي بالرياض في مجملها سبعين يوماً، وبقي هو بها اثنين وأربعين يوماً. وترسّمت خطاه مرة ثانية من الرياض للخرفة في الأفلاج. أمّا في الشمال فلقد ارتحلتُ فوق أرضٍ سار هو فوقها بين بريدة وقصيباء، وبين بريدة والزلفي. ولا أعرف شيئاً عن الإقليم الواقع بين نقطة بدايته في معان من جانب والجوف وحائل والقصيبة من جانب آخر. أما عن الإقليم بين الزلفي والرياض فلا أستطيع الحديث إلاّ عن وادي حنيفة بين سدوس والعاصمة. وفي كل جزء من أجزاء الرحلة التي كانت على مدى بصري

(١) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٢٣٦. (المؤلف).

فـإن بلجريف يمكن أن يُدان بأخطاء جسـام، ويصيـر أثرها المتراكم جـد عظيم. ولكنني سـأبدأ برحلتـه من الرياض للأفلاج إذ كـان الوصف لهـذه الرحلة(١) هو الذي أثار شكوكي حول صدقه.

يبدأ بلجريف الكتابة بطريقته السـهلة المعتادة وكأنه سيصف رحلة قليلة الإثارة والأهمية فـيقول: «حتى لا أقطع التواصل اللاحق لسردي حـول الرياض، سأقوم هنا بإدخـال كلمات قـلائل حول رحلة قـصيـرة قمنا بهـا -بركات وشـخصي- للأفلاج» وقـام «استناداً على الذريعة الملائمـة عادة» بمزاولة مهنة طبيّـة، وفي أحد أيام الأسبوع الثانـي من نوفمبر(٢) (تشرين الثاني)، يصحـبه تابعه الأمين، بركات وأحد المعارف الحديثين: بِدَع الذي لم يمنعه اسمه غير الملائم من أن يكون «رفيقاً ذا حيوية وطباع سهلة، ومحبـاً عظيماً للهو والمرح». كان هذا الرجل هو الذي اقترح الرحلة.

تتبعـوا طريقاً في اتجاه الجنوب الغربي وعـبروا وادي حنيفة حتى بلغـوا هضبة جنوب الوادي، وكانت غير مستوية السـطح وأكثر وعورة من تلك الموجودة شمال الوادي، ولكنها كانت من نفس الحجر الجيري والتكوين الكلسي، ويدرأ عنها تهمة العـقم والفراغ وجـود بعض الأشـجار هنا وهـناك، ووجود قـدر لا بأس به من أعشاب المراعي. وكـان مجرى السيول الشتـوية -ولمسافة عدة أميـال- يسيل نحو وادي حنيفة(٣)، ولكنها صارت بعـد ذاك تجري في اتجاه جنوبي. في أمسـية اليوم

---

(١) W.G.P الجزء الثاني، ص ص٧٩-٨٢ . (المؤلف).

(٢) عام ١٨٦٢م. (المؤلف).

(٣) أي في اتجاه شمالي إذ أنّه وفقاً لإفادة بلجريف (راجع كتاب بلجريف الجزء الثاني ص ١٢٥) وادي حنيفة نفسه لا يجري إلى الشرق أبعد من منفوحة. (المؤلف).

الأول بلغوا وناموا بقرية الصفرا على حدود إقليم العارض، وهي قرية بها فقط ستون مسكناً، كان بعضها من فروع النخيل والغماء (قش السقف) وتحيط بها أسوارٌ خربة من الآجُرّ الطيني، ويزينها مسجد جديد أنيق.

وكان طريقهم في اليوم التالي يجري لعدّة ساعات فوق مرتفعات، وتعترضهم من حين لآخر أودية رملية تتحدَّر بالتدريج ولكن بطريقة ملحوظة نحو الجنوب الغربي. وكانوا الآن في الأفلاج، وفي حوالي منتصف النهار مروا بقرية مشالله الكبيرة التي كان بها امتداد طويل لبساتين النخيل، ولكن كثافتها كانت ضئيلة، وكانت «الآبار غير وافرة الماء». هنا لاحظ بلجريف أن وجود القطن أكثر كثافة منه في إقليم العارض، كما كان الرجال والنساء يرتدون ملابس أقلّ طولاً. احتموا أثناء قيظ الظهيرة في منزل صغير بالقرية، وادَّعى بِدَع معرفته لبائع متجوّل من بين أهل القرية.

يجري الطريق من مشالله للخرفة «في الغالب في ممر ضيّق عميق لدرجة ما» وكان جافاً إلاّ من بقايا سيول الشتاء، وتغطيّ جانبيه المرتفعين أعشاب ممتازة وقطعان، بينما كان في بطنه «قليل من بساتين النخيل، التي تحيط بها بيوت المزارعين». وداهمهم الظلام قبل أن يبلغوا الخرفة فهجعوا في السهل الذي تتناثر فيه النخيل بجوار الأسوار.

وفي اليوم التالي نسوا «الذريعة الملائمة» وهي العمل الطبي الذي أتى بهم إلى هنا، ورأوا «أنّه ليس من العقل أن يظهروا أمام حاكم الإقليم الذي يقيم هنا» ورفض بِدَع زيارته، كانت المدينة- إضافة لأنّها مقر الحاكم - تحتوي على أكثر من ٨٠٠٠ من السكان، وكان أكثر من نصفهم خلاسيين «يكتفون من الكساء بلفٍّ

قماش بالية حول الخصر». ويذكر بلجريف هنا شيئاً عن الضيافة الهزيلة وعن «عوز العلاقات الاجتماعية وقسوة الطباع التي تذكر ببوادي الدواسر الذي تبدأ حدوده الأولى في حقيقة الأمر بعد خمسة عشر إلى عشرين ميلاً من هنا في اتجاه الجنوب» بقوا في الخرفة حتى بعد الظهر، ثمّ قفلوا عائدين سالكين الطريق نفسه الذي أتوا عبره. ولكنه لم يصف رحلة العودة.

وقبل أن أشرع في نقاش المشاكل التي يثيرها هذا المختصر الشامل لرحلة بلجريف نحو الجنوب يكون من الملائم أن نفكر في بعض المعلومات التي تجمّعت أثناءها، وهي باعتراف الكاتب بلغته عبر وسيط: من بدع وآخرين من المقيمين في الصفرا وماشالله والخرفة. وبعد ذلك يمكن أن نهمل هذه المعلومات. «إذ أن الطريق المعروف جداً والذي يقود عبر وادي حنيفة لشمال الأفلاج يمرّ عبر شقراء، ثم جنوب طويق حتى مكة، ولقد سمعت مراراً عن مساراته وأماكن الوقوف به بتفاصيل من الكثيرين ممن سافروا عبره في أي من الاتجاهين. وروايات هؤلاء تتطابق تماماً مع ما يبدو في الخارطة الألمانية التي نُشرت في جوته في عام ١٨٣٥م بعد أبحاث وتقصي نيبور واهرنبرج ورويل؛ هذا هو الطريق العام لوسط الجزيرة العربية». ولسوء الحظ لم أتمكن من الحصول على نسخة من الخارطة المشار إليها، ولكننا يمكننا أن نفترض أن معالمها الأساسية قد ضُمِّنت في تلك الخارطة التي نشرت[1] مع كتب بلجريف، تلك الخارطة توضح طريق قوافل يجري من شمال غرب شقراء، ثم عن طريق طويق بطول مجرى وادي حنيفة إلى الرياض، ومن هناك يتجه نحو الجنوب الغربي عبر الخرفة ووادي الدواسر إلى بيشة، وأخيراً

(١) رسمها ج. سولزر، برلين وطبعَت بواسطة ف. بارث ١٨٦٥م. (المؤلف).

يتحـول نحو الشـمال الغـربي للطائف ومكة. وهذا يعني أن الطريق العـام لوسط الجزيرة العربيـة، والذي يبدأ أحد طرفيه في مكـة والطرف الآخر في مكان ما إلى الشمال الغربي من شقراء، يتتـبع عن قصد ثلاثة أضلاع لمستطيل بين مكة وشقراء بدلاً من اتباع خطّ مباشر بين هاتين النقطتين. والآن نحن نعلم علم اليقين أن مكة مرتبطة بالقـصيم وبشقـراء وبالرياض، هذا إن لم نذكر ارتباطهـا بالأفلاج ووادي الدواسر بطرق مـباشـرة يقطع بعضـها طويق، بينما لا تجـري أيّ من هذه الطرق جنوب طويق. ولا يوجد طريق عام كالذي تمّ وصـفه في هذه القطعة المنقولة عن الكتاب. إن كان بلجريف قـد ذهب حقيقة إلى الخرفـة فلا بد أنه كان سيكون في وضع يمكنه من معرفة هذه الحقيـقة، ولكن تقريره يوضح أنه فشل في رؤية حاجز طويق الضـخم الذي كان يقع بينه وبين الغـرب مُحـوّلاً اتجاهه طوال الوقت نـحو الجنوب. وبسبب الفشل نفسه في رؤية حـاجز طويق الذي صار ينحدر فوق سطح الإقليم نحو الجنوب الغـربي بدلاً عن الانحدار نحو الشرق والجنوب الشـرقي كما هو الحال في حقيقة الأمر.

كان وصـفه لوادي الدواسر والموقع الذي حـدّده له بالنسبـة للخرفة بعـيداً عن الحقـيقة. لا يمكن لأحد يسكـن في الخرفة أو على علم بالإقليم الواقع خلفـها أن يكون هو الذي قال له إنّ الحـدود الأولى للوادي قد يَصلُ إليها الإنســان من الخرفة في رحلة يوم واحد في المتوسط، أو كما عبّر هو: على بعد خمسة عشر أو عشرين ميـلاً. هذا التقدير للمسـافة التي يمكن أن تُقطع في اليوم الواحـد له أثر على جزء آخر من هذا النقاش. ولكن الرجل لا يحوجنا لكثير عناء في هذا الجانب إذ يذكره في أكثر من مناسبـة في الصفحات نفسها التي يصف فـيها رحلته للجنوب. «طول الوادي» هكذا يصرّح «يُقال إنه مسيرة اليوم في المتوسط هي عشرون ميلاً، للقوافل

بالطبع، وهو تقدير مناسب. ومرة ثانية يقول: «تبعد قلعة بيشة مسيرة يومين - أو أربعين ميلاً- من وادي الدواسر» وهو بهذا لا يجعلنا نشك في أنّ تقديره لرحلة يوم واحد بالإبل، مع السير سيراً معقولاً، هو عشرون ميلاً [(١)].

وصف بلجريف السُّلَيّل كالآتي: «إقليم بائس فقير مليء بالتلال الرملية وبه قليل من الماء». لقد سمع أنه يقع على مسيرة ثلاثة أيام جنوب وادي الدواسر، وهذه نقطة أخرى؛ لم يكن تقصّي الحقيقة حولها في الأفلاج لِيُضَلِّلَه. ثم إنه يرى أن السليل هي أول واحة هامة في طريق يسلكهُ الناس مراراً وتكراراً بين مستوطنات الأفلاج ووادي الدواسر. ويضع نجران على مسيرة يومين فقط من السُّلَيّل. ولكن في النهاية هذه أخطاء مبنية على معلومات سماعية، ولذلك يمكن التماس العذر له فيها لحدٍّ ما. كما أنّها تخصّ إقليماً سأجد الفرصة لوصفه تفصيلا في الفصل التالي.

أتحوّل الآن للنظر في وصف بلجريف لزيارته للخرفة في إقليم الأفلاج. سأركّز جدلي حول مسألة المسافة بين الخرفة والرياض، وإمكانية أو احتمال

---

(١) استناداً على هذا التقدير سأقوم بتسجيل نصٍّ وصف به سيره من حائل لبريدة (راجع الجزء الأول، ص ٢٣٥)، يقول «كنا نسير كل يوم اثنتا عشرة إلى أربع عشرة ساعة بسرعة تبلغ ٥ أميال في الساعة، أو أكثر من ذلك بقليل، وهي السرعة العادية لإبل الركوب» حدث هذا لقافلة تضم سبعةً وعشرين أو ثمانية وعشرين شخصاً منهم التجار والنساء والأطفال، وبرفقة عدد قليل من الإبل التي تحمل المتاع الثقيل، وتمشي معهم جنباً إلى جنب. واستغرقت الرحلة بين حائل وبريدة تسعة أيام. وإذا قلنا إن هذه الرحلة استغرقت ثمانية أيام فقط وليس تسعة، وكان السير فيها لمدة عشر ساعات فقط في اليوم، وبسرعة خمسة أميال في الساعة، لا أكثر تصبح المسافة بين البلدين ٤٠٠ ميل. ولكن بسرعة عشرين ميلاً - في المتوسط - في اليوم تكون المسافة ١٦٠ إلى ١٨٠ ميلاً. وفي حقيقة الأمر فإن المسافة المباشرة هي ١٥٠ ميلاً. (المؤلف).

قطعهـا، في ظل الظروف التي أشار إليـها، في يومين، أو فلنقل في ست عـشرة ساعة[1].

كان تقديره للسير المعقول للقوافل في اليـوم الواحد هو عشرون ميلاً كما رأينا من قبل. وهو لم يوضح سرعته في هذه المناسبة، ولكن الإشارة في خارطته تجعل المسافة كلهـا حوالي ٦٠ ميلاً وهو تقـدير اقتنعت أنا بأنه تبناه بمحض إرادته إذ أنه أبان صراحةً فـي تقديمه الأفلاج لقرائه قـائلاً: «ذلك الإقليم الذي توضح عدد من الخرائط - لا أدري لماذا - يـبعد مـئتي أو ثلاث مـئة ميل عن الـعارض، وهو في حقيقة الأمر مجاور لهـا، ويفصلها عن وادي الدواسر» ويسعى الرجل في خارطته لتـوضيح الأقـاليم الثلاثة ومـوقع كل منهـا بالنسبـة للأخريات، وهو أمـرٌ يدونه بوضوح في كتابه. ولا أرى سبباً لافتراض أن ذلك لم يكن يُقصد به تحديد وجهة نظر الكاتب حول المسافـة أيضاً. ومهما يكن من أمر فلقـد بلغ أعتاب الإقليم في منتصف الـرحلة أي على بعد ثلاثين مـيلاً أو نحوها، أي مـسيـرة يوم واحد من الرياض.

عندما شرعت أنا في رحلتي مقسماً إياها إلى مـراحل، قاصداً الغاية نفسها، وجدت صـعوبة في التوفـيق بين ما رواه سلفي والوقت الطويل الذي اسـتغرقـته رحلتي قبل بلوغي أعـتاب الأفلاج، أو فـيما يختص بالمسـافة التي قطعتـها وهي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من الرياض، وهـي المسافة التي تفصل بين الرياض

(١) كان الموسم هو بداية نوفـمبر (تشرين الثاني). نحن نعلم أن المجمـوعة توقفت في وقت الظهـيرة وأثناء الليل، هذا إن لم نذكر الوقفات الصغـيرة للإفطار. لهذا يبدو سير ثماني ساعات أمـراً معقولاً في غياب أيّ دلالات على العجلة. (المؤلف).

والخرفة، وفقاً لخارطة ريتر[1] للجزيرة العربية، ولكنّي تعزّيت بالقصة التي رواها أحد رفاقي عن رجل أدّى صلاة الجمعة[2] في الرياض وبدأ رحلته نحو الجنوب فبلغ ليلى ليهجع مع أهله فيها في ليل يوم السبت. لم تساورني الشكوك حول رواية بلجريف حتى بلغت حدود سهل الأفلاج ووجدت أن الخرفة لم تكن تبعد سوى اثني عشر ميلاً أو نحوها عن أول مستوطناتها. وزادت شكوكي عندما فشل رفاقي في التعرّف على قرى الصفرا وماشالله.

عندما شرعت في رسم خارطةٍ للطريق الذي اتبعته في الرحلة، توصلتُ في أول مقال كتبته عن الموضوع لنتيجة وهي أنه لا يُمكن أن يكون هناك طريق بين الرياض والخرفة يقلّ عن ١٤٠ ميلاً[3]، وبدأت أشكُّ في أن يكون بلجريف قد تمكن من طيِّ هذه المسافة في يومين. كانت الحالة التي ذكرتها آنفاً ضد منطقي ولكن يبدو لي بعيداً عن التصديق أن يكون بلجريف قد انطلق بهذه السرعة العظيمة دون إشارة أو تعليق عنها. ولم أعلم إلاّ لاحقاً عن تَصوّر بلجريف المتحفظ جداً عن المسافة. بيد أنني في مرحلة لاحقة، عندما كنتُ أعدُّ ورقتي للجمعية الجغرافية الملكية من خضمّ المدونات التي لم أكن قد فحصتها بعد ومن الخرائط التقريبية للطرق التي سلكتها، وجدت لزاماً عليّ إن كان لي أن أشنّ هجوماً استهدف فيه صدق وأمانة سلفي أن أراجع مرئياتي السابقة بمزيد من الحرص. واقتنعت نفسي بأن المسافة بين الرياض والخرفة لاتقل بأيّ حال عن

(١) نشرت في عام ١٨٥٢م، وأوردها هوجارث في كتابه ص ١٧٠. (المؤلف).

(٢) لا يمكن أن يكون قد بدأ رحلته -والحال هذه- من قبل الساعة الواحدة بعد الظهر. وبين هذه الساعة ومنتصف ليل السبت: ٣٥ ساعة، ولكنها ساعات من السير السريع المتّصل. (المؤلف).

(٣) التقرير الرسمي المشار إليه أعلاه. (المؤلف).

١١٠[١] أميال، بينما حافظت على اقتناعي العام بأنه لم يكن باستطاعته أن يقطع - وبالفعل لم يقطع- تلك المسافة في يومين. ولقد اعتمدت في هذا الرأي على عوامل أخرى لا تقل أهمية عن عامل المسافة. لقد غاليتُ دون شك في تمسكي بقضية مبنية فقط على عنصر المسافة، ولكن السيد هوجارث تطرّف في الاتجاه الآخر عندما بدأ نقاشَه قائلاً[٢]: «لنأخذ حجة السيد فيلبي الرئيسة. بدايةً هو يقول إنه من المستحيل على بلجريف أن يقطع مسافة ١١٠ أميال على ظهور الإبل في يومين، أي ٥٥ ميلاً في اليوم، أو على الأقل أنه كان من غير المحتمل أن يحقق ذلك، بيد أنّ قطع مسافة ٧٠ إلى ٨٠ ميلاً في اليوم هي سرعة عادية جداً على إبلٍ يمتطيها من لهم سبب للعجلة؛ مثلاً لمن يحملون البريد، أو لرسلٍ يحملون أشياء مهمة.

نعم، لم يصرّح بلجريف أنه كان على عجلة من أمره بصفة خاصة، لكنّه كان يسير مع مرافق واحد. لقد قام بالرحلة لسبب معيّن وأظنّ أننا لا بد أن نقتنع أنه ركب بالفعل بهذه السرعة، وأنه قطع ٥٥ ميلاً في اليوم. إنه يقول إنه كان في نهاية اليوم الأول على مشارف الأفلاج، وهي مسافة ٥٠-٦٠ ميلاً من الرياض، وفي اليوم التالي، وفي ساعة متأخرة من الليل وصل إلى جوار الخرفة. لقد أخبرني كولونيل لورنس قبل ثلاثة أيام فقط أنّه في خلال الخريف السابق ركب رجلٌ من الزلفي فبلغ ينبع[٣] ثم عاد إلى الزلفي بعرض نجد بسرعة بلغت ١٣٠ ميلاً في اليوم. لقد استخدم ثلاثة من الإبل؛ ركب إحداها في الثلث الأول من

(١) J.R.G.S ، مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٧٦ (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية). (المؤلف).

(٢) J.R.G.S مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨. (المؤلف).

(٣) بالتقريب ٥٠٠ ميل في كل اتجاه. (المؤلف).

الرحلة ثمّ غيرها ليصل بها إلى المطية الثالثة ويستبدلها بها للجزء الثالث. وفي رحلة العودة امتطى المطايا نفسها من المواقع نفسها التي تركها فيها. هذا يوضّح أن تحمّلاً مثل هذا في مقدرة الإنسان. كان بلجريف قد ركب كثيراً في دروب الجزيرة العربية، ولعله صار ماهراً في ركوب الإبل».

إنني أجد بعض الصعوبة في أن أقبل رواية السيد هوجارث عن السرعة الفائقة والتحمّل كأمرٍ لا يتطرق إليه الشك رغم أنه يروي القصة على ذمّة الكولونيل لورنس، إذ أنّ المصدر النهائي في أحسن الأحوال سيكون رواية أعرابي، وفي أمور كهذه فإنّ للعربي نزوعاً لاستخدام خيال جامح، ولا ينبغي لنا أن نأخذ ما يرويه كما هو. ووفقاً لما أعلمه لم يكن هناك شاهد يعتمد عليه في الزلفي في خريف ١٩١٨م ليسجل بداية ونهاية ذلك السباق غيري أنا، ولم أسمع عنها شيئاً رغم أنني كنت في الزلفي نفسها من يوم ٥ إلى ٧ أكتوبر (تشرين الأول)، وفي جوارها بالقصيم دون انقطاع منذ ٢٣ أغسطس (آب) وحتى أكتوبر (تشرين الأول) في خريف ذات العام.

ومهما يكن الأمر فإنّ هذا لا يلقي ظلالاً من الشك على صدق اقتناع السيد هوجارث بأن هناك سرعات أعظم لركوب الإبل عن تلك التي أثرتها فيما يختص ببلجريف فهي ليست مستحيلة وليست غير معتادة ولكنها في الوقت ذاته لا تغير اقتناعي بأن بلجريف لم يسافر ولم يدع السفر بهذه السرعة ١١٠ أميال في يومين -في مناسبة سفره المزعوم للأفلاج. وبعد أن قرأت ورقتي أمام الجمعية الجغرافية أخضع اختصاصيو الجمعية الجغرافية الملكية كل المواد التي جمعتها أثناء إقامتي في الجزيرة العربية للفحص والتمحيص وضبطوها وفقاً للمواقع التي حدّدتها أنا فلكيّاً، وكانت النتيجة أن الخرفة تراجعت لمسافة ١٧٠ ميلاً بخط مباشر من

الرياض، وهي بهذا توافق لدرجة كبيرة الموقع[1] الذي ظهر لها في خارطة ريتر القديمة، وفي الوقت نفسه زادت من صعوبة تصديق ادعاء بلجريف بزيارتها. أمّا بالنسبة للسؤال عن المسافة المعقولة في ظروف عاديّة لمسيرة يوم واحد بالإبل، فلقد سجِّلتْ من قبل حالات كثيرة لسرعات خارجة عن العادة، أو أنها لم تسجل ولكنها ما زالت في أذهان من مرّت بهم ظروف جعلتهم يعلمون شيئاً عنها، لذا لا يسعني إلاّ أن أسجل وجهة نظري الشخصية، وهي أنه إذا استبعدنا السير أثناء الليل، وكان السير نهاراً فقط، التزاماً بعادة العرب الذين يُعطون اعتباراً أكبر لراحة المطايا وليس لراحتهم، إلاّ إذا تعرضوا لضغوط كبيرة، أقول في ظل هذه الظروف المعتادة تكون سرعة ثلاثين ميلاً [2] في اليوم سرعة جدّ معقولة، وأي شيء أكثر من ذلك فهو بلا شك إنجازٌ رائع، بيد أن الرحلة تكون -من ناحية أخرى- غير مريحة.

والتهمة الثانية التي أوجهها لبالجريف تنتج عن ذكره الخاص لقريتين هما الصفرا وماشالله بمعزل عن وصفه للطريق الذي سلكه. وفي رحلتي للأفلاج اتبعت أنا طريقاً دائرياً بعض الشيء سالكاً طريق وادي حنيفة وإقليم الخرج حتى الطرف الأعلى من وادي العقيمي، ومن ثمّ عبر مرتفعات رجد حتى تخوم سهل الأفلاج. بينما وجدت نفسي في طريق العودة في الغيل التي لا تبعد كثيراً عن الخرفة وليلى، ومن ثمّ سرتُ فوق المنحدرات الخارجية لطويق -موازياً على مسافة ليست ببعيدة- لطريق الذهاب مرة ثانية، وعند نهاية سلسلة صخور الأحمر في

(١) إلاّ في مسألة الاتجاه، إذ أنّ الخرفة تقع حقيقة جنوب الرياض وليس في الجنوب الغربي كما ظهر في الخارطة. (المؤلف).

(٢) هذا إن كان يحمل معه كمية معقولة من الأمتعة الخفيفة وأدوات المطبخ. (المؤلف).

الطرف الأعلى من وادي العقـيمي. وبعدها سـرت في خط مباشر بقـدر المستطاع بالقرب من الحافة الشرقية لإقليم الحوطة لنلتقي مرة ثانية بوادي حنيفة في الحائر.

والآن لا يمكن أن يُنكر أحدٌ أن المسافر مـن الرياض للأفلاج لابد أن يتّبع أحد هذين الطريقين أو طريقاً وسطاً بينهما [١]، حيث لا تحفّ بالطريق عوائق تمنع تقدّم من يسلكونه، وليس من المعقول لأيّ مسافر يتخذ أياً من هذه الطرق أن يضمر بين مستوطنات الخرج الخصيبة من جانب وواحات الحوطة العظيمة من جانب آخر دون أن يلحظ أياً منها. لم يكتفِ بالجريف من قرى الواحات إلاّ بـ: الصفرا وماشالله، والأخـيرة ضـمن حدود الأفـلاج، ولا بد لنا أن نصدّق أنهـا قد زالت عن وجـه الأرض من خلال نصف قرن من الزمان دون أن تخلّف أثراً أو شائعة عن وجودها السابق. ولم يسمع حداة ركبي - وبعضهم على معرفة لصيقة بكل الأصقاع - عن هذه القرى.

والنتيـجة الوحـيدة التي يمكن الوصـول إليها هي أن تلك القـرى ليست غـير موجودة في الوقت الراهن فحـسب، ولكنها لم تكن موجودة على الإطلاق. ولا شك أن اختلاق قرى وهميـة غير موجودة إلاّ في خيال صاحـبها هوجارث خطير لمن يدّعي أنه مكتشف، ولكن السيد هوجارث الذي كـان يشير لوجهة نظري حول هذا الأمر قلّل من شأن خـطورتها قائلاً [٢]: «إن السيد فـيلبي يلقي أهمية عظمى

(١) بما أنّ بلجريف يبيّن أنّه عبر وادي حنيفة، يصبح من غير الضروري أن نذكرما كان يمكن أن يحدث لو أنه سلك طريقاً إلى الشـرق من الطريق الذي سلكته في رحلة الذهاب. ومن ناحية أخـرى إذا كان قد سلك طريقاً إلى الغرب من طريقي الذي سلكته في العودة، فإنه كان سيجـد نفسه وقد اعترضته سلسلة صخور مجمع الهـائلة، ولاحظ الالتفاف حولها عن طريق الحوطـة أو عن طريق الحريق. وهو شيء أقرّ بأنه لم يفعله. (المؤلف).

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (J.R.G.S) مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨-١٨٩. (المؤلف).

على الأشياء البسيطة التي لاحظها بلجريف وعن عدم الدقّة في بياناته، ولقد سبق أن أعطيتكم توضيحاً جزئياً حول ذلك الأمر، إنّه لم يكن يتذكّر ما رآه بجانب الطريق عندما بدأ يكتب عن الرحلة بعد مضي عام أو يزيد بعد عودته لأوربا. إنني لأتساءل إن كان السيد فيلبي قد حاول أن يجد طريقاً سلكه بلجريف دون أن يكون هناك من يشك في أنه قد سلكه فعلاً. ولقد كان عليّ أن أمرّ بتجربة كهذه، لقد كان ضرورياً أثناء الحرب أن أكتب تقريراً عن طريق معيّن بين بريدة والزلفي. حملت ضمن كتابات أخرى ما كتبه بلجريف عن ذلك الطريق لكنني لم أعرف له بداية أو نهاية، وكان من السهل عليّ أن أقول أنه لم يَزُر بريدة على الإطلاق قياساً على القول من أنه لم يزر الأفلاج. إن بالجريف لا يدرك تماماً كيفية كتابة التقارير، وكانت ذاكرته معيبة للحدّ البعيد. إنه يُعطي ما يبدو في الظاهر تفصيلاً دقيقاً عن الطريق. وفي حقيقة الأمر وباستثناء أنه قد انتقل من نقطة لأخرى، كل ما يأتي بين ذلك هو إلى حدٍّ كبير من وحي الخيال». ولا أرى دفاعاً عن متهم أكثر ضرراً به من شهادة هوجارث عن بلجريف.

عندما هاجمت بلجريف فيما يتصل بهذه القرى الوهمية، أبرزت ما بدا لي تعليلاً مقبولاً لانحرافه عن طريق الفضيلة في هذه الحالة. بيد أنني كنت أفترض أنه لن يُثار جدلٌ حول صِحّة المعالم الأساسية لمغامراته وسرده. لذا كنت مهتماً بأن أوضّح أنه عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل فإنّ شهادته قد لا تقبل في أغلب الأحوال دون بعض الاعتراضات، أو بعبارة أخرى أنه كان قادراً على تزيين قصصه بكثير من المغامرات الوهمية وبقدر وافر من التفاصيل المختلَقَة المعتمدة على الخيال فحسب. لكنني بعد قراءة ثانية متأنية لرحلاته في ضوء تجربتي الشخصية بدأت أتساءل عن مدى صدق بلجريف حتى في أساسيات ادعاءاته نفسها وليس

التفاصيل، ولم تتمكن تعليقات السيد هوجارث أن تزيل شكوكي. أمّا عن تحدّي السيد هوجارث لي لأطبّق طرق النقد نفسها لوصف بلجريف لطرق أخرى «لايشكك» أحدٌ في أنه قد سلكها، فإنّ لديّ ما سأقوله بعد برهة وجيزة.

لذا؛ فإنني أفترض في الوقت الراهن أنّ قدراً كبيراً من الدلائل كانت ضد مبدأ قبول ادعائه بزيارة الأفلاج، ولكن بنفس القدر لم يكن هناك من الأسباب ما يشكك في أنَّه أقام بالرياض. ولقد تخيّلت صورته هناك في الرياض جالساً في غرفة القهوة الخاصة به مع الرجل ذي الاسم غير الملائم؛بَدَع، التاجر النجراني الذي لم يكن بلجريف ليجد في العاصمة السعودية خيراً منه ليخبره بهذا الاسم- إلى الرياض في بعض شأنه بوصفه تاجراً، ولا بدّ أنه قد أتى مسافراً عن طريق وادي الدواسر والأفلاج. وإن افترضنا أنه توقف بالخرفة فمن الطبيعي أنّه سافر منها سالكاً أقصر الطرق المباشرة، وبما أنَّه عربي فمن المؤكد أنّه قد سار مواصلاً الليل والنهار دون أن يتوقف إلاّ لتناول وجبة سريعة أو للقيلولة أثناء ساعات النهار القائظة. وإن قال إنّ الرحلة استغرقته يومين فلعله قال ليلتين.

وهكذا يمكننا أن نفترض أنّه قد بدأ رحلته في وقت الأصيل في اليوم الأوّل، ثم سافر طوال الليل، وتوقف قليلاً في الصباح لتناول وجبة خفيفة في منطقة انصلح وواصل الرحلة، ولعله سلك طريقي نفسه في رحلة العودة ماراً بالقرب من منبع قناة الفرع، ثم توقف للقيلولة في منحدرات طويق العارية في (الصفرا) أو كما يمكن أن نسميها القفر. وليلة أخرى سريعة السير تكون قد أوصلته إلى الرياض عند الظهيرة في اليوم الثالث. هذا الأداء عادي للعربي المسافر وحيداً لهدف معيّن، وهذه السرعة مختلفة جداً عن السرعة التي نسبت زوراً لبلجريف إن صدّقناه. ربما أنّ بدع له من قوة الملاحظة أكثر مما لدى بلجريف، فلقد رأى قرىً

كثيـرة وواحات في الأفلاج، ومن المحتمل في الخـرج أيضاً أو وادي الفرع ولا بد أنّ بدع هذا قد وصف هذه القرى أو تحدّث عنها بـطريقة العرب المشوشة، ولكنّ بلجريف هو الذي زلّ بأن وزعها على المنطقة ليعطي مسـحة من مصداقية لقصته. ولكنه لم يتذكر عندما «جـاء ليكتب عن تلك الرحله سوى هذين الاسمين؛ كتب أحدهمـا بطريقة ملتـوية وهو من الأسمـاء التي ذكرها مـحدِّثه عن الوقـفات في الصحـراء التي يطلق عليها أيضـاً الصفرا أو القـفر، وما كـان من بلجريف إلاّ أن عدها قرية وألبـسها حُلّةً من النخيل والسكان، والاسم الثـاني هي قرية نسلة التي تحوّرت إلى ماشالله، ووضعها خطأً في داخل حدود الأفلاج بصفتها واحة يانعة.

كان هذا التفسير قد بدا لي حينهـا معقولاً ليوضح سقطته. ولكن أيّ رأي يُسَلِّم بأن ادعاءه بالإقامة في الرياض كان ادعاءً زائفاً، هو رأي غـير مقبول ولقد أوضحت قبل قليل عن الإشارة لمفتاح اللغز ويبـدو أنه يؤكد دون مدعاة للشك أن بلجريف لم يستمد معلوماته عـن قرية ماشالله من رواية النجراني. ولكن من أين أتى الاسم؟ لا أستطيع أن أجزم.

ولكن بما أنه كان مـسؤولاً عن الطريقة الإمـلائية التي كُتب بهـا الاسم فإنه من المثيـر أن نلاحظ أنه لم يكن أول من وصفـها على خـارطة للجزيرة العـربية، إذ أن خـارطة ريتر التي أشـرت إليـها سـابقاً توضِّحُ في مـوقع بنفسِ البـعد والاتجـاه من الخرفة[1] كذلك الذي وضع فيه بلجريف ماشالله، مستوطنة تُسمَّى مشيلة والتي تقع دون شك في مـوقع واحـة أُسـيلة، المسـتـوطنة الأولى لإقليم الأفـلاج للقـادم من الشمال، والتي يبدو منها نخيل الخـرفة، هذا إن لم نذكر عدداً من الواحات الأخرى

---

(١) إن توزيع الأسماء على خارطة ريتـر كان بالطبع اصطلاحياً محضاً. كانت أسـماء القرى ومواقع التوقف مستمدة من مصادر عن طريق وسيط. (المؤلف).

القريبة التي تُرى بيسر عبر السهل. على أيّ حال فإنّ الافتراض الغالب أنّ بالجريف قد التقط الاسم من خارطه ريتر، وإن لم يكن كذلك، فقد أخذه من بدع، أو من ملاحظاته الخاصة. ولا يجدي الكثير من الحديث عن الصفرا رغم أنّ خارطة ريتر تأتي مرّة ثانية لإنقاذه دون أن يكون هناك مسوّغ كافٍ بأن تبيّن موقعاً بذلك الاسم في المرحلة الأولى[1] بعد الخروج من الرياض في اتجاه الجنوب الغربي.

ويكفي هذا عن نقطتي الجدل. كما أنني لا أكاد أصدق أنّ أحداً -حتى بلجريف- يمكن أن يصف الطريق الذي يمرّ عبر السهل المنبسط للأفلاج من أُسيلة إلى الخرفة، أن يصفه بالطريق الصخري الغائر لبعض العمق في المجرى الحجري، أو ألا يلحظ الواحات الغنية مثل ليلى والسيح والأخريات التي تنتشر في السهل. وفوق هذا، ففي الوقت الذي كتب عنه بلجريف،كانت المبرّز في واحة ليلى هي مقر حاكم الإقليم وليس الخرفة.

ولكنّ أعظم الجرائم التي ارتكبها بلجريف في حق الجغرافيا كانت خطيئة إغفال لا يمكن أن تغفر لرجل يتخذ صفة المكتشف. إنه يبدأ وصف رحلاته هكذا[2]: «دعنا نحاول على وجه حاسم أن نحصل على معلومات صحيحة وشاملة بقدر مناسب عن شبه الجزيرة العربية. إننا نعرف كثيراً عن شواطئها، ولقد تمّ اكتشاف الكثير من أقاليمها البحرية، إن لم يكن بصفة دقيقة فعلى الأقل بطريقة مقبولة. ولم تعد اليمن والحجاز ومكة والمدينة أسراراً مجهولة لنا، كما أننا لا نجهل أقاليم حضرموت وعمان. ولكن الأعماق الداخلية للإقليم المتسع مجهولة

(١) هذا الجزء والأجزاء الباقية من الطريق الذي نتحدث عنه تم توزيعها اصطلاحياً، وكثير من الأسماء يستحيل التعرف عليها. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P ، الجزء الأول ص ١-٢. (المؤلف).

لنا. مـاذا نعرف عن سـهولهـا وجبـالها؟ عن قـبائلهـا ومدنهـا؟ عن حكوماتـها ومؤسساتها؟ عن سكانها وطرق حياتهـم وعاداتهم وعن حالاتهم الاجتماعية؟ هل تقدّمـوا في مراقي المدنية أم مـا زالوا غارقين في غـيابة جبّ البربرية؟ مـاذا نعرف حقيقة عن هذه الأشياء سوى تقارير ناقصة تعوزها الدقّة؟ لقد حان الأوان لملء هذا الفراغ في خارطة آسيا. وسيكون هذا مسعـاي مهما عرّضنا الأمر للمخاطر، وإمّا أن تكون الأرض المترامية الأطـراف أمامنا مقبرتنا، أو أننا سننزعهـا بكامل عرضها لنعرف ما تحويه، من الساحل إلى الساحل».

إنّه ليصعب تصديق أنّ من بدأ مشروعـه بهذا القدر العالي من الطموح، ومن شملت مقـدرته على الملاحظة والتمعّن في تفـاصيل امتدت لأمور مـثل الفرق في أطوال القمصان التي يلبـسها الرجال في الأقاليم المختلفـة، من الصعب أن نتخيّل أنه قد زار إقليم الأفلاج،وهو دون استثناء أكثر أقاليم وسط الجزيرة العربية عظمةً، دون أن يلحظ المعلم الذي يميّزها عن البـقية، والتي استمدّت اسـمها منه، أي من نظام قنوات الريّ العظيمة التي تستمـدّ مياهها من مستودعات مائيـة عميقة إحداها في حـجم بحيـرة كانت شـهرتهـا قد بلـغت أوربا قبل فـترة طويلة من رحـلات بلجريف، وكانت قـد قُدِّمت - رغم صورة المبالغة العظيمـة التي قُدِّمت بها - في موقع صـحيح إلى حدٍّ كـبير بالنسـبة لواحة الخـرفة في خارطة ريتـر عن الجزيرة العربية. بالطبع كان وضـعها على تلك الخارطة نتيجة لتيـقُّن مبني على معلومات أتت عن طريق وسـيط. ولكن عـجز بلجـريف عن تأكـيد وجـودها دعّم شكوك الجغرافيين الأوربيين في وجـودها، وكانت النتيجة أنّ البحيـرة اختفت عن الخرائط التي لم تُعدْها ثانيةً إلاّ بعد نصف قرنٍ أو يزيد.

لقد قدّمت هنا الأرضية التي استندت عـليها في اقتناعي بضرورة رفض ادّعاء بلجريف بالسـفر من الرياض للخـرفة على أساس أنهـا محاولة طائشـة للخداع. وباستثناء بيانه المجـرّد عن الرحلة فإنَّ وصفه لها وللبلاد التي تقع فيـها لا يحتوي على أي دليل على صحّة زعمه، كمـا أن بها الكثير مما يدلُّ على نقيض ذلك. لا أستطيع أن أصدّق أنّ أياً من الناس الذين مرُّوا عبر ذلك الطريق يمكنه أن ينجح في أن يمحـو محـواً تاماً عن ذاكـرته كل الانطباعـات التي تزاحـمت أثناء تلك الأيّام القلائل. ولكن يمكنني أن ألخِّص اقتناعي في النقاط التالية:

١- تبعـد الخرفة ١٧٠ مـيلاً - في خط مـباشر- عن الرياض، ولكـنّ بلجريف يدّعي أن رحلته بين تلك النقطتين استغرقت يومين من الركوب العادي.

٢- لم يرَ في طريقه أياً من المعالم التي كـانت موجودة حينها - كـما هي موجودة الآن - لكنّه عوّض عن ذلك العجز بأن ابـتدع قريتين - لا توجدان في الواقع - من خياله الخاص، أو أنّه أخذ أسماءها من خارطة كانت في حيازته.

٣- لم يرَ الواحات الكثـيرة الأخرى بالأفـلاج، ولا البحيـرة والمستودعـات المائية الأخرى، ولا قنوات الريٍّ التي تشكِّلُ معلماً بارزاً في الإقليم.

٤- كـانت كل المعلومات الـتي أوردها - تقريبـاً بلا اسـتثناء - عن وجـود طريق مبـاشر أو غيـر مبـاشر في تلك المنطقـة، يربط بين الرياض والخرفـة ومنطقة الأفـلاج ووادي الدواسر، والبـلاد التي تقع خلفـها كـانت جمـيعـاً منافيـة للحقيقة.

يمكن أن نقرَّ بسهولة أنَّ ما أضـافه بلجريف لمعلومات أوربا عن الإقليم الواقع جنوب الرياض من خلال وضعه لرحلته نحـو الجنوب لا قيمة لها. ولكن سيكون

هناك الكثيرون، مثل السيد هوجارث ممن سيترددون في بلوغ مرحلة إدانته كمخادع حتى يحصلوا على دلائل واثباتات للمواقع التي غطاهـا حقيقةً أثناء رحلاته وليس التي ادّعى تغطيته لها. إذ أنّهم سيتساءلون لماذا يلجأ من اشتهر برحلات مطوّلة في أجزاء أخرى من البلاد الـتي لا يشك أحدٌ في أنّه قد قام بها حقـيقةً، لماذا يعرّض سمعتـه للوحل من أجل وصف عَرَضِي لجـزء قليل وغير هام مـن رحلاته؟ هذا السؤال يثير مشكلة كبيرة كنت أفضّل ألاّ أخوض فيها، ولكنني لا أرى مندوحةً عن فعل ذلك مخافـة أن يقود امتناعي عن الإجابة لسؤال يبـدو للوهلة الأولى منطقياً جداً لتداعي حجتي استناداً على القاعدة التي تنطبق مرتين على من لا يملك الدفاع عن نفسه. وحينها لابدّ من افتراض البراءة من الجرم حتى نثبت الجريمة. إذن لنبدأ بالافتـراض الذي يقول: مهـما كانت الحـجة ضدّه دامغـة فلا بُدّ من قبـول ادعاء بلجريف بزيارته للأفـلاج إلاّ إذا أمكن إثبات أنه خدع قـراءه فيما يخـتص بأجزاء أخرى من رحلاته أيضاً خلافاً لما هو مطروح الآن للبحث.

على الرغم من أنّ «كل مـا يأتي في الوسط في غالبـه من وحي الخيـال» فإنّ هوجارث يبقى وفياً لبلجريف: «لقـد ذهب من موقع لآخر»، ولم يهتز إيمانه به حـتى إنه عجـزَ «أن يعـرف بداية أو نهـاية» لوصف بلجريـف للطريق بين بريدة والزلفي. إنه يقبل زيارته لتلك الأمـاكن بصفتهـا حقيقة واقـعة، ويعلن بناء على تجربته الذاتيـة «كان من السهل عليّ أن أقول إنّه لم يزر بريدة على الإطلاق قـياساً على القـول بأنه لم يزر الأفلاج» إن هوجـارث يناقش الأمر في كـتابه بـتفصـيل أكبر[1]، يقول: «إنّ أي تفسـير لأخطاء بلجريف بخـلاف أنه كثير المبالـغة ويغفل

(١) D.G.H (كتاب هوجارث)، ص ٢٤٩. (المؤلف).

بعض الحقائق ويعطي بيانات خاطئة، أيُّ تفسيرٍ يتجاوز هذا الإطار يكون بعيداً عن الحقيقة، وهو أمر لجأ إليه كبار منتقديه. لقد قام بلجريف بلا شك بالرحلة التي وصفها. ولم يعبّر أيٌّ من الذين خلفوه في نجد عن شكوك في موثوقية زيارة بلجريف لها، وشهد أكثر من واحد أنّ مدوّناته في بعض النقاط كانت من الدِّقَّة بحيث لا يستطيع سوى من شاهد بعينيه أن يُسطِّرَها، وآخر هؤلاء هو البارون نولده الذي لا يذكر الافتراء إلاّ ليدحضه، واصفاً إيّاه.

ولقد أرسل لي مكتشف ذو خبرة عظيمة وهو س.م. داوتي خطاباً ضمّنه رأيه في أنه لا يشك في الرجل، وأنّه قد فهم بعض التعليق الذي قيل له في حائل على أنّه قد يُعنى به بلجريف. واصفاً هذه النقطة قائلاً: «قال لي الخنيني في عنيزة شيئاً كهذا (كيف تستطيع أن تتجوّل في بلاد ليس بها قانون معلناً إنك إنجليزي ونصراني؟ لقد كان هناك رجل -لا أذكر اسمه- امتنع عن الإعلان عن نفسه هكذا عندما مرّ بالبلاد).

وأخيراً يكتب ويلفرد بلنت: (لا أشكُّ أنّ بلجريف قام بالرحلة التي سردها في كتابه. ويمكنني أن أشهد أنّ وصفه للحياة الاجتماعية في نجد صورة أمينة لما شاهدته أنا). وما ينبغي إضافته أنّ التوافق بين وصف بلجريف لمجتمع الواحات النجديّة ووصف داوتي لها جدّ قريب، فَلْتَزُلْ إذن كلُّ الشكوك».

أنقل هذه القطعة بكاملها لأظهر وزن الخبرات التي تقف أمامي. ولكن هناك بعض الملاحظات فيما قالوه لابد من التعرّض لها ابتداء. لا بدّ أن نذكر في البداية أنّ الحدود الشمالية لرحلاتي الشخصيّة كانت قصيباء بالقصيم، ولذلك لستُ مهتماً بسرد بلجريف بالجزء الخاص بتجواله في المناطق الواقعة شمال تلك النقطة. هذه

الحقيقة تجعل صفَّ الشهود الذين أتى بهم السيد هوجارث أقلّ جلالاً ممّا كان يمكن أن يكون عليه، إذ من بينهم من لم يتخط حـائلاً جنوباً وأحدهم بلنت، أمّا نولده الذي «كانت قـدرته ورغبته في مـلاحظة ما يرغب فيه الجـغرافيون مـحدودةً»[(١)].
فلقـد تطابق سيـره مع سيـر بلجريف في هذه الأنحـاء فقط في الجـزء الواقع بين قصيباء وبريدة، بينما لامس داوتي الخط الذي سلكه بلجريف فقط في بريدة.

وما تبقى دون تفسير هي الإشارة لبـالجريف التي استوحاها داوتي من محادثة من التقى بهم في حـائل وعنيزة. وإذا نظرنا للمحـادثة التي أشير إليهـا أعلاه، لا يمكن أن يكون «الخنيني» هذا قد أشار لبالجريف الذي لم يزر عنيزة قط، ليس ذلك فحسب بل هو يعلن صراحـة -دون مباهاة- أنه ورفيقه سافرا مـتخفيين في صورة سوريين نصرانيين[(٢)]. ولكن جوارماني الـذي زار عنيزة في مارس (آذار) ١٨٦٤م وكان يتّخذ صفة مسلم، ويبدو أنّه تمتّع بتأييد زامل وآخرين من وجهاء المدينة. أمّا الإشارتان[(٣)] الأخريان لمكتشـفين سابقين فلقد كان اسم الأول عبـدالله، بينما كان الاسم الذي اتخذه بلجـريف لنفسه كمـا يقول لنا هو[(٤)]: سليم عبده -مـحمود-

---

(١) كتاب هوجارث D.G.H. ص ٢٥٥. (المؤلف).

(٢) راجع كتـاب بلجريف W.G.P الجزء الأول، ص٥٦٢ عندمـا لخص ملاحظاته حـول مسألة التـخفي قائلاً: «يمكن لمسيحـيٍّ إنجليزي أن يعبر الجزيرة العربية ونجـد نفسها دون أن يضطر لتغيـير ديانته أو شرف انتمـائه لوطنه». وراجع أيضاً الجـزء الأول ص ٢٦٦ حيث يقـول: «أشارت الخطة إلى نفس مـا اتبعناه، وهي بكل تأكيـد خير تخطيط» وكـذلك الجزء الأول ص ٢٦٧: «حدث مـرّةً، مرّةً واحدةً فـقط أن صار وصفنا كمسيحيين سبباً لاتهام ومصدراً لخطر حقيقي». راجع أيضاً الجزء الثاني ص١١٩: «عبدالله: (أنتم عمـلاء مسيـحيون). بلجـريف: (مسيحـيون، ليكن الأمـر كذلك، ولكن عمـلاء. . . . وكأننا لم نكن معروفين كأطباء مسالمين)». (المؤلف).

(٣) كتاب داوتي C.M.D الجزء الأول ص ٥٩٨، وص ٦٠٤. (المؤلف).

(٤) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ١٥٢. (المؤلف).

العيسى»، أمّا الآخر فقد يكون هو بالجريف أو قد لا يكون. وإن كانت الإشارة له فلقد كانت بعيـدة عن الإطراء: «رجـل صـدوق والله» صاح ذلك الـشيخ المسـنُّ -وهو يشيـر بالطبع إلى داوتي-، ثم واصل حديثه: «هذا لا يشـبه ذلك الذي أتى إلى هنا في الســابق، رغم أنني لا أتذكر في أيّ عام يا مـحمـد، لكنَّ الأول كان يقول لنا كل شيء بصراحة ووضوح».

لهذا، وطالما أن المنطقـة جنوب حائل هي التي في المحك، فإنَّ وزن الشـهادة التي جاءت لتـعضّد ادعـاء بلجريف الذي لا تسنده الأســانيد، هي ليست شـهادةً داحضةً للتـهم. ولكن قد يحتج البعض بأن بلجـريف إذا كان قد زار في حقـيقة الأمر الجـوف وحائـل ووصف المجتـمعـات في تلك المواقع بقدرٍ من الدقّـة رغم المبالغات والبيانات الكاذبة، فليس هناك سبـب يجعلنا نعترض على تصريحاته بأنه قد ذهب إلى الجنوب من ذلك -للقـصيم والرياض والأحسـاء والأفلاج- رغم أننا قد نجد أخطاءً خطيرة في وصفه لهذه الأماكن. ولكن هذه الحجة ليست خالية من النواقص. لقد كـانت ظروف زيارة بلجريف للجـزيرة العربيـة مُغَلَّفةَ بالغـموض، ووفـقاً لما اسـتطعت التحـقّق منه -بعـيداً عن سـرده- ليس هناك إثبات مـباشـر للموثوقية في أي جزء من أجزاء رحلته أو حتى حادث تحطّم السفينة المؤسف الذي سلبه مذكراته بعد فراغه من كتابتها وتركه معتمداً بالكامل على ذاكرته عندما شرع بعد عامين في الكتابة عن تجاربه. بيد أنّ السـيد هوجارث أوضح النقاط الأساسية الخاصـة بالغرض من رحـلات بلجريف[(١)]. بعد مـحاولة نابليـون غير الناجـحة لمواصلة الاحتـلال العسكري الفـرنسي لسوريا نتيـجة لمذبحـة لبنان عام ١٨٦٠م،

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٤٥. (المؤلف).

«كان يأمل أن يحقق احتلالاً فرنسياً فاعلاً على سوريا، أو أن يضمن تبعيتها لوكيله: النائب على مصر. كما كان مهتماً بخلافات مصر مع القوة العثمانية المتسلطة». «وبحلول عام ١٨٦٢م كان تأكيد إنشاء قناة السويس يزيد كثيراً اهتمامات فرنسا ومصر في الجزيرة العربية». واستدعى نابليون بلجريف لباريس صبيحة المذابح الدمشقية، وقدّم بلجريف نفسه للإمبراطور بصفة سفير محتمل للمجتمعات العربية. وبعدها اعترف بلجريف نفسه شاكراً «إنّ المواد اللازمة قد وفّرها الإمبراطور الفرنسي الحالي» ولخّص هوجارث الموقف في ثلاث جُمل «هناك احتمال أنّ مهمتهم كانت دينية فقط وترتبط بمصالح الكلية اليسوعية في الشرق التي كانت مرتبطة في ذلك الوقت مع المصالح السياسية لفرنسا. والاحتمال الأكبر أنّ مهمته الأساسية كانت تحقيق بعض الخطط السياسية. ومن المهم أن نوضّح أنّ هذا المكتشف لم يذهب للجزيرة العربية من أجل غايات علمية، لكنه ذهب لغرض آخر كان لا بدّ أن يجعله متحيّزاً بقدرٍ ما».

يتضح من كل هذا أنه ليس هناك من شك في أنّ بلجريف قد توغّل في صحراء الجزيرة العربية، وأنّه قد فعل ذلك ليضمن تعاطف ذلك القطر مع الإمبراطور الفرنسي فيما يختص بخططه حول منطقة سوريا وقناة السويس. إنّ مهمةً كهذه لا تستوجب بالطبع تجوالاً كثيراً يخترق فيه البلاد السعودية حتى الخليج العربي. بينما كانت الغاية الأساسية لرحلته - فيما صرّح به - هو العاصمة السعودية والأرض التي تقع خلفها. ويؤيد هذا سجلٌ حافل لمغامراته هناك مما يفيد في صرف انتباه الرأي العام عن حقيقة نشاطاته السياسية التي لا بدّ أن مركزها كان جبل شمّر وعاصمتها. والمثير للاهتمام أن سلفه وليام وخليفته جوارماني، وكلاهما قَدِمَ فيما يبدو إلى الجزيرة العربية لأسباب مشابهة؛ أولهما إنابة عن

النائب في مصر، والثـاني إنابة عن الإمبراطور الفرنسي نفسه، لم يجد أيّ منهما ما يستدعي التجوال بعيداً إلى الجنوب من جبل شمّر، رغم أنّ كليهما تجوّلا كثيراً جداً داخل الحدود التي رسماها لنشاطهما.

لن ينكر أحدٌ أنّ بلجريف كان بإمكانه أن يحقق أهدافه السياسيّة دون أن يضطر للخروج عن بلاد ابن رشيد. وتقود الدلائل التي تُستخلص من كتاباته للاقتناع بأنه كان شاهد عيان للمشاهد التي وصفها في شمال نجد، بينما تشير كتاباته عن رحلاته في وسط وجنوب نجد، وتقود القارئ للشك في أن تكون تسجيلاً لشاهد عيان. لذا يبدو أن هناك سبباً معقولاً للتشكيك على الأقل في موثوقية الوصف لذلك الجزء من رحلته الذي لم يكن لازماً لتحقيق أهدافه السياسية. سأقوم الآن بفحص تفصيلي - كلما دعا الحال - لما كتبه عن تجاربه في الأراضي السعودية منذ اللحظة التي دخلها عبر الواحة الحدودية الشمالية لقصيباء، وحتى الوقت الذي أبحر فيه من ساحل الأحساء. ولتسهيل الأمر سأتتبع مراحل رحلته.

اقترب الرجل من حدود القصيم آتياً من الشمال، وافتتح حديثه بإعطاء القارئ محاضرة حول انحدار سطح شبه الجزيرة. «نجحت سنوات السفر الطويلة في النهاية في تمكين النظر. وبالطبع كل الحواس الأخرى من قياس الأطوال والمسافات والاتجاهات، وقياس التفاوت في الارتفاعات بدقّة مقبولة، حتى في غياب الأدوات التي أنتجها العلم الحديث لتساعد وتصحح حساباتنا التقريبية. هذه الأدوات بلا شك عظيمة الأهمية كلما دعت الحاجة لدقة متناهية وتفاصيل لقياسات رياضية». ولكنه يطمئننا رغم ذلك أن بياناته «يمكن الاعتماد عليها دون خوف كأساس، كونها خطوة أولى لتأكيد صِحة وإصلاح خارطة الجزيرة العربية».

ثم يقرر أنّ الخط الفاصل أو المرتفعات الرئيسة في الجزيرة العربية تمتدُّ من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، بين خطوط طول ٤٥ْ و٤٦ْ شرق جرينتش، وبين خطوط عرض ٢٩ْ و ٢٤ْ شمالاً، «وعلى جانبي هذا المرتفع، وأيضاً إلى الجنوب تنحدر أراضي الجزيرة العربية إلى أسفل نحو الخليج الفارسي، والبحر الأحمر والمحيط الهندي». إنني أورد هذه النصوص حتى أدلّل على نحو حاسم أنّ منظور بلجريف للجغرافيا الطبيعية لوسط الجزيرة العربية لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، وأنها غير مفهومة على الإطلاق، رغم أنها تأتي من رجل يدّعي أنه رأى جزءاً كبيراً من البلاد.

يقوم بوصف المكان بعد أن غادر فيد «بعيداً هناك في اتجاه الشرق كانت تبدو قليل من القمم الزرقاء الباهتة، إنها فروع جبل طويق في طرفه القصي». وبعد ذاك بقليل يصل إلى قصيباء، وهي واحة تمتدّ في خط طويل دقيق من النخيل في قاعٍ أرضه مالحة، في أسفل صخرة راسية من الهضبة الجيرية. ويقول: «التل الصغير الذي بُنيت المنازل أعلى جانبه الشرقي هو في أجزاء أخرى مغطّى بكثافة بأشجار الأثل والنخيل معطياً صورة رائعة».

خلال المرحلتين اللاحقتين لرحلته لم أتتبع خطاه، إذ أن الطريق الذي سلكته أنا من بريدة حتى قصيباء جعل واحات القوارة والعيون بعيدتين عن مرمى البصر من خلف سلسلة التلال الواقعة ناحية الغرب. وجد بلجريف في واحة القوارة «عدداً لا يحصى من كلاب (١) القرية هائلة الحجم.. لقد كانت بلا شك أكثر طيشاً وإزعاجاً من أيّ كلاب أخرى رماني الحظ العاثر في حِماها». ثم سلُبَ قلة

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الأول ص ٢٣٨. (المؤلف).

مليئـة بأجود أنواع تمر حائل، وهو الذي اتّخذ القلة وسـادةً له زيادة في الحرص. وفور أن غادر هذه البقعة[1]، «بلغنا فجأة انحداراً في سطح الأرض، ولاحت لنا الأطراف الجنوبية للقـصيم.. وترامى أمامنا حتى بلغ حـدّ الأفق مترامي الأطراف تتناثر فـيه المدائن والقـرى والأبراج والحدائق.. ويبلغ عـرض هذا الإقليم المأهول بالسكان نحـواً من ستين مـيلاً، وطوله ضـعف ذلك أو أكثـر، ويقع الإقليم على مستوى يقلّ بمئتي قـدم عن مستوى المرتفعات التي تنتهي هنا فجأة بصـفتها حوائط لتتـرك الأراضي المنخفـضة لتـمتدّ دون عـائق لمسافـات بعيدة حـتى سلسلة طويق المتعـارضة التي تحـدّها من الجنوب، وتفصلهـا عن الطريق العام الـذي يربط نجداً بمكّة.. وعلى بعدٍ يبلغ بعض الأميـال رأينا بساتين النخيل الكثيفـة للعيون، ولاح لنا نزر يسير من أبراجها وقلاعها التي تسمح الزراعة الكثيفة برؤيتها. وبعيداً هناك عن يميننا -أي إلى الغـرب من رقعة كـبيرة داكنة- لاحت مـدينة الرس، أمّا بقـية القرى والقرى الصغـيرة فلقد تناثرت بكثافة في الأنحاء حولها». هـل هذه حقيقةً شهادة شاهد عيان لذلك المشهد المهجـور قفار لا حدود لها ولا يكسر رتابتها شيء سوى واحة اسـتيطانية واحدة؟ هل كان هذا هو كل مـا استطاع رؤيته من هنا، أو من أيّ ناحية أخرى في الجوار - قرية العيون؟[2].

قد يكون السبب أن ذاكرته خـانته، لكنني بقيت نادماً طوال الوقت، لأنه نظراً لنشاطات ابن رشيد لم يكن من الممكن إقناع مرافقيّ لنتحول عن مسارنا حتى أرى العيون. لأنني كنت أود أن أخـتبر صدق بلجريف بطريقـة لا تدع مجالاً للشك. وما رآه في العيون لم يكن نخيلاً وبيوتاً فـحسب، «ولكن شمخ بين أيدينا مباشرة

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ٢٣٨ ، ٢٣٩، ٢٥٠. (المؤلف).
(٢) لم أر أنا نفسي هذه الواحة. (المؤلف).

معلم بارز رائع، يجذب الانتباه والنظر، لم يكن بوسعنا أن نحيد التفاتاً عنه، حتى بالنسبة لرفاقنا من العرب أيضاً».

لم يزر الموقع من الأوروبيين بعد بلجريف فيما أظن سوى ليتشمان[1] ولكنه لم يرَ ذلك المعْلَم البارز ولكن السكوت المحض ليس حجة مقنعة لعدم وجوده. لذا نرجئ في الوقت الراهن الحكم على هذه النقطة.

ويقول بلجريف عن هذا الأثر: «رأينا أمامنا عدداً من الحجارة الضخمة التي تشبه الحجارة الجلمودية العظيمة، وضعت منتصبةً عموديّة على التربة، بينما وضعت بعض الكتل المشابهة بالعرض على قمتها. لقد كان ترتيبها في شكل قوس، ولعلها تشكّل جزءاً مما كان يوماً دائرة عظيمة، بينما وقعت حجارةٌ شبيهة كثيرة على الأرض غير بعيد. كان عدد الكتل التي ما زالت منتصبة - إن شحذنا الذاكرة - ثمانية أو تسعة، وكان اثنان منها على بعد عشرة أو اثني عشر قدماً عن بعضهما البعض، وتشكّلان أعمدة ضخمة لمدخل، وكانت تحمل حتى الآن عتبة الباب وهي كتلة طويلة وضعت بالعرض فوقهما. وكان القليل من هذه الأعمدة مجرّداً من الكتل العرضية العلوية، أما البقية فقد أسندت فوقها تلك الأعمدة العرضية تحسباً لعاديات الزمن ولأفعال الإنسان التي تفوق في التدمير مقدرة العوامل الطبيعية. لقد بدت مجموعة من هذه الأعمدة العرضية مُتزنةً بصورة بديعة حتى ظننت أنّها قد تكون صخرة هزازة، وقدت مطيتي لأقف أسفلها تماماً، ثم أشرعت عصا القيادة بأن مددت ذراعي إلى أقصى درجاتها، واستطعت تقريباً أن

(١) لقد نما إلى علمي بعدها أنّ هوبر وهو مكتشف ذو قدرات خارقة وله ملكة في الملاحظة الدقيقة الحريصة قد زار هذه الواحة ولم يرَ الظاهرة العجيبة التي أشرنا لها هنا. وسكوته في نظري هو دليل مقنع بأنها غيرموجودة. (المؤلف).

ألامسها وأن أدفعها ولكنها لم تهتز. وبتقدير ارتفاع الناقة والراكب والعصا فإنّ الصخرة تكون على ارتفاع خمسة عشر قدماً فوق سطح الأرض». أقرّ رفاقي بجهلهم التام بوجود هذه المعالم الحجرية، ولكنّ اعترافهم هذا لا يخدم القضيّة أكثر مما خدمها سكوت ليتشمان عنها.

كلاهما يثير الشكوك التي لا يمكن بما نعرفه الآن عن المنطقة التأكّد من صحتها ولكن لا بد من الإقرار بأن التصريح بوجودها لا يمكن أن يُعزى بأي حال من الأحوال لخيانة ذاكرة خربة، وأنّه إن تأكد أنّها غير موجودة، فإن الاحتمالات هي أن بلجريف لم يرَ عيوناً قط. ولكن من الجانب الآخر إذا تأكد وجودها يكون هناك كلّ الأسباب التي تدعونا لأن نصدّق أنّه قد زار بالفعل الموقع واحتمال أن يكون قد زار بريدة أيضاً. وإذا اعترفنا بهذا واتفقنا عليه رغماً عن وصفه الخيالي الجامح للمشهد الذي يبدو أمامه فلا بدّ لنا أن نهمل الدليل الداخلي الذي استقيناه من المغالاة في وصفه للأراضي السعودية كاختبار لصدقه العام. لذلك هناك الكثير مما يتعلق حول التساؤل عن وجود حجارة العيون الضخمة أو عدم وجودها. وهذا السؤال لا بدّ أن يبقى مُعلّقاً في الوقت الراهن.

تمّت استضافته في العيون لتناول طعام العشاء. ثمّ يُقدّم لقرائه محاضرة على نحو مشتت عن نباتات الجزيرة العربية، وعن المصاعب التي قد تنجم عن التخفّي بطريقة غير ملائمة في أرض المسلمين. معرفته بالنباتات غير مصقولة، ولكن ليس من المهم تعقُّبه تفصيلاً في هذا الجانب. يكفي أن نقول إنّ تقديره لأبعد أعماق الآبار في القصيم بستة أقدام لا تسنده الحقيقة، ولا ادّعاءه أن تمور هذا الإقليم تُصدَّر إلى اليمن والحجاز. والمرحلة التالية في هذه الرحلة هي واحة الغاط الوهمية

التي استغرقتـه - رغم ذلك - بساتينها وحقولها ساعةً لاجتـيازها. وأخيراً بعد أن رأى بريدة على بعد فرسخ من هناك، يتوقف ليقضي المساء في الدويرة، وهي من ابتداع خياله أيضاً.

وفي النهاية بلغ بريدة في ١٧ سبتمـبر (أيلول) ١٨٦٢م وقضى بها أسبوعين، ولكن تعليقاته حول الأشياء عموماً كانت استطراديّة حيث ركّز على خيام وهوادج قافلة هندية - فارسية التي تصادف وصولها إلى المدينة ونـصبت خيامها قبل بضعة أيام. ثم قام باستعراض ثري للمعرفة العظيمة التي يملكها عن تفاصيل حياة العرب الحضـرية بالمدن. ألم يَعِشْ فتـرة طويلة بدمشق[(١)] ؟ إنه يعرّض نفـسه لقليل من الانتقاد فـي وصفه لإقامتـه هناك، وحينها يكون الانتـقاد لبعض التفاصـيل فقط. وكتب عن المآذن والمعـالم الأخرى التي تميّز بين السلفـيين وغيرهم. يمكنه بسـهولة الحديث عن مـعلومات بلغـته عن طريق وسـيط دون خطورة، لكنه يعرّض نفـسه للخطر عندما يقـول: «أحياناً يكون هناك خطٌّ طويل من هذه الحـيوانات (الإبل)، يُربط حبل الرأس لكل بعير بمذيلة (سيـر جلدي تحت الذيل) الحيوان الذي يسبقه، وهو أمرٌ غير مريح في الانحناءات الحادّة».

إنَّ عادة ربط حيوانات القافلة بهذه الطريقة منتشرة في الهند ولكنها بالقطع لا توجد في صحاري الجـزيرة العربية، وكانت المناسبة الوحيـدة التي رأيت فيها هذا المشهد إبّان إقامتي في الجزيرة العربية، كان في طريق الطائف - مكة بالحجاز. هنا يجد بلجريف الصخور المالحة «ذات نقاء وبياض عظيمين»، بينما أنَّ إنتاج أحواض الملح بالقـصيم لها دائمـاً لون وردي متسخ. ويـرتقي التلال الرملية التـي يكسوها

---

(١) لا بد أنه تعرّف هناك على عدد لا يحصى من أهل بريدة وعنيزة. (المؤلف).

الأثل في أطراف المدينة ويرى عندما ينظر ناحيــة الجنوب الغربي «كل المنطقة تتناثر فيها جُزرٌ من الزرع بين الرمال، ورأى على البعد ظلالاً أكثر كثافة تشير إلى موقع عنيزة نفسها». في حقيقة الأمـر يرى الإنسان قفاراً لا حدود لها من التلال الرملية العالية التي تتقلص حجماً كلما بعدنا عن المدينة. لكنها تمنع تماماً كلّ إمكانية لرؤية عنيزة. ولا بدّ أن الجيش السـعودي قد تدهور الآن مقارنةً بالوقت الذي يصـفه فيه بلجريف، حين كان على مستوى عـالٍ من الفعالية إذ لا حظ أنَّ بنادقهم قد رتبت في شكل هرمي قريب الشبه بطريقتنا في حفظ الأسلحة».

وتتكاثر هفوات شبـيهة بهذه بحيث لا تُـحصى، لكنه يصبح أكثر عـرضةً لها عندما ينتهز فرصة إقامـته الممتدة ليقوم برحلات[1] يومية للمنطقة المحيطة بالمدينة. «من أجل دراسة الحياة الريفية بالقصـيم». هذه الرحلات لها النكهة المميزة لزيارته للأفلاج. كان هدفه في الحالتين اللتين ذكـرهما قريتي أصخا والمذنب. أمّا الأولى إمّا أنّها غير موجودة، أو أنه يعني بها مصقع، وهي على بعد مسيرة أيام من بداية رحلته، بينما المذنب -إضافةً لأنّها كانت تبـعد كثيراً بحيث لا يمكن أن تكون هدفاً لرحلة عادية ليوم واحد- فإنـها تقع في الخط المباشر للطريق الذي يصل بين بريدة وشقراء، والذي أخبرنا بلجريف أنّه لم يسلكه عندما عاود مسيره نحو الجنوب. ثم يقول «يجـري طريقان الأقصـر أمامنا[2]، وهو مطروق أكثر ويـقود نحو الجنوب الشرقي والـشرق عبـر إقليم الوشم وعاصـمته شـقراء، ثم عـبر وادي حنيـفة[3]

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الأول ص ٣١٤. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ٣٢٤. (المؤلف).

(٣) من المهم أن نلاحظ أن بلجريف يتـحدث بانتظام عن وادي حنيفة وكأنه يجـري من الجنوب للشمال، في حين أنه - بالطبع - يجـري في الاتجاه المعاكس. وهذا خطأ لا يُغـتفر لمـن كان شاهد عـيان للوادي بين العيينة والرياض. (المؤلف).

للرياض. ولكن هذا الطريق كان يمرُّ عبر إقليم يزوره كثيراً في الوقت الراهن جنود عنيزة وحلفاؤهم، ولذلك لم يتحمّس رفاقي - ولم يكونوا فائقي الشجاعة- فأبَوْا أن يسلكوه: في هذه النقطة يقترب الرجل كثيراً من إطلاق كذبة مباشرة إذ أنه قبل أيام قلائل قد عبر مرتين بداية ذلك الطريق، وهو بلا شك أكثر خطورة، ولم يكن هناك سببٌ للتخوّف منه في هذه المناسبة. ولكن الواضح أنّه لا يدري أن المذنب تقع على ذات الطريق. وإن كان الرجل قادراً على اختلاق رحلة لذلك الموقع فليس هناك سبب واضح يمنعه من أن يكون قد اختلق مغامرات أخرى بما في ذلك رحلته للأفلاج.

لا أود أن أطيل في التعليق عن رحلته بين بريدة والزلفي. لقد اعترف السيد هوجارث أنه لم يعرف لوصفه أولاً ولا آخراً. ورغم هذا فإنّ بلجريف في وصفه لهذه الرحلة كتب بتفصيل يفوق كثيراً وصفه لرحلة الأفلاج. إنه يعطي وصفاً تقريبياً لمساراته وتوقفه بينما أن الأمر استغرقه حوالي ثلاثين ساعة سير ليقطع مسافة ستين ميلاً، وهي سرعة تتوارى خجلاً أمام إنجازه في رحلته للخرفة: ١٧٠ ميلاً في يومين من البداية للنهاية مع التوقف للمبيت. وكانت وقفاته أيضاً في واحات وهمية: الرويضة وواسط، وليس مستغرباً أنّ وصفه أربك السيد هوجارث واستعصى عليه أن يطابقه مع المعلومات التي حصل عليها من مصادر أخرى.

رغم هذا فإن بلجريف من الحمق بحيث يحذّر القارئ من المآزق التي قد يقع فيها الإنسان حيث لم يكن حذراً عند محاولات استقاء معلومات جغرافية من العرب. استمع لقوله: « دعني أبدي رأياً هنا[1]، إنّ الأوربيين الذين يزورون أو

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الأول، ص ٣٣٧. (المؤلف).

يصفون الشرق ينبغي عليهم اتخاذ الحيطة والحذر من أخذ المعنى الحرفي للجمل والعبارات الضبابية التي يستخدمها معظم العرب، ولكن على وجه الخصوص المصريون والسوريون عند حديثهم مع الغرباء ويسبب استخدام المترادفات والألفاظ المتجانسة أيضاً كثيراً من الأخطاء للباحثين الأجانب. ولا يستقيم الأمر إلاّ باستجواب عدد من الأفراد في أوقات متباينة وأماكن مختلفة، ثمّ مقارنة هذه المعلومات بتمهّل مع بعضها البعض، واستخلاص ما يشبه الحقيقة منها. وإن كان الأمر حول مواضيع هامة فمن الخير أن يستخدم الشخص نظره وأذنيه في موقع الحدث وإبداء الاعتراضات والتساؤلات في حينها إن أمكن. ولن تجد نجدياً -كبيراً أو صغيراً - حريصاً على أن يعطي أوربياً معلومات دقيقة عن موطنه».

لا أستطيع أن أنتقد وصف بلجريف - بثقة شاهد العيان - للمنطقة بين الزلفي وسدوس على جانب مجرى وادي حنيفة، فأنا لم أرَ المكان. ولكن هناك بعض النقاط التي تدعو الإنسان للتأمل. فتقديره لارتفاع هضبة طويق بألف إلى ألفيْ قدم «فوق سطح شبه الجزيرة المحيطة بها» هو تقدير خاطئ، ولكنه أقل مبالغةً من قوله أن تجمع أمطار طويق «يقع على الجانب الشرقي وليس الجانب الغربي». هذا مفهوم من نسج خياله ولكنه يطوّره بإضفاء تفاصيل عليه. «إنّ الحافة الخارجية لطويق حادّة طوال الوقت، وتتخذ شكل شفرة يبلغ ارتفاعها خمس مئة أو ست مئة قدم من الصخور الجيرية، ترتفع من السهل الملامس للهضبة، ويتلو ذلك نجدٌ تختلف مساحاته ولكنه مُسطح. ثمّ تأتي درجة أخرى ارتفاعها ثلاث مئة أو أربع مئة قدم، يتلوها نجدٌ ثان أكثر ارتفاعاً، ومن وقت لآخر، هضبة ثالثة تعلو فوق الثانية». ويتوج صورته الكاريكاتورية لمعالم هضبة طويق بأن يسخر من «الجغرافيين

الذين يتكرّمون بتزويد الجزيرة العربية، خاصة في جانبها الشرقي بأنهار تجري من الدرعية أو من مكان آخر.. للبحر... إنّنا سنتتبع وادي عفتان الذي يظهر دائماً في الخرائط كنهر» سنتتبعه بعد قليل على امتداده وسنعرف عندها حقيقته[1]. ولكن لا ينبغي علينا أن نكترث لسخرية نابعة ممن يجعل وادي حنيفة يجري في الاتجاه المعاكس، ويقوم بالإنجاز المدهش بمتابعة وادي عفتان الوهمي على امتداد طوله. إنه لغنيٌّ عن القول أنّ وادي عفتان هذا لا وجود له على أرض الواقع.

لقد وجد الآبار في الغاط وافرة المياه، حتى في ذلك الوقت، أكثر أوقات العام جفافاً، وكان الفائض منها كافياً لملء مستودع كبير تجري من كل جوانبه الجداول...» وعند ارتقائه الممر وجد نفسه في ظلال أشجار حرجيّة وقد أدهشه أن يرى بينها شجر الدُّلْب (الصنَار)، وأضاف أيضاً أنّ «الأفاعي في نجد لا تقلّ ندرة عن إيرلندا أو مالطا». وبهذه المناسبة سخر من رواية عاطفية[2] كتبها م. لامارتين الذي اكتشف بطل روايته أيكة ممتلئة بالجلود التي انسلخت منها الأفاعي.. نوع من مستودعات الإيداع لجلود الأفاعي.. كما أعتقد». كم هم سعداء الجوّالة الذين يملكون خيالات غنية وخَلاَّقة!.

وفي نهاية الأمر يبلغ سدوس التي تبعد ميلاً واحداً تقريباً من حافة وادي حنيفة الذي يجري هنا دون مقاطعة في اتجاه جنوبي شرقي بطريق العيينة والجبيلة والملقى إلى الدرعية: ومن ثمّ للرياض نفسها. ولكن الوصول إلى حافة الوادي -الذي وجده يجري أمامه في اتجاه الجنوب الغربي- استغرق منه الجزء الأكبر من

---

(١) كتاب بلجريف، W.G.P. الجزء الأول ص ٣٣٩. (المؤلف).

(٢) رحلة فتح الله الصايغ الحلبي.

مسيرة يوم طويل. وكان وصفه للرحلة يجعلنا تائهين بين الرأس والذنب بحثاً عن الحقيقة التي لم تكن مضمّنةً في وصفه. إنّ ذكره للعيينة والملقى والدرعيّة قد يخفّف من غلواء انتقادنا له رغم أنه أخطأ حين ذكر أن العيينة والدرعية تقعان في فرعين مختلفين للوادي. لكنه يعود فيستوجب النقد ثانية عندما يطلق اسم الجبيلة، وهو موقع لانتصار إسلامي قديم على الروضة.

كانت قمة مغامراته في الرياض التي بلغها يوم ١٣ أكتوبر (تشرين الأول)، وغادرها يوم ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م، بعد أن أقام بها اثنين وأربعين يوماً لقد رأى أهمية أن يصطحب معه قراءه لأسرارالحياة الخاصة، فيقول: «قبل أن أشرع في وصف تفاصيل الأيام الخمسين التي تلت في هذه المدينة الغريبة لا بدّ أن أعتمد كثيراً على مخزون الثقة والتصديق التي أثق في أنّ قرائي يدلونني إيّاها تفضلاً بوصفي رجلاً إنجليزياً رغم أنني جوّال. إنّ هدفي هو أن أعطي فكرة كاملة وفي الوقت نفسه صادقة عن الأرض والحكم.. إلخ». في حقيقة الأمر إنّ موضوعه: قصة المغامرات الغريبة والممتعة والخطرة في البلاط السعودي لا يتعرض وصفه لها لانتقاد وتشريح دقيق مثل ما تعرّضت له المراحل السابقة من رحلته التي أوصلته إلى العاصمة. إنّه ماهر كما أسلفت في معالجة قضايا حياة العرب المدنيّة. والحياة في الرياض -رغم أنّها أكثر التزاماً- لكنها لا تختلف كثيراً عن الحياة في بريدة أو حائل. أمّا بالنسبة لتجاربه فهي يمكن أن تحدث لو أنّه أقام فعلاً في الرياض، بيد أنها لم تكن لتخذله إن كان قد كتبها من الخيال دون أن يزور الرياض. إنّه يزلّ ويخطئ كثيراً -كما نتوقع- في أمور التفاصيل، ولكنّ الأمر سيكون مملاً إن تتبعنا وصفه لتجاربه في الرياض بالتفاصيل الدقيقة التي اتُّبعت فيما

عداها. ويمكننا أن نتساءل عن الإنصاف في تعريضه[1] بالمبادئ الأخلاقية السلفية، كما يمكننا أن نصرف إفادته التي تقول بوجود الخنزير والخنزير البرّي بكثرة في جبل طويق بأنها هُراء، ونرتاب أيضاً في إفادتــه بأنه قد سمع في الرياض للمرة الأولى أو قد وجــد آثاراً للحمــيريين، وقد نشــكك أيضاً في أنه كانت لــه الحرية - وهو مسيحي - في الدخول للمساجد السلفية كما يريدنا أن نصدّق.

وردت أطروحة مطوّلة متخصصــة عن الأمراض الموجودة في الجزيرة العربية، وذلك في خضمّ وصفِه للحياة بالريــاض، لتذكرنا أن بلجريف كان في المقام الأول طبيباً، وأنّه في خضمّ مشاغله الأخرى، أو بالرغم عن هذه المشاغل قد أفسحَ وقتاً كافيــاً لممارسة مهنتــه حتى يتمكّن من الحصــول على معرفة شــاملة لا بدّ للجزيرة العربية أن تعلّمهــا للطبيب. وليست لديّ المعرفة المتخصــصة التي تمكنني من انتقاد قائمته الطويلة التي تضمّنت حوالي خمسين مــرضاً أساسياً مرّت عليه أثناء ممارسته للطب بحائل والرياض لفترة شهرين ونصف. لعلّه من العدل أن نفترض أنه عندما قام بتدوين كتاباته من الذاكرة ما كان قد نَسِيَ تماماً الحالات المرضية البدوية التي لا بُدَّ أنه قد عــالجها في دمشق. ولكن يبــدو أنّ ذاكرته عن الحالات التي قــابلته في وسط الجزيرة العربيّــة نفسها قد خــذلته، على الأقل في حالة واحدة، فــهو يقول «هناك مرض لا حــاجة بي لذكر اســمه»، ويحمــرُّ وجهه خــجلاً وهو يكتب هذه الكلمات، «وهو منتشر بصورة مخيفة، ومثل بقية الأمم فإنّ العرب ينسبونه لمصدرٍ خارجي» يمكــنني أن أغامر فــأؤكد أنَّ الأمــراض التناسلية نادرة للحــدّ البعــيد في

(١) مثلاً في الجزء الثاني من كتابه، يقول ص ٢٤: «التهتك والخلاعة بجميع أنواعها حتى اللغة التي لا يمكن أن نسمّيها، هي أكثر شيوعاً هنا عن دمــشق وصيدا». هذه الإفادة محض قذف وتشهير ولا شك. إنّ من قرؤوا لبــيرتون قد يقبلون إفــادتي إن اللواط والزنا والفسوق لا تُعــرف تقريباً في وسط الجزيرة العــربية. (المؤلف).

الأرض السعودية، وتكون الحالات التي تظهر عامةً راجعة لا لتهابات حدثت لزوار بلاد مثل البصرة أو دمشق أو القاهرة، أو مكة أو المدينة.

لا ينبغي أن نتوقف إزاء محاضرته عن الخيول العربية، أو أمام المواقف المثيرة مع عبدالله الوريث المحتمل للعرش السعودي، والتي بلغت ذروتها في «هروبٍ بشقٍّ الأنفس عن المدينة، واختباء لثلاثة أيام في الجوار، حتى تُعدُّ العدّة للزحف الأخير على الأحساء وشواطئ الخليج العربي». ولعله أعطانا من خلال وصفه لهذا الأمر الدليل القاطع على أنّه ليس أهلاً للثقة.

كان ذلك اليوم هو ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م. وكان الشتاء قد حَطّ عصا ترحاله الآن، وهطلت أمطار غزيرة، لكن «لم يُبدِ أيّ من الأودية ميلاً لبلوغ البحر، وما كان ينبغي لها. إذ أنّ هذا الجزء من نجد تطوّقهُ سلسلة جبال طويق». هذا بلاشك افتتاح مُيَسَّر لرحلة تنحدر عبر وادي حنيفة الذي يتجه نحو الجنوب الشرقي، وهو سيبلغ البحر إن سالت به كَمِّيَّات كافية من الماء. وتحفّ بالوادي كل كتلة طويق من جهة الغرب -حسب روايته- وليس من جهة الشرق كما هو الحال. وفي هذا الجزء من الرحلة فإن بلجريف يربط نفسه بعقد تستعصي على الحل. لقد استغرقه الأمر كما يقول أربع ساعات ليبلغ منفوحة التي تقع في حوض الرياض نفسه، ويمكن الوصول إليها في نصف ساعة مع السيرالمتمهّل. وبعد منفوحة لا يجد نفسه في وادي حنيفة كما ينبغي أن يفعل، ولكن في وادي السُليّ. ولا يذهب وادي حنيفة إلى الشرق أكثر من هذا، «وتكوّن سلسلة الجبال المنخفضة المتعارضة التي قطعناها لـتوّنا خطاً جغرافياً وحدودياً. وهذا يعني أنّ هذه «السلسلة العرضية» هي مصدر وادي حنيفة، وهذا يجعله -كما نوّهت من قبل-

يجري في الاتجاه المعاكس تماماً للاتجاه الذي يسير فيه. هذه السلسلة العرضية ليس لها وجـود بطبيعـة الحال، ووادي حنيفة يـنبع من الطرف الغربي لهضـبة طويق، ويجري منحـدراً من خلال الهضبـة، وبطول حافتـها الشرقيـة لإقليم الخرج، ثمّ لمجرى تصريف السهباء.

أمّا وادي السّليْ الذي لم يجد فـيه «سوى قرية صغيرة ليـست ذات شأن» فهو في حقيقة الأمر ليست به قرى على الإطلاق. وهو يجعل هذا الوادي أيضاً يجري في الاتجاه المعاكس بعد أن يهبط من مصدرٍ وهمي في إقليم الحريق الوهمي أيضاً، ليجري في اتجاه الشمال. وينبع الوادي في حقيـقة الأمر من شمال الرياض ليقترن بوادي حنيفة قبل بلوغ إقليم الخرج بقليل.

يقع بلجريف في هذه الأخطاء رغم أنّه أفاد من الأيام التـي قضاها بلا عمل، بأن ارتقى «مرتفعات طويق الصـخرية الجيرية العالية في جانب الهـضبة الشرقي». والسبب وفـقاً لإفادته «الحـصول على فكرة أوضح عن البـلاد». ومن ذلك النتوء المرتفع حصل على لمحة بعيدة «للجبال الزرقاء المسنّنة للحريق في أقصى الجنوب»، والتي رآها مرة ثانية في مـرحلة لاحقة من رحلته بعد أن تخطّى السلمـية، حينها رأى «مشـهداً جنوبياً ممتـازاً لها»، «صرنا الآن قـبالتهـا رغم أنه كان يفـصلنا عنها شريط صحراوي. وكانت جبال الحريق سلسلةً من الجرانيت -فيما يبدو- تجري من الشرق للغرب، وهي سلسلةٌ مسننة ومنعزلة، طولها بالتقريب ستون ميلاً أو أكثر. وكان من المثير أيضاً أن نرى كيف أن جبل طويق يـنتهي فجأة -بل بحدّةٍ متناهية- في الصحراء وهو يهبط في تـعاقب سريع للدرجات الترسبيـة، وكان آخرها يهوي كحـدّ الشفـرة نحو القـفار الرملية». كـلُّ هذا بلا شك من وحي خيـال جامح. وليست هناك كلمة واحدة تحمل أيّ علاقة بالحقائق.

وفي النهـاية في يوم ٢٨ نوفمـبر (تشـرين الثاني)، انتـهت فتـرة الاختـباء، ويعوّض بلجريف الزمن الطـويل الذي أضاعه ليبلغ منفوحـة، عندما هرب لينجو بنفسه بسرعة كبيرة جداً، رغم أنه كان حينها في مأمن من مطارديه، وكانت ترافقه قافلة كبيرة الحجم نحو السلمية في الخرج، وبلغها في اليوم التالي، ولم ير الرجل أهميـة لأن يوضح للقارئ كيف أن قـافلة متجهـة للأحساء اخـتارت هذا الطريق الطويل الملتف كبـديل للطريق العام الذي يذهب للإقليم مباشـرة. وكانت المرحلة الثانية لـه هي آبار القاعيات التي تبـدو وهمية. وعندما واصلوا سيـرهم في اليوم التالي ضلّت القافلة الطريق في خضمٍّ «غطاء ثقيل من السديم يناسب إقليم سوراي بإنجلترا أكثـر من ملاءمته للجـزيرة العربية. لقد كان الضـباب كثيفـاً حقاً». وفي النهاية وقفـوا» على آخر نتوءات طويق وأعلى ما بهـذا الجانب منها. وطويق ذلك الحائط الجـيري الذي يحدّ ويسند نجد من الجـانب الشرقي». ثم هبطوا للمسـتوى الأدنى للصحراء الشـرقية حيث وجدوا مـزيداً من الآبار، وهي فيما يبـدو وهمية أيضاً، سمّاها أويسط.

وواصلوا سيرهم ليلاً حيث تغيّرت طبيعة الصحراء لتسود الرمال تدريجياً» لقد كانت الدهناء العظيـمة[1] أو الصحـراء الحمراء التي تخـيف حتى الجـوّالة البدو، والتي لا يعبرها المسافرون العاديون بلا قلق وترقب تسوّغُهُ الحوادث القاتلة في كثير من الأحيـان». «كم هي خفيـضة رمالهـا، وكم هي نزويّة النسمات الـتي تشكلها وتعيـدُ تشكيلها كل يوم تلالٌ مضطربة وأودية، بحـيث لا تبقى آثار مسافـر سابق ليهتدي بها مسافرٌ لا حق، بـينما الحرارة الحارقة والضوء الساطع تنعكس على كلّ

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الثاني ص ١٣١، ١٣٢. (المؤلف).

أنحائهـا وتتطابق مع العطش والجفاف والنصب، وكلهـا تُربكُ وتحيّر المغامـر حتى يفقد شعوره بالاتجاه فيتخبّط على غـير هدىً ارتقاءً وهبوطاً في خضمّ قفار معزولة تصبح بعد قليل قبراً له. لقد لاقى الكثيـرون حتفهم بهذه الطريقة، حتى أنّ قوافل بكاملهـا ضاعت في الدهناء دون أن يُعـثر لهـا على أثر». هل يمكن أن يكون هذا وصف رجل عبر ذلك الحاجز الرملي بنفسه؟ وعـبره ليلاً مهتدياً بالنجوم؟ إن هذه الأحزمة الـرملية العريضة تصـبح لفترة تمتدّ شـهوراً كل عام دياراً للبدو ينـصبون خيامـهم ويعيشون فيـها هم وقطعانهم وإبلهم. هذه الرمال تضمّ كل أسـرارالحياة الرعوية[1]، إذ لا يوجد مكان تتفـوّق أعشابه على أعشاب تلـك الطّيات الرملية، ومن دونها تصبح الحياة الرعـوية للعرب شيئاً مستحـيلاً. ولا يسبب عبور الدهناء فزعاً لأيّ رجل. رغم هذا وجد بلجريف وحداة ركبه وسيلةً ليضلوا الطريق، وهو يعزو حـسن الطالع الذي عاد بهم لجادّة الطريق ثانيـة للتمرين الذي قام به مـلاكه الحارس وحادي ركبه (أبو عـيسى)، واستخدامه للقوة الكامنة في الطبـيعة البشرية والتي لا يمكن استدعاؤها إلاّ في ظروف خاصّة، ومن خلال تدريب طويل».

وبعد خروجهم من القفار الرملية توجهت القـافلة عبر صحراء الصمان الخالية الممتدة، حيث يَزِلُّ بلجريف ويخطئ حـيناً بعد حين دون أن تكون أخطاؤه كبيرة، حتى يبلغ الجـانب الآخر من وادي الفروق. ثم بدأ يشق «في حذر سلسـلة جبال الأحسـاء الساحلية، إذ يفـصل - هنا أيضاً- الصـحراء عن البحـر خطٌّ من التلال المسننة العاريـة التي تمرُّ تقريباً بطول كلِّ المحـيط الذي يلفُّ الجزيرة العـربية. وفي قبـالة وادي الفروق ترتفع التـلال - بناء على ملاحظاتي التـقديرية - لألف وأربع

(١) أبرز داوتي وبلنت شهادات كافية تدعم هذه الحقيقة. (المؤلف).

مئة قدم فوق سطح البحر، ولأربع مئة قدم فوق سطح الجانب الغربي من الصحراء التي هي نفسها على ارتفاع ألف قدم فوق سطح الساحل». التعليق الأخير يقارب الصواب، ولكنّ الباقي هراء تماماً كإفادته أنّ المكونات الأساسية «لجبال الأحساء من الجرانيت والحجارة الرملية مع قليل من المروْ (الكوارتز) والبازلت». في حقيقة الأمر تمتدّ من الجانب الغربي للدهناء وحتى ساحل البحر الشرقي صحراءٌ شاسعة من الحجارة الجيرية تنحدر هابطةً بألطف تدرّج دون أن يكون بها سوى هضاب صغيرة وتلال على مسافات متباعدة لتغيّر رتابة طبيعتها العارية. ولكننا الآن على مشارف الأحساء، ولا بدّ أن أقتبس مقاطع من كتاب السيد هوجارث لأُمهّد الطريق لا نتقادي لوصف بلجريف للإقليم الذي قضى فيه أسعد أسبوعين في كل الفترة التي أقامها بالجزيرة العربية.

يقول السيد هوجارث: «كان اليسوعي[1] المتنكّر مبتهجاً بنجاته من نجد الملتزمة، ووجد في الأحساء تعاطفاً أكثر، كما وجد بها وقت فراغ أكبر مقارنة بسابقيه[2]، فقام بدراستها. ويصبح سرده هنا مليئاً وحيّاً ويتضح فيه أنه لا يسعى لإخفاء نزعة شبه شرقية لرجل يرى القاعدة الأساسية المؤثرة في الحياة هي مذهب اللذة أو السعادة». وعلى صعيد أكثر جدّيّةً يعطي بلجريف وصفاً تفصيلياً ممتعاً للمدن والواحة التي تضمها. ويتفق مع وصفه للمكان، الوصفُ القليل الذي أعطاه سلفه سادلير من قبله، وخلفاؤه بلي وزويمر. وبعد ثلاثين عاماً وجد زويمر الخارطة السورية للهفوف دقيقةً جداً. يتحدث بلجريف عن تفاصيل الحياة بنغمة حميمية قلّ أن يتصف بها أوربي في الشرق. ولا بد لنا أن نعتمد على كتاب

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٣٥. (المؤلف).

(٢) كابتن ج فوستر سادلير الذي عبرالجزيرة العربية في عام ١٨١٨م. (المؤلف).

بلجريف في كـثير من وصفه لجنوب نجـد، كونه حجة لنا لأنه ليـس هناك غيره، وفي الأحساء نعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على الآخرين جميعهم. ولولا بلجريف لماعلمنا سوى النزر اليسير عن طبيعة الأرض وعن أهلها ولما فهم الناسُ من سبقوه أو لحقوه إلاّ يسيرا.

هذا تقريظ عظيم بـالفعل، وعندما يصـدر مثله من السيـد هوجارث لا بدّ أن نتمهّل قليـلاً قبل أن ندخل في جدل مع بلجريف فـي معركة اختـار هو أرضها. ولكن كم يستحق بلجريف هذا الثناء إن نظرنا لوصـفه للرحلات مجرّداً عن غطاء الحشو اللغوي الكثيف؟ يورد السيد هوجارث دعماً لهذا الثناء «القليل الذي أورده» ثلاثة أوربيين آخـرون زاروا الإقليم. وصف سادليـر الأحسـاء بأنها «تحتـوي على بحيرات وينابيع ولكن ليس بها أنهـار»، وعن الهفوف تحدّث عن «أطوال أسوارها الطينية وعن أعـداد مقاتليهـا». ولا بدّ أن نعترف أنهـا مادة ضئيلة إذا مـا قورنت بوصف بلجريف الكامل ذي التـفاصيل. ولـم يُضف أي من بلي أو زويمر شـيئاً ذا بال لوصفه ولكن ملاحظات بلجريف حول خارطة[1] الهفوف أظهرت أنه مراقب غير مبال، وتسـتدعي ملاحظاته أن نسوق في تفسيرها شيـئاً من إيضاح. الخارطة السورية تُظهـر الهفوف كمدينة ذات شكل مـستطيل تقريباً، بينـما تحتل الكوت أو القلعة مساحة في أعلى الركن الأيسر في داخل إطار المدينة.

وينشأ سؤال حول اتجاهـات الخارطة وهو أمر يعتمد عليه مبـدأ دراستها دراسة جيدة. ولكن بلجريف في هذا الشـأن يحدد موقفه بصورة قاطعـة. وعندما اقترب من الهفـوف ماراً عبـر «بيـوت الغـوار البائسـة»، ذكـر أن العاصـمة تبعـد عنها

---

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الثاني ص ١٤١. (المؤلف).

خمسة عشر ميلاً كاملة فـي اتجاه الشمال الشرقي. وكان الطريق الذي سلكه يتقدّم نحو المدينة من الجنوب، وهو يعلن دون لبس أنّه دخلها عـبر البوابة الجنوبية، إذن فإنّ اتجـاه الخارطة يمتد بين الشـمال والجنوب كمـا يمكن للمرء أن يتـوقع، ويحتل الكوت الركن الشمـالي الغربي من المدينة. ورغم هذا فإنّه يقول فـي متن كتابه إنّ الكوت تقع في الركن الشمـالي الشرقي منها. كان هذا التناقض الغـريب قد لفت انتباه زويمر الذي لم يرَ ضـرورة - فيما يبدو- للتفكير في اتجـاهات امتداد المدينة. ولقد ندمت أنني لم أتجشّم عناء رسم الأجزاء المختلفة للمدينة وموقعها من بعضها البـعض. ولكن يبـدو لي - وهذا حديث من الذاكـرة - أنّ الكوت يحـتل الركن الشمالي الغربي للمكان. وعلى أيّ حال؟ لقد تقدمت نحو الهفوف من اتجاه شرق -١٠ْ شمال[(١)]، ودخلتها عبر بوابة تقع بالتقريب بين الرقمين ١١ و ١٢ في أعلى الركن الأيمن لخـارطة بلجريف. أمّـا خرائطه التي أعـدّها لمدن الجزيرة العـربية - وعلينا أن نتذكّـر أنّها أُعدّت من الذاكرة - ينقـصها الشيء الكثيـر ولكنني ناقشت مخططه لمدينة الرياض نقاشاً كـافياً من قبل[(٢)]، والذي يحمل شبهـاً لصيقاً لمخطط حائل رغم أن الأخير يوضـح فجوة أقل حجماً عن تلك التي تُمـيّز الرياض، كما أنها إلى الجانب الغربي وليس في الشرقي.

إنّ ترتيب المتبعـثر من المستندات والنصوص التي تدعم قـبول وصف بلجريف للأحسـاء يُظهر أنّ هذا الوصف ليس كـثيراً. وأبحث أنـا في ذلك الوصف لأجد

---

(١) التقطت الصـورة الفوتوغرافية المـوجودة في ص٣٥٣ من الجزء الأول لهذا الكتـاب في اتجاه ١٠ درجات جنوب الاتجاه الغـربي. وتُرى في الصورة مئذنـة جامع إبراهيم باشا في منطقـة الكوت، التي تبدو هكذا أنها تحتل الجزء الأبعد أو الجزء الغربي من المدينة نحو الشمال. (المؤلف).

(٢) الجزء الأول، ص ١٣٥ . (المؤلف).

مسوّغاً لتقريظ السيد هوجارث، لكن دون جدوى. مـاذا قال لنا إذن؟ لقد تركناه يسير بحذر في سلاسل الجبال لساحل الأحساء. ويقول «عندما خيّم الظلام، بلغنا أعلى القمم... حيث رأينا سهول الأحساء، ولكننا لم نستطع تمييز أيّ شيء نسبة لانتشار الشعاع الخادع للقمر البازغ.. وضربنا في الأرض، تارةً نرتقي وطوراً نهبط الممرات والجروف شديدة التحدّر حتى بلغنا منحدراً لولبياً بجانب الجبل الترسبي المواجه للبحر. وهبطنا به مسافة ألف قدم أو نحو ذلك، وبلغنا بعدها مستوى الأحساء المنخفض»[1].

استنكفوا عن الاستجابة للإغراء بالتوقف في «بيوت قريبة من الغوار، في سطح المر وكذلك في قرية شعبة على بعد حوالي خمسة أميال عن يميننا». وواصلوا المسير للهفوف. ثم يعطينا عن المدينة كثيراً من التفاصيل الممتازة، ولكن ليس من دون أخطاء فادحة، وكثير من الإسقاط. ولكنه أبدع في وصف المنطقة المحيطة التي زارها راكباً «حماراً مزوّداً بسرجٍ جانبي، إذ أن السروج الجانبية هي السائدة في الأحساء لكلّ راكبي الحمير، رجالاً كانوا أم نساء».

«عندما استدرنا ناحية الغرب[2]»، هكذى يروي لنا «وجدنا أمامنا عدداً كبيراً من المجاري المائية.. ونباتات شبيهة بالنباتات الهندية، وتبدو غريبة في هذا الجزء من الجزيرة العربية... تمتدّ سلسلة الجبال لمسافة مئة ميل على أقل تقدير في اتجاه الشمال. إذن دعونا نتّجه جانباً إلى حقول معشبة لنرى ستة من الجاموس يبللون جلودهم القبيحة في بركة، ودعونا نشرب قليلاً من المصدر الذي يغذّي البركة.

---

(١) كتاب بلجريف W.G.P. الجزء الثاني ص ١٣٧. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الثاني ص١٥٣. (المؤلف).

ولكن قف! إنّ المياه دافئة!! إنها تقريباً ساخنة، لا تندهش.. إن مصادر ينابيع وآبار الأحساء مثل هذه أو هي قريبة منها، وفي بعضها لا يستطيع المرء أن يغمس يده فيها.... منتجات الأحساء كثيرة ومتنوعة، وتتغيّر هنا رتابة نباتات الجزيرة العربية التي يتعاقب فيها النخيل والأثل، فتظهر هنا نباتات أخرى. الببايا (دُبّاء الهند) وهي معروفة أكثر في الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة[1]، إنّها توجد هنا أيضاً ولكنها قصيرة النمو، وتوجد معها أشجار أخرى[2] معروفة في الساحل من كتش حتى بومباي. تزرع هنا أيضاً شجرة النيلة (نيلج) ولكن ليس بكميات تجارية.. ويزرع أيضاً في العادة قصب السكر ولكن ليس لاستخلاص السكر وفقاً لتصوّري.. وتغطّي السهل بالتقريب كل البقوليات والغلال ما عدا الشعير (على الأقل لم أره مزروعاً ولم أسمع أنهم يزرعونه). انتبه لهذه الملاحظة، لا يُزرع شعير في هذه الجنة الأرضية.

هذا هو وصف بلجريف الهيكلي للأحساء، ولكن أين هذا من الحقائق؟ لسوء طالع بلجريف فإنّ سلسلة الجبال الساحلية بالأحساء قد اختفت من الوجود، وذهب معها المنحدر اللولبي الطويل في الجانب الترسبي من الجبال الذي يقود إلى القرى والقرى الصغيرة التي تسكن في جانب الجبل. واختفت أيضاً معظم المنتجات المختلفة التي كان ينتجها الإقليم، ولكن لم يصب أرضها العقم إذ أنّ

(١) أي الهند. (المؤلف).

(٢) عن هذه الأشجار هو يعدنا بقائمة في الفصل اللاحق، أثناء وصفه لساحل باطينة (الجزء الثاني، ص٣٢٧). وتحتوي القائمة على المانجو وجوز الهند والقوقل (الكوتل) والجاكية والبن واليام والجوز والتفاح... إلخ ولكنه لا يوضح ما وجده بالأحساء من هذه القائمة. في الحقيقة لا يوجد شيء هناك. (المؤلف).

الشعير ينمو بوفرة بعد أن توقف إنتاج الببايا (دبّاء الهند)، وقصب السكر، وشجرة النيلة. ومصادر الينابيع ليست حارقة الآن فهي دافئة أو معتدلة البرودة أو باردة. وأخيراً فإنّ ما يُورث الحزن أنّ الجاموس لم يعد يتمرّغ في وحل البرك إذ أنّه قد انقرض. لا يستطيع بلجريف أن يُعزو لزِلّة القلم ذكره لهذه الحيوانات إذ أنه ذكر في مناسبتين سابقتين في سرده أنّها لا توجد في القصيم ووسط الجزيرة العربية[1] وهذا صحيح.

ورغم أنّ كل هذا سيّئ إلاّ أنّه ليس كل شيء. إن كانت هناك نقطة واحدة دون غيرها يُتوقع لبلجريف أن يتحدث عنها بدقة ودون أخطاء، أو كان أمامه مجال واحد يُفترض أن يتطرق في وصفه لأدقّ التفاصيل فهو مجال الحركة السلفية الدينية التي كان يحمل ضدها تحيّزاً حذراً، وكان يعرف تماماً وبوضوح كل تجلّياتها. ورغم هذا فهو يقول في وصفه لمنطقة الكوت: «هنا[2] أيضاً نموذج لمسجد تقليدي حيث يتم كل شيء وفقاً للنظام السعودي، وهنا يقيم المطوعون الذين يُرسل بهم من الرياض». هل يمكن أن يكون قد رأى بأمّ عينيه المئذنة المهيبة والقبة البديعة لجامع إبراهيم باشا الكبير[3]، أجمل معلم معماري في كل وسط وشرق الجزيرة العربية، وأكثر معالم المدينة مخالفةً للنظم السعودية، وهو الذي يركّز في العبارة نفسها على مخالفة طبيعة المدينة للتقاليد السعودية.

---

(١) كتاب بالجريف W.G.P. الجزء الأول ٣١٥ وص ٤٥١. (المؤلف).

(٢) كتاب بالجريف W.G.P الجزء الثاني ص ١٥٠. (المؤلف).

(٣) نسبة الجامع إلى إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الوالي العثماني على مصر، بحاجة إلى مراجعة لأن المعروف تاريخياً أن نسبة الجامع إلى الوالي السعودي على الأحساء في الدولة السعودية الأولى واسمه إبراهيم بن عفيصان، الذي ينسب إليه قيامه ببعض التحسينات التي أضيفت إليه، أما تاريخ بنائه فهو سنة ٩٧٤هـ. (المراجعون).

بعد وقت قصير رحل بلجريف من الهفـوف إلى خارج الجزيرة العربية متخذاً طريقاً لم أسلكه أنا، وهنا أتركه وشأنه. وأترك لمن يهـمهم الأمر أن يحكموا له أو عليه بناءً على البيانات التي بين أيديهم. لقـد بدأتُ محاولاً إثبات أن بلجريف لم يسافر من الرياض للخـرفة، وجاءني الرد: قد يكون بنفس القـدر من السهولة أن نقول أنّه لم يرَ بريدة قط. لا بأس وليكن الأمـر كذلك. إنّ توسيع هذه الدائرة لم يكن من اختياري، ولكنني في معظم الوقت تركت بلجريف يروي قصته بكلماته. أليس هناك مسـوّغ كافٍ لإعادة النظر في الحكم الذي أصدره السـيد هوجارث عن «البحـث عن تبرير بديل لمبـالغاته الكثـيرة وإغـفاله للكثـير وبيـاناته الكاذبة». إنّ الاعتبـارات التي بنى عليها هوجارث حكمه ذلك لم تعـد صامدة، ورغم أننا «لا نطمع في أن نقرأ أسـرار الكلية اليسـوعية أو اللاهوت، لكن يحقّ لنا أن نتساءل ليس فقط إن كان بلجريف قد قام برحلة خـاطفة للأفلاج، ولكن السؤال ما القدر الذي رآه من عمق الجزيرة العربية».

إن كان يمكن إثبات زيارة بالجريف لبريدة والرياض والأحساء بما لا يدع مجالاً للشك، فلا بأس من أن نضمَّ إليها الرحلة الصغيرة للأفلاج، ولكننا بالقطع نكون حينها في حـلٍّ من تصديق حديثه، أي حديث «رجل إنجلـيزي، رغم أنه رحّالة»، عن مقـدار إنجازاته، ويحقّ لنا أن نطالب بمعلومات إضـافية أكثـر إقناعاً نبني على ضوئها حكمنا، وليس على المعلومات الواردة في سرده الذي سوّد به جزئيْ كتابه.

كان اسـتقـبال بلجـريف في بلده بارداً [1] بعد عـودته من رحلته العظيـمة،

(١) كتاب هوجارث .D.G.H ص ٣٠٦. (المؤلف).

وشكك رجال علم عـمّا أورده عن الهيدروغـرافيا (علم وصف الميـاه) في الجزيرة العربية، ولكن كانت المعلومات عن الجزيرة العـربية آنئذٍ محدودة. لذا سجّل نصراً سهـلاً -ولكنه بالطبع لايسـتحـقه- وفي مجـادلة مع ج.ب. بادجـر حول هذه النقطة. ومن الغريب أنّ بادجـر لم يبذل جهداً في تلك الأيّام للحـصول على أدلّة مستقلة (من مـصادر أخرى) عن الأشياء التي حدثت لبلجـريف، على سبيل المثال بين الوقت الذي غادر فيه الجزيرة العربية والوقت الذي عاد فيه إلى دمشق. وليس من الممكن جـمع أدلّة عن هذا الأمـر الآن بعـد مـضيّ كـل هذا الوقت إلاّ من سجلات الكلية اليسوعية بسـوريا، ولكن نشر ورقتي مع تعليقات السيد هوجارث عليها بمجلة الجمـعية الجغرافية الملـكية قد أظهرت شيئاً من مـستور الماضي. ولقد أبدى ضابط بريطاني(١) كان قد عمل في مسـقط في الـسبعينات من القرن الماضي -وقدّم خدمات جليلة للجغرافيا العربيّة- شكوكه حول زيارة بلجريف لعمان.

وأقدّم هذا الدليل بأن أورد النص الكامل لرأى السير ويليام هاقارد الذي طرحه في اجتماع(٢) الجمعية الجغرافية الملكيـة أثناء المناقشة التي أعقبت قراءة ورقتي الثانية حول الجزيرة العربية. قال السير ويليام هاقارد: «لم أتمكن لسوء الطالع من الاستماع لمحاضـرة السيد فـيلبي الأخيرة، ولكنني قـرأتها باهتـمام بالغ، ورأيت فيـها بعض الملاحظات حول احـتمال عدم صـدق بلجريف. وإنّه لمن الضروري جـداً أن يسوّى هذا الأمر في أيٍّ من الاتجاهين، ولعلّ الكلمـات القليلة التي سأقولها الآن ستـتجه

(١) الكولونيل الراحل س.ب. مايلز. (المؤلف).

(٢) في ٣ مايو (آيار) ١٩٢٠م، راجع مجلة الجمعيـة الجغرافية الملكية (J.R.G.S)، ديسمبر (كانون الأول) ص٤٦٦. (المؤلف).

بهذا الأمر قليلاً نحو الحسم. لقد كان قدري أن ألتقي ببلجريف عدةً مرات أثناء مسيرة حياتي. التقيت به عندما كان كاهناً يسوعياً في دَيْر على نهر الراين. وذهبت إليه مع والدي، وأذكر - وأنا صبي حينها- أنّي فكرّت في أن مناقشته كانت خفيفة وغير جادّة مقارنةً بما يتوقّع المرء أن يسمعه من كاهن يسوعي، وهو مجتمع ارتبط في ذهني بالجديّة والصرامة، ولقد تولّد في داخلي إحساس في وقت لاحق أنّ الفكرة التي كنت قد كونتها عنه في ذلك الزمان القديم كانت فيما يبدو صحيحة.

وذهبت إلى الخليج الفارسي قبل أربعين عاماً وكنت قبلها قد قرأتُ كتابه عن الجزيرة العربية (وهو بالمناسبة كان قد أخبرني والدي أنّه كان بالفعل يكتبه في الديْر عندما رأيناه بعد عودته من الجزيرة العربية)، ولا أدري إن كان ما انطبع في ذهني عن شخصيته أم لسبب آخر، إلاّ أنني عندما قرأته أحسست بأنّ لي شكوكاً حول دقّته. وعلى أي حال عندما وجدت نفسي في مسقط مرّةً - في طريقي من بومباي إلى بلاد فارس - قضيت اليوم مع الرائد- كما كان حينها والكولونيل لاحقاً- مايلز، وهو رجل معروف مبجّلٌ محترم، وهو المندوب السامي والقنصل العام. وسألته إن كان يعرف بلجريف، وأجاب: «بالطبع نعم، أنا أعرف بلجريف جيداً» وسألته: أرجوك أن تخبرني عن رأيك في صِحّة كتابه فأجاب: «حسناً، أنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن بقية الجزيرة العربية التي لم أزرها، وعن تلك المناطق ليس لي رأي.

ولكن.. يمكنني أن أُدلي برأيٍ وأكثر من رأي عمّا قاله عن مقاطعتي -تلك كانت مقاطعة أو مملكة مسقط-، ليس في حديثه كلمة واحدة صادقة، وسافرت أنا في جميع أنحاء هذه المقاطعة. ويتحدث بلجريف عن بساتين نخيل حيث

لا توجـد، وعن مدن وقـرى كلها من نسـج الخيـال، وختم حـديثه قـائلاً: «إنّه يتـحدث عن طريق يرتقي تلك الـصخـرة» وأشار إلى جـرف عظيم يواجه مـيناء مسقط، هذا كل ما أسـتطيع قوله إنّها بيِّنةٌ سماعيّـة، ولكن أي إنسان تعرَّف على الكولونيل مايلز يعرف تماماً أنه رجل لا يستطيع أحدٌ أن يطعن في صدقه. وما قاله يمكن أن يُؤخذ كدليل جيّد على أنّه كـانت هناك أخطاء فادحة في وصف بلجريف للجزيرة العربـية، الوصف الذي سمعت كثـيراً من النقاش حول إمكانيـة التعويل عليه».

الفصل العاشر

وادي الدواسر

١- عتبة الوادي:

كنا نقترب الآن بسرعة من غاية مسعانا، وادي الدواسر الغامض العظيم. الذي لم تكتحل برؤياه من قبل عينا أيّ رجل أبيض، ولكن رغم تأكيد رفاقي لم يكن في المنطقة المحيطة بنا ما يوحي بوجود قريب لحوضٍ أو معالم لوادٍ تمكن مقارنته بمنخفض الباطن الشمالي. وكانت تجري بطول جانبي وادي غديّر -الذي خيمنا فيه في تلك الليلة- الخطوط الطويلة المتوازية للبياض من جانب وطويق من جانب آخر. وكانا يجريان نحو الجنوب على مدّ البصر كما كانا يفعلان لمسافة ٢٥٠ ميلاً، أي ابتداءً من وصولنا لإقليم الخرج. وكان الاختلاف الملحوظ الوحيد هو زيادة وعورة الإقليم، بينما كان سطح طويق حتى الآن ممهداً. وتحلّل طويق الآن إلى عدد من سلاسل التلال المتوازية التي تحتضن فيما بينها أحواضاً تحمل مياه تصريف الإقليم نحو الجنوب. وكان حوض مُرّان يجري عن يميننا مباشرةً من خلف سلسلة تلال أم الجدر، وكان من ورائها شعيب حُمَام، ومن وراء ذلك أيضاً شعيب المراغة الذي يغذي الوادي مباشرةً.

كانت تقع أمامنا على بعد ثلاثة أميال مستوطنة حمام التي وقفنا بها لنسقي الإبل صباح اليوم التالي، وهي من ناحية إدارية تابعة لإقليم وادي الدواسر، وتكوّنُ له قاعدةً أمامية متقدمة. وتقع المستوطنة كما يوحي اسمها في وادي حمام على بعد ميلٍ شرق نقطة اقترانه مع حوض مرّان، في الموقع الذي يخرج فيه من مرتفعات طويق، وعلى بعد ميلين أعلى نقطة اقترانه مع شعيب غُدِّير. ويجري ابتداءً من هذه النقطة الشعيب المتّحد تحت اسم حمام في اتجاه الجنوب الشرقي ثمّ

عبر فجوةٍ لهـا دعامات في البياض تسمّى البازومين. لا يمكـن لأحدٍ أن يتخيّل ما هو أكثر بؤساً من بقايا هذه المستوطنة البالية التي شهدت فيما مضى أياماً خيراً من هذه. وفي وسط المستوطنة يوجد قصر العُدْ وهو مسكن الأمير المحلّي، ويطل عليه جرف صـخري مـسنّن يقع في مهـد مجرى مـائي ويرتفع لخمـسين قدمـاً، وتمتدّ خرائب بالية لقلعة مـهجورة تسمّى النخ. وكانت تمتد بجوار القصـر حديقة تحتوي على تسع من أشجـار النخيل واثنتين من الأثل، ويحـيط بها حـقل تبلغ مساحـته بعض الأفدنة وبه جذامة القمح بعد أن تمّ جمع المحصول.

ويسم الحد الشـرقي للمستوطنة «قصـر» ما يسمّى بلاد الشنّة وتتـصل به رقعة زراعية أهمها بستان به سبع نخلات. وكانت هناك خرائب لمنازل وآبار[1] في ثلاث مواقع أخرى، إضافةً لحوالي سبع آبار تستخدم لريٍّ حوالي خمسين فداناً من أرض الحبوب، والتي توجد فـوقها مستعمـرة صغيرة بها نحو من خـمسين فرداً من فرع الرشـيد من الوداعين، ويعـيـشون حـياة شـبه رعـوية تحت إمـرة أميـرهم العبـد عبدالرحمن. وكان هذا الشخص الذي تعوزه الجاذبيـة أحد أفراد الجمهرة الصغيرة الذين خرجـوا يحدّقون فينـا فاغرين أفواههم عند وصـولنا، ولكن لم تكن هناك دعوة لتناول القهوة، فبقينا في المكان للفترة التي تسمح فقط بسقيا الحيوانات. ولم نكد نغادر المكان حـتى بدأ طامي الجائع دائمًـا تعليقاته القـاسية حـول فشلهم في استـضافتنا، وسرعـان ما لحق بنا الأميـر ليقول إنه سيـصحبنا حـتى موقع النزول للقيلولة. ولاشك أنّه كـان يرمي لأن يصيب لدينا إفطاراً أو ينال عـائداً مادياً على

(١) أربعة قصـور تسمّى مسحابيات بالقـرب من النخ، وهناك آبار خربة وقصور تسمّى بلاد الحُسيِّن في اتجاه أعلى النهر؛ وآبار مخرة الخربة في الطرف الغربي للمستوطنة. (المؤلف).

ذلك، ولكن ظنَّه هذا كان بعيداً عما يظنّه مضيفه. ومضينا وهو معنا في طريقنا وحرارة الطقس تتعاظم، فاقترب ابن جلهم مني راكباً ليسألني: «ألم يحن وقت التوقف لتناول الإفطار؟» فأجبته بصوت عالٍ حتى يسمعني الأمير: «كلا، ألم نتوقف قبل برهة وجيزة في حمام لتناول الطعام؟ لماذا إذن نتوقف ثانيةً؟ لن نفعل حتى نتجاوز وقت الظهيرة» بعد قليل بحثت دون جدوى عن الأمير، وتوقفنا لتناول إفطارنا من دونه.

لزمنا جنب طويق بعد أن تجاوزنا مجرى حمام، وكانت السلسلة العارية للجبال الخارجية لطويق تنحدر إلى أسفل نحو بطن الوادي عن يسارنا، وأشاروا لي في أحد المواقع عن نقطة البداية لطريق مباشر يجري عبر الأراضي المرتفعة نحو السُّلَيِّل. وهو طريق أكثر صعوبة ولكنه كان مفضّلاً في زمان مضى لأنه كان آمناً ضد النهاب والسلاّب مقارنةً بالطريق المنخفض الذي اتبعناه بطول حافة السهل، الذي كانت تقاطعه بعد مسافات منتظمة جداول تصرّف المياه من مجاري طويق. وتوقفنا بجوار أحد هذه الجداول في موقع رملي منخفض تغطّيه الشجيرات لتناول الطعام وللقيلولة. كل هذه الأرض تتصرف مياهها للخارج نحو شعيب حمام الذي يخرج عبر فجوة البازومين. وكان مخرج الشعيب يقع قبالة مخيمنا. وبعد أن سرنا قليلاً عبرنا مرتفعاً معتدلاً يسم الفاصل بين تصريف حمام وذلك الذي يسيل نحو الجنوب نحو حوضٍ تغطيه الشجيرات ويسمّى المحتفر، وقد تجلّى لنا الآن على البعد في الزاوية التي تكوّنت بين طرف صخور البياض وسلسلة تلالٍ عرضيّة تسمى النعجانية تعترض الوادي فيما يبدو من جهة الجنوب. وتتخلل هذه السلسلة العرضية - بعد فواصل - شرائطُ من الرمال المتحركة الثقيلة التي تتكوّم على جانبيها.

فور أن عاودنا المسير وقبل أن نبلغ رجـم المنسفة، وهو نصب من ركام حجارة وضع على نتوء خـفيض لطويق ليسم نصف المسـافة بين حمـام والسُلَيّل، ومررنا بمنخفض كـثيف الشـجيرات يسـمّى حجلة آل مـرة ليذكّر بحـادثة في إطار النزاع الطويل المرير في المنطقة.

كانت المنطقة المجاورة لحمام في وقت أكـثر حداثة - في رمضان عام ١٩١٦م- مسرحـاً لمواجهة حادّة بين فصيل من قـوات ابن سعود وعصابة من إحـدى القبائل قاموا بقيادة زعيمهم بنهب قافلة مـتجهة نحو الشمال، باتجاه السُّـلَيّل. ولقد وصف لي إبراهيم ورشيـد، وكان كلاهما في تلك الحـملة المكونة من ٢٠٠ جواد و٤٠٠ من الإبل تحت قيـادة ابن عم ابن سعود: (عبـدالعزيز بن مساعد)، وصـفا لي من الذاكـرة المعركـة أمام جـمع من المسـتمـعين المعـجبين. أوضـحا مـواقع الأطراف المتحاربـة، وشرحا كيف أنّ فرسـان ابن سعود اجتـاحوا قطّاع الطرق بعد مـقاومة يسيرة.

انضمّ إلى مجموعتنا أثناء النهار شخص مبهج يدعى حسن، من قبيلة عرجا. التقى بنا مصادفةً في حمام أو جوارها فـتطوّع بأن يضمّ إلينا بوصفه حادياً ورفيقاً. كان الرجل كـثير التـجوال في الصـحاري الجنوبية وعلى مـعرفـة لصيقـة بنجران وبالمنطقة التي تقع بينها وبين الوادي. ولقد كـان ذا نفع عظيم لمجموعتنا التي فعل الكثير ليفعمـها بالحيوية والبهجة بفضل روحه البدويـة المرحة وقصصه عن تجاربه. كان صوته الرقيق وطباعه السهلة تقف عـلى طرفيْ نقيض مع بنيةٍ ضخمة وملامح متجعدة إذ تركت سنواته الخمسون التي عاشها مجاهداً - رغم المعوقات- في حياة الصحـاري القاسيـة أثرها البيّن على وجهـه. نقل إلينا حسن أخبـار العراك الذي

نشب مؤخراً في الصحراء جنوب الوادي، إذ غارت عصابة من اثني عشر رجلاً على أربعة رجال تمكّنوا من تخليص أنفسهم من ذلك الموقف العسير دون أن تتعدّى إصاباتهم بعضاً من عيارات نارية. وتباهى حسن -ضمن إنجازات أخرى- بمعرفة لا تجارى حول أنواع الإبل، وحدّثنا عن أربعة منها، العمانية: التي تأتي من الصحاري الرملية المجاورة لعمان وهي في الغالب خفيفة البنية وسريعة ولونها قاتم، وهناك الإبل الحرة: وهي خشنة الوبر وتأتي من شمال الجزيرة العربية ويربيها عنزة والحويطات في مناخهم المعتدل. والثالثة: عرقية وهي تأتي من أصقاع بيشة ونجران. وهي لا تستطيع تحمّل البرودة، ولهذا فهي لا ترى إلاّ نادراً في الأقاليم العليا. وأخيراً الدرّاعيّة التي تربّى في الجنوب ناحية حضر موت، وهي عينة صفراء اللون أو أنّ لونها بُنيٌّ غامق، وقد يعود اسمها هذا للقرية التي جاء منها أسلاف ابن سعود[1]، أو لاسم عاصمتهم القديمة في وادي حنيفة. وأفادنا حسن أنّ هذه الأنواع عندما تفارق مواطنها الأصلية فإنها بالضرورة تتهجّن مع بعضها البعض ومع عينات أخرى أدنى منزلةً.

وإنّ أي عربي محظوظ يمتلك ناقة لها القابلية للتهجين وإنتاج مطايا ذات صفات ممتازة فهو يهجنها مع أيّ جمل جيّد قد يجده تماماً كما يفعل صاحب الفرس الوضيعة إذ يغشيها لفحل ذي مزايا جيدة، ويؤكد حسن أن العينات النقية غير مختلطة الأنساب لا يمكن أن تخطئها العين.

(١) الواقع أن جد الأسرة السعودية الكريمة جاء من شرقي الجزيرة العربية، كما هو موضح في كتب التاريخ المحلي، وليس كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

وبعـد أن أضعنا كـثيـراً من الوقت في سـقيـا الإبل بحـمام وتوانينا تكاسـلاً لساعات خمس دون أن نـبرح موقع القيلولة وجدنا أنفسنا بعـيدين من طيّتنا لذلك اليوم عندمـا خدّرتنا أشـعة الشـمس المائلة نحو المغـيب، وأيقنّا أننا لن نبلغ المكان الذي نريده قـبل حلول الظلام. لذا قررنا أن نقـضي ليلتنا في أول مـوقع مناسب بحيث يكون بيننا وبين السُّلَيّل عند مـغادرتنا له في الصباح التالي رحلةٌ قـصيرة. وتنحيْنا جـانباً مرتقين جـانب شعيب يسـمى أم الكداد، ونصبنا خـيامنا في وسط مجموعـة روابي منخفضة تسمُ حواف مرتفعـات طويق. وصعدت أنا إحدى هذه الروابي لأرى المدينة التي نطمح بلوغـها، ولكن لم أرَ سـوى الامتـدادات العارية للبياض من جـانب وطويق والنعجانية من الجانب الآخـر. وكان هناك أخدود بين الأخيرين قالوا لي أننا سنسير فوقه في الغد لندلف إلى الوادي نفسه.

وفي صباح اليوم التالي سرنا لمسافة قصيرة تبلغ ستة أو سبعة أميال فوق أرض وصفنا من قـبل معالمها وصـفاً دقيقـاً حتى بلغنا مكاناً محـصوراً بين طرف طويق الجنوبي وسلسلة النعجانيـة المتداخلة معه. وصعدنا الممر بـينهما إلى أعلى، وكان الممر يضيق سريعاً كلما تقدّمنا حتى بلغنا سرجاً خفيضاً يربط بين السلسلتين مكوّناً فاصلاً بين شعيب شـعدية الذي ينحدر مصرّفاً مياهه نـحو الشرق في اتجاه حوض محـتفر، وشعـيب السلام الذي ينحدر لـتتصرف مـياهه في الاتجاه المعـاكس نحو مجاري الوادي. وكان الوادي أمامنا وكلنّا لم نكن نراه لوجود نتوءات خفيضة هي حاجز النعجانية. وصعدنا جانب الحاجـز عبر طريق مطروق قادنا نحو قمته حيث تحـقق طمـوحي. وكـان وادي الدواسـر يقع أمامـي دون جنَّة تحـول بيني وبينه، وشاهدت على جانبيه بساتين نخيل السليل الخضراء.

٢- السُّلَيِّل:

لم يكن المشهد الممتد أمامنا جميلاً أو مثيراً، ولكن رؤية واحة كبيرة في خضم الصحاري أمر يبهج المسافر المكدود. ولم نكن في عجلة من أمرنا لذا توانينا في ذلك الموقع المميز من رابية النعجانية لنملأ أعيننا من ذلك المنظر الأخضر، ولمعرفة تفاصيل المنطقة كان الأمر بالنسبة لي على الأقل فتحاً جغرافياً يسمُ مرحلة هامة في تاريخ التوغّل في الجزيرة العربية. وكان إقليم السليل معروفاً بالاسم فقط للطلاب الذين يدرسون جغرافيا الجزيرة العربية، دون أن يكون هناك سوى القليل من الإلمام بطبيعة الإقليم وسكانه. وكان خلاصة ما يُعرف عن المنطقة قد تمت صياغتها بحذر لتقرأ كالتالي: «يقع هذا الإقليم إلى الجنوب الشرقي من منخفضات الدواسر والمقرن الذي لا يسكنه أحد رغم إنتاجيته. وإلى الجنوب منه -من خلف المرتفعات- تمتدّ الصحراء العظيمة. إنّ الإقليم ذو طبيعة جبلية في بعض أجزائه وينحدر لتتصرّف مياهه نحو الجنوب الشرقي، ولكن لا يُعرف عنه سوى أنّه صقع رملي وأنّ به حوالي اثنتي عشرة قرية صغيرة كلها فقيرة وبدائية. ويعد البعض السليل جزءاً من إقليم وادي الدواسر».

كان المعلم الرئيس للمشهد الكئيب المحيط بنا هو واحة السليل نفسها، وهو خطّ من خضرة عبقرية تمتدّ لحوالي ميلين نحو الجنوب الغربي من الموقع الذي كنا فيه في حوض رملي تكوّن بالتقاء أودية في قلب مرتفعات طويق. وكان أحد هذه الأودية هو وادي الدواسر نفسه الذي يشقّ الهضبة الحاجزة إلى قسمين من الغرب إلى الشرق، والوادي الآخر هو وادي المجمعة[1] الذي كانت له دلتا فسيحة

---

(١) المجمعة: واد يبعد عن السليل خمسين كيلاً شمالاً غرب، وهو غير المجمعة المدينة المعروفة بمنطقة سدير. ابن خميس، معجم اليمامة، ج٢، ص٣٤. (المراجعون).

تبرز نحو الشمال. وكانت قاعدة مثلث الدلتا هي الوادي ورأس المثلث في الشمال في سلسلة المراغة. وهناك على البعد في ناحية الغرب، على بعد اثني عشر ميلاً كانت مرتفعات خشم سواد ومرتفعات خشم العمور العابسة المتجهمة تواجه بعضها بعضا وتفصل بينهما فتحة عرضها ميل واحد في حروف طويق الغربية، وعبر هذه الفتحة يمرّ وادي الدواسر مخترقاً الحاجز. وتنحدر الكتلة الجنوبية للهضبة إلى الأعلى، من الجانب الأيمن لمجرى الوادي عبر سهل لطيف الانحدار حتى تبلغ قمة المرتفعات التي تنحدر من بعد إلى الأسفل من الغرب للشرق.

أما الجزء الشمالي الذي يتجعّد بسلاسل تلال مسننة فهو يكوّن ساقي الحوض المثلث الآخرين ملتفّاً حول الدلتا من خشم سواد إلى سلسلة النعجانية.

وتتكوّن منطقة السليل من أربع قرى متوسطة الحجم، ومن مجموعات عديدة من البيوت التي لا أهمية لها، وبعض القصور المتباعدة المنعزلة التي تتناثر في حواف حزام النخيل الواقع في الجانب الأيسر لمجرى سيول المجمعة الرملي العريض، بين نقطتي لقاء فرعيْ شعيب سلام بالمجرى. ولا يتعدّى متوسط عرض الحزام ربع الميل، بينما يبلغ طوله حوالي الميل. وتقع قرية الفرعة التي تسمّى أيضاً الضويان وفقاً للعادة التي تُعرّف فيها المستوطنة باسم العنصر الغالب من سكانها. وتقع القرية في الطرف الشمالي الغربي للحزام، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٣٠٠ نسمة. وعلى الطرف الآخر -على جانبي سلسلة النعجانية البارزة- تقع قرى صبحا أو (المحمد) ودهلة أو (الحنيش). وتقع هذه القرية الأخيرة في صدع من السلسلة، وتحيط كتلةٌ كثيفة من النخيل بحافتها الخارجية. وتتنازع هاتان المستوطنتان منذ القدم على سيادة الواحة. وتفصل بينهما دعامات صخرية رأيتُ على قمتها بقايا متاريس وضعت في الأيام الخالية نتيجة للخصومات وللصراع الذي لم تمت جذوته حتى الآن. ويسكن في كل من المستوطنتين حوالي ٥٠٠ نسمة. أمّا القرية الرابعة فهي

مقابل أو (سـويلم)، ويبلغ تعداد سكانها ٣٠٠ نسمـة، وتقع بين طرفي الواحة في حافتها الشـرقية. أمّا المجموعات السكنية الأقل فـهي قصر الخُلَيِّف، ونخل العنقة، والشرق وغـيرها. ويبلغ تعداد سكانهـا مجتمـعةً حوالي ٤٠٠ نسمـة، وهي تعد فروعاً أو توابع للمستوطنات الكبيرة وليست وحدات قائمة بذاتها.

ويبلغ التعـداد بكل مستوطنات المنـطقة نحواً من ٢٠٠٠ نسمـة جزء منهم من العبيد المحـررين، وتخطّى عددٌ منهم حاجز الفقر بسـبب تجارة اللؤلؤ. بيد أنّ هذا العدد لا يتضمّن بالطبع العناصر البدوية[(١)] الذين قد يساوي عددهم أضعاف أعداد مجموع المقـيمين. وهؤلاء يعتمدون على الواحـة ويعودون إليها موسمـياً لاستلام حصصـهم من منتجاتهـا. وتنتمي كل الأقسام المقـيمة هنا لمجمـوعة الوداعين من الدواسر وهم من آل إليـهم الإقليم بعد هزيمتـهم لبني عمـومتهم: قـسم آل حسن الذين كانوا يعيـشون هنا في الماضي السحيق. بيـد أن الروايات المتداولة لا توضح شيئاً عن الوقت الذي حدث فيه هذا، أو عن الطريقة التي أصبح بها قسم آل حسن سادة هذه البقاع في المقام الأول، أو من كان يحـتلها قبلهم. كلُّ ما يعرف الآن أن الواحة كانت في الأصل تحتلُّ موقعاً يبعد حـوالي ميل أسفل الوادي مقارنة بموقعها الحالي في الأطوى[(٢)]، وهي بقعة مساحتـها حوالي ٣٠٠ فدان من أراضي الحبوب جيّدة الرّي، إضافة لمجموعات متفرقة من النخيل، ومازالت هناك شواهد تدل على من كانوا هنا من قبل؛ إذ توجد مـبان سكنية خربة، ومقابر وكومة كـبيرة من مبانٍ حجرية مهدمة، توجد كلها على الصخرة التي تعلو سلسلة النعجانية، وكانت فيما مضى قلعة أو قرية صغيرة تعرف باسم قصر ضاري.

---

(١) الذين لا يملكون جزءاً من بساتين النخيل يتلقون نصيباً من مـحصول التمر سنوياً عن طريق الهبـة، تبعاً لتقاليد قديمة. (المؤلف).

(٢) في الأطوى ٢٤ بئراً، ثلاث منها ملك للمحمد، والأخريات للحنيش. (المؤلف).

يقترن[1] مجرى المجـمعة بوادي الدواسر إلى الشـرق من الأطوى، وبعد هذا يجري الوادي بين الصخور المنخفضة لطويق الجـنوبي والنعجانية التي تعوق مجراه حتى يصير ضيِّقاً. وتعترض المجـرى وتحدّه على الجانبين كثبان الرمال وتلال رملية يغطيها نبات الغـضا. وتستمر هكذا لمسافة ميلين، وبعـدها تتداخل الصخور التي تجرى على الجانبين بالتدريج في سـهل رملي عظيم يسمّى الفرشة[2]. ويمكن تتبع مجـرى الوادي الذي يجـري عبـر هذا السهل في اتجـاه شرق الجنوب الشـرقي، ويمكن تتبـعه بملاحظة الخط الرمادي المائل للـخفرة لشجـيرات الغضـا، في طريقه للمقـبرة التي تنتظره في رمال الصـحراء الكبرى التي تبـعد مسيـرة يومين بحسب تقديرات أهالي المنطقة.

جلست صـباح أحـد الأيام على كـومـة حجـارة فوق آخـر نتـوءات سلسلة النعجانية أنظر لتلك القفار المهـجورة ولذلك الشريط الأخضر الضيّق الذي كان في يوم ما نهراً عظيماً، وسألت نفسي إن كـانت هناك وسيلة تجعلني أعبر هذا الفضاء الفسيح الذي يقف بيني وبين بحار الرمال.

لقـد صحّ مني العزم عـلى الإقدام على هذه المغـامـرة، ولكن لم تكن هناك ذريعة كافية أقنع بها رفاقي خاصةً أنّ الشائعات كانت تتحدث عن عصابات النهب من البدو المتوحشين، مما جعل رفاقي يقررون الامتناع عن الدخول في هذه المغامرة

(١) موقع اقتران المجريين يسمى المفرش. (المؤلف).

(٢) يقال: إنه يوجد بين الفـرشة وبين رمال الربع الخالي سهل حـجري صلب عرضه عشرون مـيلاً، ويُسَمّى الهدبة. (المؤلف).

العقيمة. وقبل أيّام قليلة كانت هناك عصابة قوامها ستة رجال أغاروا على المقرن وحمام وأصابوا بعض النجاح ثمّ استكشفوا السُّليل على أمل أن يجدوا أهلها نائمين. لكنهم فكروا بعقل وأسرعوا عائدين من حيث أتوا عندما رأوا مجموعة صغيرة من أهل المنطقة وتبادلوا معهم إطلاق النار دون أن يُصاب أحدٌ بأذى. وتصادف أن تلك المجموعة الصغيرة كانوا في الجوار يبحثون عن جمل ضائع. وقال لي حسن العرجاني: «إن حدث وأتيت إلى هذا المكان ثانيةً اسأل عني، اسمي حسن بن غانم وسيدُلّكَ أمير السليل عن مكاني، وسأذهب بك إلى حيث نصطاد المها معاً».

رجعت حزيناً إلى المخيم وأنا أعزّي النفس بشعوري بأني على الأقل قد حللت معضلة وادي الدواسر إحدى معضلات جغرافيا الجزيرة العربية. وتقول تلك المطبوعة التي أشرنا لها من قبل: «من المؤكد أنَّ تصريف مياه وادي الدواسر يجري من الجنوب الغربي للشمال الشرقي، وأن الوادي يضيع في نهاية الأمر في الرمال». ضياع الوادي في الرمال حقيقة واقعة، ولكن مجراه هناك من الشمال الغربي للجنوب الشرقي وهي حقيقة تُسَلِّمُ بانحباس النصف الجنوبي لشبه الجزيرة من ناحية الجنوب الشرقي، وهذا يمكننا أن نتخيَّل الوادي في الوقت الذي كان يحمل فيه نهراً يجري نحو البحر عازلاً نتوء جبل عمان الداخل في الماء عن بقية الجزيرة العربية.

أقمنا في السليل أياماً ثلاثة تجلّت خلالها الخلافات التي تسود بين سكانها من خلال استقبالات جماعاتها المختلفة لنا. وكانت الغريزة هي التي أوحت لقادة ركبنا

ألاّ يسعوا لضيافة أيٍّ من فئاتها المتناحرة، بل اختاروا موقعاً محايداً لم يكن مجاوراً لأيٍّ من قراها الرئيسة، فنصبنا خيامنا في الفضاء خارج الحافة الشرقية لحزام النخيل في جوار قرية آل سويلم. وما كدنا نفعل حتى تسلمنا رسالة من عبدالله بن نادر زعيم الحنيش الذي كان كرمه محتد ويده المبسوطة المعطاءة قد شهد بها إبراهيم ورشيد اللذان يحملان عنها ذكريات أثيرة على أنفسهم منذ زيارتهما الأخيرة للمكان. وكان عبدالله يدعونا لتناول طعام العشاء معه ويتوسّل إلينا أن ننقل مخيمنا لمنطقة تقع في دائرة حمايته المباشرة.

واعتذرنا عن قبول اقتراحه الأخير، ولكنّا قبلنا بسرور دعوته للعشاء، فذهبنا إليه بعد مغيب الشمس في اليوم الأوّل لإقامتنا. وكنت قد قضيت ساعةً أو اثنتين قبل أن نستجيب لدعوته متجولاً- في رفقة مترك وناصر وطويرش - في المنطقة وفي المنبسطات الرملية بين المجمعة والوادي.

وفي طريق العودة ذهبنا مباشرة إلى قرية دحلة لنقف قبالة باب مسكن الأمير، حيث كانت بقية المجموعة قد سبقتنا إليه. حيّانا عبدالله بحرارة شديدة، ولمّا يمض وقت طويل حتى كنا جلوساً على شرائط من حصير في بهو فسيح في الدار نتجاذب أطراف الحديث مع مضيفنا، وكان في ضيافته أيضاً عدد قليل من أهل القرية، نحتسى الشاي وهو نادر عزيز في الجنوب، ونحتسي القهوة ويعطرنا من حين لآخر عبق البخور.

وبعد قليل جاؤوا بالحصائر الكبيرة وبقصعتين عظيمتين تكوم فيهما الأرز ولحم الضأن. وقامت الجماعة بالتهام الطعام بصورة أرضت صاحب الدار، وبعد ذلك مباشرةً استأذنّا منصرفين لنترك له ولأهل داره الاستعداد لصلاة العشاء.

وكان وجود حزمة أو اثنتين من الأقمشة المستوردة من الهند عن طريق البحرين والأحساء تدلّ على النشاط التجاري لمضيفنا، وهو شيخ مسنٌّ يبلغ نحواً من ستين عاماً، وذو ذكاء وقاد. لم يخف الشيخ زهوه بالوضع الذي تحتله السليل كموقع تجاري لتبادل البضائع، إذ تلتقي هنا -كما أبان لنا- شحنات البن اليمني المنقول براً مع أقمشة الهند والسكر التي تستورد من الاتجاه المعاكس ليستفيد هو وزملاؤه من الوسطاء الذين ينالون أرباحاً من هذه التبادلات التجارية. لقد خطر بذهني التناقض الذي يتجلّى في أنّ أسواق الهند تمدّ الحاميات التركية في اليمن وعسير عبر هذا الطريق ببضائع تمنع وصول مثلها إليهم الحراسةُ التي نفرضها على شواطئ البحر الأحمر. وهكذا تصلهم البضائع عن طريق ملتوية. بيد أنني امتنعت عن أن أذكر هذا الأمر لئلا أجرح مشاعر عبدالله، وعزّيت النفس آملاً أن يكون هذا الرجل ينتزع أقصى ما يستطيع من سعر لبضائع لا تعني سوى القليل للأعداء المنفيين طوال هذا الوقت في جبال شبه الجزيرة العربية.

ويُقال إن نجران -وهي نهاية الطريق التجاري الطويل- تبعد مسافة تستغرق القوافل سبعة أيام لقطعها عبر صحراء قليلة الماء، وتقع بالتقريب إلى الجنوب من هذه النقطة، وتبعد المسافة نفسها في اتجاه الجنوب الشرقي من واحة الوادي، على طريق به عدد أكبر من الآبار. ولكنهم يفضلون طريق السليل وهو طريق مباشر للقوافل المتجهة شمالاً، ويفضلونه على طريق المرتفعات البديل الذي ينقل عبره الأرز من أسواق مكة إلى الجنوب.

ولقد لاحظت أنّ التعاملات التجارية في المنطقة تتمّ في المنازل الخاصة وليس في المتاجر التي لا يوجد منها سوى أربعة كلها في أحد أطراف قرية المحمد.

أتى القادمون من الجنوب بأخبار عن وقعة حدثت بين تابعي الإدريسي والإمام يحيى، وراح ضحيتها ٤٠٠ رجل من الطرفين بما في ذلك أربعون من مقاتلي نجران، وأحد شيوخ تابعي الإدريسي. وتعرض الإمام للهزيمة وفقد إحدى مدافعه. ولكن تفاصيل المعركة كانت مبهمة لبعد المسافة وللجهل السائد في المنطقة، وعندما تابعت أسئلتي وتحرّياتي أخبروني أنه قد شارك ضباط بريطانيون في الجانبين. ويمكننا أن نعلم مدى الجهل الذي يُغلّف هذه الأنحاء فيما يختص بشؤون العالم من حقيقة أنّ عبدالله[١] لم يكن يعلم بوجود أتراك في اليمن أو عسير[٢]، بل كان يتخيّل أن أقرب حامية تركية كانت تلك الموجودة في المدينة. ووردت أيضاً تقارير حديثة عن قتال نشب بين الأتراك وقوات الشريف في الليث الواقعة على ساحل البحر الأحمر، وعن وصول قوات الشريف بقيادته شخصياً إلى المويه بالقرب من عُشَيْرة للتوصل إلى حلٍّ بشأن مشكلة الخُرمة. وتجرّأت بإبداء شكوكي حول صِحّة الموضوع الأخير، وأثارت شكوكي هذه ضجّة عظيمة رغم أنهم أقرّوا بعد مزيد من النقاش أنه قد يكون لشكوكي ما يبررها.

أرسل أهالي نجران وفداً لابن سعود يدعونه ليقدم عليهم ويقودهم ضد الأعداء. وتحدث عبدالله -الذي لم يكن يجاريه أحد في إعجابه وولائه للملك السعودي- بحماس عن النزعة المتنامية بين رجال القبائل في الجنوب لاعتبار ابن سعود قائدهم الشرعي، ولتبنّي المعتقدات السلفية. كانت السليل نفسهاحتى وقت قريب موقعاً حقيقياً للاضطرابات والمنازعات الأهلية، ولكن ساد السلام بين الجهات المتحاربة بعد حملة الرياض الأخيرة، ولم تتجدّد الاضطرابات من بعد في الواحة.

(١) من ناحية أخرى سألني أسئلة ذكية عن قضايا تهريب الأسلحة بمسقط ونشاطات القوات الهندية في الحرب. (المؤلف).

(٢) يبدو أن استنتاج المؤلف هنا غير دقيق ويبدو أن هناك سوء فهم من قبله. (المراجعون).

انتقل شرف ومسـؤولية الاهتمام بضيوف الواحة في اليوم التـالي لقرية المحمد وفقاً للعادة، ولكن ابن ربيعة أمير صـبحا - وهو سياسي ماكر - لم يكن ليرضي بأن يأتي ثانياً لغريمه الرئيس، أو أن يفقد فرصـة النيل منه، فصرّح بأنّ عبدالله قد تنكر لعقيدته بأن استضاف كافراً، وأنه بفعله هذا قد انتهك قدسية الواحة، وأنّه - أي ابن ربيعة -رغماً عن أوامر ابن سعود لن يرتكب هذا الجرم. ولم يكن يستطيع أن يتخذ موقف المعارضـة الإيجابية، لذا اكتفى بالمقاومة السلبـية. وبزغ فجر اليوم الثاني مشحوناً باحتمالات لا حـدّ لها. ولم أكن أنا أعلم عن الأمر شيئاً، كما لم أكن أدري أثناء النهار بأن شـيئاً غير طبـيعي يجري في المنطقـة. وفي المساء عُدت لخيـمتي بعد أن تجـوّلت في أنحاء المنطقة وجلست لأكـتب مذكراتي ولأقـرأ حتى يحين وقت العشـاء. وفجأة تنبـهت لأصوات غاضبـة عن قرب تَبعَـتْها صيـحات لرفاقي تنذر بشـؤم: «سلاحكم! سلاحكم!» وأمـسكت ببندقيتي وحزام الذخـيرة وخرجت من خيمـتي لأستطلع الخبر. فكان بعض رفاقي قد خـرجوا من المعسكر متـوجهين نحـو الخلاء الواقع بيـننا وبين صبـحا، حيـث خرج عدد من الـرجال المتحـمسين لملاقاتهم، وكان بقـية رفاقي يحشـون أسلحتهم بالذخائر وقـد اتّخذوا مواقعهم بطول متراس طيني منخفض يجاور مخيمنا.

كان واضحاً أنّ مشادّة حاميـة كانت تجري في وسط الساحة وبدا وكأنّه لا مفرّ من النزال. ولم أكن أدري حقيقة الأمر ولكنني اتّخذت موقعي بين رفاقي المدافعين عن المخيّم انتظاراً لصوت الطلق الناري الأول الذي سـيكون إشارة لعراك عام. لم يُطلق ذلك العيار الناري الأول وافتـرق الجمعان متباعـدين في صمت غاضب بعد نحو ساعة من المبـارزة الكلامية التي تدخّل لفضّها عبـدالله بن نادر للحفاظ على السلام مع تهديد صريح لصـبحا بمهاجمتها إن لم يمـتنع سكانها من التحرُّشِ بنا.

عاد إبراهيم الآن مع مقاتليه للمخيم وبعدها علمت شيئاً عن أصل القضية ومسارها من النقاش الذي دار حولها أثناء تناول العشاء، ومن اختلاف وجهات النظر الذي اتخذ طابع النقد العنيف للطريقة التي عالج بها إبراهيم القضية الشائكة. كانت المشكلة قد بدأت في الصباح- كما قالوا لي- عندما لم يصل إلى مخيمنا الوقود والعلف الذي كنا نفترض - وفقاً للتقاليد - أنها ستأتينا من صبحا. وأثار التحدّي المضمّن في هذا الامتناع إبراهيم الذي تصرّف تصرفاً غير لائق بأن أرسل رسولاً لابن ربيعة مطالباً - ليس فقط بالوقود والعلف- ولكن ببعض الحبوب أيضاً، وذلك باسم ابن سعود. وقد قوبل الرسول بتعليقات ساخرة حول الكفار فعاد خائب الرجاء. عندها أرسل إبراهيم اثنين من العبيد المسلحين مطالباً الأمير بالمثول الفوري أمامه ليبرر مسلكه.

وعندها جُرِّد العبدان من سلاحهما وأعيدا مع رسالة مهينة. حينها أرسلَ إبراهيم ابن جلهم في مجموعة صغيرة طالباً إعادة الأسلحة واعتذاراً عمّا حدث. وكانت المشادّة التي أشرنا إليها قد حدثت أثناء مخاطبة ابن جلهم لهم. ولقد اتفقت تماماً مع الحكم العام الذي رأى أنّ إبراهيم لم يكن حكيماً في تناوله للقضية، وأنّ تصعيده لها لم يكن له ما يبرره.

ولكنه أثناء النقاش سدر في غيّهِ ونهض فجأة من مكانه حول مائدة الطعام وهو يعبّر عن استيائه للانتقادات التي وجهت له، وصرّح أنّه سيُصرُّ على اعتذار ابن ربيعة له. أثار طامي - الذي كان بعيداً عند حدوث المشادة، إذ خرج يسعى بمساعدة طويرش بحثاً عن زوجة من بين نساء الحنيش - بعض المرح بين الرفاق عندما أخبرنا أنّه سأل عن مصدر الإزعاج فأجابته عجوز شمطاء أن إبراهيم قد قتل ابن ربيعة، وأنّه نفسه تعرّض للقتل فيما نشب بعد ذلك من عراك. وأتت وفود

من دحلة والقرى الأخرى لمخيّمنا بعد تناولنا لوجبة العشاء وهم يدعوننا لتناول القهوة، كما أحضروا بعض هدايا من خراف وأشياء أخرى. وأبدوا أسفهم لما حدث. ولكن لم تكن هناك مؤشرات للتوبة من ناحية القسم الذي تسبب في المشاكل قبل اليوم التالي، حيث دُعينا لمنزل عبدالله لتناول القهوة وبينما كنا هناك أتى مبعوثان إنابةً عن ابن ربيعة لإبلاغنا بأسفه لما حدث مستجدياً العفو عنه. ولقد منحه إبراهيم عفوه بعد توسّط من مضيفنا. وفي وقت لاحق بعث ابن ربيعة بمبلغ أربعين دولاراً لتوزّع على العبيد الذين أساء إليهم. وعرض أيضاً أن يمدّنا بما نحتاج إليه. ولكن المنحة المالية وعرضه الأخير رفضا مع الشكر،وأسدل الستار على آخر فصل من فصول المسرحية الفكاهية التي كان يمكن أن تقود لنتائج غير سارة. ولعلّ هذه الأحداث كانت بطريقة ما في صالحنا. إذ أنّ الذريعة الوحيدة التي كان يمكن أن تُثار رفضاً لوجودنا قد أُثيرت فعلاً أمام الملأ، ولكننا كسبنا الجولة تقريباً بالنقاط.

باستثناء عداوة قسم المحمد لم يكن هناك ما نعيبه على معاملة رجال المنطقة لنا. ولقد أبدوا قدراً كبيراً من حب الاستطلاع لمعرفة طبيعة زيارتنا، وكانوا يردّون تحيتي كلّما التقيت بهم في بساتين النخيل أو في أي مكان آخر، وفي بعض الأحيان كانوا يحدثونني بترحاب وود. وبطبيعة الحال التقينا أكثر بعبد الله وابنه ماجد، وهو رجل شبيه بأبيه. ولقد تناولنا معهم وجبة الإفطار في اليوم الأول، كما أسلفت، وتناولنا القهوة بدارهم في اليوم التالي للمشكلة، وكنا ضيوفهم ومعنا بعض الآخرين على وجبة المساء في الليلة الأخيرة التي قضيناها بين ظهرانيهم. وكان الشخص الوحيد الذي استضافنا بخلاف هذا الأمير هو أحد أقرباء طويرش، ويدعى إبراهيم، كان قد التقى بنا في شوارع دحلة وقدّم إلينا

الدعوه بترحاب كبير لنزوره في داره حيث تجمّع عدد قليل من أصدقائه للترحيب بنا. وكان أحد أفراد تلك المجموعة شيخ عاجز يُشاع أنه قد تخطّى مئة عام من العمر. وقُدّم إليّ في هذه المناسبة ولأول مرّة، أحد مشروبات الجنوب الأثيرة وهو شراب بديل للشاي يصنع من قشر حبوب البن ويسمّونه (قشِر)، ويوضع في الماء بدلاً عن أوراق الشاي. ولابدّ من التعوّد على طعم هذا المشروب، ولكنني وجدته ممتعاً -إن شرب بكميات قليلة- رغم أنه مستخلصٌ ضعيف الطعم.

في صباح أحد الأيام قمنا بزيارة قصيرة مرتقين أعلى مجرى المجمعة، ومتخطين روابي مُزَرَّر الخمس الصغيرة الواقعة على الجانب الأيمن للمجرى حتى بلغنا بقايا مستوطنة صغيرة مهجورة تدعى بهجه وبها قصر خَرِبٌ وحيد وبئر بها قليل من ماء على عمق سبع قامات. وكان هذا كل ما بقى من المستوطنة الواقعة وسط أجمة من الأثل. ولكن المنطقة كانت في السابق منطقة زراعية، ومازال الرعاة يلجؤون إليها أحياناً. وتوجد آثارٌ شبيهة بهذه تعود لأزمان قديمة، في مهد شعيب سديرة، وهو رافد للمجمعة من الناحية الغربية، وتسمّى هذه الخرائب نخل الفوح رغم أنّه لا توجد بها نخيل.

وفيما يختص بالحبوب والتمور[(١)] فإنّ واحة السُّلَيِّل مكتفية ذاتياً. وكان مرأى بساتين النخيل الكثيفة[(٢)] بالمستوطنة، مع قناء التمر المشقلة الخضراء قد فتنتني، ودار بخلدي أنها لا تقلّ جودة عن خير بساتين النخيل في السيح أو الرياض. وكما هو الحال في السيح فإنهم لا يزيلون فروع السعف الذابلة «كرب». أما في بلاد ما بين

(١) أكثر العينات شيوعاً هي سِري ومقفزي. (المؤلف).

(٢) معظم البساتين لها أسماء خاصة بها مثل بطيحا وصُفيَّة وغيرهما. (المؤلف).

الرافدين وفي أعلى الجزيرة العربية فإنهم يستخدمون هذه الفروع بصفتها وقود، ولكنهم لا يحتاجونها لهذا الغرض في الجنوب، ونتيجة لهذا يصبح جذع النخيل أكثر ضخامةً ولها مظهر سطح مجعّد خلافاً للمظهر الأملس لسيقان النخيل في أجزاء أخرى من البلاد حيث الطلب على حطب الوقود أكثر إلحاحاً. إنّهم يقولون إنّ الإبقاء على «الكرب» فيه نفع للنخيل. ويُزرع القطن متفرقاً هنا، ولقد رأيت حقلاً صغيراً مزروعاً بكامله قطناً، وهي طريقة غير متّبعة لزراعة القطن في الجزيرة العربية وإن جاز لي أن أحكم عليها من حالة هذه الرقعة فإنها ليست عظيمة النجاح.

لم أشاهد أو أسمع في هذه الأنحاء عن الرمان أو العصفر، بينما كانت عينات من اللوبيا تنمو ملتفةً حول جذوع النخل. وكانت هناك وفرة من الباذنجان والخضراوات، ورأيت كرمات الأعناب وأشجار الليمون كثيراً. كما مررت بقليل من أشجار التين[1]. ويعتمد نظام الرّي هنا جزئياً على الفيضان من السيول التي يحملها شعيب المجمعة، كما تعتمد جزئياً على آبارٍ يختلف عمق الماء بها من ثلاث إلى سبع قامات ووفقاً لموقعها وللموسم، إذ يرتفع منسوب الماء في وقت السيل[2] بمقدار قامتين أو نحوها. وتُستخدم الإبل دون غيرها لسحب الماء، وهذا دليل على ارتفاع المستوى المعيشي.

كانت زيارتنا أثناء الصيف الذي يستمر وفقاً للتقديرات المحلية لأربعين يوماً تُحسب منذ ظهور الثريا، وهو موسم يعد الأسوأ خلال العام للإبل حيث تتأثر

(١) يكثر الأثل، ولقد رأيت بعض نباتات خروع الزيت متناثرة (راجع حاشية ص ٢٧٢). (المؤلف).

(٢) جرت السيول بمجرى المجمعة ثلاث مرات خلال الشتاء والربيع الماضيين. (المؤلف).

سلباً مراكـز الشحم بها والأقدام من أثر الحـرارة. بيد أنني كنت مندهشاً وسـعيداً بالطقس الذي كـان معـتدلاً أثناء الليل، إذ كـانت أقل درجة سـجلتهـا تحت ٧٠ْ فـهـرنهـايت، لكنهـا كـانت ترتفع أثناء النهـار لتـبلغ في أقـصـاها ١٠٩ْ-١١٠ْ فهرنهايت.

يتبع إقليم السليل - الذي يضمّ حُمَام في الشمـال ومجموعة واحات تمرة في الغرب - إدارياً لإقليم الوادي وهو تحت إمرة حاكمـها الذي يقيم ممثلاً لابن سعود في اللدام عاصمة الإقليم. وفي حدود الإقليم يدير شؤون كل قرية زعيمها القبلي إدارة مستـقلة. ويقوم كل زعيم بجمع المسـتحقات العينيـة على قبيلته أو قـسمه، ويرسل مايفيض عن المنصرفات المحلية لخزانة بيت المال.



صورة أطلال فرزان



صورة أطلال اليمامة، وموجات الرمال العظيمة تصل إلى حافة النخيل



صورة ليلى، عاصمة الأفلاج



مستودع مياه المقرن، وإبل الدواسر ترد الماء



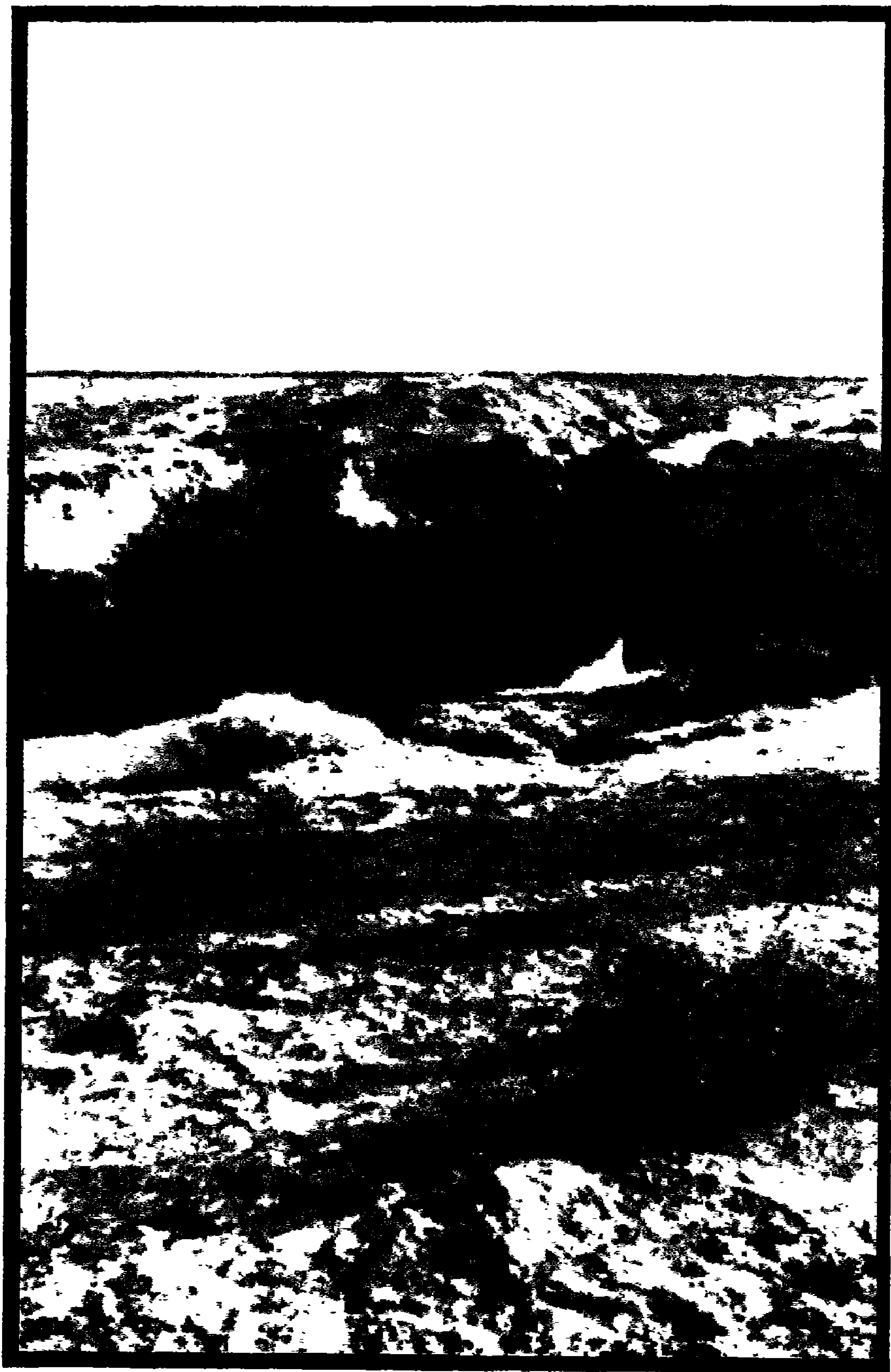
صورة قرية الحنيش الصغيرة في منطقة السليل



صورة قرية تمرة في وادي الدواسر



بحيرة أم الجبل المظلمة، الأفلاج



صورة عين سمحة إحدى برك الخرج العميقة

٣- المرحلة الأخيرة

في يوم ٢٦ مايو (أيار) تجمّع عبدالله وآخرون لوداعنا، وشرعنا في المسير من السليل في آخر مرحلة من مراحل رحلتنا. وعبرنا المجمعة وشريطاً عريضاً من الكثبان التي يغطيها شجيرات شنان وآسل[١] وشجيرات أخرى من فصيلة الحمض- حتى بلغنا حافة العفجة وهو الاسم الذي يطلق محلياً على الجزء الواقع بين الجبال من مجرى وادي الدواسر، ويطلق عليه أهل السليل أحياناً اسم الباطن، ولكن لا يسمّونه على الإطلاق الوادي أو وادي الدواسر، كما أنّ وديان الدواسر خطأ في التسمية إذ أنّ هناك وادياً واحداً فقط. أمّا اسم الوادي والذي يُسمُّونه في أحيان قليلة وادي الدواسر فيبدو أنّه يُطلق على الواحة فقط ولا يُستخدم لأيّ جزء من مجرى الوادي الذي لا يعرفون امتداداته إلاّ بصورة مبهمة.

يتكوّن مهد العفجة في معظمه- وخاصّة إلى ناحية الغرب بجوار الفتحة- من شريط عريض من تربة طفلية تتخللها الأملاح وتعترضها أحياناً رقاع من تربة رملية وتكسوها الشجيرات المذكورة آنفاً. ومن بين هذه الشجيرات يستمتع الشنان بقيمة اقتصادية عالية إذ أنّ رماده بعد حرقه يُستخدم بصفته صابوناً لغسل الملابس، ويعرف عنه أنّه يُعطي الكتان الأبيض لمعاناً ومظهراً برّاقاً. أمّا الرقاع المالحة التي كانت تظهر هنا وهناك في صورة تبدو كالجليد الناصع البياض فلم تكن صالحة كمعبرٍ للإبل خاصة بعد هطول الأمطار. ويعبر الوادي الطريق العام الواقع إلى الغرب، ويجري محاذياً لجانبه الأيمن فوق منحدر طويق ذي الأرض الصُّلبة الذي تجري عبره نحو أسفل المنحدر مجاري سيول صغيرة[٢] حتى حافة الوادي.

(١) من فصيلة سواد نفسها. (المؤلف).

(٢) مثل وادي سمير، شعيب لبط. (المؤلف).

توقفنا قليلاً للإفطار في أحد هذه المجاري، وهو أكبر قليلاً من الأخرى، واسمه شعيب الدهنا توقفنا بالقرب من نضح ماء معزول «مشاش» به كميات قليلة من ماء صاف عذب على عمق قدمين أو ثلاثة ويمكن الحصول عليها فقط أثناء أو بعد وقت قصير من انقضاء موسم السيول وذلك بإزالة الرمال من بطن المجرى. ووجدت كثيراً من الحجارة على تلٍّ يواجه الشعيب، وهو ركامٌ من حجارة دائرية كثيرة العدد لدرجة تثير شكاً في أنها نصب تذكاري عادي، ولكنها موجودة في مكان بعيد عن أيّ موقع صالح للسكن، لذا لا يمكن تصنيفها مع خرائب الأفلاج. بيد أنها كانت تشابه لحدٍّ كبير في بعض النواحي النُّصُب التي ترى بجانب الطريق الذي يعبر نتوء البياض إذ كانت كومة الركام مكوّنةً من قطع صخرية مسطحة شبيهة بالأردواز، وكانت لها في حالات كثيرة ممرات ضيقة تبطنها الحجارة في جانب واحد. ولعلها كانت مقبرة في موقع شهد حرباً قبلية، وليس من الضرورة أنها تعود لأزمان سحيقة. وإن كان الأمر كذلك فإن التفسير نفسه يمكن أن ينطبق على أكوام حجارة البياض. وأشاروا لي نحو مكان لا يبعد كثيراً عن هذا الموقع لبعض الحجارة البيضاء تبدو وكأنها تسمُ حدود موقع دارت فيه معركة في الماضي بين أهل السُّلَيّل وأهل تمرة. ولابد أنّ الحجارة قد نصبها المنتصرون؛ أهل تمرة فيما أعتقد للتدليل على نجاحهم، إذ أنّ اللون الأبيض هو شارة الانتصار. إنّ الذين يظهرون تميُّزاً في المعركة يُكافؤون بتقريظهم أمام الملأ: بقولهم «بيّض الله وجهه»[1].

وعندما يقترب الطريق من فتحة طويق تتراجع المرتفعات الجنوبية نحو خليج عميق يجري نحوه شعيب العمور عبر واحة تمرة. وعلى الجانب الشرقي من فتحة هذا الخليج وعلى المنحدر اللطيف للجبل تمتدُّ واحة خشيقان في غير ما اتّساق، وبها مستوطنة الضويّان التي يسكنهاحوالي ١٠٠ نسمة يعيشون في قصور متناثرة،

(١) راجع الجزء الأول ص ٢٠٧ . (المؤلف).

بالإضافة لقرية صغيرة تقف بإزاء أكبر بستان من مجموعة بساتين نخيل صغيرة. والتربة هنا كثيرة الملوحة، ومياه البئر الوفيرة التي توجد على عمق ثلاث أو أربع قامات جدُّ مالحة. ومعظم بساتين النخيل هنا حديثة، وقد يعود تاريخها لعشر أو خمس عشرة سنة. وأكبر هذه البساتين هي التي تبدو أكثر عمراً، حيث إنّ سكان الضويّان نزحوا منذ عهد قريب إلى هذا الموقع من السليل.

ويوجد في الطريق القصي للواحة برجا حراسة صغيران، لا بدّ أنهما أقيما تحسُّباً لهجوم مفاجئ. وبعد وصولنا لذلك الطرف القصيّ للواحة استدرنا نحو الخليج مرتقين مجرى العمور متخطّين قرية شارة الطرفية التابعة لمستوطنة تمرة، لنجد أنفسنا بعد ذلك مباشرة في جوار قرية الفارس وهي أكبر من سابقتها. وقررنا أن نقضي بهذه القرية بقية يومنا ذلك واليوم الذي يليه لنعطي فرصة لرشيد وعايض ليسبقونا لإخطار أهل الوادي بمقدمنا ثمّ يعودا ليلحقا بنا. كان عايض هذا أحد رجالنا وهو عرجاني، وكنّا نأمل أن يعودا وفي حوزتهما بعض التبغ إذ أنا اشترطت على رشيد أن يأتي به بطريقة أو بأخرى. إذا لم نجد شيئاً منه في السليل.

واستطعنا أن نشاهد من فوق رابية في الجوار يعلوها متراس منخفض، أو قلعة لا سقف لها، تحفها فتحات الرمي، منظراً ممتازاً شاملاً للواحة وللإقليم الذي يحيط بها. تحيط بخليج تمرة قرون عالية تعلو المرتفعات التي تجري مستديرة لتصل الأرض الرأسية الشاهقة خشم العمور التي تطلّ على فتحة طويق من الناحية الجنوبية كما يفعل خشم سواد من أقصى الاتجاه المعاكس. وكان بطن الوادي في جوار الفتحة وعلى جانبيها يكوّن سطحاً باهر البياض انتشرت فيه بعشوائية أشجار نخيل كبكابية. تمكنا أن نرى عبر الفتحة في اتجاه الغرب بيداء فسيحة من الرمال غير النهائية التي تمتدُّ دون انقطاع لمسافات بعيدة من جرف طويق الشاهق الواقف كالحائط ممتداً نحو الشمال مع عدد لا يُحصى من الأراضي الرأسية المصطفَّة على الجانب الشرقي لطويق. ولم تلُح لنا مؤشرات تنبئ عن وجود مستوطنات بالوادي نفسه.

لم نكن ندري إن كانت أنباء المشكلة التي واجهتنا في السليل قد سبقتنا إلى تمرة أم لا. ولكننا تلقّينا استقبالاً شعبياً عند بلوغنا إيّاها حيث تجمع لاستقبالنا أمير تمرة وجزء كبير من رجالها في الموقع الذي اختير لمخيمنا. كان الموقع جميلا تظلّله أشجارالأثل في المهد الرملي للشعيب. وأوقدوا نارهم على عجل لإعداد القهوة، وجلسنا جميعاً في دائرة نتجاذب أطراف الحديث متناولين مواضيع متفرقة كعادة العرب. وكما كان الحال في السليل فإن الموضوع الرئيس كان أسعارالبن و «القشر». كان سعر البن[1] في السليل في ذلك الوقت دولاراً ونصف «للصاع» وقدره «وزنتان»، بينما كان سعر القشر دولاراً واحداً للصاعين أو الثلاثة (كان في حقيقة الأمر صاعان ونصف بدولار). وكنت قد لاحظت أثناء الطريق قطيعاً صغيراً من الخراف ذات الصوف الأبيض[2]، والتي أخبروني أنّه قد أُتي بها منذ عهد قريب من وادي تثليث في مرتفعات عسير لعرضها للبيع. إنّ خراف الدواسر - مثلها في ذلك مثل خراف نجد - سوداء اللون في الغالب. اللحم والأرز سلع ترفيه نادرة في هذه الأنحاء للحدّ الذي لم نتمكن فيه من ابتياع خراف أو ماعز في السُّلَيِّل نفسها. بيد أنّ هذا القصور تم علاجه عندما التقينا بصاحب القطيع الذي ذكرناه والذي جاء إلينا ومعه ثمانية خراف اشتريناها جميعاً بعد أن علمنا أن هناك احتمالاً ألاّ نجد لحم الضأن في الطريق أو في الوادي نفسه.

(١) كان السعر في الوادي أعلى، وهو «وزنة» واحدة للدولار الواحد. إنّ وحدة الوزن في وسط الجزيرة العربية مثل وحدة العملة هي الدولار أو الريال. وتختلف «الوزنة» من إقليم لآخر، فهي الوزن المعادل لزنة ٥٠ ريالاً في الرياض و ٥١ أو ٥٢ ريالاً في القصيم، و٥٥ ريالاً في السليل و٦٠ ريالاً في الوادي. و«الصاع» الواحد يعادل «وزنتين» في كل مكان. وهكذا إن أخذنا في الحسبان الفرق في زنة «الوزنة»، نجد أنه يمكنك شراء بُنّ وزنه ٧٣ ريالاً بقيمة دولار واحد في السليل، بينما يشتري الدولار الواحد في الوادي بُنّاً زنة ٦٠ ريالاً. (المؤلف).

(٢) الصوف الأبيض يسمونه حبس. (المؤلف).

وواحة تمرة هي مستوطنة مزدهرة تحتوي على بساتين نخيل ممتازة. كان محصولها حينذاك يعدُ بخيرٍ وفير، كما كانت بها بعض أراضي الحبوب وكثير من الأثل الذي كان بعضه قد صار أشجاراً ضخمة. تزرع هنا أيضاً كميات وافرة من القطن، ليس كفواصل بين الحقول أو في داخلها، ولكن في شكل أجمات صغيرة متماسكة. ويعرف عن نبات القطن أنّه يبقى منتجاً لخمس سنوات، بعدها يُنزع من الجذور ليستبدل به نبات جديد. ويبدو أنّ البصل هو المحصول السائد بين الخضراوات. أما تعداد السكان في المستوطنة فهو ٥٠٠ نسمة، يقيم منهم حوالي ١٠٠ في قرية شارة، والبقية في قرية الفارس الرئيسة. وأسماء هذه القرى هي أسماء الأقسام الرئيسة لقبيلة العمور وهي مجموعة قبلية ليست من الدواسر رغم أنها ترتبط بها بعلاقات اجتماعية ضاربة الجذور. وهي جزء من أربع مجموعات تُعرف كلها معاً باسم آبات الدواسر ولعلهم سلالة من كانوا يحتلون الوادي قبل الدواسر هؤلاء سأتحدث عنهم أكثر عندما أتعرّض للدواسر أنفسهم.

تجمّعنا عقب صلاة العصر مباشرة لنقوم بزيارة رسمية للأمير فارس بن فالح، الذي كان منزله في وسط قرية الفارس. كانت قاعة القهوة التي اجتمعنا فيها من مضيفنا وكثيرٍ من أهل قريته (كنا حوالي خمسين)، كانت قاعة صغيرة ووضيعة كمثيلاتها في أيّ مكان آخر في الجزيرة العربية. وكان طولها نحواً من ثمانية عشر قدماً، وعرضها نصف ذلك، ولم تكن بها فتحات باستثناء الباب الذي دلفنا عبره إليها، ونافذة خشبية صغيرة تبلغ مساحتها ثماني عشرة بوصة مربّعة. وأوقدت النار في الموقد بأحد أطراف الغرفة، وما لبث الطقس أن صار خانقاً، ولا بدّ أنّ درجة الحرارة في الظل خارج القاعة كانت نحواً من ١٠٨ْ فهرنهايت، وكانت تعلو فوق ذلك ببضع درجات في الداخل. ولا يمكن للقلم أن يصف مدى الضيق الذي

شعرت به عندما احتشدنا في تلك الغرفة الضيقة، ولحسن طالعي كان مجلسي بين المنفذين الوحيدين، ولكني لم أكن أبعد عن الموقد سوى ياردة واحدة، وكنا في هذا الجو الخانق نحتسي القهوة الساخنة ومشروب قشر البن. ولم يكن التحادث ممكناً في تلك الظروف، ولكني عندما دلفت إلى المكان قررت فوراً أن أخضع نفسي لتلك التجربة القاسية، وأن أتحدث معهم لأعلم عن بلادهم.

أخذ مضيفي والآخرون يتبادلون الحديث، وجلست أنا هكذا لمدة خمس وأربعين دقيقة سابحاً في العرق، وأثناء كل هذه الفترة لم يوجّه إليّ أحدٌ -باستثناء إبراهيم- كلمة واحدة، بما في ذلك مضيفي الذي كان يجلس بإزاء الموقد. وعندما يئست من إشراكي في الحديث أخبرتهم بعزمي على الرحيل، ولم يتسبب هذا الاقتراح أيضاً في إدخالي في دائرة النقاش الاستطرادي العابر فنهضت مودّعاً دون أن أتبادل تعليقاً واحداً مع أي شخص. وعندما خرجت شعرت ببرودة تسري في أوصالي حتى بلغت العظم رغم حرّ الهجير في فترة ما بعد الظهيرة. وتقدّمت بخطىً حثيثة نحو المرتفعات الوعرة الواقعة خلف القرية، ولم أتوقّف حتى بلغتُ قمتّها. شعرت الآن بالتحسُن وجلست ومعي جابر ومترك وناصر وعبيد الذين جدّوا على أثري لاهثين ليلحقوا بي. جلسنا نراقب المشهد ونتحادث بينما كانت الشمس تنحدر نحو المغيب، وعندها عدنا أدراجنا عابرين الواحة نحو مخيمنا. لقد أحسُّوا هم أيضاً بالضيق في تلك الغرفة مفرطة الحرارة. «لكنهم ما يعرفون»، هكذا قالوا لي ليبرروا من ناحية أفكار القرويين الغريبة فيما يختص بالاستمتاع بوقت ما بعد الظهيرة، وليجدوا لهم العذر من ناحية أخرى لصمتهم الريفي القح. وتعجبت للضيافة الكئيبة التي تسبقها حسن النِّيْة في هذه البلاد الجنوبية، وتساءلت

إن كان هؤلاء القرويون يفضلون الجلوس في مكان كهذا على الجلوس تحت وهج الشمس المباشر. لقد كانت وجهة نظري أن الأخير أفضل بفارق كبير.

خصّصتُ ثلاث جوائز لأوّل ثلاثة رجال يصلون لقمّة المرتفعات على الجانب الغربي من الخليج، وذلك حتى أحفّز رفاقي لينضمّوا إليّ أثناء الزيارة القصيرة التي كنت أنوي القيام بها لتلك القمة صباح اليوم التالي. تمّت الموافقة على العرض بحماسة شديدة، ووجدت نفسي في وقت مبكّر على سطح سلسلة التلال وبصحبتي اثنا عشر متنافساً جميعهم تواقين لبداية السباق. تركتهم في السطح وارتقيت السلسلة الأولى ماشياً بعد أن أوضحت لهم أن الفائزين هم أوّل من يصل أعلى بقعة من المرتفعات. ثم أعطيتهم إشارة البدء في السباق. وتقدمت وأنا أنظر خلفي نحو التسلّق على الجوانب الوعرة للتل. كانت المسافة نحواً من نصف ميل، والارتفاع حوالي ثلاث مئة قدم في منحدرات ثلاثة حادّة تفصل بينها مرتفعات متموّجة. كان الفائز الأول هو عبيد القحطاني، وجاء ثانياً مع فارق كبير عُبيّد، وهو تابع «عبد»، وثالثهما ناصر العتيبي، وتساقط الآخرون بفعل الإرهاق الذي لم يتعوّدوا على مثله، ولكنهم كانوا جميعاً مبتهجين في مرح عندما تجمّعنا على القمة لنتناول إفطاراً خفيفاً. أقلقنا بالجلبة التي أحدثناها زوجاً من الغزلان ذات اللون البني الغامق، بيد أنهما لم يمكّنا مترك - المتحفّز دوماً لصيد الغزلان- من نفسيهما، فاختفيا في طيّات التلال تتبعهما طلقة نارية انطلقت بعد فوات الأوان. وبعد قليل لاحظنا ثعلباً يتسلل بعيداً عنّا، ولكن مترك الذي لا تفتر همته تعقّبه خُفية، لكن ما لبث أن غابت طريدته من أمام ناظريه، وتهادى الثعلب أسفل الجرف على مرأى منّا جميعاً باستثناء مطارده، حتى بلغ السهل في الأسفل ليختفيَ

في زروع كبكابية. كان المشهد من قمة خشم العمور مخيّباً للأمل رغم أننا شاهدنا على البعد واحة كَـمَدَة من وراء السهل الغربي. وخلافاً لهـذا كانت هضبة طويق تحتل المسرح من كل الجهات وكان جـبل فَرْدَة يحجب عنّا الرؤية من ناحية الجنوب الغربي، بينما لاحت على البعـد من الناحية الشرقية نخيل ثمرة وخـشيقان والسليل في حوض العفجة.

خرجت في فتـرة ما بعد الظهيرة مع جابر ومـترك وقليل من الآخرين هابطين شعيب العمـور سائرين عبر بطن الوادي حتى بلغنا سـفح أرض سواد الرأسيّة، ثم قفلنا عائدين. كان السَّيـر فوق التربة «السبخة» الهشة أمـراً صعباً، وكان علينا أن نشقَّ طريقنا بين أجمـات الأثل المرتفعة لخمـسة أو ستة أقـدام والتي غَطَّت المجرى العريض. تحول الحديث أثناء المسير لموضوع العقيدة الذي جعل رفاقي في حيرة من أمرهم منذ قدومهم لهذه البلاد. إنّ «الأذان» أو النداء للصلاة في الجنوب يُرفع بعد غروب الشمس مباشرة (لصلاة المغرب)، وقبـل شروقها مباشرة (لصلاة الصبح)، ولكن في الشمال يرفع الأذان لصلاة الصبح عند بزوغ أول ضـوء للفجر مباشرةً، ولصلاة المغرب بـعد أن يختفي آخر أثر لضـوء الشمس. ويُصِرُّ الشيـخ عبدالله[(١)] كبير علماء الرياض على أنّ توخِّي التوقيت الصحيح للصلاة له أهمية قصوى، ولا بدّ أن يتقـدّم على أي اعتبارات أخـرى بما في ذلك الوضوء نفسـه، وهو ما يمكن الاستغناء عنه مـثلاً عندما يصبح الحصول على الماء - عند حلـول موعد الصلاة- غير ممكن لذا أثارت بدعـة الجنوب هذه كثيراً من التعليـقات المعارضة والتعـبيرات

---

(١) الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ المتوفى سنة ١٣٣٩هـ. (المراجعون).

المستاءة الصارخة من قِبل رفاقي إذ أنّهم على اقتناع بأنّ قضاء الصلاة بعد فوات وقتها لا يُسمح به إلاّ إن لم يكن تأخيرها ناتجاً عن خطأ للشخص المعني. كما يُعتقد أنّ الأرض «السبخة» غير طاهرة ولا تجوز الصلاة عليها. تعد هذه الضوابط بين عرب الصحراء البسطاء أموراً غير ذات أهمية، ولكن من ناحية أخرى فإنّ المصلّين السلفيين يتّصفون بالابتعاد عن روح الصرامة والانضباط بعد بداية الصلاة، أي إن بُدِئ في أداء الشعيرة في وقتها الصحيح فليس هناك من غبار على أن يأتي بعض المصلين متأخرين ليلحقوا بالصلاة المستمرّة، كما يمكن التغاضي عن تجاوز المصلّي للضوابط فيما يختص بالخشوع والمتابعة، كما يُسمح بالتعجّل في أداء الصلاة، ويمكن للمصلّي أن يقطع صلاته لتهدئة جمله الجامح ثم يعود لمتابعة الصلاة وكأن شيئاً لم يكن دون أن يضطر لإعادة الصلاة من أولها. ولقد أخبرني حسن أنّ صلاة الجماعة ليست القانون الغالب في نجران إذ يُصلّي كل فرد منفرداً.

ولمّا لم نسمع شيئاً من رشيد حتى صباح اليوم التالي، تابعنا رحلتنا في اتجاه الغرب على افتراض أن الطريق آمن حتى واحة الوادي، والتففنا حول قاعدة خشم العمور، ثم تابعنا السير موازين لحافة نخيل كبكابية الكثيفة التي يمتلكها أهل تمرة، والتي تقع في رقعة فسيحة من التربة «السبخة».

لم تكن في كلّ رقعة النخيل هذه مستوطنات أو آبار، ولم يكن أصحاب النخيل يزورون المكان إلاّ لصرام التمر وجمعه، وكانت النخيل تستمدّ متطلباتها من التربة المالحة التي كانت تمتصّ مياه الأمطار القليلة التي تهطل هناك وتحتفظ بها بالقرب من السطح.

كانت الجروف الخارجية لطويق الجنوبي تتجه نحو الجنوب الغربي ابتداءً من هذه النقطة. وكانت تسم مساره أراضٍ رأسية ناتئة ترتفع ارتفاعاً حاداً من سطح السهل، كما كانت تتناثر أكوامٌ من الأنقاض حول قواعد الأراضي الرأسية.

وكانت تعرية الصخور قد انتجت في بعض المواقع -عند حافة السهل- أهراماً منفصلة أو متّصلة من الحجارة الرملية. وظهر الحائط الغربي للمرتفعات الشمالية جليًا وهو يمتدّ إلى الخلف نحو الشمال على مدّ البصر بطول حافة السهل. أما في ناحية الغرب والشمال فلقد امتدّ سهل لا نهائي ذو تربة رملية طفلية تتخلله رقاع عريضة من الكثبان وبعض البقاع المالحة.

ارتفعت أرضا فردة الرأسيّتان من خلف خشم العمور مباشرةً في جزء شديدة الوعورة من الجُرُف. وهذا موقع مفضّل لعمليات قطّاع الطرق القادمين من الجنوب إذ يتخفُّون بين الجروف والصخور الشاهقة ثم يهبطون عبر طرق لا يعرفها غيرهم لنهب القوافل المارّة عبر الوادي ويهربون نحو الجبال ثانيةً قبل أن يتلقّى الضحايا النجدة بوقت كبير. يطلقون على هذه الصخور الشاهقة لقباً مناسباً إذ يدعونها المقاتل. وعندما سرنا في أطرافها كان حراسنا يتقدموننا تحسُّباً للمفاجآت، كما كنّا نراقب القمم والجرف المنحدرة بحذر شديد، ولم نتوقف للإفطار حتى انحرفنا عن هذه المنطقة بمسافة آمنة. حيث نزلنا في شعيب كثيف الشجيرات يُسمّى زول المغر، ثم هبطنا منه نحو مجرى الوادي عن يميننا. ويحصر هؤلاء النهاب نشاطهم في المسافرين الفرادى والقوافل الصغيرة، ولكن كان علينا في صقع غير آمن مثل هذا توخّي الحذر واتخاذ ما يلزم من حيطة. لاح لنا من ذلك الموقع الذي نزلنا به مشهد ممتاز لأراضي جنوب طويق الرأسية التي كانت تمتدُّ على مدّ البصر.

سرنا فوق السهل لنجد أنفسنا بعد قليل نشقّ الطريق في قفار من الكثبان التي تغطّيها شجيرات الغضا التي طمست بالكامل كل معالم مجرى الوادي. ولم يكن لون الرمال الواقعة بين سلاسل التلال -والتي كانت تعلو طبقات صُلبة من تربة قوامها الحجارة الجيرية- ضارباً إلى الحمرة كما هو الحال مع رمال النفود، لكنها كانت بيضاء ثابتة. سرنا هكذا لمسافة عشرة أميال دون أن تتغيّر المعالم حتى بلغنا

المستوطنة البائسة في واحة كمدة، في فضاء تحدُّه أشجار أثل طويلة سميكة الجذوع، لتمنع عن المستوطنة الرمال المتسللة.

وجدنا هنا أخباراً سيئة عقدنا العزم بعدها على عدم مواصلة الرحلة. قابلنا الأمير فارس بن راقص عند وصولنا ومعه رسول أتى لتوّه على عجل من حاكم الوادي وهو يروي القصة التالية: ما إن بلغ رشيّد وعايض غايتهما حتى انطلقت الأخبار بأنهما كانا طلائع لمجموعة تضمّ أحد الكفار. فقام على الفور أهالي اللدام، عاصمة الوادي بالاحتشاد حول قصر الحاكم يعترضون في غضب على السماح لكافر بأن يبقى بين ظهرانيهم، ويعلنون أنهم سيقاومون دخولنا للمدينة بالقوّة، وتباحث الأمير والقاضي في الأمر وتوصّلا إلى أنّ أوامر ابن سعود أحقُّ أن تُتّبع. وتعرّض رشيّد وعايض لمظاهرة معادية ورأى الأمير أن يبقيهما في مأمنٍ بقصره لئلا يتعرّضا للأذى أثناء عودتهما إلينا. لذا بعث بأحد تابعيه ليخطرنا بالمشكلة وليلتمس إلينا تأجيل قدومنا عليه للغد حتى تهدأ الخواطر قليلاً. ولم يخبرنا الرسول بأكثر من أنّ مجموعة صغيرة من المتعصبين العنيفين بالعاصمة قد استمروا -رغم تهديد الحاكم- بحراسة بساتين الشرافا الخارجية وهي أولى مستوطنات الوادي لمنع المرور إلى داخل المدينة. وكنت أخشى أن يبذل رفاقي المساعي لمحاولة إثنائي عن الاستمرار في المغامرة، ولكنني شعرت بالارتياح عندما وجدت أنّ الرأي العام كان يؤيّد ألاّ نتراجع عن خططنا في التحرك غداً. غادرنا ابن جلهم في فترة ما بعد الظهيرة يحمل خطاباتٍ للحاكم وإنذاراً شديد اللهجة لأهل اللدام.

بعد ذلك قضيت بقية اليوم متجوّلاً في الواحة، وهي قرية بها رقعة زراعية ممتدّة ولكن الزرع بها لم يكن جيداً. كان طول القرية نحواً من ميل واحد، وعرضها نصف ذلك، وتحتل بقايا من بطن الوادي الذي لم يُدفن، وبها مياه وفيرة لكنها مالحة، وعمق الماء بآبارها ثلاث إلى أربع قامات. وكانت هناك بئر واحدة

عذبة الماء من مجموع ١٥٠ بئراً موزعة على الرقاع الزراعية المتفرقة بالقرية، وكثير منها آبار مهجورة أو في حالة خربة. أهم معالم القرية هي غابة من أشجار الأثل، وهي خير ما رأيته منها في الجزيرة العربية، ترتفع لأطوال عظيمة، وسيقانها ضخمة تُزيِّنها بالكامل ثمارها: عناقيد العنب وهي عناقيد من ثمار لُبِّيَّة صغيرةٍ ورديّة اللون، عرفت خصائصها كصبغ ويُقال إنها لا توجد إلاّ في الجنوب، إذ أنّ أثل شمال الجزيرة العربية عقيم بالكامل. أمّا بساتين النخيل بالقرية فهي في أسوأ حال، تغطي مساحة كبيرة تنتشر فيها جذلات النخيل الميتة وبعضٌ من نخيل قزمية عقيمة. لاحظت أيضاً بعض حقول القطن التي كانت تحتلُّ عشرة أو اثني عشر فداناً وبها نباتات ضعيفة النمو وكان آخر بقاياها في سبيله للزوال بفعل الأغنام الجائعة. كانت ترى أيضاً بعض كميات من الخضراوات والبرسيم. أمّا المحصول الرئيس الذي كان يجد الاهتمام والجديّة فهو القمح. كان ما يفيض عن حاجتهم من القمح هو الوسيلة الوحيدة لشراء التمر والبن من الوادي.

يعد الأهالي كَمَدَة جزءاً من واحة الوادي التي تبعد عن طرفها الشرقي بحوالي اثني عشر ميلاً، ويسكنها حوالي ١٠٠ نسمة من الحقبان، وهم مجموعة من آبات الدواسر كمجموعة العمور. لذا لا يعود أصلهم للدواسر. وتسكن هذه الجماعة الصغيرة في قرية صغيرة محاطة بأسوار وبها قلعة -لا يعتدُّ بها- في ركنها الجنوبي الغربي، وبوابتها الوحيدة في الجانب الشمالي، وبالدخول منها يجد المرء فناءً فسيحاً تتشعّب منه بيوتها الطينية وطرقها البائسة. لم يُبدِ أهل القرية روحاً عدائية نحونا، وكان الأمير ودوداً جداً، وشاركنا احتساء القهوة أثناء النهار ووجبة العشاء، واستضافنا لشرب القهوة مساءً في بيته. وكانت قاعة استقباله غرفة صغيرة مربعة تغطي أرضها رمال ناعمة بدلاً عن السجاد أو الحصير، ولم تكن قهوته

جيـدة نظراً لرداءة الماء. كـان معظم سكان القـرية قد مـارسوا في وقـت أو آخر اصطياد اللؤلؤ من الخليج، ولكن لابدَّ أنّ نداء الوطن كان من القوة بحيث يجرُّهم للعودة إلى مكان بائس كهذا.

عاودنا في الـيوم التالي الرحلة الـتي قطعناها. وكانت المنطقـة الممتـدة أمامنا مختلفة عن الإقليم الذي قطعناه في اليـوم السابق، إذ بدا أمامنا سهلٌ رملي لطيف التمـوّج تتناثر فيه نـباتات متـفرقة من الغـضا وتلوح هنا وهناك قليل من الكثـبان والتلال الرمليـة. كان حاجز طويق الممـتد خلفنا على البعد هو الذي يـكسر حِدَّة الرتابة في الأراضي الشـاسـعـة الخاليـة من المعـالم، وكـان طريقنا يجـري بطول منخفض ضحل كنتُ أظنُّه في البداية بطن الوادي، ولكن اتَّضح لي لاحقاً أنّه أحد الأحواض الكثـيرة التي تعـبر السهل، وليس ذلك الوادي الـذي جرى فيـه السيل العظيم الوحيد الذي يتذكره المعاصرون.

كانت المسـيرةُ مـقبضـةً بعض الشيء، وكان الهـواء بارداً ورطباً في الصـباح الباكر، ولم نكن ندري ما تخبئـه لنا الساعات القليلة القادمة، كنا نعلم أننا سننظر إلى الوادي على أي حـال، ولكن لم ندرِ إن كانت سـتطؤه أقدامنا أم أننا سـنعود لنروي قصة منعنا من ذلك. سرنا في صمت ساعتين من الزمن في اتجاه سد رملي أخفى عنا المشهد الذي يقع خلفه. وقبل أن نبلغه بقليل شاهدنا رقعة من شجيرات الراك في حوض يقع عن يميننـا تقريباً وعلمنا أننا سنكون بعـد لحظات على مرأى من مراقبي الجـانب الآخر. توقفنا وأنخنا المطايا على سفح السـد، وتقدمنا بحذر على الأقدام لنرتقي قمته للتطلع لما يحيط بنا من مكان.

٤- واحة الوادي:

سيبقى المشهد الذي كحّل أعيننا بعد أن بلغنا قمّة التل الرملي -حيث وقفنا لتناول الإفطار ولمراقبة الأنحاء- سيبقى لأمدٍ طويل في ذاكرتي لأسباب عاطفية وليس لأمور تتعلق بمزايا ذلك المشهد.

لقد رأيت في النهاية ما أتيت قاطعاً كل تلك المسافة، عابراً هذه الصحاري لرؤيته. كانت عيناي هي أول عينين لرجل غربي تطل على بساتين نخيل وادي الدواسر. كانت تقع على بعد ميلين منّا في اتجاه الشمال الغربي تخوم نخيل الشرافا يحرسها كما علمنا قنّاصة معادون ومن خلفها تمتد على الجانبين رمال الصحراء. كان شريطاً عريضاً من النخيل يمتد على مدّ البصر في ناحية الغرب بطول منخفض ضحل هو وادي الدواسر نفسه.

لاحت هنا وهناك من خلال النخيل بيوت طينية لقرى الوادي، وكذلك في السهل المكشوف الممتد إلى الجنوب من النخيل. وفي الطرف الجنوبي لذلك السهل كان بطن الوادي العاري الذي شقّقته الشمس يجري لعدد من الأميال نحو الرمال التي كانت تتعاظم كلما بعدت المسافة، ولاحت على البعد في ذلك الاتجاه رقعة من أثل تسمّى غيف ورقعة عظيمة من الشجيرات يسمونها راكة. وكان يمتدُّ خلفنا على البعد حاجز طويق الطويل، وبدت فتحة تمرة إلى الشرق من موقعنا وكانت أطراف الحاجز المرئية في الشمال الغربي والجنوب الشرقي. هكذا كان المشهد.

لم نرَ ما يدلّ على تحركات بشرية، وكنّا قد فرغنا من إفطارنا وأعددنا بنادقنا تحسّباً لكلّ طارئ. عدنا لنركب المطايا وما لبثنا أن سرنا فوق السهل في مجموعة

متقاربة وفي حرص ومراقبة لكل ما يمكن أن يحدث. ذهبنا بعيداً عن أطراف شريط النخيل حتى لا نؤخذ على حين غرّة، ولكن لم نكد نتحرك قليلاً حتى لاحظنا حركة للرجال في السهل الممتد أمامنا. لقد كانوا راكبين وكانوا يتجهون نحونا، وتقلصت الشُّقَّة بيننا وبينهم بالتدريج، ودققنا النظر لنرى إن كان ابن جلهم أو رشيّد من بينهم.

وكنا على أهبة الاستعداد لاستقبالهم بما يلزم إن ثبت أنهم أعداء. وعندما تناقصت المسافة التي تفصل بيننا لربع ميلٍ زادوا من سرعتهم مُشهرين أسلحتهم وهم ينشدون أغاني الحرب، يسبقهم اثنان يمتطون مهوراً عربية قزميّة. وبلغ بنا القلق مداه عندما توجه نحونا الخيّالة وراكبو الإبل وهم يصيحون ويمرّون بيننا ومن حولنا في مناورات غريبة تتأرجح بين الحرب الصورية والحقيقيّة. لقد كانوا أصدقاءً لا أعداء، كانوا ابن جلهم ورشيّد وتابعو الأمير، وحيَّيناهم بحرارة.

كنّا الآن في محاذاة قرى وبساتين الشرافا، وكان وجود أشكال داكنة فوق أسطح المنازل مقياساً للاهتمام الذي صاحب زيارتنا. واصلنا المسير بناءً على نصيحة ابن جلهم للابتعاد عن حزام النخيل بمسافة كبيرة دون أن نكبح جماح مطايانا حتى نبلغ حمَى قصر الأمير.

ولكن عندما بلغنا نقطة بإزاء القسم الثاني من النخيل تسمى اللغف، استقبلنا وفدٌ برئاسة أمير نُعيْمة الذي استجبنا لدعوته الودودة الملحاحة لتشريف قريته بالزيارة ريثما تُحلُّ المشاكل مع أهل اللدام، ودعَّم الأمير دعوته بأن أخبرنا أنّ جماعة معادية كانت لا تزال تختبئ في رقعة من الأثل أمامنا. لذا قررنا أن نتوقف ثانيةً فنصبنا خيامنا خارج أسوار قرية نعيْمة. كان هذا القرار بالنسبة لي ذا مزيتين؛

إذ كان يُتيح لي فرصة لم تكن لتسنح لي لتـفقُّدِ الجزء الشرقي للواحة بأناةً ورويَّة، كما كان يسمح لي بالاستمتاع بكرم أهلها البيّن.

عندما وصل ابن جلهم إلى اللدام، وهو رجل مـعروف في هذه الأنحاء، ثار فيما يبدو نقاش مطوّل حول الزيارة، واعترض أهل اللدام بملء الفم ثم أعلنوا أنهم لا يتحـمّلون المسؤولية الأخلاقـية لتلك الزلَّة التي سمـحت لهم بالقدوم، ولكنهم رغم ذلك سحبوا اعتراضهم وأزالوا خط المواجـهة الذي كان سيقاوم دخول الزوّار إلى الشرافا.

ثمّ جرت استشارات أثناء الليل سادتها روح أقلّ مهادنة، وندموا على قرارهم النهارى، ثمّ نقضوه وأعلن البعض من سـكان اللدام أنهم لن يسمحوا لي بأن أمرّ عبر مدينتـهم، ثمّ قاموا بحراسة مداخلها. لم يستطع الأمـير - حسم الأمر، لكنه أوضح لإبراهيم في رسالتـه أنّه لم يستطع السيطرة عليهم، بينمـا قام القاضي وهو من أهل الرياض، ويدعى عبـدالعزيز بن بشر بالانسـحاب ليلاً من المدينة قـاصداً الصحراء ليـتحاشى تحمّل مسـؤولية تدنيس رعايته الروحيـة للمدينة بوجودي، أو مسؤولية المقاومة المسلحة لدخولي.

لقد مهـدنا السبيل على أي حـال لدخول الوادي، وكنا في الوقت الراهن بين أصدقـاء، ولكن لم تكن فرص تقـدّمنا للأمام طيـبةً. ولقد فكـرّ إبراهيم وزملاؤه كثيـراً حول الأمر، بيد أن النقد اللاذع الذي كان إبراهـيم قد تعرّض له عند تناوله بطريقة فجّة لقضية السليل قد أخلّ باتزانه العقلي.

ولا بدّ لي أن أعتـرف بأنّه كان فوق ذلك مُـثقلاً بهمـوم مسؤوليـته في تأمين سلامتي. ونتيجة لهذه الضغـوط صار إبراهيم متذبذباً متأرجحاً بين الجبن والتّظاهر

بالشجاعة، وهو ما كان يمكن أن يقود لعواقب وخيمة لولا أن سادت حكمة بعض الحكماء من بيننا.

كانت فكرته الأولى هي أن ننسحب كمجموعة من الوادي لمكان آمن في مرتفعات طويق، عندها نكون في حرزٍ أمين مؤقت، ثمّ نبعث في طلب النجدة من ابن سعود وننذر أهل اللدام بما سيحلُّ بهم من جرّاء غضب الملك العارم.

وما أن طُرحت هذه الفكرة السخيفة حتى تداعت بسبب الرفض الجماعي لها من ابن جلهم وبقية القوّاد. كان عزمهم ألاّ نلين وأن نتقدّم مهما كان الثمن بعد أن نحذّر المعنيين بالأمر للنتائج الوخيمة التي لا بدّ أن تحلّ بهم إذا ما تمادوا في المعارضة.

لقي هذا الاقتراح تأييداً حاراً من أمير نعيْمة الذي كانت دوافعه بلا شك ذات طابع سياسي، إذ رأى في الأحداث التي توشك أن تقع سبيلاً لأن يكبر في نظر ابن سعود، وما يمكن أن يجنيه من هذا أمام معارضيه المحليين. وفي حقيقة الأمر كانت الغيرة والعداوات بين قادة المنطقة هي ضمانتنا للنجاة والسلامة.

وبعد اتخاذ هذا القرار بُعثت خطابات ثلاثة لمعسكر الأعداء. أُرسل أحدها للأمير والثاني للقاضي وبهما تهديد صريح بأن ضعفهما في التعامل مع مثيري الشغب الذين كان يفترض أنهما يفرضان سيطرتهما عليهم، لن يجلب لهما سوى غضب سيدهما، مع التصريح لهما بأنهما سيكونان المسؤولين المباشرين في حالة حدوث ما لا تحمدُ عقباه في الغد، وهو اليوم الذي قررنا أن نواصل فيه تقدُّمنا. أمّا الخطاب الثالث الذي تمّت صياغته بعبارات قويّة فلقد كان موجهاً لأهل اللدام، أعلن فيه قبولنا لتحدّيهم ويحذرهم إن لم يتراجعوا فوراً عن اعتراضهم لنا ويرسلوا

ممثلين لهم ليصطحبونا لقصر الأمير. بقينا في انتظار ردود هذه الخطابات في قلق، حتى تسلمنا رداً من الأمير وآخر من مجلس اللدام في وقت الأصيل، وكان القاضي قد تخلّى عن مسؤولياته بأن طلب عطلة عن العمل وذهب للصحراء. أكّد لنا الأمير في ردّه أنّ المشكلة قد انتهت، وأنه يمكننا التقدّم بكل ثقة وأمان. أمّا المتهمون أنفسهم فقد أظهروا ندمهم وأسفهم العميق للتصرّف الذي بدر منهم، وطلبوا العفو، وأكدّوا لنا أنه بإمكاننا أن نمرّ نحو غايتنا دون خوف من اعتراضهم لنا. إن صياح الأعراب يفوق كثيراً ما تسببه عفتّهم من أذى، ولكن استسلامهم التام كان مفاجأة لنا.

صار كلُّ شيء الآن حسناً، ولم يكن هناك ما نخشاه سوى أن يغيّروا رأيهم أثناء الليل، وكان ما ينبغي أن نحتاط له هو الخيانة المحتملة أو التعصّب الفردي، لذا لم نخلد للراحة بل ضاعفنا من تحوُّطنا. حيث كانت هناك حراسة طوال الليل حول المعسكر تحسُّباً لهجوم مفاجئ. وطُلب مني أن أطفئ نور خيمتي في ساعة مبكرة وأن أغلق مصراعي الخيمة قبل أن أستسلم للنوم. كانت الليلة - لحسن الطالع- معتدلة البرودة، ولم يعكرّ صفوها شيء.

وفور وصولنا لنعيْمة نهار ذلك اليوم كانوا قد أخذونا لمنزل أميرها فيصل بن سويلم لتناول القهوة. لقد كان أميراً ودوداً. وفي الحقيقة كان يقوم بمهام الأمير، إذ أنّ شاغل ذلك المنصب هو محماس ابن سويلم الذي كان في تلك الأثناء بعيداً عن القرية مع بدو بُرْيك، وهو قسم من المساعرة، من الدواسر وهو القسم الذي يتزعمه. كان فيصل وأخوه الأصغر هذلول -الذي ساهم في استضافتنا- أبناء عم محماس الذي كلفهم للعناية بشأن القرية- ريثما يعود إليها. كان دخولنا لمسكنهم من خلال فتحة في حائط القرية يبلغ طولها تقريبًا قدمْين. جلسنا نحتسي القهوة

في قاعة استقبال متواضعة أشبه بالممر منها بالغرفة، طولها يقارب عشرين قدماً وعرضها أربعة أقدام ليس إلاّ. وبعد زمان التحق بنا الرجلان وتناولا معنا وجبة الغداء. وأثناء ذلك تجمهر عدد من أطفال القرية على بعد مناسب من حولنا. بعدها تمّت استضافتنا للعشاء في منزل ابن عمهم؛ منزل الأمير كان هذا في وسط القرية في نهاية طريق يقود من البوابة الحقيقية الوحيدة للقرية. وباستثناء هذه البوابة كانت هناك حوالي اثنتا عشرة فتحة في أجزاء مختلفة من السور المحيط بالقرية، وكلها تشبه تلك الفتحة التي دلفنا عبرها لمنزل فيصل. وتقفل هذه الفتحات أثناء الليل بعوارض خشبية لمنع الأعداء واللصوص.

كنا قد أمددناهم باللحم الذي قدموه لنا في وجبة العشاء إذ أن الخراف في هذا الموسم تكون بعيدة هناك في المراعي، ولا يمكن الحصول عليها في الوادي. وكان أساس الإناء الضخم الذي وضع أمامنا قطع من الخبز بدلاً عن الأرز الذي لا يوجد هو الآخر. ولا شكّ أن مستوى العيش بين الدواسر جد منخفض، ويتكوّن غذاؤهم الرئيس من التمر واللبن والخبز المخضّل. وأحياناً يتنوّع طعامهم بعصيدة مصنوعة من القمح.

خرجت في فترة ما بعد الظهيرة في حراسة مشدّدة لأتجوّل في اللغف أو الجزء الخاص بالمساعرة في الوادي. كان هناك شريط عريض من مساحة خالية يبلغ طولها نصف ميل تفصل زروع الشرافا في الشرق عن الجزء الغربي المكوّن من كتلة كثيفة من النخيل التي تقع جزئياً في منخفض الوادي وجزئياً على جانبه الأيسر. كانت الواحة تحتوي على خمس قرى صغيرة، اثنتان منها في حالة خراب تام. كانت نُعيْمة وقُعيْز المتجاورتان تحتلان موقعيهما على منحدر لطيف على الجانب الأيمن للوادي، وكانتا صغيرتين وتحيط بهما الأسوار، ويسكن أولاهما ٤٠٠ نسمة، والثانية ٣٠٠ نسمة. وكان سكان قُعيْز مثل شيخهم فيحان بن قُوَيْد، من

قسم آل حسن التابع للمساعرة. وكانت قرية نزوى الصغيرة غير المسوّرة تقع على بعد ربع ميل إلى الشمال من هاتين القريتين عند سفح منحدر الجانب الأيسر من الموقع الذي يكوّن فيه حزامُ النخيل زاويةً تستكنُّ القرية بين ضلعيه. كان يسكن قرية نزوى قسم آخر من المساعرة، هو قسم آل بو سباع وعددهم حوالي ٣٠٠ نسمة، وزعيمهم شجاع بنْ خُرَيْم. وتقع إلى الأسفل في مهد الوادي بقايا قرية دارسة يسكنها الحنابجة، وهم فرع صغير من قسم الشكرة التابع لمجموعة آل حسن، وهم يكوّنون بقايا غزو الدواسر الأوّل الذي كان قد قاوم وبقي رغم عداء رجال القبائل المحيطين بهم، إلاّ أنّ الحظ خانهم بعد صمودهم، ففي العام السابق لزيارتي غمرتهم السيول لتزيلهم عن الوجود باستثناء عدد قليل تبقَّى منهم لا يتعدّون ثلاثين نسمة موزعين على بيوت متناثرة، ثم نزحوا لينضمّوا لأقربائهم في الأفلاج تاركين خلفهم حطام قريتهم الصغيرة وجذول النخيل لتقف شاهداً على صنع الله. وفي مقابلة هذه الخرائب على الجانب الأيمن توجد بقايا رُوَيَّة[1]، وفي قلبها يعيش على الكفاف حوالي عشرين من الناجين من مستعمرة قديمة للعمور[2]، ويزرعون رقعة صغيرة من الأرض بالحبوب حتى يأتي الوقت الذي يقرر فيه جيرانهم من المساعرة ضمّها إلى أراضيهم. وقصة اللغف هي رواية محزنة عن النزاع والبؤس.

---

(١) روية: هضبة مرتفعة مشهورة، تعد أعلى رأس في العارض الجنوبي، تقع بين واسط والهدار بالأفلاج. ابن خميس، معجم اليمامة، ج١، ص٥١٩. (المراجعون).

(٢) هاجر معظم أفراد العمور لتمرة، وهاجر الحنابجة للحمر، في مرتفعات الأفلاج. ويوجد قصر خرب في ميدان مكشوف يقع بين أقسام اللغف والشرافا، ويقال إنه كان مسكناً لأحد أعيان العمور في الماضي؛ هو حمد بن جبل. (المؤلف).

تقع قرية الشرافا إلى الشرق من اللغف، ويمتدّ شريط نخيلها في غير انتظام، وبها بعض البساتين العظيمة، وقدر كبير من الأثل - وهو مزدهر في هذا الوقت - ويسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة من قسم مستقل من الدواسر تستمدُّ القرية اسمها منه، وهم من أقرباء المساعرة، والبعض يعدهم قسماً من أقسامها. ويسكن هؤلاء الأهالي في القرية المسوّرة الرئيسة التي تسمّى مِشْرِف، وفي قرية أصغر منها مقسمة إلى جزأين تسمّى العويضات وفي قصور متناثرة[1]. تعترف كل هذه المجموعة بزعامة الشيخ مِسفر بن هذلول الذي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت بالمنطقة، إذ كان في زيارة للرياض.

لقد تمّ إيقاظي مبكراً صباح اليوم التالي ٣٠ مايو (أيار)، كما تم تقويض المخيّم، وبحلول الفجر كان كلّ شيء معداً للرحيل - ودّعَنا مضيفُنا قائلاً: «في أمان الله»، وكان ردّنا عليه: «خلف الله عليك». امتطينا الرواحل وبدأنا المرحلة الأخيرة القصيرة من المسيرة، وكنا تحوّطاً نسير متقاربين وبنادقنا مجهزة، ورغم أن التأكيدات التي بلغتنا قد أزالت كثيراً من قلقنا، إلاّ أنه كان هناك احتمال في أن تحدث حماقة صغيرة من أيّ من الجانبين لتجرّنا إلى مالا تحمد عقباه. كان يتقدمنا حُداة لركبنا اثنان من الفرسان من تابعي الأمير. سرعان ما تجاوزنا فخذ المساعرة لنجد أنفسنا بجانب أوّل نخيل الجزء الأوسط على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى اليمين. كنا حتى هذه النقطة نعبر سهلاً رملياً، بيد أنه أفسح المجال للحصباء التي امتدّت على جانب الوادي الأيمن ثم ارتفعت لتكوّن تلاً خفيضاً، كان جانبه الشمالي يطلُّ على بطن الوادي وعلى مدينة اللدام نفسها التي بدت أمامنا غير بعيد

(١) أهم هذه القصور هي مراديج ومنصور في الطرف الغربي لذلك الجزء، والشمامية وهي قصر وبئر في الوسط. (المؤلف).

بحوائطها الطينية. وكانت تقع عن يسارنا - على بعد ثلاثة أرباع الميل على حافة الرمال- القريةُ الصغيرة البائسة الخربة غير المسوّرة المسمّاة المعتلى، ويسكنها فقط حوالي ٢٠٠ من المزارعين العبيد التابعين للمخاريم - وهو قسم رعوي مستقل للدواسر - وهم مُلاّك بساتين النخيل الغنية التي تواجه القرية التي كانت تتناثر حولها شواهد من مخلفات موسم الحصاد. ويقال إن أفراد هذا القسم يبلغ عددهم ٢٠٠٠ رجل قوي، منهم عدد لا يقل عن ٢٠٠ من الخيالة، يزدرون حياة الاستقرار ويفضلون التجوال في الصحاري مع قطعان إبلهم والخراف، ولا يأتون للقرية إلاّ في زمن خراص التمر ليجنوا مكاسب الزراعة التي يُعنى بها مزارعوهم من العبيد المقيمين.

كان وجود عدد من القصور الخَرِبة على السهل بين المعتلى وشريط النخيل ينبئ بوجود مستوطنات قديمة، بيد أنني لا أعرف التغيّرات التي حدثت عبر الأزمان، وكيف زال سكان تلك المستوطنات عن الوجود! بالطبع لم يكن الأمر عائداً لأي ضعف في قوة القسم الذي يبدو أنّ أهله يتمتعون بسمةِ الشجاعة في الوادي. ثم تخطّينا القرية الثانية واسمها مقابل، وهي شبيهة بالمعتلى بيد أنها تصغرها وهي أقرب لحزام النخيل. ويسكن القرية حوالي خمسين من المزارعين العبيد إنابةً عن أصحابها من البدو، وهم فرع ضعلوق من فخذ الرجبان.

ويفصلنا الآن عن أسوار اللدام سهلٌ مكشوف، يصل طوله تقريبًا إلى ميلٍ واحد. كان طيف الأسوار يعظم أمامنا من خلال ضباب الصباح كلما اقتربنا من المدينة. وصاح الأتقياء في مجموعتنا ونحن نقترب من نهاية المحنة. بقولهم: «اذكروا الله». وتقدّمنا في تؤدة وكان الفارسان قد سبقانا كثيراً، وكانت أسطح المنازل منقّطة بأشكال سوداء وهم الذين تجمعوا ليشاهدوا مرور الكافر. وفجأة

خرج شخصان من أسوار المدينة، وجريا نحو موقع خَرِبٍ منعزل يبعد عن موقعنا بعض الشيء، فعدا خلفهما حداة ركبنا لمحاولة إرجاعهما، وتبع ذلك بعض الاضطراب في أوساطنا فأخطأنا دون قصد بدخولنا إلى أسوار مقبرة مهملة في الركن الجنوبي الشرقي للمدينة، وتعثرنا ثانية محاولين الخروج منها ونحن نأمل ألاّ تكون زِلّتنا هذه قد لُوحظت. وبعد لحظات كنا بالقرب من المدينة. ولخمس دقائق التي تعد من أقصى درجات التوتر التي تعرضت لها على الإطلاق - سرنا فيها في صمت وتجهّم بطول سور المدينة الجنوبي، بينما كان أهلها المتجمهرون يحدّقون فينا. وكنا نعلم أنّ صيحة واحدة فقط من أحد، أو عياراً نارياً يُطلقه مجنون قد تؤدّي إلى كارثة تهدد سلامتنا، إذ كنا تحت رحمة من يحيطون بنا من كل جانب، ومن فوق كل سطح. وستبقى تلك اللحظات - التي استطالت وكأنّها دهر- زمناً طويلاً في ذاكرتي. ولكم تنهّد رفاقي طويلاً بارتياح عندما بلغنا نهاية السور. ومررنا عبر سهل مكشوف بين مدينتي اللدام ومشرف ثم أنخنا المطايا أمام بوابة برزان، وهو القصر الشبيه بالقلعة الذي يقيم فيه حاكم وادي الدواسر.

استقبلنا في مدخل قصره الحاكم عبدالله بن محمد بن معمر، وهو من أهالي القصيم(١) وابن عم فهد بن معمر حاكم ذلك الإقليم. وكان استقباله لنا ودوداً، وبدت عليه علامات الارتياح، وقادنا على الفور لقاعة اجتماعات كبيرة تقع إلى الجانب الأيمن من الردهة حيث طلب منّا أن نجلس لنتناول القهوة. وقد كان رجلاً ليّن الطباع معتدل النشاط متمهلاً، وكان في منتصف العمر يميل إلى الطول قليلاً.

---

(١) عائلة المعمّر هي في الأصل من العارض، وهي سلالة الأمراء السابقين للعيينة في وادي حنيفة. (المؤلف).

ترك الرجل منذ البداية أثراً طيباً في نفسي رغم كلّ ما سمعته عن مثالبه، ورغم ضيق أفقه فقد كان دون شك غير ملائم على الإطلاق للاضطلاع بهذا المنصب الهام الذي آل إليه قبل سنتين خلفاً لسعد بن عفيصان الذي نُقل إلى الأفلاج. ولم تكن تعوزه القوة والمقدرة على اتخاذ القرارات اللازمة للحاكم الجيّد لقبيلة وإقليم مضطربين فحسب، بل كان مشرَّباً لحدٍّ كبير بمعتقدات الإخوان، ولذلك كان عُرضةً للتعاطف مع أكثر العناصر التزاماً مما قد يتعارض مع القانون والنظام. ثم إنّه لم يكن المتصرّف المطلق في منطقته كما كان ابن عفيصان. ولكن إنصافاً له نقول إنّه لم تكن لديه طموحات سوى أن يعتزل العمل العام ليتفرّغ لحياته الخاصة، وأن يكرّس جهده للأمور الدينية.

كان الحاكم عند وصولنا يصرِّف أعباء منصبه مجتمعاً بالأهالي، وكان هناك عدد كبير متنوّع المشارب في قاعة الاجتماعات. أوقفت الأعمال وقادوني لمقعد الشرف بجوار الموقد تالياً للحاكم في مجلسه. كان الرجل الذي أخلى لي ذلك الموقع هو سمعان بن مطرحة، زعيم فخذ آل رشيد من قبيلة عرجا، وهو شديد الحزم كث الحاجبين عريض الصدر، قَدِمَ منذ عهد قريب في أمرٍ يتعلّق بقضية، وكان حينها على وشك زيارة الرياض وفي صحبته خمسة رجال شديدي التحفّز. كانوا من سكان المرتفعات، سحناتهم بيضاء. فكانت سحناتهم وملابسهم توهم بأنهم كانوا أجانب، ولم يكن الرجل منهم يلبس شيئاً سوى غتره على الرأس وثوب أبيض قصير متسخ يجمعه حول خاصرته بحزام عريض موشح بالذخيرة النارية، ويزينه بالجنب غمد خنجر مقوّس. وكان ممثلو فخذ آل فهد قد سبقوا منافسيهم للرياض. وكان أحدهم قد عاد لتوّه من هناك، وهو بدوي يدعى بليح. وكان أفراد مجموعة فخذ آل فهد كثيرين في ذلك المجلس من بينهم شاب صغير

في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. وكـانت جلسته الواثقة - ضمن جماعته التي يبدو أنه يترأسـها - تنمّ على أن سيكون له شأن. وكـان حديثه يدلّ على أنه مطوّع.

بدا عبداللـه في بداية الأمر زاهداً في الحديث معي، لكنني لم أشـعر بالندم أو تأنيب الضمير لعلمي أنه كان مسؤولاً بقدر كبير عن المشاكل التي سبقت حضورنا. ولكن عندما فرضت عليه نفسي سرعان ماذاب تحـفّظه وتحسنت علاقتنا كثيراً جداً. ولكن في ذلك الوقت احـتلّ إبراهيم السـاحة منفـرداً، وهو لم يكن ليضـيّع هذه السانحة ليـعطي محاضرة عن سخطه الذي أحـسّ به إزاء ما حدث لنا في اللدام. وما كـان للعبارات السلفـية الطُّهريّـة أن تجري على شفـاه أحد في الجزيرة العـربية بالطلاقة الـتي تجري بها على لسـان إبراهيم، وفي ذلك الإطار لم يكن ليـضيّع أيّ فرصة ليقدّم موعظة عن الفضائل كما يراها هو.

وجلسنا هكذا لأكـثر من سـاعتين فـي انتظار الإفطار الذي أعدّه الحـاكم لنا. وكانت عـملية التـعارف قد تمت فـور وصولنا. ولكن بعـد أن اعتـدت على جوّ المجلس قدّمت نفسي إلى سمعان بعد أن استفسرت من طامي عنه. ودمدم الرجل المسن قائلاً: «ابن سـعود غصبـنا على شوفتك، ولو لم يكن الأمـر كذلك لقطعنا حنجرتك» ومثّلَ ذلك بأن مَرَّرَ أصابعه الخـشنة فوق رقبته، وأضاف: «إنّ أهلنا في نجران ما كـانوا ليترددوا في قتلك، لكنّا خُـدَّام ابن سعود». وأجبـته قائلاً: «إنني سعيد جـداً بالتعرّف عليك. وإن كنت حقيـقة في طريقك للرياض، فإنني آمل أن تصحبنـي أنت ومن معك في رحلة العودة». واستـجاب بسهولة لهـذا الاقتراح. وبحلول المساء كانت محاولات اكتساب صداقته قد جعلته ودوداً جداً. على الأقل

جلس بجواري أثناء تناول وجبة المساء وبعد ذلك أيضاً عند تناولنا للقهوة. وعندما اقتنعت بأنني قد عرفته بالقدر الكافي غامرت بأن أبديت إعجابي «بالجنبية» أو الخنجر المرصّع بالجواهر في حزامه. وما لبث أن نزعه وأعطاني إياه قائلاً «هو لك. ولكن ماذا ستعطيني عوضاً عنه؟» فصرفت عرضه بالضحك وأرجعته له. لقد كان الخنجر مثالاً للفن الحضرمي. وكان مقبضه مُزَّيناً بأزرار من عقيق وغمده بطبقة ذهبية. وأرجعته إليه وأنا آمل أن أصل معه لاحقاً إلى اتفاق بشأنه. ولكن ذلك لم يتم.

كانت المشكلة التي أتت بممثلي فخذي آل رشيد والفهد للمثول أمام محكمة نائب ابن سعود في الوادي – وكان في هذا دلالة على امتداد نفوذ ابن سعود منذ عهد قريب نحو الجنوب – هي قضية مواجهة حديثة بين القسمين. وفي غمرة حزنهم لما حدث قام القسم المتضرر فوراً بإرسال مناديبهم للرياض. ولكن وجهوهم هناك لرفع الأمر إلى نائبه في الوادي، وكان دفع ذلك قد عاد لتوّه من الرياض بناء على ذلك التوجيه. استمع الأمير لأقوال الفريقين في اليوم الذي قضيناه في برزان، وفي اليوم الذي سبق مغادرتنا لها توصلوا لاتفاق، إذ وافق سمعان في ذلك الاتفاق نيابة عن فخذه على دفع مبلغ ٦٠٠ دولار تعويضاً عن الاستيلاء على الإبل، ومبلغ ٨٠٠ دولار عن كلٍّ من القتلى، وبذا صارت جملة المبالغ المستحقة ٨٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم فوق طاقة قبيلة رعويّة. كان سمعان بطبيعة الحال يأمل أن يجد مني بعض الإسهام المادي للوفاء بالتزامه المالي الجديد. ولكنني اشترطت بوضوح أن يصحبني في رحلة العودة ولكنَّ حسمه القضيةِ حينذاك جعل عودته للرياض غير ذات معنى، ولذلك تداعى اتفاقنا الأوّل. ورغماً عن ذلك أتى إليّ في يوم مغادرتنا طالباً المال مني، بيد أنّه لم يُظهر ضغينة

أو حقداً عندما أوضحت له أنني لم ألتزم بأن أدفع له شيئاً. كنت أحب أن يصحبنا في رحلة العودة وأسفت جداً لأنه لم يفعل ذلك.

بقينا في ضيافة عبدالله بن معمّر فـي قصر برزان لفترة سبعة أيام كاملة، حتى عصـر يوم ٥ يونيو (حـزيران) وهو قلعة مربعـة بين المدينتين المتنافـستين: اللدام ومشرف، لكنها كـانت أقرب للثانية. كانت القلعة العظيمـة التي أنشئت قبل عام واحد بفضل أسوارها الطيـنية الخشنة العالية وأبراجها الركنيـة الطويلة تتحكم تماماً في المدينتين معـاً. إذا نظرنا للظروف السياسـية للوادي، والتي تجعل الحـفاظ على الأمن مهمـةً جدّ عسيرة، إذا نـظرنا لكل هذا أجد أنّ اختيار ذلك المـوقع كمسكن للحاكم مثـالياً وملائماً أكثر من القـلاع التي تخرّبت الآن، والتي بناها في السابق أسلاف ابن سـعود في عهـودهم السابقـة. أقدم هذه القلاع الخـربة تسمّى بهـجة ويتناثر حطامـها لمسافـة ربع ميل إلى الجنوب من اللدام، وقـد يعود تاريخـها إلى الجزء الأول من القرن الماضي، وقد تعود إلى عهد حكم سعود الكبير. ومهما كان الأمر فإنّ خرابهـا يبدو وكأنّه تزامن مع عهد الفوضى الذي ميّـز الاحتلال التركي لأعالي نجد بعد الاسـتيلاء على الدرعية وتحطيمهـا. كان الملك التالي من بيت آل سعود والذي فـرض سيطرته على الوادي هو فيصل الذي بنى قلعة عظيـمة تسمّى أبا الطوق، قد تعـود التسميـة إلى الخندق المائي الذي مازال يطوّق كتلها العـظيمة البالية التي كان نصـفها من كتل البناء ونصفها الآخـر من الطين، وكانت قريبة من الحائط الشرقي للعـاصمة. هذه القلعة أيضاً أحيلت إلى أنقـاض في فترة الفوضى التي سادت كل المقاطعات الجنوبية بين عهديْ فيصل وحفيده الذي يحكم الآن.

وجـدنا في داخل برزان الذي ليس له سـوى بوابة واحـدةٍ تقع في الجـانب الشـمالي، وجـدنا فناءً فسـيحـاً تحيط بـه غرف السكن والحظائر. وكـانت قاعـة

الاجتمـاعات الكبرى تقع إلى يمين المدخل. ويبلغ طول هذه القاعـة العظيمة ثلثيْ طول السور الخارجي تقـريباً، وتغطي أرضيتهـا طبقة سميكة من الرمـال الناعمة. وفي الجانب المقابل لها يوجد مسجد صغيـر، وعلى سطحه غرفة صغيرة يبدو أنها غرفة اجتماعات خاصة خصصت لاستخدامي في أيام إقامتي تلك رغم أن المدخل الوحيد إليها كان درجات تقود إلى الأعلى مـباشرة من فناء المسجد، كانت مساكن الأمير الخاصة تحتلّ الجـزء الأعظم من الحائط الشرقي، والذي كانت به أيضاً غرف الضيـافة والمطبخ، بينما امـتدت غرف الأميـر لتشمل جـزءاً من الحائط الجنوبي، وكانت بقـية المباني إسطبلات. كـما توجد بئر في ركن سـاحة القصر، كـما كان يجاور قاعة الاجتـماعات حوش يحيط به جدار طيني قصيـر، وبه موقد للقهوة إذ أن الأمير وضيوفه كانوا يجلسون فـيه في كل الأوقات التي لا تسطع فيها الشمس على الساحة، يجلسون فـي هذا الحوش ليحتسوا القهـوة وهم يخوضون في القيل والقال.

كان الحاكم - وفـقاً للتقاليـد - يستضيفنا بوجـبات سخيّة في مـنتصف النهار وفي الليل، وكانت وجبة المساء تقدّم في الحوش المذكور وقوامها لحم الضأن والخبز المُشرَّب وتوضع كـميـات كبيـرة منها على أطبـاق دائرية مسطحة كـبيـرة الحجم. ولعلمي بمصاعب الحـصول على الطعـام هناك ولأنّه كانت هناك بقيّـة من الخراف التي ابتعناها في السليل فلقـد أصدرت أوامري لإبراهيم ليسـتجدي الأميـر ليتركنا نهتم بأمر وجبـاتنا بأنفسنا، وهذا ما حدث فعلاً فيـما تبقّى من أيّام، إلاّ في الليلة الأخيـرة إذ أصرّ مضيـفنا ثانيةً أن يستضـيفنا في حفل الوداع. اسـتجاب سمـعان ورفاقه بانتظام لدعوتنا إياهم لتناول الطعام معنا. ولا بدّ أن أقرّ بأنني أُعجبت كثيراً بذلك الشيخ الذي كان يتـمتع بموهبة غير عـاديّة في أن يقول ببساطة أشيـاء غير

صحيحة لأنه كان يطلـق دون تردد ما يَعنُّ له في ذهنه الغريب. وكان يرفع صوته بما يودّ أن يقوله، وفي بعض الأحيان يتحـدث في أذني بنبرات لا يتمكن أحد من الوصول لمداها، وكأننا أنا ومن يكون حينها معي صُمّ كـالصخور. صاح مخاطباً إيّاي ذات مرّة: «لماذا لا تصلي كما يفعل المسلمـون؟ »، حينها تدخَّل طامى مغيّراً موضوع الحديث دفـعاً للحرج. لم يكن سمعان قـد رأى البحر من قبل، ولم يزر حتى صنعـاء، ولكنه كان يعـرف الصحاري المحـيطة بنجران كمـا يعرفهـا معظم الرجال هناك.

تمكنت أن أرى من فـوق سلسلة تلال أبو حـويل في اليـوم الأول لإقامـتي، المشهد المتكامل للواحة ومـا يحيط بها. استمدّت سلسلة حويل اسـمها من القلعة المتهدمة التي تحمل ذات الاسم، والتي تقع في الطرف الغربي للسلسلة، وهذه تقع على بعـد ربع ميل جنوب برزان. بمحـاذاة الجانب الأيمن للوادي. وكـانت المدن الصغيـرة الثلاث اللدام ومشرف وصبـحا تقع أسفل الوادي مباشـرة وتفصل بينها مسافـات قصيرة. وهذه المـدن تمتد بطول الحافة الجنوبيـة للمجرى بعيـدة عن كتل النخيل التي تحف كل واحدة منها والتي كانت تقع في الطرف الآخر الأبعد. كانت تتناثر إلى الغـرب من هذه المدن في اتجاه أعلى الـوادي القرى الصـغيرة وبسـاتين النخـيل ورقاع الأثل الخاصـة بفرعـاء، وهو الجزء الغـربي للواحة التي كـان يبلغ طولها من أقـصاها إلى أقصاها حـوالي سبعـة أميال باستـثناء مناطق زراعة الأثل والراك، وهي مناطق غـير مأهولة وخـاصة بقريتي اللـغف والراكة. كان يخـترق الواحة مـجرى سـيول وادي الدواسر الذي كـانت تغطي مهـده الطيني في بعض المواقع غلالة رقـيقة من شجـيرات الرمث ومن الحشـائش، بينما كانت بقيـة المهد عارية ومشـققة بفعل الشمـس. وكانت تحـيط بالواحـة مـن كـل الجهـات بيـداء

بلا حدود، قفار رملية متلاطمة، ضاربٌ لونها إلى الحمرة وممتدة إلى الأفق الشمالي من طرف حزام النخيل، وتعدّت الصحراء منذ عهد ليس بالبعيد على مزارع وقرى صغيرة في الأنحاء فأزالتها عن الوجود مثل المعيذر التي كانت بين اللغف والمخاريم، وكذلك مجرانية وكُرارية بين الأقسام الوسطى والغربية، ويقولون إن هذه المنطقة القاحلة كانت مخفرّة قبل خمس وثلاثين أو أربعين سنة.

وامتدت نحو الغرب صحراء من الحصباء والحبيبات الرملية التي كانت تتناثر فيها روابٍ خفيضة وتلال ثم تحوّلت إلى رمال في الجانب الجنوبي الشرقي حيث امتدّ شريط عريض من هذه الرمال حتى حاجز طويق البعيد، وإلى الجانب الآخر نحو الغرب والشمال الغربي امتدّت الصحراء نفسها. وقد رأيت في الجانب البعيد في هذه الاتجاه الشمالي الغربي مقدّمة سلسلة الجبال الغربية التي كانت تعلوها كتلة الجرانيت الوعرة المسماة الريّانية.

وإن كان ما قالوه صحيحاً فإن وادي الدواسر يبدأ فوق الموقع الذي تلتقي فيه الأودية العظيمة الثلاثة، ذلك الملتقى المسمى حجلى. ويقال إن مجاري السيول العظيمة الثلاث: تثليث وبيشة ورنية تنحدر من المرتفعات لتقترب من نقطة التقائها في خاصرة الريانية آتيةً من الجنوب الغربي وغرب الجنوب الغربي والشمال الغربي على التوالي لِتَصُبَّ سيولها في حوض حجلى، ويعترضها من الجانب الشرقي حاجز من رمال ثقيلة يمتد عرضها لعشرين ميلاً أو أكثر وتغوص المياه المتجمعة في الرمال دون أن تفي بغرض أو تعود بنفع. رغم أن الحاجز الرملي لعرق سبيع[1] الواقع إلى الشمال من هذا الموقع يصدّ سيول وادي سبيع، إلاّ أنه يبدو لي -

(١) انظر الجزء الأول. ٢٦٠ . (المؤلف).

ولكنني لا أستطيع أن أجزم- أنّ هذا الحاجز الرملي ما هو إلاّ امتداد لحاجز وادي الدواسر الذي سبق ذكره، وأن كلّ هذه الحواجز الرمليّة ماهي إلاّ أذرع للصحراء الجنوبية العظيمة.

لم يحدث قط - فيما ذكره الناس- أنّ الماء سرى في وادي الدواسر قبل شهر رمضان الذي سبق زيارتي بعام حيث تجمعت السيول الثلاثية، أو بالأحرى من تثليث لوحده. ووفقاً لروايات الأهالي فإن السيل في مجرى تثليث كان عظيماً جداً وأنه تخطّى الحاجز الرملي ليصبّ من خلال أسفل مهده المهجور بعرض الصحراء. حينها سمع الناس من موقع بعيد في الوادي هدير السيول المندفعة، وبلغهم أول السيل في أطراف الواحة في المساء. صاح أحدهم داخلاً كالمجنون إلى مجلس الأمير الذي كان يحتسي القهوة مع زواره بعد صلاة المغرب: «السيل، لقد اجتاحنا السيل» وضحك الأمير وقال ساخراً: «ناولني كوباً فارغاً، أسرع ناولني كوباً حتى أشرب من مياه السيل قبل أن يجف!» ولكن السيل أتى بالفعل، وعند ظهر اليوم التالي كان الوادي قد امتلأ بالماء فصار نهراً.

امتدّ النهر في الأيام الثلاثة الأولى ليتخطّى أجمات الراكة، وبعدها ضعفت سرعة المياه، لكنها استمرت لمدة أربعة أيام أخرى، وخلّف السيل وراءه بركة أسعد وجودها الرجال الذين لم يروا ماءً في ذلك المكان من قبل. استمروا يشربون من ماء السيل لمدة شهرين بعد ذلك من برك في أسفل الوادي. وسوف تظل ذكرى عام السيل في ذاكرة سكان الوادي لأزمان طويلة. لقد كان الدمار الذي ألحقه السيل بوادي تثليث عظيماً، حيث فاجأ الرعاة وقطعانهم ليجرفهم دون رحمة فراح ضحيته مئة وخمسون من البشر و٤٥٠ من الإبل وعدد لا يُحصى من الخراف. لم تكن هناك خسائر في الأرواح في الواحة نفسها، ولكنّ آباراً كثيرة أصابها الدمار

الشامل، وزالت قـرية الحنابجة من الوجـود. كان هناك تعويض من نوع مـا لهذه الخسائر إذ حدث ارتفاع في منسوب الماء في الآبار كما تحسنت جودة الماء بالواحة. وكان الناتج الغريب لذلك السيل هو موت نبات الخروع الذي أكّدوا لي أنّه لم يكن معروفاً في الوادي من قبل رغم أني لاحظت قليلاً منه في السُّلَيّل[1]، وكان الظن أنه نما من بذور أو شتلات أتى بها السيل من الجـبال. وقبل أيّام قليلة من وصولنا أثارت شائعة حول قرب حدوث سيل آخر بعض القلق في الوادي، ولكن في هذه المناسبـة رغم أن وادي تثليث كان يحمل سـيلاً أكثر من العـادة، إلاّ أن السيل لم يكن من القوة بحيث يدفع بالمـاء عبر الحاجز الرملي، ومن ناحيـة أخرى لم يتأثر وادي الدواسر.

لقـد كنت حريصـاً جداً لأن أسـتكشف مـا وراء حدود الواحـة أعلى الوادي لأصل مبتدأ الوادي في سطح الريانيـة إن استطعت. ولكن لم يكن هناك ما يجعل إبراهيم يستجـيب لمثل طلبي هذا، وساعدت بعض القصص عن وجـود عصابات نهب تقطع الطريق في أن تمنعني من تحدّي قراره. ولكن في إحدى المناسبات كنت قد خرجت للتنزه في مجـموعة صغيرة لم يكن إبراهيم من بين أفـرادها، فانتهزت سانحة غيـابه لأعلن عن رغبتي في تخطّي بعض الروابي مبتعـداً قليلاً عن السهل الجنوبي. وعندمـا بلغت أبعد هذه الروابي من ناحـية الغـرب وهي رابية المطيـعان أصررت على أن نعود عن طريق به أجمة من حشائش الغضا في مهد سيل يجري بعيـداً عن الحدود الغـربية للواحـة. وانزعج رفاقي لقراري ولـكننا تحركنا يسـبقنا كُشّـاف. وعند بلوغهم المجـرى أشاروا لنا بأن نتـوقف واتضح أنهم أتوا على آثار

(١) يمكن أن تكون هذه أيضاً قد انحدرت من مرتفعات طويق بواسطة سيول المجمعة. (المؤلف).

خمسة عشر من المغيرين الذين كانوا يسيرون في اتجاه الواحة. وضح من حداثة الأثر أنّهم مرُّوا من هناك عند الفجر أو قُبيل ذلك مما جعل احتمال ملاقاتنا لهم في طريق العودة أمراً وارداً، ولكن بعد خطوات قليلة زالت مخاوفنا عندما رأينا آثاراً أكثر حداثة تنبئ بأنهم عادوا جميعاً أدراجهم في طريق العودة نحو الغرب. تقدّم الآن طويرش وثلاثة آخرون مترجلين بحذر نحو قِمّة التلال الرملية في الجانب الأبعد للمجرى بغرض استكشاف المكان، بينما بقينا مختبئين في انتظار تقريرهم. وفور بلوغهم القمة لاحظوا عن قرب ثلاثةً يمتطون إبلهم، لاشك أنهم جزء من عصابة النهب، ووصلنا لاقتناع بأن البقية لا بد وأنهم يخيّمون في ثنايا التلال. كان ذلك كافياً لنا إنهم خمسة عشر كلهم راكبون بينما كنا أربعة عشر على ثمانية من الإبل.

قفلنا أدراجنا عائدين للديار بأسرع ما نستطيع بينما تأخر طويرش وزملاؤه ليطلقوا بعض القذائف النارية في اتجاه العدو، ثمّ أسرعوا للحاق بنا وهم ينشدون أناشيد حماسية وهم يحمدون الله أن بقية العصابة لم تكن من القرب بحيث يتمكن أفرادها من ملاحقتنا، إذن لحدث ما لا تحمد عقباه. بلغنا مأمناً بوصولنا إلى مزارع نخيل فرعا وضعت تلك الحادثة حداً لأمانيّ في إنجاز مشروع طموح للاستكشاف في المنطقة. إن العصابات التي تزرع الصحراء بين الوادي وواحات الأراضي المرتفعة أي بيشة وتثليث ورنية كانوا في الغالب -وفقاً لما قالوه- من أقسام رزق والسلوم من قبيلة يام، وكانوا من الشجاعة بحيث يأتون إلى الواحة تحت جنح الليل ليسحبوا الماء لأنفسهم ولحيواناتهم ثم يعودون من حيث أتوا قبل بزوغ الفجر.

كنا نظنّ أنّ وصولي لبرزان، وهو أمرٌ قد وقع، سيمنع استمرار الاضطرابات التي سبقت وصولنا. ولكن هذا الظن أوضح جهلنا بطبيعة أهل اللدام، حيث كانت هناك ردّة فعل عنيفة ضد زعمائهم في أول ليلة بعدوصولنا احتجاجاً على السماح بدخول كافر إلى أرضهم والبقاء بين ظهرانيهم.

وفي صباح اليوم التالي بينما كنت أُمنّي النفس بنزهة وأستعدّ للخروج للتجول في بساتين النخيل الموجودة في الجوار أتى ابن جلهم واقترح عليّ أن أنظر إلى المشهد كاملاً من أعلى أحد الأبراج بالمبنى، فوافقت على الفور وتبعته. أصابني شيء من الاشمئزاز عندما ارتقيت الدرج لأجد إبراهيم هناك يحييني، ولكني وجدت لدهشتي البالغة أنه لم يكن وحيداً هناك في الأعلى، بل كان في معيّة الأمير نفسه. وحياني الأخير بدماثة وعذوبة، وطفق في غير ما حماس يشير موضحاً لي القرى المختلفة والمعالم البارزة في المنطقة. وبعد قليل انسحب إبراهيم والتمس مني الأمير أن أجلس لأستمع لما يودّ أن يقوله لي من أمرٍ هام. لقد تلقّى إنذاراً بأن أهل اللدام الذين ندموا على التزامهم بأوامره أعلن فريق منهم في إصلاح الأمر بطريقتهم الخاصة. ورغم أن الأمير أعلن لهم جميعاً بأن أي محاولة للنيل مني ستتبعها عواقب وخيمة على المدينة كلها، إلاّ أنه يشعر بقلق تجاه هذا التغيير في توجهات أهلها. لذلك سألني بإلحاح أن أتخلّى ليوم واحد فقط عن أيّ مشروع لتفقّد المنطقة، ووعدني بأنّ المياه سرعان ما تعود إلى مجاريها عندما يعتاد أهل المدينة على وجودي بينهم.

كان عليّ ألاّ أغادر القلعة أثناء النهار، ولكن كان لي أن أذهب حيث أريد في داخل القصر إضافة للبرج الذي كان تحت تصرفي إن احتجت لاستخدامه. وقدّم لي الأمير هذا الطلب بنوايا حسنة بلا شك ولأسباب منطقية، لذا لم أتردّد في

الاستجابة له، وقضيت يومي بين أسوار القلعة التي بقيت أبوابها مغلقة، والحراس عليهـا من الداخل والخارج طوال النهـار. ولم يكن يسمح بدخـول القلعة إلاّ لمن يؤذن لهم من المأمونين. وكنت أضـطر للخروج من القلعة لبـعض الوقت،بيد أني لم أكن أشعر بالضيق من حُرّاسي الملازمين الذين كانت التعليمات لديهم ألاّ أفارق أعينهم. وزاد الجُـرْحَ عمقاً الـتعليمات التي صـدرت لرفاقي بألاّ يحضـروا صلاة الجمعة في وسط المدينة، لذا ذهبوا لمسجد مِـشرِف الذي كان قريباً بينما بقيت على البرج العالي أرقب نساء المدينة وهنّ يسحبن الماء من البئر القريبة من حائط القلعة، وأتتبع بنظري قطعان الأغنام تساق في الغسق لحلبها ابتداء من اليوم التالي.

كنت في حلّ من حظر التجوال بعـد أن زالت المشكلة في اللدام بورود رسالة من شيوخ المدينة الـذين عبّروا فيهـا عن اعتذارهم لما فعلوه سابـقاً، وطلبوا منا أن نرسل لهم وفداً للاحتفـال - بشرب القهوة - بإعلان السلام. وتمّ تفـسير الدعوة بطريقة صحيـحة إذ لم أكن مقصوداً بالدعوة، لذا قـاد إبراهيم في اليوم التالي «٢ يونيو (حزيران)» وفداً مـختاراً لمنزل ابن ضرمان، أحد كبـار التجار بالمدينة، وبعد كثيـرمن الجدال أثناء شرب القهـوة تمّ التوصّل لاتفاق رسمي، وبذا أسـدل الستار على هذه القصة.

تقع مدينة اللدام، عاصمة إقليـم الوادي على منحدر عارٍ لجانب المجرى، في منتصف الطريق بين مهده الحقـيقي وسلسلة تلال أبو حويل. شكل المدينة مستطيل تقريباً وطولها ٥٠٠ ياردة وعرضها أقل قليلاً، وتعلو فيها رابية خفيضة يوجد على قمتها أجمل المنازل. وكان يحيط بها في زمان مضى حائط متوسط الارتفاع، وهو الآن متهدّم في معظـم أجزائه، وفي غياب البوابات نستخدم الفـتحات المتعددة في

هذا الحائط للدخول للمدينة. وكان أجمل المباني مسكن شبيه بالقلعة ويُسمّى قصر حسين، وكان صاحبه أحد الزعماء المحليين. ولم يكن بالمدينة سوق منتظم ولكن كان هناك اثنا عشر متجراً أو أكثر متناثرة هنا وهناك تخدم مجتمعاً قوامه حوالي ٣٠٠٠ نسمة من فخذ الرجبان، وهو أحد أقوى عشائر الدواسر. كانت منازل المدينة كغيرها من منازل قرى الوادي المختلفة من الآجر[1]، وكانت حدائق النخيل جميلة معتنىً بها كغيرها من حدائق المنطقة.

مدينة مشرف هي المنافس الرئيس لمدينة اللدام، وتسمى أيضاً الخماسين، وهو اسم قسم من أقسام الوُداعين الذي يكوّن الجزء الأكبر من سكانها البالغ عددهم حوالي ١٥٠٠ نسمة. يحتل برزان جزءاً من المساحة بين المدينتين وتحتل المقابر الجزء الأكبر منها. أما مشرف نفسها فهي المركز التجاري الرئيس للمنطقة، ولها سوق منتظم لا يختلف كثيراً عن سوق ليلى حيث اصطفّ ثلاثون متجراً أو نحوها حول ميدان صغير بالقرب من البوابة الغربية. أما سور المدينة فهو خير حالاً من سور اللدام ولكنه متهدم نوعاً ما في الجانب الشرقي الذي توجد به بوابة. ولا تحتوي المدينة على مبانٍ ذات جمال معماري، وشوارعها ضيقة ومتعرجة وكثير منها- لاسيما في الركن الشمالي الشرقي- مهدمة. ولم ألتقِ شخصياً بأمير الخماسين -محمد بن سلطان- الذي تميّز بأن اتّخذ منذ البداية موقفاً في صالحنا، وتبع ذلك إمداده لنا بالعلف واللبن.

---

(١) كان الطوب المستخدم في وسط الواحة ذا لون خلاّب مائل إلى الحمرة، بينما كان في المواقع الأخرى ذا لون رمادي. (المؤلف).

مدينة صبحا التي يسكنها فخذ الولامين المستقل تبعد مسافة قصيرة إلى الشمال الغربي من مشرف، اتخذت موقفاً سلبياً تجاه وجودنا وبذا أعفت نفسها من مسؤولية إمدادنا باحتياجاتنا. وكأختها يحيط ببعض أجزائها سور رغم أنّها أصغر المدن الثلاث ولا يسكنها أكثر من ١٠٠٠ نسمة. وتقع بساتين نخيلها في الجانب الآخر من المنخفض وتعرف باسم العسيلي، وهي جدّ كثيفة ويفصلها عن بساتين نخيل مشرف بئر يسمونها الفريْخ. يتكوّن فخذ الوُلامين من فخذين؛ أحدهما السعد وهو تحت إمرة محمد بن درعان، بينما يقود الفخذ الآخر -وهو التميم- مبارك بن علي.

ويُعرف الجزء الغربي من الواحة باسم الفرعة وهو صقع فسيح من بساتين نخيل تتخللها غيضات من الأثل وحقول للحبوب. كانت المدينة الرئيسة بهذا الجزء مجموعة من القرى الصغيرة تسمى جماعياً الحمراء ومعظمها خرائب. وتقع في الغالب على الجانب الأيمن للوادي. وكان لكل قرية بالطبع اسمها الخاص: الحويزة وهي خرائب، وإلى الشمال منها آل عويمر ويسكنها نحو من ٣٠٠ نسمة من فخذ تحمل هي اسمه، ثمّ الحامد وهي أيضاً خرائب، ثم المعنّي ويسكنها فخذ يحمل نفس الاسم، عددهم حوالي ٢٠٠ نسمة. إضافة لهذا كانت هناك ثلاث قرى أخرى بين بساتين النخيل: آل ناهش والجلال[1]، وهما متجاورتان يسكن الأولى ٢٠٠ نسمة والثانية ٥٠ نسمة، والقرية الثالثة السراجي ويسكنها ١٠٠ نسمة من الحميضان وهو فخذ من آل عويمر.

(١) هو فخذ من آل عويمر. كان أمير آل ناهش يدعى عامر بن طامي، وأمير السراجي معوفي بن عبيد. (المؤلف).

ولابدّ أن نأخذ تقديرات عـدد السكان بتحفظ إذا أخذنا في الحـسبان أنّ بلاداً مثل الجزيرة العربية لم تقتنع بعد بجدوى التعداد. وهذا أمرٌ طبيعي، إذ أن السؤال عن عدد أفراد قـبيلة ما لا يعني سوى أحـد الشرّين وكلاهما يفـزع الحياة الآمنة، أولهما أنّ عدواً يودّ الانقضاض عليهم بعد معرفة قوتهم، وثانيهما أنّ هناك ضريبة ما ستجـمع، هذا إذا استبعدنا مقاومـتهم الطبيعية لأخـذ أعداد النساء والأطفال، ومحاولاتهم التي يمكن فهمها للمبالغة في إظهار قوتهم العسكرية.

لقد اقترح داوتي خصم ٩٠٪ من تقـديرات الأهالي وبعدها يصبح الرقم قريباً من الصواب. لذا يمكن تصوّر صعوبة الوصول لتقديرات معقولة. ورغم هذا رأيت من الضروري أن أقوم بهذه التقديرات - على مافيها من احتمالات - كلما سنحت لي الفرصة، وإنّي لآمل بفـضل كبحي لجماح خـيالي أن أكون قد قاربت الحقـيقة بقدرٍ معقول، وإن كان هناك فرق فهو للأقـل وليس للأكثر. ومهما كان الأمر فإن تعداد السكان بواحة الوادي - باسـتثناء فخذ المخاريم وكلهم من البدو- فـهو وفقاً لتقـديري يقارب ٩٠٠٠ نسمة، منهم حـوالي ٢٠٠٠ ممن يقع في خانة العبـيد، وبقية العدد ٧٠٠٠ يحملون دم الدواسر. ويمكن مضاعفة هذا العدد إذا أخذنا في الحسبان الجزء البدوي في القبيلة وهـم على أقل تقدير يساوون في العدد الجزء المقيم من أهليـهم. ولهذا العـدد الكلي ١٤,٠٠٠ لابد أن نضيف المخـاريم وكلهم من البدو كما أسلفنا. لذا لن نكون مخطئين في اعـتقادي إن قدّرنا العدد الكلي الذي يعتـمد في حيـاته على الوادي لـ ١٦,٠٠٠ نسمة من أهل الـقبائل و ٢٠٠٠ من العبيد، أي إنَّ العدد الكلي هو ١٨,٠٠٠ .

إنّ تاريخ الوادي وهويّة سكانه السابقين، والخطوات التي مرّ بها الوادي ليؤول إلى سكانه الحـاليين أمـرٌ غامض. ولكن ليس هناك كـثـير شك في أن الدواسـر

نزحوا في الأصل من جنوب الجزيرة العربية، لذا فإنّ زايد الملطوب وهو الجدّ الذي تنتمي إليه كل الأفخاذ الموجودة الآن من القبيلة، والذي عاش قبل عدد من الأجيال لا نعرف عددها، كان قد حصل على إذن من حكام بلاده بالهجرة، وجاء في معيّة عدد قليل من أتباعه للوادي ليعيش بين من كانوا يملكون الوادي حينها. وبمرور الأيام تزايد أبناء الملطوب للحد الذي قاموا فيه، ليس فقط بالتغلب على مضيفيهم، بل قاموا أيضاً بالهجرة شمالاً نحو نجد ليمكّنوا أنفسهم أيضاً في السُلَيّل والأفلاج والخرج، حيث نوّهتُ من قبل لوجود مساكنهم بها. وبعد ذلك انتشروا أكثر ودفعوا بحدودهم إلى الأمام حتى صار لهم وجود ظاهر حتى في الأحساء، بعيداً هناك في الشمال الشرقي. وهم يسيرون في الجنوب مع آل مرة رغم أنهم دفعوهم نحو فيافي الربع الخالي المهجورة، ويسيرون في الشمال مع قحطان الذين كانوا يشاركونهم في الرغبة للتقدّم نحو قلب نجد ولكنهم لم يسمحوا لهم بإبعادهم عن مواقع سيطرتهم.

وكانوا يسيرون أيضاً مع بقايا سبيع والسهول الذين وجدوا المأوى في شرق نجد. من كان المضيفون الأوائل الذين استغلّ الدواسر كرمهم حتى نزعوا منهم حقاً اكتسبوه بالمولد؟ لا يمكننا أن نجزم، ولكني على الأقل أرى أنه من المسموح أن نظنّ أن بقاياهم من الأحياء يمكن البحث عنهم في المجموعة القبلية المعروفة باسم آبات الدواسر، وهي مجموعة ذكرتها من قبل عند الحديث عن تمرة وكمدة ورويسة. وعلمتُ أنّ لآبات الدواسر أربعة فروع، أولها العمور الذين يسكنون تمرة وكبكابية وما تبقّى من رويسة، والفرع الثاني الحقبان الذين يسكنون كمدة ولهم وجود في الوادي نفسه في بقاع متفرقة، والفرع الثالث مشاوية والرابع خيلات وكلاهما تمّ

طرده من أرض آبائهم، ويوجـدون الآن في الأحسـاء فقط. لقـد انشقّ بيت زايد الملطوب منذ عـهـد البـدايـات ليكوّن فـرعين: الصـهـيب[1] والذي تتكون منه مجموعات آل حسن والمساعرة والشرافا والرجبان والمخاريم، والفرع الثاني السالم، والذي تقسم لاحقاً لفرعين أولهما الزايد ويمثله الآن أقسام العمير والمعنّى والناهش من الفـرعة، والفـرع الثاني الغـانم الذي تنتمي إليـه أقسـام الوداعين والولامين. وهكذا يبدو هيكل قبيلة الدواسر التي يؤهلها أعداد أفرادها وتوزيعها الإقليمي لأن تعـد من التنظيمـات القبليـة المسيـطرة بجزيرة العـرب في هذا الزمن المعاصـر، وتُشـاركهم هذه السـيطرة قحطـان وعتـيبـة وحرب ومطيـر وشمّـر وعنزة، ملوك الصـحراء الذين ينبئ عن نفـوذهم بلادهم غيـر المحدودة التي تقع خـارج إطارها القبلي المتعارف عليه، والتي استمرت عبر القرون لتشكّل جزيرة العرب اليوم.

لقد ذكـرت من قبل شيـئاً عن إسهامـات هذه القبيلة فـي اصطياد اللؤلؤ من الخليج العربي، ويكفيني هـنا أن أشير إلى أنه توجد مستـوطنة دوسرية في جزيرة البحرين، وأن أذكر أولئك الذين شاركوا في بدايات حملة بلاد ما بين النهرين في معـركة سنيـة التي وقعت في نوفـمبر (تـشرين الثاني) ١٩١٤م في وسـط بساتين النخيل الكثـيفة التابعـة للدواسر في شط العرب. كمـا يُقال أنّ امتدادات القـبيلة وصلت إلى بقاع مـتفرقـة في الإقليم الساحلي لفارس، وقـد يكون صحيـحاً أنّ انتشار المستعـمرات الدوسرية قد أسهمت لحدٍّ كبير في انتـشار القصور الذي يسود الآن من أنّ القـبيلة لا تعـد بدوية في الوقت الراهن، وهو المـسجّل في الكتـيب الرسمي الذي تمّت الإشارة إليه من قبل عِدة مـرات. إنّ الدواسر بدو لحدٍّ كبير في

---

(١) الأقسام التي تنتمي لهذا الفرع تسمّى في مجموعها الصهبة. (المؤلف).

إطار منطقتهم القبلية، ولكن امتداداتهم العظيمة خارج تلك الحدود ماهي إلاّ تأكيد للدور الكبيـر الذي أدوه في تاريخ الجزيرة العربيّـة على امتداد عـهد طويل، وهو الدور الذي ضاعت بداياته في ضـباب التاريخ، مـثل الاسم الأصلي للواحة التي استوطنوها وأطلقوا عليها اسم وادي الدواسر.

إن المنتجات الزراعـية للوادي مشابهـة في كل نواحيها للمنتـجات في السُّلَيّل والواحات الاسـتيطانية الأخرى الموجـودة في جنوب نجد. الماء وافر في كثـير من الآبار التي يبلغ مدى الماء فـيها من أربع إلى خـمس قامات. بالطبع لقـد كان الماء أبعد منالاً مـن هذا بكثير قـبل السيل. ويتم سـحب الماء من الآبار بواسطة الإبل والحميـر. وتشكّل التمور والحبـوب الغذاء الرئيس، وهناك زراعة مسـاندة لها من الخضراوات والفواكه المعـروفة. بيد أنّ مستوى المعيشة جـد منخفض،وتعد اللحوم والأرز والشاي من الرفاهيات وقلّما يستخدمونها، بينما يعتمدون على الخبز واللبن وعصيدة القمح والتمور والقهـوة وقشر البن، والاثنين الأخيرين يأتيان من اليمن. تفرض الخـزينة بالرياض ضريبة أرض بنسبـة ٥٪ عيناً من جملة المنتج من التـمور والحبـوب، بينمـا لا تخضع المحـاصيل المسـاندة للضريبـة بل تعد مِلكاً للـمزارع المستأجِر عندما يقوم المزارعون بفلاحة الأرض إنابةً عن أصحابها. ويتلقى أصحاب الأرض هؤلاء بصفـة منتظمة هدايا من الخضراوات والفـاكهة إضافـة للإيجار ولما يستحقونه من نصف أو ثلثي إنتاج التمور والحبوب.

وكان ابن جلـهم قد قام قـبل زيارتنا بجمع هـذه الضريبة من الـوادي وكانت حصـيلته ٤٦,٠٠٠ وزنة من التـمر و ١٤,٠٠٠ جوال من الحـبوب (بما في ذلك كـمدة). وبلغت الحـصـيلة في السليل ١٨,٠٠٠ وزنة، و ٦٠٠٠ جوال (بما في ذلك قرية تمرة)، بينما تمّ تحـصيل ما لا يقل عن ٦٣,٠٠٠ وزنة في العام السابق

من السيح الواقعة في الأفلاج بمفردها، وذلك على اعتبار أنّ الضريبة تكون بنسبة ١٠٪ عندما يكون الرّي انسيابياً، وبنسبة ٥٪ عندما تكون السقيا من الآبار. ويمكننا أن نستنتج من هذه الأرقام أنّ جملة الإنتاج بقرى وادي الدواسر بلغت ١,٣٠٠,٠٠٠ وزنة من التمور، و ٤٠٠,٠٠٠ جوال من الحبوب. وتباع التمور في وقت الحصاد للبدو بسعر ١٥ وزنة للدولار، بينما يكون متوسط سعر البيع في الأوقات الأخرى في المدى بين ٧-٨ وزنات للدولار، و ٣,٥ إلى ٤ جوالات للدولار في حالة الحبوب. إن حسبنا القيمة المالية لما جمع من ضرائب في العام الماضي بالوادي نجد أنها بلغت ١٣,٠٠٠ دولار وهو ما يزيد قليلاً على ٢,٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو لا يُعدُّ مساهمة ذات شأن لخزينة الحكومة المركزية التي جمعت في العام نفسه مبلغاً مساوياً من ضريبة الإبل من كل أقسام البدو التابعة للقبيلة[1]. زكاة الأنعام هذه مقدارها خروف أو رأس من الماعز عن كلّ خمسة من الإبل، وتؤخذ هذه الضريبة نقداً على اعتبار أنّ رأس الماعز أو الخروف يساوي ٥ دولارات. يعد موقع سقيا المقرن المركز المعتمد للتقدير السنوي لأعداد إبل الدواسر، وهو ما قام به في تلك السنة ابن جلهم. وبعد سداد كافة المنصرفات كان صافي المدفوعات في حدود ١٥,٠٠٠ دولار عن عدد من الإبل في حدود ٢٠,٠٠٠ رأس لكل القبيلة.

باستثناء اليوم الوحيد الذي قضيته سجيناً في القلعة، مرّت فترة إقامتي بطريقة مرضية بين رحلات الاستكشاف الطويلة والقصيرة داخل وحول الواحة التي رافقني فيها عدد من أصحابي الأشداء المختارين، إضافة لاثنين أو ثلاثة من جماعة

(١) أنا أعتقد أنّ المجموعات التي شملها هذا التقدير هي مجموعات الأفلاج والوادي، بينما لا تشمل هذه الضريبة ما جُمع من بدو الخرج والأجزاء الشرقية. (المؤلف).

الأمير. وكان أحد هؤلاء واسمه سعد قد قام من قبل بعدد من الرحلات في أودية تثليث وبيشة ورنية بصفة أساسية في مهام جمع الزكاة. ولم أتمكّن من التحقق من العمق الذي يصل إليه نفوذ ابن سعود في أطراف الوادي ولكن بفضل كثير من الرسومات والتخطيط على الرمال من مرافقيَّ وبحساب السير والتوقفات مثل «المقيل» و «المراح»، وهي وقفات منتصف النهار والمساء على التوالي تمكّنت من جمع كثير من المعلومات عن الأقاليم التي لم يكن قد تمّ سبر غورها بعد. علمت عن قرى مناطقهم وعن أوديتهم وجبالهم، وعن الطرق التي ينبغي اتباعها عند الوصول إليها من الشرق، وعن مواقعها بالنسبة لبعضها البعض. وكان أحد رجال الأمير الآخرين رجلاً ذا شخصية جدّ مختلفة، كان اسمه معضة، ولم يكن مُطيعاً، ونشأ لديه كرهٌ خاص لمترك. ففي طريق عودتنا من محاولةٍ لاستكشاف أعلى الوادي طفحت العداوة المتبادلة واستعرت ولم يخفياها.

كان يوماً شديد الحرارة ولم يكن رفاقي يتوقعون أن يطول أمد تجوالنا فغفل رفاقي عن أن يحملوا معهم ماءً، وكان كل ما لدينا منه هو القارورة التي أحملها، والتي وزعت ما بها من ماء على الآخرين لأحفزهم لمواصلة السير للأهداف التي كنت أريد الوصول إليها. ولكن تلك الكمية ما كانت لتروي غلّة ثلاثة عشر رجلاً صادياً في قيظ منتصف النهار، مما أدّى لحِدّة المزاج لديهم. وعند مرورنا بقرى الحمر تجمّع عدد قليل من أهل القرى يشاهدون مرورنا بإزائهم. عندها خطر لمعضة أن يُسرع، بينما رأى مترك -وهو صائب في حكمه- أنّ السرعة قد تفَسّر بطريقة خاطئة لدى النُّظّارة، لذا طلب من رفيقه أن يُقيِّم ردّة الفعل المحتملة وطلب منه ألاّ يُسرع. عندها استدار معضة نحوه وأسمعه كلمات قاسية بطريقة حادّة وبادله مترك مثلها قبل أن أفطن لخطورة ما يجري. كان الاثنان يدوران حول بعضهما

البعض يرفع كل منهما عصا مطيته وكلّ منهما يقذع في ذم صاحبه. وخوفاً من أن يستغل النظارة هذا الموقف تقدمت لأتدخّل ولكن قبل أن أصل إليهم كان معضة قد سحب مسدسه، وقام مترك استعداداً للمعركة بسحب بندقيته من خلفية السرج. وجدت نفسي الآن بين نارين فقمت بالصياح على الرجلين بكل ما استطعت استدعاءه من اللغة، ولكن استمرت التحركات والمناوشات لبعض الوقت دون اكتراث لأمري حتى انفضت الأزمة كما يحدث في كل مناوشات العرب، وخلد الرجلان إلى صمت يتخلله بعض السباب من أحدهما للآخر، ويصيح فيه مترك: «العبد الأسود». وعند بلوغنا القلعة وجهت إبراهيم بأن ينزع سلاح كليهما وأن يحبسهما دون طعام أو ماء حتى يعتذرا عن وقاحتهما، وهكذا بقيا حتى حلول المساء، ورقّ قلبي لنداءات طامي وابن جلهم والآخرين فوافقت على إطلاق سراحهما ولكنني قمت بمصادرة ذلول كان مترك قد اشتراها بثمانين دولاراً من هبةٍ وهبتها إيّاه في يوم سابق، وأفهمت معضة أنّه قد أضاع الهدية التي كانت ستكون له لولا فعلته.

ألقت هذه الحادثة المشؤومة بظلال سوداء على مجموعتنا، ولكن يا ويلتاه، كان الأسوأ في انتظاري قبل حلول الظلام. كنت في طريقنا من تمرة إلى كمدة قد لاحظت غياب جابر المرّي الذي كنت أحرص على صحبته بدافعٍ مستقبلي، إذ كنت آمل أن أتمكن بصحبته يوماً ما من قطع الربع الخالي. وعند سؤالي عنه أجابني إبراهيم باقتضاب بأنه بعث به أمامنا ليعدّ الأعلاف للمطايا قبل وصولنا للوادي. وأوضحت له حينها أنني أودّ أن يكون الرجل ملازماً لي طوال الوقت. وفي هذا الصباح بالذات لاحظت غيابه مجدداً من المجموعة المصاحبة لي. وساءني جداً أن أسمع من مترك تعليلاً لم أثق بصحّته وهو أنّه قد أرسل عائداً

ببعض الرسائل، بيد أنني لم أعلّق منتظراً الفرصة المناسبة للتحقق من جلية الأمر، وحدث هذا عندما تجمعنا كلنا بما في ذلك سمعان ورفاقه بعد مغيب الشمس في قاعة القهوة المقامة في الهواء الطلق. سألت حينها طامي الذي يجلس بجواري: «أين جابر؟» فأجاب بطريقة ملتوية عبّرت عن عدم ارتياحه، موضحاً أنّه كان من الضروري إرساله ببعض الرسائل إلى الرياض. وسألت ملتفتاً إلى إبراهيم: «ما هذا الذي أسمعه؟ أذهب حقّاً؟ ألم أقل لك أنني أودّ أن يكون دوماً إلى جانبي؟ لماذا فعلت هذا؟» لقد قام بهذا متعمداً ليُبعد رجلاً كان يشعر بالغيرة تجاهه، وفعله أيضاً ليغيظني. أجاب: «إنني أعلم ما أفعل». وكانت إجابتي: «لا بأس، افعل ما بدا لك دائماً لكنني لن أبقى معك». ونهضت تاركاً الجلسة. وبعد حوالي الساعة، عندما كنت جالساً بمفردي أمام غرفتي جاء طويرش ليعلمني أن العشاء قد أعدّ فأجبته: «لا أريد عشاءً مع صحبةٍ كهذه، ولكن يا طويرش هل تريد مئة دولار؟» فأجاب بنعم. «إذن اركب دون تأخير في أثر جابر وأتِ به عائداً وسأعطيك مئة دولار عند عودتك» حينها سقط فكّه، لقد كان يعلم أنّه لا يجرؤ على فعل ذلك، ثم ذهب عني. جاء بعدها طامي ليحثني على تناول العشاء الذي كاد أن يبرد، وتبعه ابن جلهم لذات الغرض، ولكن دون جدوى.

تركوني بمفردي دون عشاء يملؤني الحنق على ذلك الذي خان الثقة. علمت فيما بعد أن جابراً وعبيداً تمّ إيقاظهم في جنح الليل مع أوامر للاستعداد للركوب والتحرك دون تأخير لأن الخطابات نفس الخطابات التي سلمتها بيدي لإبراهيم قبل أن أخلد للنوم دون أن أشكّ فيما يمكنه أن يفعل بها، هكذا قال لهما إنّ الخطابات كانت عاجلة ولا تحتمل التأخير، ولابد أن تصل ليد ابن سعود في أقرب وقت.

احتجَّ جـابر ولكنه لم يكن ليجرؤ على عصـيان الأوامر. لذا تحرك الرجـلان قبل حلول الفجر، وافـتقدت في اليوم التالي ضـحكاته المجلجلة وتصرفاته الهمـجية، ومرّت شـهور قـبل أن ألتقي به مـجدداً. ويا حـسرتاه لقـد توفيّ الآن، صرعـته الأنفلونزا (١)، ولن ترى آمالنا التي رسمناها سوياً النور إلى الأبد.

كنا قد أمضينا يومنا الخامس في الوادي في انتظار أمتعتي القادمة من الرياض. إذ كنت قد صوّرت آخر فيلم لي في اللـدام، وفشل رشيد في أن يحصل لي على تبغ. وفي صبـاح اليوم التالي وبينما كنت أتناول الشـاي وأنا أتساءل عمّا سـتفرزه مـشاكل اليـوم السابق، إذا بـإبراهيم يدخل عليّ قـائلاً: «أبشرك بوصـول رسلنا وأغراضك». وأجبته: «الحمدلله» متظاهراً بأنّ الأمر لا يهمني كثيراً بينما لاح أمام ناظريّ مشهـد الأفلام والتبغ اللذين طال انتظاري لهمـا. على كلّ حال لن يتذوق إبراهيم من تبـغي شيئـاً، وغشـيني ارتياح وأنا أرى نظرة الندم في عـيني متـمرد الأمس. وبعـد قليل وصلت الإبل وأحـضـرت أمـتعـتي وتجـمّع حـولي إبراهيم والآخرون ولكـنني تابعت قراءاتي دون اكـتراث حـتى انسحـبوا واحـداً إثر آخر. وعندما خلا منهم المكان انقضـضت على المتاع بصبر نافد. لقد احتـوى على كثير من الخطابات والصحف وزجاجتين من الكحـول الميثيلية، ولكن لم يكن هناك أثر للتبغ، وأسوأ من ذلك لم تكن هناك أفلام.

كدت أبكي من الحنق والغيظ، «لقد كان فألاً سيـئاً أن يبشرني بوصول أمتعتي رجل سـيىء». هكذا قلت لطامي بعد ذلك عنـدما جاء ليـرى ماذا كنت أفـعل، ولكن لا بأس سيحلّ غضب الله على إبـراهيم وسنرى ماذا يحمل الغد. لا بد أنّ

---

(١) تسمى الحمى الإسبانية، وقد كـانت سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م وتسمى في نجد سنة الرحمة لكثرة من مات فيها. (المراجعون).

السيد جوب في كلّ مـا عاناه في محاكماته لم يبلغ ما عـانيته أنا في ذلك اليوم. وعندما جلست وحيـداً أسترجع ثلاث مئة ميل طويتهـا دون أن ترى عيني أوربياً، وأنني الآن بلا أفلام تصوير. حزن طامي لذلك كثيراً، لقد رأى في وصول أمتعتي فرصةً لإصـلاح ذات البين بيني وبين إبراهيم، ولكنّ آماله ذهبت أدراج الرياح في ذلك اليوم. كما تناولت فطوري وعشائي بمفردي.

لم تعد إبلنا من المرعى إلاّ متأخرةً في صباح اليوم التالي لذا تأخر سفرنا حتى بعد الظهر لنقضي ليلتنا الأولى في الراكـة. أرسلت طامي في الليلة السابقة بعباءة جيدة لعبدالله بن معمر هدية صغيـرة أعبّر بها عن امتناني لكرم ضيافته لنا. ولكنه -ولابد أن أحيّيه لهذا- رفض قبول الهدية قائلاً إنه لا يحتاج لشيء سوى ما يمكن أن يهبه له الله ثم ابن سـعود، وتوسل أن أتجاوز مسامحاً إياه عـلى ما قد يبدو أنه عدم تهذيب. تركت هذه الحادثة، وأضيف إليهـا الطريقة النبيلة التي أظهر لي بها - وهو يقوم بضيافتي استجابةً لأمر سيّـده - أن استضافة كافر أمر مخالف لما يمليه عليه ضـميـره. ترك كُلُّ هذا أثراً عظيمـاً في نفسي لصالح الرجـل. وعندما تمّت الاستعدادات للرحيل ذهبت لأودّعه، واحترمت مشاعره بأن جعلت بقائي معه جد قـصيـر، وقلت له: «أنا ممتن لك جزاك الـله خيـراً»، فأجـاب: «أبلغ احتـرامي لعبدالعزيز» بعدها ذهبت لأمتطي ناقتي.

قبل أسبوع بلغنا أسوار اللدام ونحن نسير بتؤدة مع الشعور بإقبالنا على أزمة، ولكنّا بعد ذلك كنا نتجوّل بحرية في الواحة، وتلقى رفاقي دعوات للاستضافة في المدينة مرتين، لم نعد مـحط الأنظار الفضولية، وكان من شهـد رحيلنا بضع نسوة يتطلّعن من فوق أسطح المنازل، وكـان طريقنا يقودنا بطول السور الشمـالي المتهدّم

للمدينة وعبر أحد شوارعهـا الطرفية. بعد ذلك واصلنا المسير بطول الجانب الأيمن للوادي. وتجاوزنا مقابل ونعيْمـة حيث تحوّل بعض رفاقي عن الطريق لوداع أميرها المضيـاف. ثم سرنا بوسط قرية الـشرافا، ومن ثمّ بطول مـهد الوادي متـجاوزين أشجار الأثل بقليل التي دلفنا منها إلى شجيرات الراكة التي حملت رائحتَها المنفّرة نحونا نسمـةٌ خفيفة قبل أن نصل إليـها، وننيخ في ظلالها الرواحل لوقت طويل. يُقال إن شـجيرة الأراك يختـص بها جنوب الجزيـرة العربية وعُـمان، ولكن هناك عينات قليلة منها في العقير وإقليم الأحسـاء وكذلك في الخرج. أغصانها الخضراء جد مطلوبة للسواك، يسـتاك بها الناس أو يمضغونهـا بين الأسنان بينما يُمضغ لحي الساق والأغصان الأكثر صلابة، ولطعمها لسعة وتستخدم مطهّراً للأنفاس.

كان الطقس بالوادي في هذه الأيام معـتدلاً لحدٍّ كبير، وكانت الـرياح شمالية وشمالية غربيّة مع تغيير بين الفينة والأخرى لنسمات شرقية وجنوبية، وكانت تهبّ في حالات نادرة بقـوة حتى تثير الرمـال. كان التأرجح في درجات حـرارة النهار أقلّ حدّةً منه في السُّـليّل. ورغم أن مقيـاس الحرارة سجل في أحد الأيام ١٠٧,٦ درجة فهرنـهايت؛ إلاّ أنّه قلّما قرأ أكثر من ١٠٢°، وفي يومين لم تتـجاوز الدرجة القصوى ٩٩°. ومن ناحـية أخرى لم تكن الدرجة الدنيا تقلّ عن ٧٧° فـهرنهايت. كانت الرياح الشماليـة مسببةً لأكثر التأرجح في درجـات الحرارة إذ كانت مسؤولة عن أدنى الدرجـات عند الفجـر وعن أعلاها بعـد الظهيـرة، بينما كـانت الرياح الجنوبية أكثر اعتدالاً في الدرجات القـصوى والدنيا على حدٍّ سواء. لقد أكدوا لي أنّ الجنوب قد تجاوز الآن فصل الصيف، وأنه من الآن فصـاعداً ستتراجع درجات الحرارة. إن كـان ذلك التأكيـد حقـيقيـاً فلا بُدَّ أن نهنئ جنوب نجـد على ظروفه المناخية التي ساهم في اعتدالها ارتفاعهـا وجفافها وقربها من منطـقة مسار الرياح الجنوبية الغربية (المنسون) في شبه الجزيرة العربية.

لم نُفَاجأ عند بلوغنا الراكة عندما حيّانا رجل جاء على قدميه من تمرة يعلن أنّ رسولاً آخر قد وصل من الرياض حاملاً رسائل وبعض الأمتعة، وأنّ ذلك الرسول قد توقف قليلاً لإراحة مطيته وسيكون بيننا في اليوم التالي. كانت الأنباء أجمل من أن تُصدَّق، ولم أضع أنا شخصياً ثقةً في صِحّتها حيث أنهكتني الآمال المحطمة. لم أكن قد تحدثت مع إبراهيم منذ صباح اليوم السابق، وكانت تخيّم على علاقتنا جميعاً سحابة مظلمة، لكن اقتحم عليّ خيمتي أثناء المساء وفد همجي برئاسة طامي وابن جلهم ومترك الذين التمسوا مني الصفح عن إبراهيم. في حقيقة الأمر كانت احتمالات زيارتي للحوطة والحريق في طريق العودة - رغم ممانعة ابن سعود في فعل ذلك - كانت تعتمد بالكامل على النوايا الحسنة لإبراهيم، وبما أنّ سفر جابر صار أمراً نافذاً لا يُعالج، فلم أكن في أعماقي مستاءً عندما رأيت الجميع قلقين من أجل إعادة العلاقات الطيبة بين المجموعة. وبعد جدال طويل تنازلت وتناولت الطعام مع المجموعة مجدداً.

استيقظنا في صباح اليوم التالي مبكّرين استعداداً لاستقبال الرسول الذي وصل في الساعة السادسة بعد أن قطع المسافة بين الرياض والوادي في سبعة أيام على ناقة واحدة يحمل عليها كيسين كبيرين من البريد والأشياء الأخرى؛ لقد كان أداؤه ممتازاً. كان الرسول السابق قد استغرق ثلاثة عشر يوماً للرحلة نفسها. لم أضع وقتاً في تقليب محتويات الكيسين اللذين احتويا على كمية كبيرة من لفافات التبغ الكبيرة والصغيرة وعلبة من زيت الكيروسين، ولكن يا حسرتاه لم تكن هناك أفلام. تناولت طعام الإفطار بعد ذلك مع شيء من التطويل ثم استمتعت بالاستغراق في التدخين بعد تسعة عشر يوماً قضيتها دون تبغ، ثم قرأتُ الخطابات المرسلة إليّ؛ في الوقت نفسه كان إبراهيم ورشيد يستلقيان من وراء شجرة بعيدة

يدخّنان من علبة لفافات تبغ أهديتها لهما. كانت من بين الرسائل واحدة نقلت إليّ للمرة الأولى أنباء التطوّرات الخطيرة في منطقة الخرمة بعد أن أبلغ الشريف السلطات في مصر فيما يبدو أنّه نتيجة لنشاطات ابن سعود في تلك الأنحاء، فقد اضطرّ لإرسال قوة من الجنود لإعادة الأمن والنظام في الخرمة. سمعت في الأحمر بعد أيّام أنّ رجال الخرمة قد بعثوا في طلب العون من قحطان وإخوان عتيبة الموجودين في الرين وفي الغطغط، وأنّه قد حدثت استجابة سريعة. وقد دونت في مذكراتي حينها أنه سينشأ وضع حساس إن صَحّت هذه الشائعات، وقد تتطور قريباً إلى حرب دينية بين ابن سعود وملك الحجاز. في حقيقة الأمر كان الاشتباك الأول قد وقع بالفعل في يونيو (حزيران)، وتلقّت قوات الشريف التأديبية الهزيمة ممن سمّاهم المتمردين.

بدأنا الآن رحلة العودة الطويلة متقدّمين نحو حائط طويق البعيد عبر مرتفعات الرمال المتلاطمة المعروفة باسم القعاس. كانت الهضاب الدائرية الصغيرة التي تغطيها شجيرات الراك والغضا تروّح عن النفس قليلاً من النظر إلى الصحراء الممتدة، وكانت لمعظم هذه الهضاب أسماء تمكّنت من تدوينها بفضل مبارك، وهو دليل جديد كان قد لحق بمجموعتنا من الوادي للتعويض عن جهل طويرش الذي كان عديم الفائدة. وفيما أظن كان مبارك هو الذي دخل علينا في اليوم السابق من تمرة حاملاً تلك الأنباء عن وصول أمتعتنا. كان رجلاً قارب الخمسين من العمر مليئاً بالحيوية كما كان صياداً للمارية، شهدت له بذلك الأنحاء، وكانت له قصص كثيرة عن الصيد في الأيام التي قضاها يجوب آفاق الصحارى، وكان من قبيلة العمور. تسمى إحدى الهضاب التي مررنا بإزائها قوز الحديدة، ويبدو أنّ الاسم- وفقاً لرواية مبارك التي يجزم بصحتها-.

لأنه يوجد تحت طيّات الرمال لوح أو كتلة حديدية أبعادها ثلاثة أقدام في قدمين (٣×٢). من المحتمل أنّ الرواية تشير لشهاب نيزكي، بيد أنني لا أستطيع أن أؤكد أي تفاصيل حول الأمر، وعلى أي حال لا يمكن أن يكون المعدن- إن كان هناك فعلاً- من صنع الإنسان.

ابتداءً من هذه البقعة وإلى الأمام، تحوّلت الامتدادات الرملية -التي كانت مسطحة لمسافات كبيرة إلا من وجود بعض الهضاب الصغيرة والتلال التي تتناثر فوق سطحها - تحوّلت إلى أرض صلبة من حجارة صغيرة سوداء تعلو طبقة رملية. كانت الرمال هنا- مثلها مثل رمال الوادي- تحتوي على بلورات بيضاء صغيرة وكان المكان خلواً من الأشجار إلاّ من شجرة سنط منعزلة نزلنا بجوارها في منتصف النهار بعد أن سرنا مسافة تقارب اثني عشر ميلاً. كان الوادي بطبيعة الحال قد اختفى من وراء المرتفعات الرملية وكلّنا شاهدنا على البعد من جهة اليمين طريق كمدة. وقد عاودنا سيرنا فوق السهل المقفر نفسه مقتربين من حاجز طويق، مارّين بأرض رأسية تسمّى خشم كُميح في منتصف الطريق بين خشم طرجم في الشمال التي كانت تعلو مشاش مالحة وبين خشم سواد في الجانب الشمالي لفرجة تمرة. كانت هناك رقعة عريضة من سهل معشب يمتد بين الشمال والجنوب بين الصحراء والجرف، وتغطّيه حشائش النصي والرمث والطرفا - وهي نوع من الأثل المتقزم- والآس. كانوا يسمون هذه الرقعة حيّة وهي كلمة تستعمل كثيراً في الجنوب لتعني السيل أو مجرى السيل، وهي بهذا تشير إلى أنها تصير أحياناً- كما لا بد أنها فعلت في الربيع الماضي مجرىً مائياً يحمل الماء النازل عبر أخاديد الجرف نحو الحوض الرئيس لوادي الدواسر. كان هناك شريط عريض من الأرض

البيضاء المالحة سبخة تجري في وسط الرقعة لتسم المجرى الحقيقي لتصريف الماء. بعد ذلك ارتقينا أعلى مجرى السيول المغطى بالحصباء في شعيب كميح، ثمّ نصبنا خيامنا في أحد جوانبه في أسفل جرف طويق الحاد.

مررنا ونحن نقطع البيداء بآثار إبل تسير من الشمال للجنوب نحو صقع مقابل في جنوب طويق. صاح أحد رجالنا وهو يقوم بدراسة الآثار: «قوم وركائبهم أربع وما هم رادفين». كانوا قد ذهبوا، فواصلنا سيرنا ونحن نهنئ أنفسنا أنه لم يكن هناك احتمال للقائهم. ولكن بعد دقائق قليلة مررنا بآثار أخرى لإبل تمشي في الاتجاه المعاكس. «حشاشين» أي يحشون الأعشاب.

كان هذا اللفظ المقتضب هو النتيجة النهائية لخبرائنا عن هوية من خلّفوا الآثار. وبعد دقائق أخرى نظروا لآثار شخص منفرد، ولكنهم صرفوا التفكير فيه بعد تصنيفه: «قناص من كمدة يجدُّ في طلب غزال». بعدها دخلنا في نقاش حول قصّ الأثر. إنّه لمن المدهش حقاً ما توحي به الآثار على سطح الصحراء لأذهان العرب. والمدهش أيضاً السرعة التي ينتقلون بها من الملاحظة إلى النتائج واليقين الذي يصاحبه، وهذا أمرٌ عُجاب وخاصية لا تُضاهى. عندما يسيرون تنتقل أعينهم بين الأفق والأرض أسفل منهم ويقومون غريزياً بتحديد السمات العامة للإقليم من حولهم. كما أنّ طبيعة الإقليم تساهم حسياً للتعرف على الناس الذين يمرّون به. ثمّ إنّ آثار إبل مسرعة أو مطايا محمّلة بالأثقال أو إبل ترعى كلها من الوضوح بحيث لا يخطئ فيها أهل الصحراء. حداثة الأثر أو قدمه يمكن عن طريقها تحديد الوقت الذي مرّت فيه الحيوانات التي خلّفته. هذه مقدرات العربي العادي، ولكم أن تتخيلوا مقدرات المختصين في هذا الجانب وهم من يمتلكون مقدرات غريزية لقراءة العلامات في الصحراء. وهم يحتاجون لهذه المقدرات خاصة أنهم يسافرون

كثيراً فيتحقق لهم البقاء أحياء وسط الأعداء. تَبيَّنتُ من الحديث أنّ القبائل البدوية على وجه العموم يمتلكون مقدرات عاليـة في هذا الجانب، ولكنّ الريادة فيه لقبيلة آل مرة التي تجوب الربع الخالي. وما يقـال عنهم أنهم يستطيعون تحديد لون الإبل من الآثار التي تخلّفـها عن الرمال، وهـناك - فيمـا قالوا- عـلاقة بين لون الإبل ونوع السير في كثير من عينات الإبل الجنوبيـة. كما يعرف سكان الأصقاع الرملية بدقة أكبر من سكان السهول الصحراوية الصلبة.

أمّا في الشمـال فإن أفراد فخذ سنجارة التـابع لشمّر فهم معـروفون بمقدرتهم العاليـة في قراءة الأثر. حكى لنا مبارك: «كـان بعض الأعراب يركبون عـبر أحد السهول عندما قام أحدهم وهو شيخ من القبيلة بلفت انتباه مرافقيه لآثار ابنته على الأرض وهي تقطع خط سيرهم في طريقها إلى نفود تقع على البعد، تذهب ابنتي هناك لتجمع النصي للإبل قـبل عودتنا»، وواصلت المجموعة سـيرها، وفي المساء كانوا في طريق العـودة ليقطعوا مجـدداً آثار البنت في طريق عودتها صـاح الشيخ «آه.. ياويلتاه كـانت ابنتي في طريقهـا للنفود صبـاح اليوم عـذراء، ولكنها الآن فقدت عذريتها. أقسم بالله بأنها ستموت جـزاء فعلتها الشائنة وسأذبح معها أيضاً الرجل الذي ذهب بشرفها.

تعالوا نبـحث عنه لأنّ آثاره ليست مع آثارها». وهكذا قامت المجمـوعة التي هزّها العار الذي لحق بالقبيلة بالتحرك في اتجاه النفود متتبعين آثار الفتاة باحثين عن آثار رفيقـها، ولكنهم لم يجدوا له أثراً. وواصلوا المسـير نحو الرمال حـتى بلغوا الموقع الذي انقطعت فـيـه آثار الفـتاه بالقـرب من نبـاتات صحـراوية، إنّه نبـات الطرثوث وله اسم فج وهو «زب الحمد». وهنا بكى الشـيخ من الفرحة حين علم

أنه رغم قراءته الصحيحة لأثر ابنته في الصحراء، إلاّ أنه أخطأ في حق ابنته حين اتهمها في عجلة بالزنا، وأخطأ في حقها أيضاً بتأخير زواجها حتى ذلك الحين. لاقت هذه القصة كثيراً من الاستحسان من المستمعين. ولن تكون هناك مَلكة تتفوق على هذه في قراءة الآثار في الصحراء.

الإقليم الجنوبي:

بما أنّه لم يكن لدينا متسع من الوقت، إضافة لأن رفاقي لم يكن ليجرؤوا على تخطّي الحدود التي رسمها لهم ابن سعود، كان لا بدّ لي من أن أرضى بما حققته آملاً أن أتمكّن يوماً ما من تحقيق الرغبة المتأججة في داخلي لاختراق الربع الخالي، وهو الذي تمكّنت الآن من تمشيط حدوده الشمالية إضافة للمرور عبر حدوده الشرقية كاملة من الأحساء إلى الوادي. ولم ألتق في كل تجوالي إلاّ برجل واحد ادّعى بأنه قطع الرمال الجنوبية من الشمال للجنوب حتى بلغ المحيط الهندي، كان ذلك هو جابر بن فرج من فخذ السويحيت التابع لقسم آل بحيح من آل مرّة، ورغم أنه لم يكن وحيداً في المرات الثلاث التي قام فيها بقطع الربع الخالي إلاّ أنني أومن بأنه أول إنسان يقوم بهذا العمل البطولي الفذ. لا يمكننا أن نفترض أنهم يدمنون قطع الصحراء الخاوية من الماء والبشر لمجرّد المتعة ولا حتى لأسباب تجارية، إذ أنّ أسواق الأحساء كانت تمدّهم بكلٍّ ما كان في وسعهم أن يبتاعوه، ولكنني استطعت أن أستخلص ممّا قاله جابر أن تلك الرحلات بما فيها رحلاته الشخصية لم تكن غريبة على نشاطات القبيلة العادية وهم الذين كانوا منذ أزمان ساحقة ضاربة في القدم يقومون بغارات مفاجئة لجيرانهم قبائل الجنوب: الوهيبة والعوامر والدروع بغرض نهب إبلهم الثمينة فرحة وصفر من نسل عينة الإبل «العمانية». بالطبع كانت مثل هذه الغارات تتلقى الردّ من قبل الجنوبيين كلما دعت الحال، ولا شكّ أنّ من بينهم من رأى نخيل يبرين وهي الأشجار الثابتة الوحيدة لبدو آل مرة.

عندما يُتعرف على الربع الخالي تماماً سيتضح أنه لم يكن منسجماً مع الصورة الملونة التي وضعها بعض الرحالة الأوربيين، أو تلك التي في أذهان الحضر من العرب الذين لم يصلوا قط لمرمى النظر منه، دعك من محاولة اختراقه. تقيم في حدود الربع الخالي الجنوبية والغربية القبائل التي أشرنا إليها آنفاً، وهي قبائل حضرموت وقبائل يام نجران، ولكن باعتراف الجميع فإن سادة تلك القفار الرملية هم آل مرة[1] وهي قبيلة تنتمي لقبيلة يام مثلهم في ذلك مثل آل عرجا وآل شامر وآل مطرة والعجمان. وأقامت منذ زمان بعيد علاقاتها السياسية مع نجران، ويسيرون بطول حدودهم الشمالية مع الدواسر، ولهم الآن تحالف غير محدد المعالم مع ابن سعود بسبب اعتماد اقتصادهم جزئياً على إقليم الأحساء. أقول اعتماداً جزئياً لأن احتياجات قبيلة كهذه توفّيها - إلاّ قليلاً منها - الصحراء ذاتها، ولاتتجاوز حاجاتهم الحقيقية علف إبلهم وفي الربع الخالي وفرة منه.

أحد أقسام القبيلة السبعة هو قسم آل بشر، وشيخهم الرئيس هو علي بن شريم الملقّب بعلي اللاهوب، ويعد أكبر شيوخ القبيلة كلها ويقطن السهل الجيري المنفرج عن مجرى السهباء بين الأحساء ويبرين وجابر فخذ آخر، وهو الفخذ الذي يحتلّ واحة يبرين والصحراء المحيطة، بينما تتمركز جميع الأقسام الأخرى حول الصقع المسمّى خيران في وسط الربع الخالي، ما عدا فخذ الدمنان الذي تتناثر أفخاذه في خيران وعلى حدود حضرموت وفي جوار نجران.

---

(١) يعودون بأصلهم إلى علي آل مرة. (المؤلف).

وفخذ البحيح - الذي يتخذ خيران قاعدة له - يجوب الفيافي الشرقية بين الأحساء وقطر في الشمال وعمان في الجنوب. وبتقدير متحفظ يمكننا أن نقول إن حدود القبيلة بكاملها تمتد لحوالي ربع مليون ميل مربع من الصحاري.

تقع واحة يبرين على مسيرة أربعة إلى خمسة أيام، أو حوالي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب من الأحساء بعرض سهل جيري شبيه بالسهل الصحراوي الواقع بين الأحساء والدهناء، والواحة يحفها النخيل، وتُقارن في مساحتها بالأحساء ولكن ليس في كثافة نخيلها، أو خصوبة أرضها، وتقع في واد ضحل بين سلسلتين خفيضتين من التلال. ما استطعت الوصول إليه أنه لا توجد قرى أو مستوطنات دائمة في ذلك الصقع بل قليل من البيوت الطينية والآبار التي يتجمع حولها رجال القبيلة بعد فواصل زمنية متباعدة، وعلى وجه الخصوص في وقت جذاذ التمر إذ أن البساتين التي لا تُسقى ولا يُعتنى بها تنتج محصولاً وفيراً من النخيل التي تسمد طبيعياً عاماً بعد عام لجني ثمارها ولأن أصحابها يهربون من البعوض والمناخ غير الصحي في الوادي ليعيشوا مع إبلهم في قلب الصحراء. وتُترك الإبل في بعض الأحيان ترعى في الصحراء مع قليل من رعاة القبيلة بينما تتوجه بقية القبيلة رجالاً ونساءً وأطفالاً لجذاذ محصول التمر ولتخزينه لاستهلاك بقية العام. هذا هو الوقت الوحيد الذي تتعرض فيه القبيلة للمخاطر وتواجه الغارات من أعدائهم القبليين أو من حاكم الأحساء المسؤول إدارياً عن هذه المنطقة، إذ أنهم في بقية العام مُحصّنون ضد الهجوم في معاقلهم تلك المحصنة بالرمال.

يقطع منخفض السهباء العريض طريق الأحساء في موقع يبعد حوالي خمسين

ميلاً إلى الشمـال من يبرين، ويمتد هذا المنخفض بعد أن يفارق اليـمامة في الخرج بالقـرب من آبار الوسيع في اتجـاهه إلى الدهناء. لذا فإنه ولمسـافة عـشرين مـيلاً تختـفي معالمه رغم أنّه لا يدفن بالكامل تحت الرمـال، ولكنه يظهر بعدها مـجدداً عندما يعـبر الصحراء الجـيرية، وبعد أن يفارق وادي الفـروق يستمر حـتى يقارب الخليج الفارسي الذي كـان يصب في ميـاهه في الأزمان الغابرة بالقـرب من نتوء قطر، وذلك عندما كـان مجرىً مـائياً. وتوجـد في مهد هذا المجـرى بالقرب من تقاطعه مع طريق الأحساء أربعة آبار هي الخِن، ويجانبـه بستان صغير للنخيل، ثم بئر حرض وبئرين آخرين.

وتفـصل يبرين عن صـحراء الرمـال العظمى مسـيرة يوم في اتجـاه الجنوب، ويفصلها عن البياض سهل مسطح عارٍ يسمّى حريصان، وعن السليل صقع فرشة، وفي وسطها رحلة خمسة عشر يوماً- وفقاً للتقارير- وإلى جنوب الجنوب الشرقي تقع الأصقاع الرملية الممـتدة التي يسمونها خيران نسبـة لتناثر آبار وبرك مالحة بها. هنا موطن الغالبية العظمى من آل مرة الذين يخيـمون في مجموعات متناثرة حول الماء. يعيش رجال القبيلة حياة بدائية لآخر حد يمكن أن يتخيّله المرء. قطعان الإبل العظيـمـة تُسـقى وتُحلب وتُدفع للذهاب للأمـام وسط الرمـال بمفـردها دون أن يصطحبها الرعاة وتعود بعد خمسة إلى ستة أيام من تلقاء نفسها لتستقي من الآبار المالحة، وكما كان الأمر في السابقِ فإنها تُحلب وتُدفع إلى الأمام. ويحتفظ باللبن طازجاً أو رائباً في قرب جلدية لاستخدام الناس الذين لا يتذوقون الماء لشهور لأن البشر لا يستطيـعون شرب هذه المياه المالحة التي تعيش عليها إبلهم، يـعيشون فقط

على التمر واللبن وما يتمكنون من اصطياده. يتحرك الصيادون الذين لا تفتر لهم همّة مزودين بالحراب والبنادق القديمة، وفي بعض الأحيان بالبنادق الحديثة التي بدأ آل مرة يعرفونها، يجوبون المكان لمدة أيام لا يحملون فيها سوى قرب اللبن لتبقيهم على قيد الحياة. وفي بعض الأحيان يركبون ناقةً حلوب يسعون وراء الأرانب البرية والوضيحي كما يسمونه. وبذا يشتعل الربع الخالي نشاطاً وينالون حظاً من الرياضة ومن اللحوم أيضاً. خلافاً للغزلان فإن الوضيحي تعتمد على نظرها فقط للشعور باقتراب عدو، لذا يمكن للصياد الماهر أن يقترب منها بسهولة نسبيّة ولكن خجلها من الأشياء الغريبة ليس له حدود ومجرّد لمحة لرجل بل مجرد النظر إلى آثار إنسان على الرمال تكفي لتجعلها تقفز وتسرع في الصحراء لمسافة آمنة أكثر من الموقع المحتمل للأذى. وعندما تجرح فإنها حيوان يستحق الاحترام إذ تلقن المتهاونين من الصيادين درساً قاسياً تستخرج فيه أحشاءهم باستخدام قرنها الطويلة الحادّة. بعد قتل الوضيحي يقوم الصيادون بنزع الجلد كاملاً وينزعون الأحشاء ثمّ يملحون الجسد قليلاً ثم يتركوه ليجفّ تحت أشعة الشمس الحارقة، وهكذا يأكلون لحمه نيئاً أو يطبخونه جزئياً في رماد نيران المخيّم. ولهم اعتقاد أن أكل وجبة من لحم المارية النيئ ولبن الإبل له مفعول قوي على المقدرة الجنسية. كما أنهم يأخذون اللحم المجفف ليبيعوه في أسواق الأحساء والسليل والوادي، كما يفعلون بالجلود والقرون أيضاً. ويقولون إن اللحم المطبوخ منه له مذاق شهي يقارب في نكهته لحم الغزال المجفف. أما الأرانب البرية والطيور فإنها تؤكل بعد طبخها جزئياً في الرمال.

إنّ حياة آل مرة الاجتماعية بسيطة بساطة وجباتهم، كما أنّ تعاليم العقيدة الإسلامية وواجباتها متبعة الآن بينهم -على الأقل- من ناحية الشكليات، ولكنها لم تتبع إلاّ حديثاً. كان جابر يتذكر أزماناً لم تكن الصلاة فيها معروفة لهم، وكانت إجراءات واحتفالات الزواج خلواً من أي عنصر ديني، إذ لم يكن هناك مأذون أو شهود. كلٌ من العريس والعروس مشعابه (عصا الإبل) مع مشعاب الآخر بطريقة رأسية في الأرض بينهما، ثم يدورون حولهما مرتين أو ثلاث مرات وهما يرددان تعبيراً بسيطاً مثل: «لقد ملكنا»، وكان هذا يجعلهما زوجين دون إجراءات إضافية تخول للعريس البناء بزوجه.

كان بعض الفرجات التي تسمّى الخرائم[1] تقاطع امتداد الرمال في إقليم خيران بروابيه وهضابه الرملية، وهناك صقع يسمى الجافورة وهو منخفض غطت الرمال المتحركة جزءاً كبيراً منه فيما يبدو. ويقال إن به بقايا مدينة قديمة لا يعرف شيء عن تاريخها رغم أنها قد تكون معاصرة لمدينة وبار التي كانت تقع على بعد مئة ميل أو نحوها في اتجاه الغرب والتي كونت جزءاً من مملكة عاد بن شداد الذي ذكرت قصته آنفاً[2]. ولم أتمكن من جمع أي تفاصيل عن وبار بخلاف ما يعرف عنها تقليدياً، ويحتمل أن السبب في ذلك أنها لا تحظى بالزيارة إلاّ إذا شملها فخذ الدمنان التابع لآل مرة في خط سيرهم. ولكن الجافورة بوصفها مركزاً لآل مرة الذين يذهبون للأحساء من وقت لآخر فإنها معروفة أكثر بما يُتداول عنها من

(١) جمع خريمة. (المؤلف).

(٢) راجع المتن ص١٠١ . (المؤلف).

حديث. وهناك الكثير من الغرائب التي ترتبط بها. يقال إن الحجارة المتحركة[1] تأتي من هنا. لقد سبق أن ذكرت شيئاً عن هذا الأمر وأخبرت عن عجز بعضهم من إثبات هذه المقدرة للحجارة في جمع من الناس تجمعوا ضيوفاً على عبدالله بن جلوي. ويقولون إنه يوجد في مكان ما في الجوار في وسط الرمال المحيطة تمثال لجمل معدني بالحجم الطبيعي ويقولون إن الرياح التي تهبّ تزيح بعضاً من الرمال المتراكمة لتظهر في بعض الأحيان بقايا أعمال يدوية تعود لعهود قديمة، وأجزاء من تماثيل مثل رأس مفصولة أو يد أو حجر مصنوعة من الحجارة أو الرخام. لكنّ أكثر ما يخشاه المرء هنا هو الجنّ أو الأشباح التي ترتاد المدن المدفونة، وقد يسمعونهم في الليالي العاصفة وهم ينوحون بطريقة تدعو للشفقة على المصير الذي حلّ بمشاهد حياتهم السابقة. ولقد أكّدوا لي أنّ من يجرؤ من ضعاف العقول على الاقتراب من تلك المنطقة ليلاً يصيبه الجنون من الخوف. لا بدّ أنها بقعة مخيفة تلك المدينة الميتة البعيدة عن الإدراك البشري، وقد تكون البرك المالحة حولها هي كل ما تبقّى من واحة عظيمة ازدهرت في الأيام الخالية قبل أن تجتاحها الرمال لتزيلها من خارطة جنوب الجزيرة العربية. كانت رغبتي - إن قدر لي أن أزور الأحساء مجدداً- أن أقوم بمزيد من التحقيقات حول هذه الأمور وأن أتحصّل على عينات من البقايا الموجودة في الجافورة بسبب ما سمعته من قصص حولها، لكنّ هذه الفرصة لم تسنح لي، وآمل أن يتمكن رجل أكثر حظاً مني يوماً ما من التحقّق من مصداقية من أخبروني عنها.

(١) راجع الجزء الأول ص٩٥ . (المؤلف).

لم أتمكن إلاّ من جمع القليل من المعلومات عن الحدود الجنوبية للربع الخالي، حيث يتاخم الحدود الجبلية لعمان من جانب، وحضرموت من الجانب الآخر. وما عرفته هو أنّ قبائل تلك الفيافي لم يتزحزحوا إلاّ قليلاً عن الحياة الهمجية البربرّية المحضة، وأكثرهم بربرية هم العوام الذين يقال إنهم لا يرتدون من الملابس إلاّ النزر اليسير ويعيشون بالكامل على لبن الإبل ولحم المارية. بيد أنّ الجانب الغربي من الربع الخالي تجري نحو رماله مجاري السيول من جبال اليمن، وحيث إنّ قبائل يام يتحركون من مركزهم في إقليم نجران فيسيرون مع آل مرة. وحول هذا الجانب تمكنت من تجميع كثير من المعلومات رغم أنها معلومات هلامية وغير دقيقة، جمعتها من كثير من الأشخاص الذين التقيت بهم خلال هذه الرحلة وأثناء إقامتي في بقاع مختلفة بطول مجرى وادي الدواسر.

لقد ذكرت من قبل أن الوادي يصل إلى حدود الربع الخالي في موقع يبعد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من السُّلَيّل، ووفقاً للتقارير فإن ذهبنا لمسافة مشابهة من نفس الموقع إلى الجنوب الغربي سنجد أنّ الامتداد الجنوبي لمرتفعات طويق يندفن تحت الرمال المتحركة في صقع يسمّى المندفن. وفي منتصف الطريق بين المندفن ومجرى الدواسر ينصدع الحاجز إلى جزأين بواسطة مجرى مائي مشابه للوادي يسمّى الفاو وينحدر من الجبال الغربية ثم يجري نحو الشرق لينتهي أمره في الرمال. تقع سلسلة جبال اليمن إلى الغرب من هذا الموقع وتتخلل منحدراتها الشرقية واحات غنية في تلك السهول البائسة، وتنتهي هذه المنحدرات أيضاً لتبتلعها الرمال. أمّا أودية تثليث وبيشة ورنية فتنحدر عبر مرتفعات عسير لتكوّن وادي الدواسر بالتقائهم في السهل. هذا هو الهيكل العاري للصقع وبقيت التفاصيل لتعطي الصورة كاملةً. هذه الأماكن -ولحدٍّ كبير- لم يزرها أيّ أوربي،

وهناك فقط نجران التي رآها ووصفها جوزيف هالي في عام ١٨٧٠م، ومعلوماتنا عن هذه المناطق تعتمد على المعلومات التي جمعها -من غير مصادرها الأولية- رحالة أكثروا من الاستفسار عنها في رحلاتهم لجهات مختلفة من الجزيرة العربية.

الشيء الذي أستطيع تأكيده هو أنّ الواحات التي تنتشر في وادي رنية يسكنها في الغالب مستوطنون من قبيلة سبيع مع جماعات متناثرة من قحطان والدواسر، بينما تسكن أودية تثليث وبيشة والجبال التي تقع خلفها على سبيل الحصر تقريباً قحطان، وهم قبيلة تمتّع قسمها الذي يسكن المرتفعات باستقلال شبه تام تحت إدارة اسمية هلامية من الأتراك مركزها أبها. ولكن في السنوات الأخيرة صار هناك اتجاه لأن يدين أهل هذا القسم بولائهم لابن سعود الذي تدين له بالفعل أقسام القبيلة التي تعيش في صحاري نجد، من حدود جبالهم حتى الرياض نفسها: وأيضاً في اتجاه الشرق. وهناك حقيقة لا جدال فيها وهي أنه خلال إقامتي في الجزيرة العربية كان هناك قدر ما من الاتصال بين أمير قحطان وابن سعود فيما يختص باقتراح قدّمه الأوّل لأن يمتدّ النفوذ السعودي في اتجاه الغرب نحو الجبال، وفي نفس هذا الوقت كان الأمير يتقاضى مرتباً من الأتراك.

يمكن بلوغ مستوطنات رنية بسير غير متعجّل في خمسة أو ستة أيام من واحة الوادي. ويمرّ الطريق من وادي الدواسرعبر رابية تسمّى حُلَيّة ثم يمرّ عبر شريط رملي نحو الريانية التي يمكن بلوغها بعد ليلة أخرى. وبالسير ليوم آخر عبر سهل تقاطعه كثير من روافد الأودية الكبيرة الثلاثة، يصل المرء إلى جبل الباقر، وبعدها يتابع مجرى رنية عبر مجموعة من الآبار تسمّى رغوة، حتى بلوغ ريجة، وهي

أوّل مستوطنة وبهـا قليل من القصور وحقول حبوب مـجرى رنية. بعدها يمرّ المرء بسوق المراغين وهي قرية صغيرة بها نخيل، ثم الشميسات، وهي مجموعة صغيرة من المزارع وسط النخيل، ثم قرية الضُّرم ونخيلها، وبعدها العَملة، وهي المستوطنة الأخيرة والأكثـر أهمية بالواحة وهي مدينة صغـيرها يسكنها ٢٠٠٠ من السكان. وباتّباع مجرى رنية لمسافـة عشرة أميال إلى الأعلى من هذه النقطة يمرّ المرء بأطراف بعض الجبال السـوداء- لعلّها حرّة نواصف -حتى بلوغ وادي تُربـة بمواصلة السير ليومين في اتجاه الشمال الغربي من العـملة. وفي مهد وادي تربة واحة ممتدة تحمل اسمه، ويبعـد الوادي مسيرة يومين أيضاً في اتجاه الجنوب الغـربي من الخرمة التي تقع في امتداد الوادي نفسه بعد أن يتحول اسمه إلى وادي سبيع. في حقيقة الأمر يرى سعـد، وهو أحد مصـادر معلوماتي، أنّ وادي تربة مـاهو إلاّ رافد من وادي رنية وليس امتـداداً لوادي سبيع،ولكنّي آثرت في هذا الشـأن أن آخذ برأي آخرين أرى أنهم أجدر بالثقة منه، وتركت المسألة عند هذا الحدّ حتّى يحاول رحالة أوربي آخر قطع الشك باليقين.

يجري الطريق من الوادي إلى واحة بيشة في اتجاه غرب الجنوب الغربي مروراً بروابي مطيعان وأبرق المجاريب وبعرض سهل تحـفة الهضاب، نحو مجرى تثليث الذي يقطعه الطريق في نـقطة تبعد حوالي خـمسين ميـلاً غرب الوادي. ثم يقطع الطريقُ شـريطاً متمـوجاً عـرضه حوالي عـشرين مـيلاً. وفي هذا الشـريط توجد مجموعتـان من الآبار في مهد الشعيب: حبِيّة وملَه، وتفصـل بينهما أميال ثلاثة، ثم يبلغ الطريق سفح وقر الحمر وهي سلسلة عـالية من الجبال تفصلُ وادي تثليث عن وادي بيـشة، ثم يرتقي الطريق هذه السلسلة. ويـوجد بعد ذلك صـقع رملي متموّج الرمال تحزّه عدد من الشعاب التي تنحدر من سلسلة تلال الراك التي تتوافر

المياه على قمتهـا من مجموعة قوامها خمسة عـشر ثقب ماء. وهناك شريط سهلي عارٍ آخر يؤدي إلى منخـفض محدد المعالم، والطريق يؤدي إلى حـيث يلتقي هذا الشريط مع وادي بيـشة نفـسه، وقبل هذا الملتـقى بقليل يقف جرف عـالٍ يسمّى خشيم الـذيب. كما توجد في هذا الموقع أيكة ممتـدة من شجيرات الحلفـا والطرفا كما كانت تحدّها من ورائها أشجار النخيل التي كانت تفصل فيما يبدو بين سلسلة الجبال وبين التلال السفحية، وكان الطريق ينحدر منها بتمهل حتى يصل إلى النمو النباتي الكثـيف في المهد. ويتابع الطريق الآن المجرى في انحـداره مروراً بالمناطق المخـتلفة التي تكوّن واحـة بيشـة. هذه المناطق هي: الروشن وتتكون من قـرى: النخيل النقيع التي تحتوي على قلعة عالية تسمّى قصر بني ثور، وقرية الجنينة وهي أكبر المناطق. وبعد هذا يشقّ الوادي السهل متفرعاً إلى روافد متعددة لتلتقي جميعاً مع رنية من جانب، وتثليث من جانب آخـر، ثمّ يمتد الطريق إلى باجر والريانية، ومن هنا رجع سـعد الذي كـان قـد زار هذه المستـوطنات متـتبعـاً الطريق الذي وصفناه. ثم قفل الرجل عائداً إلى داره في وادي الدواسر بعـد أن قضى ستة عشر يوماً فـي هذه الرحلة الدائرية التي كان يمكن أن تـقطع في عشـرة أيام ببذل جـهد أكبر.

كان سعد قد زار أيضاً واحـة تثليث سالكاً طريقاً في اتجاه الجنوب الغربي من الوادي عبر سلسلة تلال برايم البيض، ثم إنّه قطع مجرى تثليث في آبار الريان بعد مسيرة خمسة وخمسين ميلاً. كان تتـبّعُه لمجموعة آبار كيف الواقعة على بعد أميال قليلة أعلى المجرى قـد قاده إلى قرى وبسـاتين نخيل جاش وقِنَّة الواقـعة إلى يمين المجرى الرئيس، بيـد أنّه مرَّ بهذه القـرى ولكنه لم يتوقف بهـا، ثمّ سار إلى آبار أفازة التي بلغـها بعد مسيـرة يوم قصير، وتقع من ورائهـا القرية الكبيرة حَـمضة

بسكانها البالغ عددهم ١٥٠٠ نسمة. وبمسيرة يوم مشابه أعلى المجرى، بلغ مستوطنة عَمق وهي أكبر مستوطنات المجموعة وتقع في حوض كبير تتناثر فيه القصور وبساتين النخيل، وهذا هو مصدر تثليث فيما ادّعى، رغم أنني أتصوّر أنّ مصدره غير هذا، بل حيث تلتقي ٣٠٠ من مجاري السيول النازلة من الجبال المحيطة لتختلط مياهها فيصدر بعدها تثليث. تقع مدينة خميس مشيط[١]، المدينة التجارية الناهضة خلف الجبال من الناحية الغربية فوق هضبة عسير. إنّها أعلى ارتفاعاً من أن تُزرع بها النخيل.

كانت الأودية تنحدر من الجبال على أبعاد متقاربة إلى الجنوب من تثليث، ولقد سمّى لي حسن ما لا يقل عن سبعة عشر منها بين تثليث وبين وادي الجوف العظيم الذي توجد به بقايا سد مأرب الشهير ونواة أودية حضرموت في اتجاه الربع الخالي. بعض هذه المجاري المائية تتجمع دون شك لتكوّن مجرى الفاو الذي شقّ طريقه عبر حاجز طويق. ولكن معظم هذه المجاري لا جدوى كبيرة لها، وليس يستحق الذكر منها سوى اثنين هما حبونا ونجران وهما من الأودية الثريّة الخصيبة و«معروفة بأنها آخر معقل للمسيحية في الجزيرة العربية». ويمتد المنخفضان اللذان تفصلهما هضبة خفيضة جنباً إلى جنب في اتجاه الشرق نحو الرمال حيث ينقطع أثرهما[٢]. وفي كلا المنخفضين توجد واحات كبيرة مزدهرة تضمّ قرى عديدة يسكنها شبه البدو من

(١) هناك طريق من هذه المدينة للوادي عبر جاش، وفي الوسط تقع طريب على مسيرة يوم ونصف، والصبيخة على مسيرة يوم من خميس مشيط، وعلى نفس المسافة من جش. (المؤلف).

(٢) كان الظنّ أنّ حبونا هو رافد من وادي الدواسر، ولكنّ هذا غير صحيح دون شك. ويقال إنّ وادي نجران يصبُّ في وادي يُسمّى عفتانة أو عفتان ومن ثمّ في الرمال، ولكن كل التحريّات التي قمت بها لم تسفر عن معلومات في هذا الإطار سوى أنّ وادي نجران يجري إلى أن يندفن في الرمال. وأنا أظنُّ أن اسم عفتانة قد يكون اشتقاقه من تعبير كهذا مع بعض التحوير. (المؤلف).

رجال القبائل. ومن هذه المنخفضات أيضاً تجرى غدران مائية لا تجفّ طوال العام تقريباً. هذه هي المنطقة التي يشير إليها أهل الوادي باسم نجران، والتي يتحدث عنها أهل الوادي الفقراء بفخر على أنهّا مركز الحضارة والثراء رغم أنهّا لا تعدو أن تكون مجموعة واحات مزدهرة بعض الشيء لكن إمكانياتها محدودة، ومعظم سكانها لا يزالون يجوبون القفار مع قطعانهم.

تحتل نجران موقعاً تجارياً مميزاً في جزيرة العرب، وتعد ميناء الصحراء، ويقصدها تجار جنوب نجد ليبتاعوا بُنَّ اليمن والبضائع الثمينة باستبدالها بالأقمشة الهندية والضرورات الأخرى الموجودة في المدن الداخلية. وتلتقي هنا عِدّة طرق؛ طريق يسير في اتجاه الجنوب، من الجوف، وطريق من سعدة الجبلية، وطريق من حضرموت ومن السُّليل ومن الوادي. فالطريق من السليل يعبر المنحدرات الشرقية لطويق في منخفض به بئر واحدة تسمّى الحسّي بالقرب من وادي الفاو العريض الذي قد يجري بالماء في موسم السيل خاصة في منخفضات القلاة. بعد ذلك تنحدر حتى يختفي منها الأثر في الرمال التي تعتمد مناطقها على مياه من الآبار المنعزلة في شعيب حما وشعيب وريك. إنّه لطريق جدّ طويل ومرهق، والمسافة الممتدة بين حاسي وحما يرهق القوافل المثقلة بالبن في فصول الجفاف، كما أنها موبوءة بقطّاع الطرق النهابين. وكلّ هذا ينطبق على الطريق القادم من الوادي الأندى، أي أكثر ماءً. هذا الطريق يمرُّ عبر آبار وعيفرة وعددها اثنتا عشرة أو نحوها وتقع في منخفض على مسيرة يوم، وهناك آبار وجيد بعد مسيرة يوم آخر، وهناك بئر سحب وحيدة في وادي القري الذي ينحدر من المرتفعات ليجري نحو حبونا عبر أودية نجد وحما الخاليين من الماء واللذين يتّجهان شرقاً، وكلاهما ينحدر من جبال الغرب.

لعله من الصعب تقدير تعداد سكان صقع نجران -حبونا. ولكن اليقين أن السكان المقيمين منهم والبدو يزيدون بكثير عن سكان وادي الدواسر. ولعلّ أهل يام هم أهم التجمع القبلي المتحالف الرئيس في هذا الصقع. والقبائل الموجودة الآن هم فروع للأصل الذي بقي في المكان، وهو الأصل الذي نتج عنه كثير من القبائل الموجودة الآن بنجد. وإذا استثنينا أقسام القبيلة التي نمت فصارت في مصاف قبائل كاملة نجد أنّ كل المجموعات تدّعي انتساباً ليام من جدٍّ يعرفونه محلياً باسم وُعَيْل. ويبدو أن القبيلة مقسمة إلى ثلاث مجموعات كبيرة: السليمان والفاطمة والمذكر، وهذه تنقسم إلى الأقسام المعروفة الآن. لم أستطع أن أعرف ما إذا كانت المجموعات المستقرة في القرى من الأقسام القبلية تحتفظ باستقلالها كما هو الحال مع أقسام الدواسر، أم أنها اختلطت وتلاحمت كما هو ملاحظ في مستوطنات وسط نجد. ولم أعرف أيضاً ما إذا كانت القرى تدين بالولاء لحاكم واحد،رغم أنني استنتجت من محادثتي مع سمعان وحسن وآخرين من خلال إشاراتهم للتباين في المعتقدات الدينية السائدة بينهم وخرجت بانطباع أنّ قرى نجران تتباين وتحتفظ بهوياتها المستقلة كما هو الحال مع الأجزاء البدوية منها، وأنّ الرابط الوحيد بينهم هو تحالفهم من أجل البقاء عندما يحدق الخطر من عدو مشترك، وهو أمر يضمحل وينزوي بزوال الخطر. إضافة لأنهم يتقاتلون أحياناً فيما بينهم كما يفعل العرب.

إن كان لنا أن نختار قسماً يحظى بوضع مهيمن وسط الأقسام الأخرى لعلوّ المرتبة فلعلّه يكون قسم مهشل وزعيمه محمد بن سجوة - الذي ينتسب لأمه كما يحدث كثيراً في الجنوب- واشتهر بأنه زعيم قوي. إنّ توحّد العقيدة في نجد يؤدي دوراً كبيراً في حفظ القانون والنظام، ولكن تختلف المعتقدات الدينية والممارسة في

نجران فتـؤدي دورها في تباعد الوحدات القبليـة. وفيما يختص بالقـضايا الإيمانية يبدو أنّ كلّ رجل منهم قـد اختطّ لنفسـه منهجاً خـاصاً به إذ أن الأقسام المخـتلفة تظهر الفـرقة في داخلهـا في هذه الجوانب وضوحـاً كبـيراً. لذا فإن أيّ مـحاولة لتصـنيف الأقسام الـقبلية عـلى أساس المناهج الدينيـة أمرٌ غـير مسـتطاع، أي أنّ الاختـلافات هي بين الفرد والآخر داخـل الوحدة القبلية نـفسها. وتحـتفظ بعض المجموعـات بشيء من عبادات العهـود الوثنية، إذ كانوا مع عبـادتهم لله يذهبون لجبل في منطقـتهم يُسمى صـلاّح، ينحرون في سفـحه الذبائح ويضعـون السمن وغيره لتستهلكهـا أشعة الشمس الحارقة. لقد استطاعت العقيـدة السلفية بفضل ما بها من منطق الدعـوة للإصلاح أن تجد بعض القـبول بين أفراد هذه الأقـسام، ثم بدأت تتغلغل في السنوات الأخيرة في كـثير من أقسام المجموعة القـبلية، وخاصة بين أقـسام رشـيد وفـهّـاد. وليس أدلّ على اتبـاعهم للنهج السـلفي من قبـولهم للاحتكام في خصـوماتهم لمحاكم ابن سعود بالوادي. وهناك أقـسام أخرى حدث لها هذا التحوّل.

إن انتشار هذا التوجه نحو العقيدة السلفية في بقية الأقسام يمهد - بلا شك - لنفاذ أكـبر لسلطة ابن سعـود في الجنوب، وهو ما سيـؤدي لكثير من الاستـقرار والأمن في الجنوب، الذي ظلّ محروماً منها. ولعلّ موضوع التحوُّلات المتوقعة في المعتقدات الدينية في المستقبل القريب لنجـران يستحق دراسة دقيقة من باحث مهتم بمستقبل الجزيرة العربية. يختلف مـذهب البياضية عن المذهب السلفي في إغفالهم للأذان ولصلاة الجماعة. ولعلَّ من عجـائب المذهب الإسماعيلي - من جانب آخر - هو إحلالهم عبـارة «حيّ على خير العمل» محلّ عـبارة «حيّ على الصلاة» في الأذان، وأيضاً إغفالهم للترديد الجمـاعي لكلمة «آمين» عقب فراغ الإمام من قراءة سورة الفاتحة في صلاة الجماعة.

هذه هي نجران. أمّا عن الجوف مركز حضارة السبأيين القديمة، وسدّ مأرب الشهير الذي أدّى انهياره في الأيام الحالية إلى دمار واسع الانتشار بين القرى التي كانت مزدهرة في الجزيرة العربية، وعن هذه المدينة لم أسمع إلاّ شائعات هلامية وأنها تقع في بلاد بعيدة.

الفصل الحادي عشر

حاجز هضبة طويق

١- وسط روافد وادي الدواسر:

أمضينا ليلة السادس من يونيو (حزيران) في غار صغير في جرف طويق، في الموقع الذي يخرج فيه مجرى سيول كميح من جانب الجرف وسط كمية من الحجارة الجلمودية الضخمة المتناثرة. سمت فوقنا صخرة شاهقة بلغ ارتفاعها ٥٠٠ قدم أو أكثر، وهي من حجارة جيرية مائل لونها إلى الحمرة وتغطي سطحها طبقة صفراء من الحجارة المتساقطة. كل هذا نتاج لفعل الطبيعة في عهود طويلة ممتدة. كان المشهد العاري حولنا يتغيّر من وقت لآخر بوجود شجرة سنط هنا أو هناك أو رقاع من نبات المرخ الغض، بينما كانت الأعشاب الخشنة تحاول جاهدةً أن تحيي ذكرى سيل مرّ يوماً من هنا.

كان إبراهيم ورفاقه حريصين على أن نعود سالكين المسار المطروق الذي اتبعناه في طريقنا للوادي. لكنني أصررت على اتباع طريق آخر فأذعنوا ـ بعد لأي ـ لرأيي تعزية لي عما فعلوه ضدّي بإبعاد جابر. لم أكن أهتم أيّ الطرق نسلك في طريق العودة طالما أنّه مختلف عن ذلك الذي أتينا عبره. كان هناك الطريق الذي يتتبع أطراف حاجز طويق من الناحية الغربية، وكان هناك أيضاً الطريق الذي يتسلق المرتفعات في الجانب العريض للهضبة، وتم اختيار هذا الطريق الأخير على زعم أنّه أقل إنهاكاً وأقل رتابةً من الآخر. وخلال الأيام الثمانية عشرة التي تلت، تسلقنا بجهد نحو قمّة الهضبة حتى بلغنا الرياض مجدداً. وتمكنت خلال الرحلة بالسؤال وبالملاحظة أن أربط بين الوهاد والمجاري المائية من جانب، وقنوات

تصـريف المياه الرئيـسة من جـانب آخر. لقـد سبق أن عـبرت المنطقـة في رحلة الذهاب، وكنت في حالات نادرة أرى ومضات من الإقليم الجبلي الواقع في جهة الغرب، ذلك الإقليم الذي شققـته أثناء رحلتي للبحر الأحمر في ديسـمبر (كانون الأول) الماضي.

كان الارتقاء لقـمة الهضبة عن طريق شـعيب الكميع الضيّق الشـديد التحدّر عملاً مـضنياً سبب كثيراً من التـعب لجمال القافلة المحملة مما سـبّب بطء الحركة. يبلغ عرض الممـر مئة ياردة أونحوها في بدايتـه،وهوالمخرج الذي تنزل عبـره مياه السيول باندفاع كبير نسبةً لشدّة التحدّر. ولكنّ هذا الممر يضيق بسرعة عندما تُضيِّقُ عليه الخناق حوائط صخرية. يتبع الطريق الذي سلكناه مجرى السيول نفسه إلاّ في موقعين اثنين حيث نُحِـتَ درج محفوف بالمخاطر فوق منحدرات صـخرية عظيمة تَهوي من ناحيتها مياه السيول لعمق أربعين أو خمسين قدماً.

وجـدنا في سفح إحـدى هذه المهاوي المائـية بركـتين تحمـلان ميـاه السيـول وتستكنّان وسط صخور جلمودية عظيمـة. وقفنا على البرك قليلاً حتى تروّي إبلنا العطشى ولنمـلأ قرب الماء ولنحـتـفل بمذاق ماء السـيول العـذب البارد بعـد أيّام قضيناها مع مياه آبار الوادي المالحة. كانت الميـاه مخلوطة بالطين لكنها كانت جميلة الطعم. كان المهد الرملي للمجـرى مليئاً بالماء، وما كان ليحتـاج سوى لنبش يسير حتى يتدفق الماء. نهلنا من هذا الماء وعللنا ومـلأنا القرب وشربت الإبل من البرك الراكدة. بينما كنا نستقي لاحظت سطحاً أملس لأحد الألواح الصخرية الضخمة. كانت أبعاد اللوح الصخري عشرة أقـدام في عشرة وكان ملقىً بجوار إحدى البرك وبه نقوش ذات طابـع بدائي، لا بد أنها لم تكن شـيئاً أكـثر من بعض الأعـمال اليدوية لأعرابي عاطل أمضى بعض الوقت هنا، إذ أنها كانت نقوشاً خلواً من أيّ

معنى أو أهمية، ولكنها رغم هذا كانت مثيرة للفضول حقاً في بلاد تقلّ أو تنعدم فيها النقوش من أي نوع. لذا فإنها عندما توجد فإن التعرّف عليها سهل فهي وسم أو علامة لمقتنيات قبليّة. في هذه الحالة لم يستطع رفاقي أن يهتدوا لتفسير لهذه العلامات، ولقد قمت برسم عينات من هذه النقوش.

وقف تقدمنا ببلوغ جرف المهوى المائي الذي كان علينا أن نلتفّ حوله عبر طريق ضيق بطول سلسلة صخور نُحتت في الحائط في الجانب الشمالي للوهد، وكان كثيراً ما تعترضه الصخور التي تهوي عليه. آثرتُ أن أرتقي على قدميّ لقمّة المرتفع، وجلست هناك أرقب بقية القافلة تقتفي أثري. ورغم ما يبدو من عدم التناسق في شكله إلاّ أن الجمل لا يخلو من رشاقة وخفّة. لقد أعجبني منظر البعير المحمَّلة بالأمتعة ترتقي ببطء ولكن بثقة المرتفع المتثني الخطر. مرّت التجربة بسلام إلاّ من حادثة واحدة وقعت عندماكانت ستة من الإبل ترتقي المرتفع إذا وقف الجمل الثاني رافضاً التحرّك، وبالطبع احتجز من ورائه بقية الإبل. استدعى هذا الموقف الرافض للحيوان أن تقوم المجموعة بتعبيد للطريق بأن دفعوا نحوالهاوية بعضاً من الصخور الضخمة لتوسعة الممر مما أدّى لتحسّن طفيف في عرضه، ثمّ جرت محاولة ثانية لحثّ الجمل على التحرّك لكنه خطا خطوات قلائل ثم هوى بقوة على الأرض الصخرية من تحته. ولم يمنع محاولات الرفاق لحثّه على النهوض ومواصلة الارتقاء، ولكن اتضح لاحقاً أنه قد أصابه جرح داخلي عدوه من الخطورة بحيث عدّ الجمل عاجزاً عن مواصلة النضال، وبهذا زُوِّدنا دون قصد بإضافة حقيقية لحصيلتنا من الطعام. صار لدينا لحم لم نكن لنتحصَّلَ عليه إلاّ مصادفة بالتقائنا مثلاً برعاة للخراف في تلك الأرض الجدباء التي كنا نمرُّ بها.

وبعد تخطّي هذه العقبة صار مهد الشعيب من الحجارة الصمّاء التي حفرت فيها السيول المنحدرة فجعلتها ملساء. كانت تتناثر هنا وهناك شجيرات السمر وأعشاب خشنة، وكان عرض الشعيب خمسين قدماً أو نحوها تَحُفُّهُ الكتل الصخرية ومن ورائها وقفت حوائط صخرية شديدة التحدّر لارتفاع بلغ ٢٠٠-٣٠٠ قدم فوق رؤوسنا.

ارتقينا الجرف التالي الذي كان يعلو هذا الجزء من الوهد دون كثير عناء وسلكناه عبر ممر متعرّج لارتفاع جديد يعلو موقع مخيم الليلة السابقة بثلاث مئة قدم وفقاً لجهاز قياس الارتفاعات الذي كنت أحمله. وهناك تحوّل الوهد لوادٍ عرضه مئتا ياردة، تحف به جوانب التلال ولكنه كان أقلَّ انحداراً من الصخور التي تركناها خلفنا، ولعلّ هذا المستوى لم يكن أكثر من مئة قدم في الارتفاع. هناك سلسلة تلال خفيضة في أعلى ذلك الوادي تفصل بين شعيب الكمع وشعيب الكميع وهووهد أكبر قليلاً من رفيقه، ويجري نحو الجنوب عبر متاهة متعرجة من الهضاب والتلال. هذه المتاهة هي جزء من طويق وتتاخم الجانب الشمالي من وادي الدواسر أي جزء العفجة من الوادي، وفي الجزء يصبُّ مجرى الكمع.

في هذه النقطة بلغنا أكثر المراقي خطورة، وهو ممرٌ ضيِّق يسير في اتجاه قمة أصابتها عوامل التعرية، قمّة لسلسلة تلال تُشبه الوتد تفصل بين وهدين. حاولنا في البداية الارتقاء بممر آخر يمرّ عبر جانب سلسلة التلال هذه، وكنّا تراجعنا عندما اكتشفنا أنّ جزءاً كبيراً من هذا الممر قد غسلته السيول تماماً منذ عهد قريب.

لم يكن الممر الذي سلكناه يختلف كثيراً عن ذلك، كان عرضه عشرة أقدام وله جوانب شديدة التحدّر من الجانبين وتعترضه في نقطة منه صخرة جلمودية

عظيـمة لم تترك مـن الممر سوى قـدمين على كلّ من الجانـبين وبكثيـر من الحذر والصبر تمت قيادة الحيوانات عبر هذه العقبة إلى برّ الأمان، وبعد ذلك بدقائق بلغنا نصبـاً أقيم ليَسِمَ قمـة الهضبة، لعـلّها كانت على ارتفاع ٢٥٠٠ قـدم فوق سطح البحر، و٥٠٠ قدم فوق موقع مخيمنا السابق.

لاحت أمام أنظارنا الآن مرتفعـات مهجورة متموجة، وعلى البـعد من ناحية الغرب بدا لنا الـسهل الرملي الذي عبـرناه في طريقنا من الوادي. كانت صـخور طويق العارية تحـجب الأفق من الناحية الشـرقية، بينمـا امتدّت هضـبة طويق من ناحيتي الشـرق والشمال يشققـها عدد لا يُحصَى من الوهاد، تحمل تصـريف مياه طويق نحو مجـرى وادي الدواسر. أهم شرايين هذه المرتفعات هو شـعيب المراغة ومنابعه على بعد خـمسين ميلاً إلى الشـمال من هذه البقعة. يفـصل هذا الشعيب بين وادي الدواسر ونظام تصريف مقرن.

أنخنا مطايانا هنـا لنرتاح من عناء الصـعود، ثمّ تابعنا المـسيـر فوق تموّجـات الهضبـة اللطيفة عـبر كثير من الـشعائب[1] الصغيـرة التي تجرى نحو الكمع في الأسفل. توقفنا قليلاً لتناول الإفطار في أكبر شعيب منها: شعيب مظهورة، عندها ألقيت النظرة الأخيرة على السُّلَيِّل.

خفّت حِدّة الارتقاء ونحن نسلك الآن طريقاً شمالياً نحو سلسلة تلال خفيضة تسمّى خُتَيِّم الخنقة، وهلّل رفاقي فـرحاً عندما لاح لنا العرفج، ذلك النبات الذي يقال إنه لا ينمـو إلاّ شمال الوادي. ألهبت الـشمسُ القفارَ بأشـعتها الحـارقةَ ولمع المكان بانـعكاس ضـوء الشـمـس من آلاف البلورات التي تغـطي سطح الأرض.

(١) تسمى: شعَيب سمْير، وأم الطول، ووعرة، وأثيبة، وشُقَيْب وأخريات. (المؤلف).

وبالرغم من وجود نسـمة شماليـة باردة مستـقرّة إلاّ أننا سعدنا عندمـا حان وقت الوقوف للمقيل.

تابعنا سيرنا بعد الظهر منحـدرين أسفل منحدر لطيف نحو الشرق بين سلسلة تلال ختيٍّم ومرتفع آخر من خلفه أكثر منه انخـفاضاً قادنا إلى شعيب سديرة حيث توقفنا للمـبيت بالقرب من برك الخـنقة وهي صدع صخـري عميق. كـان ارتفاع جوانب الصدع حوالي أربـعين قدماً، وكان مهده مكوّناً من ألواح صـخرية عظيمة صارت ملساء لكثرة مـرور مياه السيول عليها. أمّا عرض المهـد فهو يقارب ثلاثين ياردة وتغطيـه النبـاتات بوفـرة تشابه وفـرتهـا في المناطق المدارية. كـان أهم هذه النباتات (الشفلح) بثمـرتها الغريبة المتدلية التي تشبـه الباذنجان شكلاً رغم أنّ لونها عند النضج يميل إلى الحمـرة، وتحتوي الثمـرة على بذور كثيرة سـوداء تستكنُّ في اللب الأبيض للثمـرة، وهو الجزء الذي يؤكل منهـا وله طعم لاذع كطعم الخردل، إلاّ أنه مستساغ. لاحظت وسط الشجـيرات الأخرى وجود وهط للمرة الأولى منذ أن غادرت الـرياض متوجـهاً نحـو الجنوب، والوهط شـجيـرة ذات أشواك تُشـبه المخالب.

تتوزع برك الخنقة- وعددها ثلاث عشرة بركـة - على مسافة طولها قرابة الميل من مصدر الشعيب الذي يجري في اتجاه الشرق لمسـافة ما قبل أن يغيّر اتجاهه نحو الجنوب ليلتقي بعدها مع المجمع. لاحظت أيضاً أنّ الجروف في أدنى الشعيب أكثر علواً منها في أعلاه.

كانت البركـة التي وقفنا بإزائها لقضـاءالليل تقع في منخفض صخـري عميق مساحته حوالي عشرين ياردة مربّـعة بالقرب من منبع الوهد. وكانت البركة الثانية

وتسمّى جليطة تعامر ذات أبعاد أقل وغير منتظمة الشكل كسابقتها، طولها حوالي ٢٠ قدماً وعرضها ١٠ أقدام وعمقها ٥ أقدام، وهي عرضة للجفاف في فصل الصيف بينما الاثنتان الأخريان دائمتان. أما البركة الثالثة وهي الخنقة فهي ذات عمق بعيد واشتُهرت بأنها دائمة لا تنضب وشكلها مثلث متساوي الأضلاع، رأس المثلث في أعلى المجرى وضلعاه الآخران الطويلان تحدُّهما حوائط صخرية ارتفاعها ٥ أقدام فوق سطح ليس به ماء، بينما مهدها رملي على نفس المستوى مع مهد الشعيب وينحدر بلطف حتى حدود الماء. وكان طول هذه البركة حوالي ثلاثين قدماً وعرضها حوالي نصف ذلك.

كان لمشهد هذا الوهد الصغير مع نباتاته التي تنمو في إطار من الصخور العارية والبركة التي يضمُّها والنحل الذي يحوم حول النباتات المحيطة بالبركة، كان لهذا المشهد سحر خاص لن أنساه أبداً لأنه شيء من الأشياء الجميلة القليلة التي صادفتني خلال تجوالي في الجزيرة العربية. ولكم آسف وأعضّ أصابع الندم إذ لم تكن معي أفلام تصوير حينها، حتّى أوثّق بالصورة للآخرين صورة ما زالت حيّة في ذهني.

بعد عودتي للمخيم على أثر جولة بلغت فيها أسفل مجرى السيول وتلك البرك، وجدتُ رفاقي مسرورين غاية السرور. كان قد صدر في حق الجمل الذي وقع في الطريق قرارٌ بعدم صلاحيته لمواصلة الحياة، وصدر الحكم أثناء غيابي بدوافع لم تكن بيطرية محضة، وتبع ذلك تنفيذ ما يلزم. تمّ قطع تلك الرقبة الضخمة من الكتف إلى الكتف الآخر باسم الله، رأيت بعدها الأيدي منشغلة في العمل على الذبيحة وسط بركة من الدماء لطّخت الصخور. كانت الاستعدادات العظيمة تجري على قدم وساق لإعداد العشاء، بينما كان إبراهيم وقليل من

الآخرين يجلسون حول النار يطعمون مُقَبّلات للوجبة وهي الكبدة المشويّة جزئياً على النار والتي ينثرون فوقها الملح. التحقت بالمجموعة وتناولت قطعة صغيرة لأتذوقها وأصابني -هذا الطعام الذي يظنونه مترفاً- بالغثيان. لقد كان خشناً وغير ناضج، ولكنهم كانوا يقيّمونه بلا شك كطعام فاخر، لذا اقتسموه بينهم بالتساوي. كان اللحم الذي تمّ طبخه جيداً، والذي قُدِّم مع الأرز طفرة عظيمة في مستوى وجباتنا إذا ما قورنت مع الوجبات الخالية من اللحم. ولكن في رأيي أنّ لحم الجزور ليس له ما يزينه ويُزكّيه إلاّ في غياب الأطعمة الأخرى. إنه خشنٌ وقاسٍ ومطاطي، وله نكهة منفرة قليلاً، رغم أنّ الحيوان الذي ذبح في هذه المناسبة بالذات كان جيداً مقارنة بما اعتدنا عليه من قبل، إذ كان «رباع» أي في عامه الخامس. وعلّق ابن جلهم قائلاً: «اليوم نحن محظوظون حقيقةً لأننا نستمتع بنعم الحياة البدوية الثلاث؛ «الأمان» إذ ليس هناك خوف من اللصوص في هذا المكان. وثانيها: الماء من البرك المحيطة، «والنعمة» الثالثة: هي اللحم الذي لم يكن متوقعاً الحصول عليه». بقي معنا اللحم لعدّة أيّام ونحن نسير في بلاد لم تكن بها خراف، والغزال الذي رأينا منه زوجاً عند اقترابنا من البرك كان كالأحلام.

يتراوح العمر الطبيعي للإبل بين خمسة عشر وخمسة وعشرين عاماً، ويحسب العرب زمن الجيل الواحد بين-زواج جيلين متعاقبين من العائلة نفسها. إذ أن الجمل الذي يُعطى في مقتبل العمر كهدية زواج، يفترض أن يبقى في خدمة صاحبه حتى زواج ابنه، ويعد عمر ثلاثين عاماً حداً أقصى لأعمار هذه الحيوانات التي تنجب إناثها عشرة أو اثنتي عشرة مرّة في دورة حياتها.

ابتداءً من هذه النقطة وحتى الحدود الشمالية التي يمكن أن نعدها مستجمع أمطار وادي الدواسر تنقسم مرتفعات طويق طولياً إلى جزأين محددين يختلفان

عن بعضهما كثيراً. يتكوّن الجزء الغربي من السطح المتموج بلطف للهضبة المهجورة التي تنحدر بلطف أيضاً من الجرف الغربي نحو الشرق. وما الجزء الثاني سوى متاهة من سلاسل التلال، ومن الوهاد العميقة التي تصب في المجرى العظيم: شعيب المراغة الذي يجري من الشمال إلى الجنوب حتى ينفذ من المرتفعات ليبلغ سهل السُّلَيْل تحت اسم المجمعة. إنّ الانتقال بين أحد القسمين إلى رفيقه يتم فجأة، وكان طريقنا يمتد بطول الخط الفاصل بينهما.

ما إن ارتقينا من مهد شعيب سديرة إلى مستوى الهضبة حتى هبطنا ثانية نحو الوهد العريض المسمّى أم الحُسَيَّة وهو رافد لسديرة، ويُقال إنّ به برك ماء في موقع ذلك الاقتران. ومررنا بعد ذلك بعدد من البقاع المعشبّة المكسوة بشجيرات السنط من فصيلة الوهط والكداد الذي يحمل الصمغ. توقفنا في الوهد الثاني للإفطار، وهو شعيب ثرار والتسمية تعود لجنبة تشبه السدر، ورغم أنّ هذه الجنبة من شجيرات الجنوب إلاّ أنها توجد هنا بكثرة مع أشجار السنط وكثير من الحشائش. هذا الشعيب الذي يجري منحدراً نحو المراغة- وهو أحد أهم روافدها- يبلغ عرضه سبعين ياردة وتحدّ الصخور المتعرية من جانبيه. ويتكوّن مهده من ألواح صخرية تتناوب مع رقاع من الرمال الناعمة.

مررنا بعدها بجرف منخفض ينحدر منه شعيب أم الحمام، ثمّ بلغنا مصدر شعيب النير ورأينا هناك بركة عظيمة يحفّ بها جرف يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، ويظلها جزئياً رفّ من الصخور. تسمى هذه البركة أم الحيشة رغم أن النخيل القصيرة التي اشتقّت البركة اسمها منها لم تعد موجودة في المكان. كانت مساحة البركة نحواً من ثلاثين ياردة مربّعة، ويقال إنّها ذات عمق عظيم، وتنحدر حوائط

الجرف مباشـرة نحو طرف الماء من نواحٍ ثلاث، والجهة الرابعة هي منـحدر مجرى الماء وكان مهد القناة مكسواً بغطاء كثيف من الأعشاب والبردي.

كانت هناك روافـد أخرى[1] لشـعيب النيـر تجري في هذا الموقع بالقـرب من طريقنا. ولكن لم تعـترضنا الميـاه بعد هذا حتى بـلغنا وهد الحفنة وهو أيضـاً رافد مباشر للمراغة. عرض الحفنة حـوالي ثمانين ياردة، ويتكون مجراه بالتقاء عدد من مجاري التـصريف الجارية عبـر هضبة طويق، ويضيّق عليـه الخناق جروف شديدة الانحدار، وبالوهد فجوات في أماكن متعددة وتعلوها رفـوف صخرية فتبدو وكأنها كهوف، وهي تمنع وصـول أشعة الشمس والأمطار للمحتـمين بها من الرعاة الذين يأتون إليها كثيراً لسقيا قطعانهم، وللاستـمتاع بالمقيل أثناء الساعات القائظة لفترة ما بعد الظهـيرة. ولأدلّلَ على أنّ أجـيالاً من الرعاة قـد زاروا الموقع نفســه أقول أنني رأيت فرناً بدائياً يقوم على ثلاثة أثافٍ بالقرب من حـائط صخري. تسمى مثل هذه الأفران محينذة، كـما كانت تحيط بنا من كل جانب بقايا من عظام للحـوم طَعِمَها أسلاف لنا زاروا المكان، وانتشر روث الشياه والإبل التي شربت ها هنا. هذه البقعة هي ملتقى رعاة فخذ السويلم (الوداعين) الذين يقطنون السُّلَيّل.

تابعنا سـيرنا نحـو الشمـال في وقت لاحق بمحاذاة سلسلة التـلال التي تكوّن الجانب الأيمن لمجرى المراغـة. وكان المجرى يضيق كلما تقدّمنا من ناحـية اليمين، ولكن قبل أن نصل للموقع الذي خيمنا فـيه ليلاً، ظهرت سلسلة تلال أخرى بيننا وبين تلك السلسلة الأولى. كـانت السلسلة الجديـدة هي ختائم قـرون، ولم تكن سلسلة تلال بالمعنى المعـروف لها، لكنهـا كانت أقـرب لروابٍ خفيـضة مـسطحة

(١) أم الحيِّشة وأبو نوميس. (المؤلف).

القمـّة، وكان شعيب قرون ينحدر من خلفها نحو المراغة. وقضينا تلك الليلة بجوار إحدى الروابي التي كنت قد ارتقيت قمتها قبل الغروب وطالعت منظر المنطقة المجاورة من فوقها لأرى الهضبة العارية من جانب والمتاهة والوهاد من الجانب الآخر.

تحركنا صباح اليوم التالي بمحاذاة روابي قرون هابطين حتى مخرج الشعيب نفسه، وهو منخفض معشب عريض، يبلغ عرضه ٤٠٠ ياردة وجوانبه لطيفة الانحدار. كانت مجموعات من أشجار السمر والسدر والمرخ تتوزع في المجرى الذي كان مهده مغطّى بألواح الصخور ورقاع الرمال، كما هو الحال مع معظم مجاري المياه في هذه المنطقة. وقالوا لي إنّ هناك بئر مياه عمق الماء فيها على بعد أربع قامات في اتجاه أسفل المجرى، ولكنّ حافة التلال حجبت عنّا مرآها. بعد هذا الوهد تابعنا مجرى رافد ضحل ينحدر إلى المجرى نفسه من جهة الشمال وهو دحلات البقر. وفي المهد المعشب لهذا الرافد مررنا ببعض الغزلان وبكثير من أسراب طائر الحجل[1] الذي يسميه العرب أيضاً «الدرج» ويبدأ هذا المجرى من سلسلة جبال عرضية صغيرة وهي تسم الحد الفاصل بين مجرى التصريف المتجه جنوباً نحو وادي الدواسر والمجرى الآخر الذي يتجه نحو منخفض المقرن. ومن فوق أحد الروابي تطلّعت إلى المشهد كاملاً، ولكنه كان مكرراً: هضبة لا نهائية من جانب ومتاهة تلال لا حدود لها من الجانب الآخر.

(١) راجع الحاشية ص٣٧٣ . (المؤلف).

٢- مصادر المقرن:

كان مسارنا حتى هذه اللحظة يمرّ فوق قمة الهضبة نفسها باتباع الطرف الخارجي الغربي لصقع جبلي تصبُّ وهاده في شعيب المراغة. وهذا الأخير هو المغذي الرئيس لأواسط وادي الدواسر، وبناءً على هذا لم يكن اتجاه التصريف العام يسير في اتجاه الجنوب، بل في اتجاه الشرق نحو منخفض المقرن، الذي وصفت من قبل بركه العظيمة وامتداده الذي يشقّ صحراء البياض أثناء وصفي لرحلتنا عندما عبرناه ونحن في اتجاه الجنوب. كما أشرت من قبل فإنّ تصريف هذه الأجزاء من مرتفعات طويق- وهي التي دخلناها الآن - تصبّ في الوادي الذي يجري فيه مجريان هما الضبيعة والشُّطبة[1]. كان سيرنا الآن في أواسط الأجزاء العليا من هذين المجريين، تاركين سطح الهضبة - المسطح نسبياً- عن يسارنا ومتتبعين مجاريهما المحفورة بعمق نحو قلب الصقع الجبلي، في حين ران حولنا سكون القبور الذي لا يعكره سوى صدى أصواتنا.

كان منبع مجرى الضبعية يقع في بقعة كثيرة العشب على بعد ميل أو اثنين على يسار الوادي الذي نسير بإزائه على سطح الهضبة. هذا المنخفض المسمى مقوة الذي يجمع مياه تصريف المنطقة المحيطة من روافد صغيرة متعددة، بعضها من الأهمية بحيث تُطلق عليها أسماء مثل أم السُّلَيْم وأبو العشوش، بينما الأخريات بلا أسماء. تتبعنا مجرى منخفض مقوة الذي يجمع مياه التصريف ليدفع بها إلى الأمام من فتحة في جانبه الشرقي لتجري في مجرى سيول عرضه عشرون ياردة. هذا المجرى هو شعيب الضبعية الذي تتبعنا مساره المتعرج مارِّين بمناطق شجرية ساحرة تمتعنا بمشاهدها لمسافة ميل واحد أو نحوه حتى بلغنا رأس وهد صخري ذا عمق متوسط تصب فيه

(١) يقال لهذين الواديين الشطبتين. (المراجعان).

السيول في الموسم عن طريق اثني عشر منفذاً. وفي أحد هذه المنافذ وجدنا بركة ماء[1]، عرضها حوالي عشر ياردات ومهدها رملي، وتقع في سفح جرف منخفض.

صار سيرنا الآن فوق سطح وعر، لكنّه لم يشكّل لنا كبير عناء إذ كنا نهبط من فوق ركام من الصخور نحو وهدٍ يشبه لحدٍّ كبير وهاد طويق. كان مجرى الوهد من الصخور والرمال، عرضه حوالي خمسين ياردة، وأطرافه حوائط من الصخور الجيرية أصابتها عوامل التعرية فتركتها أشبه بالدرج، ترتفع لأربعين قدماً أو نحوها من الجانبين، وارتفاعها في الخلف أكبر. غطّى المهد كله بساط جميل من الأعشاب الخشنة تخفي تحتها الأجزاء الصخرية التي حبست حتى وقتنا هذا بقايا السيل السابق في شكل برك صغيرة من المياه الصافية، أعماقها مختلفة بعضها بوصات قليلة تغطّيها طفاوة خضراء من بقايا النباتات الخضراء التي تتمسك بوهن بالألواح الصخرية الملساء، وكانت المياه تتبخر من حولها. انتصبت وسط هذا المشهد الجميل مجموعة من النخيل المجمّلة بتمر كثير بيد أنّه كان أخضر وكان عليهم حصاده بعد شهر، وهذا يدلّ على أنه كان يوجد أحد هنا فيما مضى من شهور. قررنا أن نخيم للقيلولة هنا في ظلٍّ عظيم، وكان المكان جميلاً بحيث تحوّل المقيل إلى مبيت في ذات الموقع. وجدنا قريباً من كتلة النخيل عين ماء عميقة تغطيها جزئياً المخلّفات التي حملها السيل الأخير. كان المرشدون يعرفون هذا المكان باسم ثقيب وكنا قد وقعنا عليه صدفة بينما كان القرار أن نخيّم بجوار البرك المؤقتة[2] الأخرى التي كانت كافيةً لتأمين احتياجاتنا.

---

(١) تسمى «طبيات اسم». (المؤلف).

(٢) مثل هذه البرك تسمى الواحدة منها «ثقب» وجمعها «ثقبان»، الصحيح أن الجمع لها هو «ثقوب»، ولكن جريًا على طريقة العامة في الجمع فإن حرف الثاء يكون مسكنا وليس مضمومًا. (المراجعون).

هذا النبع هو مكان سقيا معروف لرعاة من السليل وهم آل حنيش وآل سويلم الذين كـان وسمهم منحـوتاً على أسفل سـطح الجرف الصخـري بصفـته عـلامة لرغبتهم في إقامة مخيّـمهم في هذا الموقع أثناء شهر رمضان الذي لم يكن بعيداً، وكذلك أثناء مـوسم خراص التمـر الذي يلي رمضان. كـان المكان للوهلة الأولى يبدو غريباً لمخيم قبلي يستمـر لفترة طويلة، ولكنّ الحكمة في اختياره وضحت لنا صبـاح اليوم التالي عندمـا هبطنا أسفل الوهد، إذ رأينا ابتـداءً من أول انحناء في الوهد وما بعد ذلك شريطاً طوله حوالي ميلين تصطفّ حوله بتقطع أشجار النخيل حول برك تتكرر بطول الشريط، ولا بدّ أنّ هذه البرك كانت منذ عهد قريب تكوّن مجرى مـائياً متصـلاً. كانت هناك حوالي ٥٠٠ من النخـيل تعتمد على السماد الطبيعي التلقائي، بيـد أنّها كانت قصيرة النمو، ذات مظهر غيـر معافى لكنها لم تكن مجرّدة من الإنتاج. بالطبع فإن النخيل التي يهتم الإنـسان برعايتها وتسميدها تختلف عن تلك التي تنمـو على السماد التلقائي. كان ذلك النخـيل بحالته تلك يُشكّل إضافـة جيدة لما يحتـفظ به البدوي هناك من غذاء. واستـحق هؤلاء البدو زراعة هذا النخيل هنا بوضع اليـد، وإنه لمن المستغرب أنهم لم يحولوا هذه البـقعة إلى واحة عظيمـة معطاءة منذ عهد بعـيد إذ أنّ مستوطـنةً مثل الحوطة[1] لم تكن بداياتها خيراً من هذه فيما أفاد ابن جلهم الذي لم يكن يعرف هذا الإقليم الجنوبي أحدٌ خيراً من معرفته به.

كان الوهد في هذا الموقع أضيق منه إلى أعلى، كمـا كانت الجروف الصخرية على جوانبه أعلى، بـيد أنّ عرض الوهد زاد حتى بلغ ١٥٠ ياردة بعد آخـر حزمة من النخيل. كـانت هذه النخيل الأخـيرة محـترقة السـيقـان مما يدلّ على حدوث حريق مَحلّيٍّ هائل. وكلما زاد عرض الوهد كانت الجـروف الصخرية على جانبيه

(١) راجع المتن ص ٣٧٨ . (المؤلف).

تقل في الارتفاع، حتى بلغنا فناءً فسيحاً في موقع التقاء شعيب سِري مع الوادي الرئيس. تركنا الآن هذا الوادي يجري منحدراً عبر متاهة من الروابي المتراكمة الصخور ليلتقي مع رافد آخر هو شعيب خروم بعد أن يقطع سلسلة تلال تحمل الاسم نفسه. ارتقينا الأرض المرتفعة الواقعة على الشط الأيسر بطول حافة مجرى سِري، وكانت حينها سلسلة تلال خروم تجري بموازاتنا على بعد ميلين يمينتا.

بعد مسيرة ربع ميل أعلى وهد سري وجدنا بركة ماء في سفح جرف صخري شديد الانحدار، ووجدنا جوار البركة عدداً من الإبل ترعى. كانت الدلائل تشير إلى أنهم من قحطان، وكان وسمهم على صخور الجرف المجاور لعين ثقيب، بالإضافة لوسم الدواسر. ولكننا لم نر حولنا أثراً لمرافقي تلك الإبل. لا بدّ أن نشير هنا إلى أن تدخّل قبيلة في المجال المعروف لقبيلة أخرى يسمح به البدو فقط إن قدّمهم إليهم أحد رجال القبيلة، وهذا الرجل هو الذي يقوم باستضافة الزوار إنابة عن رجال القبيلة ويسمح ببقائهم بين أهله.

توقفنا في هذا المكان لتناول الإفطار، وكانت وجبتنا تحتوي على آخر ما تبقى لنا من لحم ذلك الجمل الذي انقضى أجله بالقرب من برك الختقة ليمدّنا باللحم لثلاثة أيام كاملة.

قمت أثناء بقائنا في المخيم باستكشاف قمة إحدى النقاط في سلسلة تلال خروم الواقعة على ارتفاع ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر. فعلت ذلك لأرى الإقليم من حولنا. ورغم أنّ المشهد كان يُغطّي مساحة عظيمة إلاّ أن منظر كتل المرتفعات كان رتيباً، دون أن تكون هناك معالم لتكسر الرتابة.

بعد أن عاودنا سيرنا بقليل، أنذرنا طامي بأنّه قد رأى مجموعة قَدَّرها بخمسة عشر رجلاً على الإبل. كانوا يسيرون عبر أرض غير معبّدة من خلفنا يتجهون نحو

الموقع الذي تناولنا فيه إفطارنا. تداول الرفاق في الأمر وسيماء القلق بادية على وجوههم، وتوصلا إلى أن تلك المجموعة - على أسوأ تقدير - هم أصحاب الإبل التي رأيناها ترعى، وأنهم عندما رأونا اختبؤوا في الوهاد حتى ضمنوا إخلاءنا للموقع، ولعلهم الآن قد ذهبوا لمكان مخيمنا ليتفحّصوا آثارنا، وسيتركونا - في غالب الأمر- وشأننا. ولكنّا زيادة في الحرص نقشنا رسم ابن سعود على الرمال وأسرعنا الخطى مبتعدين.

بعد مسيرة ميل آخر أو نحو ذلك، دلفنا إلى منخفض رملي ضحل بعرض ٢٠٠ ياردة، تغطيه الشجيرات بكثافة. كان ذلك شعيب المغرة، منبع ثاني أعظم الأودية في منظومة المقرن. تغيرت طبيعة الوهد ونحن ننحدر عبره إلى الأسفل. في البداية صارت الرمال تخلي السبيل تدريجياً لمهد صخري، وكانت تحدّه من الجوانب الصخور الجيرية، ثمّ بلغنا مهبطاً حاداً نزلنا فيه خمسة عشر قدماً إلى أسفل جرف من الحجارة الجيرية وألواح صخرية بليت فصارت ملساء بتكرار مرور مياه السيول عليها. صار المهد الآن ذا طابع جَدُّ خشن تتخلله صخور جلمودية ضخمة في غير ما اتساق، بينما ارتفعت الجروف الصخرية على جانبي المجرى لارتفاع أربعين قدماً. صار معظم الوهد الآن مكسواً بكثافة بالأعشاب وكثير من الأشجار مكتملة النمو في فصيلة البان[1]، وهي أشجار لم أرها قط من قبل، وهي وفقاً لإفادة رفاقي توجد فقط في مناطق قليلة تنحصر في الجوار تشبه الأثل في الشكل والأوراق لدرجة كبيرة ولكنها في الحقيقة تختلف عنه في ثمرته الكبيرة، الثمرة قُرنَة كبيرة جداً وتحتوي على حبوب طويلة وذات حجم كبير يسميها العرب «زب البان» لتَشَابُه في الشكل بينها وبين عضو الذكورة. إنّ متوسط طول هذه الحبوب اثنتا عشرة بوصة إلى ثماني عشرة بوصة. عندما أبديت

(١) الاسم العلمي لها: Moringa Peregrina Fiori . (المؤلف).

اهتماماً بهذه الثمرة تفرّق رفاقي ليعودوا منتصرين وبحوزتهم حبة طولها أكثر من قدمين.

توقفنا لعدّة ساعات أثناء اشتداد القيظ النهاري في منبع عريض للوادي بجوار بعض البرك ذات الماء النقي الممتاز. كانت تحدّ البركة نباتات كثّة. ولسوء الطالع لم يكن اتّجاه الجروف الصخرية يفيدنا كثيراً لذا كان عليّ أن أسرع للاحتماء بخيمتي من وهج الأشعة الحارقة في الوادي الذي لم تكن تهبّ عليه نسمة. إذا انتظمت السيول في هذه المنطقة فإن هذه البرك تكون مستديمة وحتى في سنوات الجفاف فإن الماء يسهل الحصول عليه في هذه الأنحاء وذلك بنبش الرمال سطحياً في بطن المهد لعمق بوصات قليلة.

كان امتداد الوهد مزداناً بمثل هذه البرك وخاصة في موقع اقتران شعيب كلاوي به. وبعد ذاك الموقع مباشرة يجري المغرة نحو وهد مهبط، وهو وهدٌ عميق تحفّه الجروف الصخرية بارتفاع مئة قدم أقل تقدير في هذا الموقع. ثم عبرنا فضاءً معشباً فسيحاً في خضم مشهد صخري عظيم تحفّ به الخضرة. وفي وسط هذا المكان تنتصب حزمةٌ عظيمة من النخيل، بيد أنها ذات مظهر بالٍ رغم أنّها كانت أكثر تماسكاً من نخيل ثقيب، بينما تناثرت في الأنحاء بقايا أكواخ حجرية قليلة، هي آثار مستوطنة قديمة تسمّى دلهام، التي كانت - هي ومستوطنة أخرى تسمّى الشطبة، على بعد خمسة عشر أو عشرين ميلاً أسفل الوادي تخصّان فخذ الخضران التابع لقبيلة الدواسر. لكنها كغيرها من هذه المستوطنات يهجرها أهلها من البدو تحت رحمة الطبيعة ولا يزورونها إلاّ أثناء موسم جمع محصولهم. كانت شجيرات القصب والسنط والطرفاء وجنبات أخرى تدلّ بعظم كثافتها على وفرة الماء الذي وجدتُ إشارات إضافية له في بئر في مبنى مهجور إذ كان عمق الماء فيها على بعد قامتين، كما وجدت الدلائل أيضاً على وفرة الماء في كثير من البرك الضحلة.

انحدر الجـانب الأيمن للوهد بشدّة نحـو المهد في هذا الجزء الذي بلغ عـرضه ٣٠٠ ياردة، لكنّ الشط الأيسـر كان سهل التـدرّج، عبرنا من خـلاله هذا الجانب باتخاذ طريق متعـرج. وعند بلوغنا القمّة تتبعْنا أعلى الجرف المحدّ من جـهة اليسار لأعلى مجرى مهبط. وفي أســفل وهد مهبط لاحظنا وجود عدد من برك الماء كان المنظر من خلفنا رائعاً مكوّناً من أراضٍ مرتفعة تجري فيـها الوهاد عميقةً، بينما كان المشهد أمامنا رتيباً؛ هضبة ترتفع بتدرّجٍ لطيف وتحدُّها سلاسل جبال بُنية اللون.

تتبعنا رافداً ضحـلاً للشطبة ونحن نبتعد تدريجياً عن مـجرى مهبط وكان اسم الرافد شعيب سرمان، ثمّ عبرنا الفاصل بينه وبين شعيب رحبة، وهذا الأخير يمثل الحدود الجنوبيـة لمرتفعات الأفـلاج. وكوّنت سلسلة التـلال التي تفصل الشعـيبين المذكورين فاصلاً بين نظامين للتصريـف، أولهما نظام تصريف المقرن، والآخر هو نظام المجاري المائية التي تشقّ سهل الأفلاج العظيم لتضيع في صحراء البياض.

كنا قـد سرنا مـا يكفي لذلك النهـار، وقررنا أن نخـيّم في منخفض ضـحل لمجرى رحبة في صقع جاف ينبئ عن فشل موسم الأمطار هنا، في حين فاض الماء في مجاري الضبيعة والشطبة بما فـيه الكفاية، عندما حللنا ضيوفاً على هذا الصقع شعر بمقدمنا ثلاثةٌ من الغزلان البيضاء التي أخلت المكان على الفور، فتبعها مبارك دون أن ينال منها وطراً. اسـتقبلنا الهـلال الوليد لشهـر رمضان بعـشاء يخلو من اللحم. كان طباخـونا يعدّون ذلك العشاء حين انشغل الآخـرون وأنا منهم بمراقبة السماء في ناحية الغرب بحثاً عن الهلال البازغ، الذي يعبّرُ مرةً في العام عن حب الله للإنســان. عندما غـربت الشمس واخـتفت بالكامل عن ناظرينـا لاح الهلال الرقيق من وراء ضباب أخضر. وبدأ شهر الصيام. وكانت تحية رفاقي لهلال الشهر الجديد قولهم «لا إله إلاّ اللــه»، وكان عدد كبيـر منهم سعيداً إذ بدأ شهـر الصيام وهم على سفر.

٣- مرتفعات الأفلاج:

لابد أن نتحدث قليلاً عن الظروف المناخية التي سادت في هضبة طويق أثناء الأيام الأربعة التي انقضت منذ أن ارتقيناها من السهول الغربية، وعن تلك التي سادت أثناء الأسبوع الذي علينا الآن قضاؤه في ذلك الجزء من إقليم الأفلاج الذي أشرت إليه سابقاً [(١)] محدّثاً عن أنّه يقع بالكامل في ثنايا حاجز الهضبة. قد يتوقع البعض أنّ هذه المرتفعات التي تقع بين خطيْ عرض ٢١و ٢٣ في قلب صحراء يسودها طقس حار غير مريح على الأقل في شهر يونيو (حزيران)، حيث تكون الشمس في وسط النهار عمودية فوق الرؤوس. ولكن سوء الطقس الذي وطّنت النفس على أنّه ملاقينا لم يصادفنا، وأعود الآن لأتذكر الفترة التي قضيتها في هذه الأنحاء لأجد أنها كانت من أجمل الفترات من ناحية الظروف المناخية إذا ما قورنت بكلّ أيامي التي قضيتها في الشرق في أشهر الصيف.

كانت الرياح الشمالية تهب كل يوم بانتظام غير طبيعي على ظهر الهضبة، وكانت أكثر ما تكون الريح عنفواناً عندما تكون أشعة الشمس أكثر لسعاً. ولعله لهذه الظروف وأيضاً نسبة لارتفاع هذا الإقليم وللجفاف المطلق للجو أن صارت درجة الحرارة في حدود معقولة حتى في الساعات الأكثر حرارة أثناء النهار، بينما كانت تقلّ لمستوى غريب في الساعات التي تسبق بزوغ الفجر. لقد كانت أعلى درجة سجلتها أثناء هذين الأسبوعين هي ١٠٥ْ فهرنهايت، وكانت أدناها ٥٩ْ؛ بينما كان مقياس الحرارة يسجل بانتظام درجة ٧٥ْ فهرنهايت في الساعة العاشرة مساء.

هناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهي أنّ أعلى درجة سجلتها كانت في ذات اليوم الذي سجلت فيه أدنى درجة خلال الأسبوعين، وهذه الظاهرة الغريبة لم تكن

---

(١) راجع المتن صفحة ١٠٢ . (المؤلف).

وليدة الصدفـة إذ أنّ القاعدة هي أنّ اليوم الذي يبـدأ بدرجة حرارة منخفـضة جداً ترتفع فيـه الحرارة بعد الظهيـرة لدرجة جدٍّ مرتفـعة، بينما اليوم الذي يبـدأ بدرجة حرارة معتدلة يتبعه نهار معـتدل أيضاً. وكما سجلنا أعلى وأدنى درجات الفترة في يوم واحد فـإنّ أدنى الدرجات العليا (٩٥ْ فـهرنهايت سـجلت في ذات اليوم الذي سجلت فيه أعلى الدرجات الدنيا (٧٣ْ فهرنهايت). ولا أظنني في حاجة لأن أقول إن الأيام التي لم تكن فيـها فروق كبيـرة في درجات الحرارة بين الفجـر والظهيرة، كانت أجمل الأيام. كان متوسط الدرجات العـليا في هذه الفترة ١٠١ْ فهرنهايت، بينما كـان متوسط الدرجـات الدنيا ٦٦ْ. كانت الرياح في العـموم خفيـفة، ولكن كانت من آن لآخر تهبّ علينا رياح شديدة وواجـهنا في يوم واحد «السموم» وهي الرياح الشمالية الجافة الحارة. وهي التي يتـوق إليها العرب في الموسم لأنها تساعد على نضج التمر.

كانت طـبيعـة الإقليم الذي مررنـا عبره في اليـوم التالي مـختلفـاً في بعض النواحي عن ذلك الذي عبرناه سابقاً. كانت الهضبة الواقعة إلى الجانب الغربي من مسارنا وحتى هذه اللحظة تنحدر بلطف إلى حـدود صقع جبلي خشن، وتنصرف مياهه من خلال وهاد عميـقة نحو السهل في الأسفل. ولكن ابتداء من هذا الموقع صار اتجاه تحدّر الهضبة نحو جرف ثانوي منخفض، ومن قمة هذا الجرف امتدّ رفٌّ مسطحٌ وعـريض إلى حدٍّ ما حتى حـافة الصقع الجبلي الذي تفـرّعت منه المجاري مقاطعة خط سيـرنا على أبعاد متفاوتة. إضافة لهذا كان هناك ميلٌ لتـحدُّر الهضبة نحو الشمال. ونتيجة لهذا تكوّن قـمع محدد الشكل فوق وهد حرج العميق الذي تجد الهضبة من خـلاله مصرفاً نحو السهل. لذا فإن رحبـة وعدداً من المنخفضات الضحلـة المشابهة؛ مـثل دحلة سدير ودحلة الأرنـب والطريفة وغيـرها، لم تكن تصرّف مـياه الهضـبة الرئيسـة، ولكنها كانت تُصـرِّف مياه الحـافة الشرقـية للرفّ

الثانوي للهضبة. وكانت هذه المجاري تنساب بين سلاسل تلال منخفضة عبر صقع جبلي نحو شعيب الحنُو، ومن ثمَّ تصل البياض.

سرنا في اليوم التالـي لمسافة سبعة أميـال في إقليم قاحل رتيب حتى بلغنا وهد الطريفة، وهنا صـار سطح الأرض خشناً جداً، وكـان الوهد نفسه قد هوى لمسـافة خمسة عـشر أو عشرين قدماً تحت سطح الوادي بين الجروف البـالية. كانت تتخلل سطح الوادي ذي الحجارة الجيرية المحمرّة رقاع طباشيرية بيضاء ناعمة. كانت سلسلة التلال التي تقع من وراء هذا الوادي تفصل بين المجاري التصريفية التي لم تكن ذات أهمية تـذكر، والتي كنا نقطعها في ذلك الصـباح، وبين شعيب حـرج. حولنا خط سيـرنا نحو منبع هـذا الشعيب بـاتباع مهـد شعـيب صخـري آخر يسمـى أم الدقة ولاحظت أنّ الصقع الجـبلي الخشن الذي كان عن يمينـنا طوال هذا الوقت قد أخلى المكان فجأة لهـضبة مزدوجة أحد شـقيها ينحدر إلى أسفل بتـدرج لطيف من الحافة الخارجية للجروف الصخرية الغربية، نحو سفح الجروف الصخرية الثانوية. ومن قمة الأخيرة يبدأ الانحدار مـجدداً الطريقة نفسها نحو سهل الأفـلاج. الفرق الوحيد بين الهضبتين أن الشـرقية منهما تشقهـا - بعد فواصل - مجاري عميقـة؛ وتصرّف مياه الهضبة الأخرى أيضاً في مواقع مختلفة لتحملها عبر الحاجز الثانوي.

كان الطرف الأدنى لشـعيب أم الدقة ممهـداً لوجود ألواح عظيمة من الحـجارة الجيرية الملسـاء، وكان يقود لأعلى الجرف الهائل الـذي لا بدّ أن المياه تصبّ عليه أثنـاء فـصـل الأمطار بكمـيـات كـبـيرة. كـان ارتفـاع هذا الشـلال لا يقل عن ٢٠٠قدم، وكان لابـد لنا أن نتخذ مسـاراً طويلاً بطول حافة المجرى لِنَجِـدَ طريقاً نبلغ به مهـد المجرى في الأسفل، واتّبعنا طريق مـجرى ضيّق تتناثر فيـه الصخور الجلمودية.

كان منظر وهد حرج من هذا المكان من أجمل ما رأينا، إذ كان جرفه الصخري الحاد الارتفاع يلقي بظلاله على واد ضيق، وكان بطن الوادي مغطًى بالشجيرات وتتناثر فيه برك الماء يتلألأ ضوءها تحت أشعة الشمس، وكان الوادي ينفتح في اتجاه الشمال ليقود نحو سهل الهدّار الذي تكاد تحيط به حوائط من الصخور.

منذ أن غادرنا الراكة في أطراف وادي الدواسر قبل خمسة أيام لم نحظَ بصحبة بخلاف أفراد مجموعتنا ، ولم نرَ أثراً لإنسان سوى اللمحة الخاطفة للمجموعة البدوية التي سببت لنا لحظات من القلق في اليوم السابق. ولكن رأينا الآن هناك في الأسفل تحتنا، رأينا ونحن نقف للحظات لمشاهدة المنظر ولإعداد القافلة للمهبط الصعب خياماً سوداء وقطعان بيضاء ورعاة. وشعرنا بالسرور لاقترابنا مرة ثانية من بني البشر. كانت المجموعة من فخذ السرور التابع لقسم المساعرة الدواسر الذين يسكنون الهدّار.

حالما بلغنا القاع وتخيّرنا موقعاً ظليلاً للنزول في جوار إحدى البرك غير المطروقة، تقدّم وفدٌ من الرفاق للالتقاء بالرعاة ليعودوا بعد حين ليس فقط بالأخبار -ولم يكن هناك الكثير منها - ولكن بما كان الجميع يتوقون إليه: لبن طازج واثنتين من الماعز لعشائنا.

لم نكن الآن نبعد عن الهدّار أكثر من خمسة أميال، وخفّفْنا بعض الشيء من العجلة، ولكنّا تابعنا المسير بعد فترة الظهيرة نازلين أسفل الوهد. مررنا ببركة إثر أخرى، وبجوار كلٍّ مخيّم صغير وقطيع من الشياه والماعز حتى بلغنا قصراً محطماً وبه بئر في الموقع الذي يلتقي فيه وهد حامد العريض مع شعيب حرج الذي انبعج الآن ليصير سهلاً دائرياً عريضاً. سرنا عبر هذا السهل نحو نتوء من الجرف

الصخـري في الجانب الأيمن، ولاح لنا عن قرب، في الزاوية الحـادة التي يكوّنها التقاء صخور واحـة الهدار الشاهقة. لقد كانت الواحة بقعة خضـراء جميلة يلفُّها احمرار الصخور المحيطة بها.

كان يجـري خلال الواحة شـعيب رملي عريض، ونصـبنا خيامنا على جـانبه الأيسـر بجوار واحـدة من القرى الأربع التي تكـوّن المستـوطنة القابعـة في وسط بساتين النخيل. تغطي بساتين النخيل مساحـة كبيرة في واحة حرج وكذلك مزارع الحبوب وتنقسم البساتين والمزارع إلى أربعة أقسام محددة تحتل كل قرية قسماً منها. تمكنت من إلقاء نظـرة فاحصة على المنـطقة بكاملها من فـوق إحدى الروابي التي انتصبت في السهل على بعد ميل واحد شمال مخيمنا، كما وجدت الفرصة لأشق الواحة راكباً حتى طرفها الشرقي قبل أن نخلد للراحة مساءً.

تقع قـريتان ومـا يخصُّـهـما من بسـاتين النخـيل على الجانب الأيمن لمجـرى السيول، بينما تقع بقية القرية على الجـانب الآخر للمجرى. تتكون المنطقة الواقعة في أقصى الغرب من حوالي سبعة بساتين غـير جيدة ومثلها من القصور ولا يمكن أن نعدها قرى صغيرة إلاّ بصعوبة، ولكنها تُعرف وحدة القبيلة التي ينتمي سكانها إليها، وهم فخـذ آل خليف التابع لقسم الوداعين، وزعيمهم فيـصل بن محتاج. هذا الجزء من الواحة يقع على الجانب الأيمن للمجـرى كما هو الحال مع المستوطنة التي تلي من ناحية الشـرق: المصارير، وتتكوّن هذه من مجموعة جـيدة وغنية من بساتين النخيل الكثيفـة التي يبلغ عددها حوالي خمسة عشر وينمو تحـتها كثير من النباتات المعـترشة وأشجار الفـاكهة وتتوسط القـرية التي تتناثر فيها القـصور حول المزارع. وتعداد السكان بهذه القرية لا يتعدّى ٣٠ نسمة وزعيمهم مهمل بن فهيد، كما يمكن تقدير سكان آل خُـليّـف بمئة نسمة.

مجـرى السيول الذي يبلغ عرضــه ٤٠٠ ياردة في المتوسط يكوّن حداً فـاصلاً بين سكان الواحة المنقسمين إلى قسمين هــي الدواسر من جانب وعناصر من قبيلة عنزة من الجانب الآخر. وتحتل عناصر عنزة القــسمين الأخيرين من المنطقة وأمرهم جدير بالاهتمام إذ أنّ بقاءهم في هذا الموقع يعود بنا القــهقرى للعهود القديمة التي كانت تحتل فـيها عنزة إقليم الأفلاج وهو أمـرٌ ذكرته من قبل[1] في سردي لتاريخ بديعة. أخذت القــريتان النتيفات والفــحيْل اسميهــما من قسمَيْن لفــرع جميلة من قــبيلة عنزة وهــم سكانها. ويبلغ تـعداد السكان بكلٍّ مــن القريتين حــوالي ٢٠٠ نسمة. بالطبع سادت روح العداء مع جيرانهما. وكانوا حتى وقت قريب لا يكفّون عن المناوشــات والاحتراب، خــاصة النتـيفـات والمصارير، ولكن بعــد تدخّل ابن سعود، واتخاذ إجراءات تمنع التشاحن، عرفت الهدّار طعم السلام ونعمت به لعقد من الزمان حتــى الآن. تخيّرنا موقع مخـيّم الليل بالقرب من قرية النتـيفات تحت حماية زعـيمها ضــافي بن نوشان والذي عُرف عنه نفــاذ سلطته على كل العنزيين بالواحة. وأقرّ بسلطانــه أيضاً عبدالرحمن بن مــعير زعيم الفحــيل. كانت بساتين نخيل الفــحيل لا تعدو أربعة أو خــمسة، ولم يكن مظهــرها منتظماً، ولكن هناك وفرة من الأثل في المنطقة. بينما يتكوّن جزء النتيفـات من مساحة مزروعة مشابهة للمصــارير بما في ذلك قصرين اثنين وبســاتين نخيل على الجانب الأيمن للمــجرى بالقرب من موقع سيادة المجموعة المنافسة.

تتنازع الهــدّار مع واحة الأحــمر على مــوقع الســيادة على مــستــوطنات هذه المرتفعــات، وهو موقع ذو صلاحــيات إدارية لجمــع الريع، وهو تحت إدارة حاكم

(١) راجع المتن ص١٥٤ . (المؤلف).

إقليم الأفـلاج. يحوز سكان المسـتـوطنات بالكامل على بسـاتين النخيل والرقـاع الصالحـة للزراعة، في حين أنّ رفاقهم من البـدو لا حقوق أساسـية لهم في هذه المصادر رغم أنهم كغيرهم من البدو يتجـمعون في موسم خراص التمر في الواحة ولا يعـودون بخفّيْ حـنين. هناك ضريبـة مـقدارها ٥٪ تحـسب من كـامل الناتج لمصلحة خزينة الدولة. وتسقى هذه البساتين جـزئياً من مياه السيول التي يتمّ تحويل مسارها بوضع حواجز خفيفة من جـذوع النخيل وحطب الأشجار نحو مجارٍ مائية ضحلة. كـما أنها أيضاً تسـقى جزئياً بسحب الماء من الآبار في أعـالي القرية. إن الآبار في هذه الأعالي أعمق منهـا في أسفلها، ويختلف عمق الماء في كـلا المجموعتين بين موسم وآخر، وقد يبلغ فرق العمق بين المواسم قامتين.

بدأ الآن شهر الصيام، وعـانى سكان الهدّار - كما هو الحال في كل مكان - من صعـوبة الصوم في الأيـام الأولى، وهو أمر يسـتمر حـتى يعتـاد الناس على الامتناع عن الشـهوات، خاصة الامـتناع عن شرب الماء في موسم كـهذا. لذا لم يكن للسكان فائض من طاقة ليشغلوا همهم بنـا. ينتهي صيام اليوم مع سماع أوّل نداء لصلاة المغرب، ولكن هناك الكثيرين وسـط السلفيين ممن ينتظرون حتى سماع آخـر جملة في الأذان قـبل أن يفطروا. ولكن هناك أيضـاً من لا يتشـدّد إلى هذا الحدّ. وعرُف عن كثير من المؤذنين أنهم يرفعون النداء وأكواب القهوة في أيديهم. يعفى المسافر شـرعاً من الصيام، والتعريف الواسع للمسافـر هو كل من كان بعيداً عن بلده وأهله، ويحـتجّ بأن النبي نفـسه لم يَصُم بمكّة إذ كـان بيتـه في المدينة. أولئك الذين يعودون لدورهم في نهار الصيـام عليهم الإمساك عن الأكل والشرب فور وقوع أبصارهم على قـراهم، وعند ركوبهم منها بقصد السفـر عليهم مواصلة الصوم حتى تغيب ديارهم عن ناظريهم. لا يشمل المنع الطعام والشراب فحسب،

ولكن الرفث إلى النساء ممنوع أيضاً من قبل طلوع الفجر وإلى بعد مغيب الشمس. وعلى المسلمين الذين يتعاطون التدخين الامتناع عنه أيضاً لتلك الفترة في كل يوم من أيام الصيام. وبالطبع فإنّ السلفيين يعدون تدخين التبغ جريرة في كلِّ الأزمان.

لعلّه ليس خروجاً عن الموضوع أن نذكر شيئاً الآن عن موضوع الصلاة على إطلاقها في الأرض السعودية. يسمح للمسلم عند السفر أن يختزل أوقات الصلوات لتُصلَّى في ثلاثة أوقات، وذلك للتيسير، ولكن دون أن تلغى منها صلاة، رغم أنّ الاسم الذي يطلق عليها هو القصر. تؤدى صلاة الفجر في وقتها المعتاد وهو وقت إطلالة ضوء الفجر الصادق في السماء من ناحية الشرق، وليس الفجر الكاذب. هذا هو وقتها في السفر والحضر. ولكن للمسافر أن يجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر في وقت هو بالتقريب يتوسّط الوقتين الأصليين، أو أقرب للصلاة الثانية. وعند غروب الشمس لهم أن يجمعوا بين صلاتي المغرب والعشاء في وقت الأولى. ووقت هاتين الصلاتين مرتبط بمغيب الشمس أو باختفاء الأشعة الضوئية الناتجة عن الشمس.

الأذان لدى السلفيين مطابق للأذان المعروف لدى فروع أهل السنة الآخرين، مع عبارة تُضاف في نهاية الأذان السلفي هي «لا إله إلاّ الله»[1]. وبعد الأذان تصطفُّ جموع المصلِّين خلف خط في الرمال يحدد اتجاه صَفِّهم، ويُسمَّى «مسجداً» وبه انبعاج في الوسط يمثل المحراب أو اتجاه قبلة مكة. يؤم الإمام المصلين في الصلاة

(١) ليس هناك اختلاف وجملة «لا إله إلا الله» التي يختم بها الأذان ثابتة عند أهل السنة والجماعة ولم يتميز بها السلفيون عن غيرهم كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

وهو يُختار عادة بحكم عمره أو موقعه أو علمه. وفي حالة رفاقنا كان ابن جلهم هو الإمام طوال الوقت. عندما يجتمع اثنان أو ثلاثة خلف الإمام يبدأ الأخير في إقامة الصلاة بترديد الأذان مرة ثانية بطريقة سريعة ويزيد عليه عبارة «قد قامت الصلاة» مرتين، ويلحق بالمصلين من لم يكن قد اصطفّ ابتداءً. تُصلى صلاة المغرب في السفر بنفس طريقتها في الحضر، وعند نهايتها يختتم الإمام بأن يردّد - ملتفتاً إلى يمينه تارة وإلى يساره تارةً - عبارة «السلام عليكم ورحمة الله» ويفعل المصلون فعله. وبعد لحظات تقف جموع المصلين من جلسة ختام الصلاة الأولى ليبدؤوا الصلاة ثانية، أي صلاة العشاء وتفاصيلها كالآتي.

يقف الجميع ويقول الإمام: «الله أكبر»، ثم يقرأ سورة من القرآن جهراً، وفي نهايتها- يردد المصلون«آمين» ويظلون واقفين فيقرأ الإمام جزءاً آخر من القرآن، وبعد ذلك يركع ويتبعه المصلّون، ويرفع من ركوعه قائلاً: «سمع الله لمن حمده» وينتصب بعده المصلون. ثم يهوي الإمام إلى الأرض ساجداً سجدتين مردداً: «الله أكبر» في كلّ حالة ثم ينتصب الإمام ثانية قائلاً: «الله أكبر»، ويتبعه المصلون في كلٍّ ما يفعل. يُعاد كلّ هذا الإجراء كما هو ثانيةً من بداية «السورة الأولى» وحتى عبارة «الله أكبر» الأخيرة. ثم يجلس الجميع صامتين لبضع دقائق وفي ختامها يلتفت الإمام كالسابق مسلماً بالجهتين كما فعل في ختام صلاة المغرب قائلاً «السلام عليكم ورحمة الله» بعدها يلتفت الإمام ليجلس مواجهاً المصلين وكلهم جلوس، وبعدها تتم بعض الهمهمات غير الواضحة منها ترديد ثلاث عبارات تمجّد الله ثلاثة وثلاثين مرة لكلٍّ، أي تسعة وتسعين في جملتها، يتبع هذا بعض السكون والاحترام للشعيرة، ثم يبدأ الحديث بطريقة عادية بين المصلين قبل أن يتفرَّقوا.

لقد رأيت أنه من الضروري أن أسجل نموذجاً لصلاة السلفيين كما لاحظتها، ليس لأنها تختلف عن الصلاة العادية التي يؤديها بقية المسلمين من السنيين، ولكن لمنفعة من يريدون أن يعرفوا إن كان السلفيون يصلّون كغيرهم أم لا. إن صلاتهم كصلاة غيرهم مع قليل من الاختلافات، ولكن اختلافهم الرئيس عن الآخرين هو في تصرّفاتهم، وهو أمر يختلف من شخص لآخر.

لقد عدنا الآن إلى المدينة، ولم تعد لدينا حاجة مُلحّة للجنوبيين الذين رافقونا حتى هذا المكان كحداة لركبنا ولقيادتنا في الاتجاه الصحيح فوق متاهات الهضبة التي لم تكن بها طرق محددة. وكان الغرض الآخر هو أن يجنّبونا شرّ الوقوع في أيدي القبائل التي ينتمون إليها. لذا فإنّه قبل أن نركب مطايانا في صباح اليوم التالي لنواصل سيرنا في اتجاه الشمال ودَّعنا ثلاثة أو أربعة ممن رافقونا، ولعلنا لا نقابلهم بعد ذلك أبداً. رافقنا طويرش بن قاسم وهو من الوداعين من أهل ليلى كقائد للقافلة ولكنه سرعان ما صُنِّف كرجل غير مرغوب فيه إذ كان عالة علينا، فافترقت عنه دون أيّ شعور بالأسى لفقده، بل كنت سعيداً بأنني لم أسمع بعدها حديثه الذي يخرج من أنفه ولكنته الغريبة، ولن أضطرَّ للاعتماد عليه للحصول على معلومات عن جغرافيا الإقليم الجنوبي، إذ أنني اكتشفت لاحقاً أنّه كان يخترع أسماء للأماكن وللمعالم الطبيعية الأخرى لئلا يعترف بجهله، خوفاً من أن يفقد ثقتي بجدواه وما يتبع ذلك من فقدان للمكافأة. كان الرجل في كلّ الحالات ساعداً أيمن لإبراهيم، وسيظل كلاهما من ضمن الذكريات السيئة لإقامتي في الجزيرة العربية. كان مبارك -قناص حيوانات الأيّل- رجلاً من طينة أخرى،

فودعته وأنا آسف لفراقه لأنّه كان طوال الوقت إلى جانبي وفي خدمتي دون كلل. وكان مستعداً ليقدّم لي كل المعلومات الدقيقة التي كان يعرفها في إطار منطقته التي لم يكن يعرفها أحد كمعرفته إيّاها. وفوق ذلك ما كان مبارك يرفع صوته باحتجاج.

كنا قد اعتمدنا عليه في توفير لحم الغزال لنا من الطريق ولكنه في هذا التكليف جاءنا بكيس خاوٍ إذ أنّ الصيد أثناء السير بالغ الصعوبة، رغم أن الرجل لم يكن يكترث للإرهاق والنصب أو لبعد المسافة حين يتعلّق الأمر بمطاردة الغزلان، ولم يتسبب فشله في الصيد في تغيير لهجته الهادئة في الحديث وطباعه اللطيفة التي زرعتها فيه إقامته الطويلة في الصحراء.

ورغم أن شخصيته كانت محببة، إلاّ أنّ ثالثهم غطّى عليه، إذ كان ثالث المغادرين حسن بن غانم النهشلي القادم من أرض يام بنجران رجلاً ذا جاذبية آسرة أكثر من كلّ من التقيت بهم في أنحاء الجزيرة العربية كان هو وجمله «القعود العماني»[1] ذو النسل الرفيع خير ما وقعت عليه قافلتنا في رحلتنا هذه. كان قد تجاوز منتصف العمر بمقدار، وكان صوته موسيقياً هادئاً وكانت طريقته في الحديث والحركة آسرة، وهو ما كان يبدو لي دائماً كمثال للأخلاق العربية. لقد كان جَلَدُه الذي يتحمّل به المصاعب مدعاةً لحيرتي، لأنّه عندما قدم إلينا كان بجلد أحَد ساقيه جرح كبير بحجم قطعتين معدنيتين معاً. وكان المشي يسبب له ألماً وكان يقوم بنفسه بكيٍّ جُرحه، عندما نتوقف، بقطعة حديد محمّاةٍ حتى الاحمرار. كان يكرر هذا كل يوم بشجاعة عظيمة ولكن دون نجاح، إذ أنّه فارقنا وجرحه على حاله

(١) القعود: الجمل الذكر ذو السنام الواحد. (المؤلف).

الذي قَدِمَ به إلينا. لقد سعدت بأنه-على الأقل- يمتطي قعوده الذي سيعود به إلى دياره، بينما كان مبارك وطويرش -اللذان كانا يركبان أثناء سيرنا رديفين لهذا أو ذاك من رفاقنا- كان عليهما أن يتدبّرا أمر عودتهما. ودّعنا حسن قائلاً: « رافقتكم السلامة، وإن عاد بكم الله يوماً لهذه الأنحاء لا تنسوا أن تسألوا في السليل عن حسن بن غانم وسأريكم آثار المارية على الرمال». كان ردنا عليهم: «في حفظ الله»، ثم التفتنا لنتابع سيرنا بطريقة العرب.

سرنا في ذلك اليوم محاذين لحافة سفوح سلاسل التلال، وكانت الأراضي الرأسية للجرف الثانوي -وهي سلاسل شعب وفردة والطريفة وخَرْطم- تتتابع واحدة إثر أخرى على خاصرة الطريق الذي سلكناه. بينما كانت تقع إلى الغرب أراضٍ رأسية أخرى، أقصاها من ناحية الجنوب خشم عجبان وتليها حميمة ثمّ أمرخيّة في الشمال، والأخيرة هذه مجاورة لخشم خرطم. صار سطح الهضبة الآن وعراً جداً، تكتنفه أكوام من أراضٍ عارية مرتفعة. وعبر هذا المكان سرنا لأعلى وادي الدحلة الذي يجري منحدراً إلى حرج بجهة الطرف الأدنى من قرية الفحيل، بين سلاسل تلال شعب وفردة. انفصل طريق آخر عن طريقنا متجهاً نحو الغرب حال أن غادرنا الواحة ليجري بعرض الهضبة إلى جوار سلسلة تلال أمرخية، ومن ثَمّ ينحدر نحو السهل ليقطعه أيضاً. طول هذا الطريق هو مسيرة يوم، ويقود لأرض مالحة يذهب إليها أهل تلك المنطقة ليحفروا ويستخرجوا الصخور الملحية التي توجد بوفرة على عمق خمسة أقدام تحت سطح الأرض، ولعلها في منتصف نفود الدحي.

بعد أن تجاوزنا رابيتين صغيرتين منحنيتين بطريقة تدعو للإعجاب، متفرعتين من مرتفع شعب، سهل علينا السير فوق تربة الدحلة الطفلية الهيّنة. وفي بداية

مجرى الدحلة أو لعله في أحد روافده وهو شعيب النسق توقفنا لتناول الإفطار تحت جرف فردة الصخري شديد التحدر. وهكذا تابعنا السير علواً وهبوطاً فوق الأراضي المرتفعة لنصل إلى جبل خرطم الواقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكان على أحد الجوانب جرف خشم خرطم الصخري الذي ارتفع فوق رؤوسنا بمقدار ٣٠٠ قدم. هناك طريق مباشر يقود من الهدار إلى الأحمر من فوق خاصرة الجرف الصخرية التي كانت على جانبي طريقنا، ويمرّ الطريق بعد ذلك من فوق الهضبة العالية، ثمّ ينحدر بلطف بالقرب من الأحمر نفسها. ولكن هذا الطريق يناسب القوافل التي لا تحمل أثقالاً، لذا كان علينا أن نسلك الطريق الأسهل.

كانت سلسلة الجبال التي تربط بين جرف خشم خرطم العالي وقمة أرض أمرخية المرتفعة هي نهاية الهضبة الخارجية التي كنا نتابع طوال سيرنا طرفها الشرقي. ابتداءً من هذا الموقع صارت طبيعة طويق أكثر انتظاماً نحو الشمال. وبدا أن الهضبة تميل بلطف نحو الشرق من النقطة الأعلى ارتفاعاً بطول حدود الجرف الغربية. ولكن قبل أن نصل إلى تلك المنطقة كان علينا أن نقطع واحة الأحمر التي تمكنّا من التطلع إليها بكاملها من خلال فرجة في مرتفع خرطم حتى طرفها القصيّ بجوار الأرض الرأسية خشم عُشَيْرة التي تشبه أرض خرطم الرأسية. بين هذه المواقع يقع سهل يشبه الإسفين شكلاً وتخطُّه وهاد وسلاسل تلال وروابٍ، ويستمر في خطٍّ طوله حوالي عشرين ميلاً بطول قمة الجرف الغربي. يقع رأس هذا السهل الإسفيني في واحة الأحمر على بعد خمسة عشر ميلاً شرق ذلك الخط، في النقطة التي تلتقي فيها مجاري مائية كثيرة وفي زاوية حادّة تتكوّن بالتقاء

جرفين صخريين أحدهما شمال شرق والآخر جنوب شرق الأراضي الرأسية خرطم وعُشيرة. بعد هذه النقطة سار طريقنا بطول سفح الجرف الصخري الصمان، أي بطول ضلعين من أضلاع مثلث السهل نحو أرض عشيرة الرأسية. وبعدها سرنا في اتجاه الشرق فوق طريق يشبه ممر خرطم، ثم بطول سهل عشيرة حتى سفح منحدر الهضبة وحافة سهل الأفلاج.

دعوني قبل أن أواصل أن أتناول وصف مشهد إقليم ما وراء طويق، وهو الذي لاح أمام أعيننا الآن عندما وقفنا على قمة ممر خرطم. وهو المشهد الذي رأيناه للمرة الأخيرة عندما سرنا فوق ممر عشيرة بعد يومين. كانت تجري أمامنا في اتجاه الشمال والجنوب على مَدِّ البصر، الحافة الوعرة للجرف الخارجي. وكانت تقاطع الإقليم -بعد فواصل- الكتلُ الضخمة للأراضي الرأسية: عجبان وحُميمة وأمرخية ووُعَيْرة ومصيفيح والجويفة والحصان[1]، كانت هناك في الشمال بعيداً عن عُشيرة. كان وراء ذلك الخط انخفاض حاد (٤٠٠-٦٠٠ قدم) نحو السهل في الأسفل، وكان هذا السهل شريطاً يبلغ طوله عشرة أميال من الصحراء ويلتقي مع نفود رمالها مائلة إلى الحمرة، لعلها جزء من نفود الدحي الذي يحدّه من الشمال وادي السره، بينما تتداخل حدوده الجنوبية مع وادي الدواسر نفسه. ولكن بعيداً هناك بين الرمال أو من ورائها لاح أمامنا هيكل معتم لسلسلة جبال عظيمة لا شك أنها السلسلة نفسها التي شاهدناها ناحية الجنوب عندما مررنا بطريق الحجاج في رحلتنا نحو البحر الأحمر. أقول هذا رغم أن التعرّف على القمم والسلاسل

(١) ذكر المؤلف بعض أنوف طويق، وقد عدد ابن خميس أشهر هذه الأنوف التي بلغت (٦٣) أنفاً، ابن خميس، معجم اليمامة، ج١، ص ١١٦-١١٨. (المراجعون).

الجبلية التي يراها المرء من زوايا مختلفة هو أمر يعتمد على التخمين وليس على اليقين، خاصة في بلاد الجزيرة العربية التي تتشابه معالمها الرتيبة. وفوق هذا فإنني لا أضع وزناً أكبر مما يستحق لإفادات من كانوا مصدراً لمعلوماتي في هذه المناسبة. أحدهم كان عثمان وهو رجل من النتيفات تعاقدنا معه لإيصالنا للحمر، وكان رجلاً أميناً إذ حذرني أنّ معلوماتي عن تلك الأنحاء البعيدة التي لم يزرها مطلقاً، تعتمد على بيّنات سماعيّة لأعراب من تلك المناطق كان يرافقهم على نفس هذه الطريق الأحمر. وأضافَ أنّ معلوماته تلك لا تشبه معلوماته عن المناطق القريبة التي وُلد وترعرع فيها. وكان الثاني فالح بن جهيم وهو معاون شجاع من الحمر قضى نهاره صائماً أثناء السير الذي رافقنا فيه، غير مستجيب للنصيحة بأنّ مرافقته المؤقتة لنا تعفيه من التزامات الصوم. كان لفالح هذا معلومات أكثر لتلك البلاد القصيّة التي سافر عبرها، لكنه لم يكن واثقاً من دقة المعلومات التي أدلى بها رغم أنّه أكّد لي أنّ جبل صبحا العظيم لم يكن ليظهر من ممر عُشيرة، وأنّ تلك القمة التي عرّفها زميله بأنها لجبل صبحا لم تكن كذلك، بل كان جبل صماخ الذي يقع إلى الجنوب من الجفارة في سلسلة جبال الجد.

هناك احتمال كبير أن تكون سلاسل الجبال الجنوبية التي ترُى من هذه المواقع هي سودة وحصاة قحطان، ولعلّ هضب الدواسر من بينها أيضاً. في حين أن سلسلة التلال المنخفضة التي ترى من خلف النفود مباشرة قد تكون الامتداد الجنوبي لمرتفعات (العرض) التي تقع فيها القويعية إلى جهة الشمال الغربي من الحمر تقريباً؛ هذا ما أفاد به دليلي. ومهما كان الأمر فإنه من المقبول أن نفترض أنني كنت أنظر في هذا الوقت إلى الشريط الجبلي العظيم الذي رأيت سابقاً طرفه القصيّ من الناحية الثانية من طريق الحجاج في رحلتي السابقة. وإن كان الأمر

كذلك فيمكن القول بأنني تمكنت من رؤية جيّدة من الجانبين لأرض شاسعة لم تكتشف من قبل، والتي لا بد أن نترك تفاصيلها لرواية رحّالة يأتون من بعدي.

تلتقي أهم مجاري المصارف المائية في طرف الأحمر، مكوّنةً وادي كرز، ثمّ تلتفّ لتكوّن وهد باطن الأحمر. هكذا يُسمّون المجرى ابتداءً من تلك النقطة حتى الخَرْفة والسيح في سهل الأفلاج الذي عبرناه ثمّ تتبعناه في رحلتنا الأولى. تتبعنا الآن مجرى وادي كرز وهو مجرى صخري تتناثر فيه الحصباء وينبع من قمة الحمر خرطم لينحدر متعرّجاً للأراضي المنخفضة تحته. تتبعنا مساره الوعر الضيّق إلى موقع صار فيه انحدار الشعيب أكثر لطفاً، ليجري بعدها شرقاً بطول الجرف الصخري في وادٍ عرضه في المتوسط نصف ميل، تغطيه بوفرةٍ النباتات والحشائش.

مرّت أيام عانت فيها مطايانا من السير المتواصل فوق أراضٍ وعرة في هضبة الصحراء التي تلهبها شمس الصيف، وأبدى كثير منها علامات الإرهاق، خاصةً لما أصاب أقدامها إذ أنّ أخفافها اللينة ذات قابلية للتقرح والتشقق عند السير فوق أسطح حارة، وما يتبع ذلك من اختراق شظايا صخرية صغيرة وحجارة في ثنايا الخفّ مما يسبب لها العطب ومن ثمّ العرج. تأثر كثير من الإبل بدرجة كبيرة، وبما أننا لم نكن في عجلة من أمرنا، وبما أننا كنا ننوي -على أيّ حال- أن نقضي يوماً بأكمله في الأحمر إن بلغناها في ليلنا ذلك أو في صباح اليوم الذي يلي، فلقد قررنا أن نؤجل دخول القرية إلى الغد وأن نستفيد من الوقت في تضميد جراح الإبل التي كانت ستنعم أيضاً بالمرعى الجيّد الثرّ في الجوار. يكوّن كل وادي كرز، وكذا المنطقة التي تحيط بالأحمر احتياطياً جيداً لترعى فيه حيوانات أهل الأحمر الذين يُقال إنهم اشتروا الحقّ المطلق في الرعي في هذه الأماكن من أصحابها

السابقين وهم نتيفات الهدّار، وهؤلاء كانوا فيما مضى يسكنون المرتفعات في هذه الأنحـاء، ولكنهم لا حقّ لهم الآن في المرعى دون اسـتئـذان من جيـرانهم الذين صاروا الآن أقوى منهم. أمّا الجماعات المسافرة -سفـراً حقيقياً- فإنهم معفيون من مثل هذا الاشـتراط أي الاسـتئذان للرعي فـي «الحمى» أو مناطق «الـحَظْر» كـما يسمونها.

إنّ الطرق التي يستخدمـها العرب لتطبيب الأخفاف الجريحـة طرق بدائية حقاً بيد أنهـا فعّالة ولا تسبّب الألم للإبل، إذ أنـهم يرمون الحيوان الجـريح على جنبه ويجذبون رأسهُ ليلتـصق بظهره وهكذا يمنعون تحرّكه بالكامل. يأخـذ المعالج قطعة صغـيرة- في غالب الأحـيان من جلد الإبل - ويأتي بخـيط من نفس الجلد وإبرة كبيرة، ثمّ يخيطون القطعة الجلدية كـرقعة على موقع الجرح بحيث يمنع دخول أي جسم خارجي فيه، وبمرور الوقت تتداخل الرقـعة الجلدية لتصير جزءاً من الخفّ. تمّ علاج الإبل واحداً إثر آخر بهذه الطريقة ثمّ أطلقت لترعى. قام بهذه العمليات الجراحية طامي ورشيد اللذان أظهرا - رغم حـبهما للراحة والدعة- في ذلك اليوم مقدرةً فائقة على تحمّل العمل الشاق المرهق في حرّ النهار القائظ من أجل المصلحة العامـة. أمّا بقيّتنـا فلقد استمـتعنا بطول الاستـجمام في هذه البـقعة بعد السـفر المتصل. وقضيت أنا فترة ما بعد الظهيرة بكامـلها في خيمتي باستثناء نزهة قصيرة على الأقـدام بلغت فيـها قمـة المرتفعـات التي تكوّن الجانب الأيـسر للشـعيب، ووجدت حـينها أنّ المشـهد كانت تسـدُّه الهضـبة المتمـوجة من جـانب، والجرف الصخري لخرطم من الجانب الآخر.

سرنا صباح اليـوم التالي فوق مهد الشعيب الذي تغطّيه الحـصباء، وتوقفنا في بطن الشعيب لتناول الإفطار في موقع التقاء رافـد صغير يسمّى أم الحمام وينزل من

المرتفعات الواقعة إلى يسارنا والتي صارت تنتظم الآن في شكل سلسلة تلال تجري موازية لصخور خرطم. كانت الأنحاء الداخلية لهذه السلسلة مكسوّة حتى القمة تقريباً بصخور متناثرة، ومن خاصرة هذه السلسلة نتأت رابيتان منحنيتان رائعتا المنظر تُسمَّيان معاً الفرايد. مشيتُ - بينما كانوا يعدّون الإفطار- حتى قمة السلسلة التي رأيتها ملأى بمحارات متحجرة وأصداف.

فجمعت كثيراً منها عينات أحضرتها معي لبلادي. تكرّرت معي تجربة مماثلة في اليوم التالي فوق قمة رابية تطلّ على ممر عشيرة، وأوصلت معي كل الكمية إلى الرياض بسلام حيث اضطررت بكلّ أسف أن أتركها من ورائي مع بقية أمتعتي الثقيلة عندما صحبت ابن سعود لافتتاح حملته ضد ابن رشيد في الشهر التالي، أي شهر أغسطس (آب)، وحيث إنّ أمتعتي - فرضاً- مازالت هناك إذ أنّ كل محاولاتي اللاحقة لاستعادتها بعد مغادرتي للجزيرة العربية باءت بالفشل.

لا بدّ إذن أن نؤجل الحكم على هذه المتحجرات في الوقت الراهن رغم أنه يمكننا أن نخمّن أنها تنتمي لنفس الحقبة الجيولوجية لتلك المتحجرات التي وجدتها في هضبة الطويق، شمال الرياض بالقرب من منبع وادي حنيفة والتي أحضرتها معي ليكشف عليها علماء المتحف البريطاني في مدينة ساوث كينزنقتون البريطانية، والتي تمّ تصنيفها على أنها تنتمي للعهد الجورسي.

كانت قد أجريت أيضاً في السابق بعض الفحوص على متحجرات أخرى وُجدت في مرتفعات اليمن بواسطة المجموعة نفسها. ولكن هذه - حسب علمي - هي المرة الأولى التي أحضرت فيها أي متحجرات من أي مكان في وسط الجزيرة

العربية[1]. ورغم أن داوتي وجد عدداً من الأدوات المصنوعة من حجر الصوان في شمال الجزيرة العربية إلاّ أنه يُسجّل أنه لم يجد أيّ متحجرات في تجواله.

عندما عاودنا المسير أسفل الوادي، لم يمض وقت طويل حتى مررنا ببركتيْ ماء صغيرتين في سهل عريض معشب رأينا فيه كثيراً من الأغنام الحمراء والسوداء من السلالات المحليَّة صغيرة الأحجام. وتوجد بالقرب من هذا السهل بقايا قصر قديم في وسط حيش[2] من النخيل القصيرة التي يعود تاريخها لعهد استقرار النتيفات في هذا الإقليم. بعد ذلك بقليل مررنا بقصر آخر على الشاكلة نفسها يُسمّى أم شجرة وبه بئر معطلة بها ماء نتن راكد على عمق قامة واحدة. في هذا الموقع كانت إحدى الفرائد تقع قريباً للجانب الأيسر حيث يضيق مجرى وادي كرز حتى يبلغ عرضه ربع ميل بين الفرائد وبين أراضي الزويرة المرتفعة التي كانت بروز من الجرف المقابل. ينحدر عبر وادي كرز هذا الطريق المباشر من الهدّار وهو ما يُعرف محلياً باسم الحريتة.

انتشر الآن إحدى روابي سلسلة تلال الفرائد بعرض طريقنا ليجعل عرض مجرى السيول بالغ الضيق. وارتقينا بسهولة منحدرات المجرى لنجد أنفسنا على قمته ومن تلك القمة لاح لنا مشهد مكتمل لواحة الأحمر كخطٍّ طويل قاتم من النخيل رسمت أبعادها على خلفيةٍ من جرف صخري رمادي اللون، هو سلسلة تلال الضمان. وعلى الجانب الآخر من الأخدود التقى مجرى شعيب صفية

(١) بعد كتابة ما تقدّم، تم استرجاع الأمتعة التي خلفتها في الرياض، وتمّ فحص كل مجموعة المتحجرات بواسطة السيد. بولر نيوتن، ونورد في ملاحق هذا الكتاب مقتطفات من تقاريره حولها لمصلحة من يهمهم هذا الموضوع. (المؤلف).

(٢) المقصود بالحيش هي النخيل الصغيرة أو حديثة الركز. (المراجعون).

العـريض بالكرز، ومن وراء ذلك كان يـجري مـجرى تصـريف الصمـان، وهو مستجمع ثلاثة مجارٍ تقود إلى سهل رملي فسيح تمتدّ فيه الواحة أمامنا.

مررنا بين سياجين من حوائط طينية يحمـيان شتلات نخيل زرعت حديثاً، ثم مررنا عبر بساتين نخيل جيدة تحتوي على مباني وبها بعض آثار مزروعات أخرى. ولكن المستوطنة كلها كانت تبدو مهـجورة من السكان وهو ما عرفناه بالفعل عندما بلغنا مسكن الأمـير هذال بن عقـيان الشبـيه بالقلعة والواقع على الجـانب الأيسر لمجرى السيول. فأنخنا رواحلنا بقرب المسكن لنخيّم في ذلك النهار.

باستثناء قليل من المـارة الذين لم يبدوا اهتماماً بنا، والذين كـانوا يرفضون ردّ سلامنا أو يردوه بخـشونة واسـتياء، وباسـتثناء فالح بن جـهيم ممثل الأمـير الذي خُصص لتلبية احـتياجاتنا، لم يكن في المستوطنة أحـد إذ فرّ السكان قبل قدومنا. بالرغم من أن إبراهيم أوصى جـابراً وعبيـداً بألاّ يشيعـا خبر مـرورنا في الأنحاء عندما صرفـهما عن رفقـتنا، إلا أنهما قد فـعلا ليسببـا لإبراهيم المصاعب، وهي بالطبع لحقت بنا جـميعاً. يبـدو أنّ الرجلين كانا قد شعـرا بالغبن عندما صرفـهما إبراهيم فجـأة ليعودا للرياض من الوادي فـأشاعا في القرى التي مـرّا بها حكايات عن وفود كافر للمنطقة واستقبلت القرى هذه الأنباء كلّ على طريقتها الخاصة بها. لم يُرِد أهل الهدار أن ينغصوا عيشهم بسببنا ولم يظهروا علامات اعتراض واضحة لقدومنا، ولكن هنا اختـلفت ردّة الفعل، وقام هذال أمير المسـتوطنة بإخلاء المدينة لئلا يتحدّى وفودنا إليه ونحن نحمل راية ابن سعود، وفي الوقت نفسه لئلا يضطر لاستضافـتنا، فاختاروا أن يبتعـدوا عن ديارهـم لينزلوا في واحة واسط أثناء الصوم رغم ما فـيه من مشقـة. وتقع واحة واسط في وهد باطن الأحمـر على بعد اثني

عشر ميلاً أو نحوها أسفل الأحمر نفسها بالقرب من حدود سهل الأفلاج، وكان القرار ألاّ يعودوا لديارهم قبل أن تنتهي زيارتنا.

تجلّى اعتراض المقيمين على زيارتنا في رفضهم لأن يبيعونا شيئاً من احتياجاتنا، ولكننا تجاوزنا هذه المعضلة بأن جعلنا كل مشترياتنا من خلال فالح الذي كان قد قرر فيما يبدو أن ينظر للجانب الحسن من هذه المهمة المقيتة بأن صار مستجيباً لكلٍّ رغباتنا وخير عونٍ لنا، وبذا استحقّ مكافأة مناسبة.

بينما كانوا ينصبون الخيام لحقت أنا بابن جلهم ومجموعة صغيرة أخرى في ظلٍّ ظليل من مزرعة النخيل الجميلة الخاصة بالأمير الغائب. وهناك في ظل أشجار الفاكهة شربنا القهوة وخلدنا للراحة. وكان موضوع حديثنا عن الجنّة وهو المكان الذي يحتفظ السلفيون له بتصوّرٍ واضح المعالم وبصورة قاطعة. كانوا يعتقدون أن أحجامهم ستزيد كثيراً وأنهم سيدخلون الجنّة ليتمتعوا بالمباهج التي تحرّم عليهم في الحياة الدنيا أو تلك التي لا يجدون السبيل إليها. ولقد عجبت لابن جلهم رغماً عن سنوات عمره الستين كان ينظر للمستقبل بكامل الرضا، ينظر نحو أجله الذي يدنو سريعاً على أنّه يقرّبه من الجنّة والنعيم وأنه سيتمكن فيها من تجديد مباهج حياته الدنيا التي صارت الآن مجرد ذكريات لأيامٍ خلت.

يقال إنّ أول من أقاموا في الأحمر كانوا أفراداً من فرع فخذ داود من قبيلة قحطان، ولكن أجلاهم عن الواحة محاربان اثنان من قسم الشكرة[1]، أحد أقسام الدواسر. والمحاربان هما ظافر وإدريس، خالا عقيان. وهو والد زيد الذي هو

(١) راجع المتن ص ١٥٤ . (المؤلف).

والد هذال الأمير الحالي. يمتلك الشكرة الواحة تماماً كما هو الحال مع واسط، ويبلغ تعداد الشكرة حوالي ٦٠٠ نسمة وفقاً لإفادة الكثيرين، ولا يشمل هذا العدد العناصر البدوية التي قد يبلغ تعدادها رقماً مشابهاً دون أن يكون لهم حقّ أو نصيب في بساتين النخيل في الهجرتين. وهم تحت إدارة مستقلة بزعامة عقاب بن حفيّظ، وهو زعيم له وزنه وهو يبدو في المجالس القبلية متقدّماً على هذال نفسه ممارساً عليه بعض السلطة وكذا على أهل القرية من الحضر.

تستكنّ داخل بساتين النخيل قرية واحدة وسط عدد من القصور المتفرقة، وتمتد القرية بطول الشعيب لميل ونصف ويبلغ عرضها ربع الميل. وتنتهي القرية فجأة في وهد باطن الأحمر. وفي هذا الوهد وعلى بعد نصف ميل آخر تقع خرائب قرية المويصل المزدوجة المهجورة، وتحيط بها رقاع من الأثل وبعض حقول الحبوب. كان أهل الأحمر يسكنون في هذا الموقع لكنهم تخلّوا عنه منذ عهد قريب رغم أنهم ما زالوا يزرعون أراضي الحبوب المحيطة بها. وتبدو بساتين النخيل بالقرية غنية ومعطاءة، وبها أشجار فاكهة غنية وخضراوات تنمو تحت أشجار النخيل. فهناك الجريب فروت الذي نراه للمرة الأولى منذ أن غادرنا سهل الأفلاج، فهناك الخوخ والليمون. كما توجد نباتات القطن من فصيلة معترشة تتسلق جذوع النخيل. وهناك أيضاً الباذنجان والفلفل. بيد أنني لم أرَ أثراً للعنب، ولعله يجدر بي أن أذكر أن أشجار الجريب فروت لم تكن تحمل ثماراً إذ أنهم في هذه الأنحاء يجمع الثمار قبل أن تنضج ليستخرجوا من قشرتها صبغاً ذا لون بني مائل إلى الصفرة يستخدم لصبغ الملابس النسائية، ولا تترك ثمرة واحدة لتنضج وتؤكل. هذه الواحة دون شك أكثر غنىً وأقلّ مساحة من الهدّار التي يبدو أنها فقدت جزءاً من أهميتها

وثرائها كنتيجة لارتفاع شأن الأحمر في السنوات الماضية التي ما زالت في ذاكرة الأحياء. آبار الماء هنا ذات أعماق في المدى بين سبع إلى ثلاث عشرة قامة، واختلافها ناتج عن اختلاف الموقع أو الموسم، أمّا الحيوانات المحلية فهي مكوّنة من عدد محدود من الإبل وعدد كبير من الأغنام، ولكن لا توجد خراف فيما يبدو. وتربّى الأغنام من أجل أصوافها التي يستخدمونها لصناعة الخيام والملابس خلافاً لما يفعلونه في الشمال إذ يربّون لهذه الغاية الخراف فقط.

يقود أحد الطرق من طرف الواحة الأدنى - عبر ممر ضيق - إلى قمة سلسلة والجانب الأيمن لوادي عشيرة، حتى يبلغ مستوطنة الستارة. هذه هي المرحلة التالية في رحلة عودتنا. بيد أنّ هذا الطريق لم يكن عملياً بسبب ما فعلته فيه الأمطار الأخيرة، لذا سعدت بأن اتخذنا طريقاً بديلاً يلتف حول المكان عن طريق منبع وادي عشيرة. وفي صباح اليوم التالي كان طريقنا يمرّ بطول مجاري التصريف[1] التي تغسل سفح جرف الصمان الصخري، ثمّ تابعنا طريق القويعية، وهو أيضاً طريق رئيس لحجاج إقليم الأفلاج حتى الموقع الذي ينحدر فيه فوق الجرف الصخري الغربي ليسير بعدها في مهد شعيب الجويفة الصخري.

كان مرأى هذا الأخدود يستحق عناء التفافنا حول الطريق القديم. إذ كان صدعاً عظيماً في الحائط الصخري تحدُّه من الجانبين صخور جلمودية عظيمة يقف بعضها على حرف فوق الأطراف الصخرية أو على ركام متقلقل على المنحدرات. لذا كانت الصخور تبدو وكأنّها ستهوي إلى أدنى الأخدود لمسافة ٣٠٠ إلى ٤٠٠ قدم، وكان الطريق النازل يجري عبر مهد جاف لمجرى مائي ينزل سريعاً من

---

(١) المعيلر ونذار والصمان وسدير وأبو صافي. (المؤلف).

سلسلة صخور إلى أخرى حتى يبلغ سهلاً معشباً يتَّسعُ بعدها شيئاً فشيئاً، وينتصب في بدايته جبل الجويفة ومرتفعات أخرى بلا اسم. أخبروني أن قوّة صغيرة من العرب تصدّت في هذا الموقع لحملة تركية أرسلت لتكبح الروح الاستقلالية لأهل الأفلاج، وأن القوّة أوقفت تقدّمها ودحرتها وأثقلت فيها الخسائر. ويقولون إن هذا حدث في الأيام الخالية أثناء احتلال الأتراك لنجد، بعد عقد أو عقدين من احتلال الأتراك للدرعية.

حتى هذا الوقت كنت أظنُّ أنّ انسياب تصريف السهل الواقع بعد جرف طويق كان في اتجاه الجنوب نحو وادي الدواسر، ولكنني وجدت الآن بالتحرّي أنّ الانحدار يتّجه نحو الشمال، وأنّ الماء الذي ينحدر من الهضبة يجري في ذلك الاتجاه في مجرى ضحل عريض ويلتحم في نهاية الأمر مع وادي السرة في الموقع الذي يتغيّر فيه اسمه ليصير وادي برك، ثمّ يجري شرقاً عبر الحاجز. ويبدو أنّ الفاصل بين مجاري التصريف المتجهة شمالاً وتلك المتّجهة جنوباً يقع في جوار جبل خشم عجبان، حيث تبعد حوالي عشرة أميال عن حافة النفود.

تناولنا إفطارنا وعاودنا المسير في شعيب أبي الصافي حتى بلغنا منبعه في ممر عشيرة الذي وجدت في قمته كما أشرت سابقاً متحجرات كثيرة. هذا الممر يقاطع خط جرف الصمان الصخري الذي سمت صخوره لارتفاع ٣٠٠ قدم فوق قمم المرتفعات الواقعة على الجانبين. ويقود ممر عشيرة إلى وادي عشيرة الذي يتجه شرقاً بين جانبين يبعدان نصف ميل عن بعضهما، ويبلغ ارتفاعهما ما بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم فوق سطح الحوض. وتقع قرية الحراضة - كما أخبروني - في وهد فرعي، وهي قرية صغيرة بين النخيل، على بعد مسيرة يوم أو أقل في اتجاه

الشمـال من هذه النقطة. ويسكن القرية ما لا يزيد علـى خمسين نسمـة من قسم القبابنة التابع للسهول[1].

تتبعنا الآن مجرى السيول الرملي المتعرّج، وتوقفنا للقيلولة بعد ثلاثة أميال من السيـر فيه حيث توفرت الأعشـاب وأشجار السنط. كـان مكاننا ذلك في انحناءة حجبت عنا مرأى بدايات قرية مهجورة ومزارع متروكة ومبانٍ وآبارمهدمة، وكانت بعض الآبار تحتـوي على الماء وصارت الآن مـركزاً لمخيّم بدوي صـغيـر من رعاة قحطان يلتمسون فيهـا بعض الراحة من عناء الصوم في وهج الهجير، كانت تلك هي قـرية الجداوية. لم نكن نعلم أنّ هـذه القرية مـأهولة حتى رأينا خـيام البـدو السوداء، لعلهـا كانت خمس عشـرة خيمة تحجـبها أجمـة من السنط الشائك في حمى صخرة في الوادي. ولكن سرعان ما عرفنا أن وجودنا في منطقتهم كان أمراً معلوماً لديهم. كان جـابر قد أشاع خبر وصول كافـر، وكان بلوغنا للموقع الذي أنخنا فيه للقيلولة منذ علمه المراقبون على جانبي التلال.

كانت جمال الحملة قد أطلقت أمامنا بعـد العصر، وكانت قد تجاوزت المخيم المذكور. وعندمـا ركبنا أنا وإبراهيم وفالح للحـاق بالقافلة لاحظنا حركة غـريبة وسط الخيام، رجـال يسرعون في هذا الاتجاه وذاك دون هدف واضح، لـذا ابتعدنا قدر ما نستطيع عن الخيام سائرين بطول الجانب الأبعد للوادي، ولكنّ تحوطاتنا لم تُجدِ، ويعود الفـضل في هذا لأصدقائنا الذين أشاعوا خـبرنا. وقبل أن يمرّ وقت طويل سمعنا مـترك يرفع صوته بغضب، وكانت هناك ردود مـستنكرة من البدو، وعندما استدرت بجسمي لأستطلع جليـة الأمر رأيت المولى عبد الرزاق يعدو راكباً

---

(١) مفردها سهلي.

نحو الخيام مشرعاً بندقيته وشاهراً سيفه، ولم أدرِ ماذا كان يريد الرجل تحقيقه بهذه المغامرة. كانت تدفعه الشجاعة أكثر مما يدفعه العقل، قفز عن سرجه وأطبق عليه البدو الغاضبون ورموا به ومرّغوه في التراب، حينها فارق العقل جماعتنا وبعزمٍ واحد تحرّك أفراد الجماعة كلهم لإنقاذ رفيقنا وتركوني وسط بعير الحملة في صحبة أمَة، كانت ابنة أخت أحد تابعينا وجدها في اليوم السابق في الأحمر وهي الآن ترافق خالها في طريق العودة للرياض إذ أنها فقدت أبويها منذ عهد قريب. التفتُّ إليها لأطمئنها لكنّها أشارت نحو الخيام حيث كانت الأحداث تجري مع كل الاحتمالات المأساوية التي لم أكن على أي حال أقدر على تغييرها.

خرج سكان القرية عن بكرة أبيهم، رجالهم ونساؤهم وأطفالهم في غضب، واشتدّت معركة كلامية اختلطت فيها أصوات النساء مع هدير الرجال وصخبهم، بينما كانت النساء في وسط هذه المعمعة حيث السيوف مشرعة والبنادق مُعَبَّأة. كان يبدو أنه لا بد أنّ طلقة ستخرج من بندقية ما ليتحوّل المشهد إلى مأساة، ورغم أن رفاقي كانوا يتفوقون في السلاح. إلاّ أن البدو كانوا يفوقونهم عدداً.

مثل هذه الأحداث لا تدوم طويلاً -هكذا تقول خبرتي في هذه البلاد- مهما كانت عنيفة أثناء وقوعها. فجأة هدأ النقاش وابتعد كلّ فريق عن الآخر وقد اكتفى كلّ منهم بنصر معنوي. قاد إبراهيم رفاقه في زهو المنتصر نحو القافلة، وعندها فقط وجدت الفرصة سانحة لأسأل عن أسباب اندلاع هذه الصورة عديمة المعنى، وعن الحماقة التي قادتنا قريباً من المأساة. قال مترك مبرراً تصرّفه: «والله كان هؤلاء القوم يعلمون قدومنا عن طريق جابر، وهم قد رأونا نخيّم للمقيل في الشعيب، وعندما مرّت الحملة بجوار خيامهم لعنوا أفرادها لوجود كافر بينهم،

ولهذا السبب صرخت فيهم ليأخذوا حذرهم إذ أنهم يُسيئون لأتباع ابن سعود. وكان جوابهم: «لعنة الله عليكم لوجود الكفرة بينكم». وهكذا حمل عليهم عبد الرزاق، ولقد رأيت أنت ما حدث بعدها. وكان احتجاجي أنه لم يكن على الرفاق أن يستجيبوا لتلك الاستفزازات والأفعال الصبيانية. وكانت إجابة الرفاق: «والله أمثال هؤلاء يجدون الشجاعة فقط إن تركوهم سائرين في الغيّ، لقد كانوا دون شك ينتظرون مرورنا ليطلقوا علينا النار من الخلف لولا أن هاجمناهم كما فعلنا. وهم الآن خائفون من أنّنا سنخبر عنهم وأنهم سيتلقون العقاب من ابن عفيصان».

كان رفاقي على أيّ حال خجلين بعض الشيء لما حدث، وأخبرتهم بأنني لم أكن مقتنعاً بحجتهم، ثم تركنا الحديث عن الموضوع عند هذا الحد. ولكنهم كانوا يعودون للحديث عنه بغضب من وقت لآخر لبقية ذلك اليوم. أمّا أنا فلا بدّ أن أعترف أنني قد حددت رأياً قاطعاً حول صِحّة أو خطأ تصرفهم في ظلّ الظروف التي سادت، رغم أنني أرى أنّه لم يكن من المحتمل أن يتبعنا البدو ونحن على هذه الدرجة من التسلُّح إن تغافلنا عن إساءاتهم ومضينا في طريقنا.

ضاق الوادي الآن حتى صار عرضه ربع ميل، وصارَ جانباه أكثر انخفاضاً، وكانت تخطّ الهضبة على جانبي الوادي أحواض ضحلة لوهاد فرعية[1]. كنا نرى على جانبي طريقنا مزارع مهجورة ومبانٍ وآبار مهدّمة هنا وهناك، حتى مرّ الطريق بجوار مزارع السمُليجي وهو شريط ضيق من النخيل، يبلغ عددها ٣٠٠ نخلة،

(١) هي شعيب منهاج، ملوي والداهنة وحنوة والقبورية، بهذا التتابع ونحن نتقدّم نحو أسفل الوادي. (المؤلف).

ويمتدّ لحوالي ميل في اتجاه أدنى الوادي، مع وفرة في أجمات الطرفة وكذلك التين البري[1] ذي الأوراق العريضة، خاصة حيث يلتقي أخدود حنوة مع الشعيب الرئيس.

بعد حوالي ميل من هذا الموقع دخلنا واحة الستارة لنخيّم للمبيت تحت أسوار قرية صغيرة تشبه القلعة وتضمّ في داخلها معظم سكانها. كنّا قد سرنا مسافة طويلة جداً، لعلها كانت ثلاثين ميلاً، ساعدنا على السير فيها طقس معتدل ونسمات شمالية لطيفة. وكنا سعداء إذ لم نجد معارضة من الأهالي تضطرّنا لإعادة المشهد العدائي الذي واجهنا في فترة بعد الظهيرة.

كان مهد المجرى السلي هنا رملياً عريضاً، ويجري في المنطقة على شكل نصف دائرة عريضة، تحفّ به بساتين النخيل الكثيفة على الجانبين. تقع القرية على الجانب الأيسر مواجهةً لأكثر البساتين كثافةً، وفي هذا الموقع ينحدر طريق حمرة المباشر نازلاً من الهضبة نحو الوادي. كان المشهد الريفي ساراً عندما ننظر إليه من أعلى الوادي، حيث كانت تبدو انحناءة الواحة الجميلة، بالإضافة للقرية نفسها وهي قلعة صغيرة مستطيلة الشكل لا يتعدى طولها ١٠٠ ياردة وعرضها ٦٠ ياردة وبها ثمانية أبراج، وثلاثة أبواب، ويزيد جمال منظرها البساتين الظليلة على جانبيها. وكان هناك قصر وحيد خارج أسوار القرية في أحد البساتين. ولم يكن تعداد السكان بالقرية كلها يزيد على خمسين نسمة، رغم أنّه في وقت زيارتنا كانت تتناثر خيام البدو في الواحة بمناسبة شهر الصوم فيما يبدو. ولعلّ السكان الدائمين هم عائلة الأمير المحلي عبدالله بن ذيب وأتباعه، وهو رجل ذائع الصيت بين القبابنة، ويعتمد عليه وعلى إنتاج الواحة مئتا شخص.

---

(١) يسمونه حماط. (المؤلف).

تمتد القـرية لمسافة مـيل ونصف بطول مجـرى السيول ويحـدّ المجرى المنحني جرف صخري منخفض يتابع انحناءه بينما يتكون الجانب المقابل للوادي من سلسلة من الروابي في شكل مرتفـعات متمـوجة. لم يكن في البساتين الكثـير من الزرع تحت النخـيل، ولكنّي لاحظت بعض شـجيـرات الجريب فـروت والتين والعنب، وهذه الأخيرة كانت تنتشر حول فتحات الآبار.

كنا الآن نقترب بسرعـة من نهاية وادي عشيرة، وبسيرنا لمسافـة اثني عشر ميلاً في اليوم التالي بلغنا الغيل، وهي مستوطنة جدّ غنية، تقع في أدنى الوادي بالقرب من موقع التقائه بسهل الأفلاج، كان كل ما تبقّى من الهجرة السابقة جنينة لا يعدو ثلاث أو أربع نخلات قصيرة ومثلهـا من الآبار المهجورة المحطمة. ومررنا بعد هذه القرية المهجورة بشـعيب سمران الذي يُقال إنّ منبعه بجـوار خشم حصان. وتكوّن الأراضي المرتفعة أدنى هذا الموقع على الجانب الأيسر لساناً ضيقاً من الصخور يقسمُ الوادي لسهلين دائريْن فسيحين تُغطِّيهما تربة طفلية تكونت عبر السنين، ويربط بين جزئي السـهل ممر ضيّق يمرّ من خلاله مجـرى السيول. تعرف الصـخرة التي تظلل المكان تحت السلسلة الصـخرية الناتئـة باسم أبو ديدي، ويُقـال إنّها كانت تُـعد من عصر الجاهلية. كانت هذه الصخرة هي الأثر الوحيد الذي مررت به من آثار العهود الجاهلية، ولا تـبدو لي الصخرة ذات أهميـة تؤهلها لاهتمام زوار المنـطقة إلاّ لأنها تُظَلّلُ المكان تحتها لمن يبحث عن ملاذ يقيه أشعة الشمس.

بعد هذه الصخـرة مباشرة مررنا ببـدايات قرية الغيل: قصور مهـدمة ومزارع تحيط بها وتطوف بالوادي لمسافة ثلاثة أميال ابتداءً من هذا الموقع حتى بساتين القرية الحقـيقية. كـان ذلك الخراب وعدم وجـود من يفلح الأرض دلالة كافيـة للتدهور

الذي أصاب القرية التي كانت يوماً ما مشهورة بثرائها وامتدادها. ويبدو لي أنه قد مضت سنوات طويلة منذ أن أنتجت هذه الحقول أياً من المحاصيل رغم أنّ فالحاً أخبرني أنّ بعض مساحات من هذه البقاع يزرعها أهل الغيل من حين لآخر عندما تكون الأمطار كافية فتسمح بالزراعة السيول التي تلي موسم الأمطار. كان مجرى السيول يجري فوق مهد عميق لا يقل عمقه عن عشرة أقدام بالمقارنة مع الأرض على الجانبين. كما كان عرض المجرى يبلغ حوالي عشرين ياردة ولذا فإنه يبدو لي أنّ السيول الاستثنائية فقط هي التي يمكن أن تغمر هذه الحقول. ثمّ إن السبب في تدهور هذه الأنحاء هو الارتفاع المستمر لمستوى الوادي الناتج عن ترسب الطمي عبر السيول المتتالية.

كان بعض الخيام السوداء لبدو المطارا تتخلل المشهد المهجور أمامنا. وبتتبعنا لانحنائه في الوادي صارت واحة الغيل على مرأى منّا؛ غابة كثيفة من النخيل تسدُّ المكان بين الصخور الجيرية المترسبة على جانبي الوهد. ضاع مجرى السيول في ذلك الخضم، بينما تتبع الطريق سلسلة صخور في سفح الجرف الصخري الذي يكوّن الجانب الأيسر للمنخفض. كان أوّل ما بلغناه من الرقاع المزروعة بستان نخيل تنوء نخيله بمحصول ثقيل من تمر لـمَّا ينضج بعد، وكان وسط البستان مبنى مهدّماً. ومن وراء ذلك في الجانب الآخر من أرض خلاء رأينا قلعة مهدمة بها برج عالٍ منعزل يكوّن خط دفاع للقرية. توجد بعد ذلك بساتين نخيل على أرض يبلغُ عرضها ٣٠٠ ياردة، تتخللها بعض الجروف الصخرية التي ترتفع لمئة قدم. عبرنا فوق جسر مبني يمرّ من تحته أخدود ضيّق، وقادنا الطريق عبر قلب الواحة بطول مجرى السيول الرئيس حتى بلغنا قرية البديعة التي خيمنا بإزائها في فناء صغير تحت الجرف الصخري الشاهق على الجانب الأيمن للمجرى.

تمكنت من مشاهدة جيدة للمنطقة وما حولها من فوق قمة ذلك الجرف الصخري. كانت كتلة النخيل المتشابكة تبدو من تحتي وتمتدّ في خط متّصل في اتجاه أسفل الوادي لمسافة تقارب الميلين بعرض يبلغ نحو ٣٠٠ ياردة، ويمتدُّ الخط من برج المراقبة الواقع في أعلى الوادي إلى الطرف الأدنى للواحة حيث ينحني الوادي بحدَّة نحو الجنوب. كانت الهضبة المهجورة على المستوى الأعلى تمتدُّ في جميع الاتجاهات مع انحناء حاد نحو الشرق باتجاه سهل الأفلاج الذي تلتقي به على بعد مسافة غير بعيدة من هذا الموقع. كان يحدّ الوادي بعد مسافة بعيدة السلسلة الخارجية لصحراء البياض الذي كان ظاهراً للعيان رغم أنّه لم يكن في الإمكان تبيّن تفاصيله بسبب الغبار العالق الذي كان يخيّم على المكان. بيد أنّ الإقليم الوعر بجوار شعيبي العرس والمراء كان بادياً للعيان في ناحية الشرق بسلاسل تلاله السوداء والبيضاء. ولكن لم تكن واحة الأفلاج لتُرى إلاّ كنقاط داكنة من الزرع ولم يكن تبيّنها سهلاً.

يعود سبب تسمية واحة الغيل بهذا الاسم لوجود غدير دائم في مهد مجرى السيل بذات الاسم، يحملُ الماء طوال الوقت - رغم أنّ ماءه ليس وفيراً - بطول المزارع حتى تنتهي مياهه بعد أن يسقي مزارع ثلاث قرى: قرية العمائر في أعلى الوادي وبها حوالي ١٥٠ نسمة، والبديعة وهي مجموعة من ثلاث قرى صغيرة على الجانب الأيسر للوادي، وهي أكثف مواقع القرية زراعة ويسكنها ٣٠٠ نسمة بما في ذلك الأمير المحلي الذي يسكن في القرية الوسطى وهي أكبرها. والقرية الثالثة الأخيرة هي مشرفة، وهي مقسمة إلى جزأين صغيرين، وتقع على بعد ميل من البديعة في اتجاه أدنى الوادي، لكنها أقرب للجانب الأيمن للوادي وقوامها ١٠٠ نسمة. إضافة لهذه القرى هناك المباني الريفية «القصور» المتفرقة وعددها

حوالي اثني عشر قصراً، وأحد هذه القصور يحتلّ موقعاً جيداً في منتصف الطريق على الجرف الصخري في الجانب الأيسر للوادي، مُطلاً على البديعة.

لا بدّ أن جملة سكان المستوطنة يبلغ حوالي ٧٠٠ نسمة، أكثرهم من بني خضير الذين يملكون ويزرعون بساتين الواحة باستئجارها من ملاكها القبابنة الذين يفضلون الحياة البدوية ليعودوا إلى الغيل فقط أثناء شهر رمضان وفي موسم حصاد التمر. زعيم كل فروع القسم الأعلى هو ناصر بن شخيْط الذي ترك - تحت إشرافه- إدارة مصالح القرية لعناية حمد بن ثلاب. لم يكن أيّ من الرجلين؛ ناصر أو حمد بالمستوطنة عند زيارتنا لها، ولكن عودة الأخير كانت متوقعة في أيّ لحظة إذ كان قد أعلن أنه سيعود ليصوم الشهر في القرية. كان الرجل قد علم باحتمال قدومنا، لذا اتخذ الاحتياطات اللازمة محذراً رعاياه بضرورة القيام بواجبات الضيافة نحونا.

لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان ذلك الكرم ناتجاً عن ذلك التحذير أم أنّه متأصّل في أهل الغيل، ولكنني أسجل بالعرفان أنهم قابلونا فور وصولنا باستقبال ودّي، إذ خرجت نساء البديعة لتحيتنا عندما مررنا بالقرية وهم يدعون خيراً لابن سعود، بينما كان الأطفال يعبرون عن فرحهم في شوارع القرية. وعندما بلغنا المخيّم لُبِّيت احتياجاتنا من العلف بسرعة كبيرة. تمر الغيل -وهو في أغلبه من عينة سري- تمرٌ ممتاز، وأحضروا لي سَلّة عنب وهو أول ما تذوقته من العنب في الجزيرة العربية، لكنّه لم يكن آخرها كما لم يكن أفضلها، إذ أنّها كانت بواكير الإنتاج وكان لها طعم حامض، ولا مزيّة لها سوى أنها فاكهة طازجة. يبلغ عمق الماء في آبار الغيل حوالي ست قامات، في حين أنّ آبار الستارة لم تكن أعمق من أربع قامات، ولكن تميّز القرية وثراءها يعود إلى مياهها الجارية.

تابعنا سيرنا صباح اليوم التالي وعبرنا الغدير للمرة الثانية، وارتقينا مرتقى صعباً على جانب الجرف الصخري الشديد الانحدار، وتجاوزنا القصر الذي تحدثنا عنه سابقاً حتى بلغنا أعلى الهضبة، ومن هناك تمتعت بمشهد سهل الأفلاج وواحاته: الـخَرْفة وليلى والأخريات، كانت هناك بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي. حوّلنا اتجاه سيرنا مرة ثانية نحو الشمال عابرين القفار الموحشة التي تكوّن الطرف الشرقي لهضبة طويق. كنا نرى هنا وهناك ملامح لمعالم كنا قد مررنا بها أثناء رحلتنا نحو الوادي، ولكن المشهد حولنا كان بلا معالم وبلا حدود، وكان اليوم أحد أثقل الأيام التي قضيتها في الجزيرة العربية.

كانت بعض الوهاد تقاطع الصقع المرتفع ذا السطح الرتيب المتشابه على فترات، وكان أول الوهاد التي تعترض طريقنا شعيب مليزي، وثانيها شعيب الحراضة وهي روافد لوادي عشيرة مليزي، ويلتقيان به قبل أن يصل الوادي إلى السهل. بعد ذلك قطعنا شعيبين صغيرين آخرين[1] وهما من روافد المجرى العميق المسمّى أم الجرف وهو بدوره مصدر المجريين التوأمين العرس والمراء في سهل الرجد، واللذين بلغناهما بعد ثلاث ساعات من السير. كان الهبوط لهذا المنخفض الطيني العريض أمراً شاقاً، بيد أنّه لم يكن شديد الانحدار. أمّا الجانب الآخر فلقد كان من الصخور المترسبة وبه ممر ضيق صعب الارتقاء. كنا في طريقنا إلى ذلك الممر عندما دوّى صوت رصاصة لابدّ أنها أطلقت في اتجاهنا. كان صدى الدَّويّ يتردد تكراراً نتيجة لوجود كل تلك الصخور من حولنا. لم يكن

(١) شعيب سومرين وشعيب آخر بلا اسم. (المؤلف).

هناك تفسير لما حدث للحظات، ولم يكن هناك أثر لإنسان بخلاف جماعتنا على مدّ البصر، بيد أنّ الحذر كان واجباً حتى لا نجد أنفسنا في فخّ، وما أن تجمعنا للتشاور حول الأمر حتى أتانا طامي من الخلف بالخبر اليقين، إذ أنه رأى رجلاً منفرداً على البعد وأنه صاح له أن اقترب، عندها أطلق الرجل العيار الناري على سبيل التحذير وأطلق ساقيه للريح.

هذه هي المحاذير الدائمة للسفر في الصحراء قطعنا وهدًا إثر آخر[1]، نضرب في الأرض وقد أنهكتنا القفار، وأبدت إبلنا- رغماً عن قصرالمسافة التي عبرناها ورغماً عن طول فترة الراحة التي قضيناها بالأمس- أبدت علامات الإنهاك والنصب. بدت عن يميننا بوضوح سلسلة التلال المنخفضة ذات الصخور الداكنة بطول شعيب الغينة، كما بدت أيضاً رابية مخروطية الشكل بجوار شعيب العرس. لكن لم يكن هناك ما يدعونا لمواصلة السير، وكنا مسرورين بالتوقف للمبيت في منخفض بهضبة لا اسم لها. ما أملى علينا قرار التوقف هو معلومات كانت أتت إلينا بأنّ آبار الورهية التي كنا نقصدها تحتلها مجموعات من البدو: دواسر وقحاطين وقبابنة وآخرون، وكان الرأي أنه ليس من الحكمة الدخول في مخاطرة بقضاء الليل بين ظهرانيهم.

تحركنا في الصباح الباكر لندخل المنخفض العريض لشعيب الدريعي، ثم سرنا فيه لبعض الوقت، وهو الذي قطعنا من قبل امتداده الأدنى[2] في رحلتنا نحو الجنوب، ثم خرجنا من هذا المنخفض لنرتقي الهضبة ورأينا منظراً ممتداً لا حياة فيه كالذي سرنا فيه خلال اليوم السابق. بدا الآن صقع نسلة على اليمين ولم يكن

---

(١) شعيب حنشلية وسديرات، ورافد بلا اسم يغذي سديرات وأم الحشا. (المؤلف).

(٢) يعرف باسم شعيب ديّة، راجع المتن ص ٩٩ . (المؤلف).

بعيداً، وتغيّر سطح الهضبة المسطّح فصار متموجاً على جانبي شعيب رملي عريض آخر، وكان هذا الشعيب ويسمّى غُلغُل يمثل رافداً للدريعي. وصلنا لهذا المنخفض عن طريق منحدر طويل سهل التـدرّج ووجدناه مأهولاً بالقطعان وحيـوانات كثير من البدو الذين تجمعوا حـول آبار الورهية الاثنتين. وثبت لنا أن هؤلاء من قحطان من فخـذ شريف، وبما أنـهم احتلوا المكان طوال الليل ونهلـت مواشيـهم من الماء وعلّت، فلقد أخلوا لنا السبيل عن طيب خاطر. ولكــن ما إن استقررنا هناك حتى لاحت مجموعة كبيرة من القبابنة قادمة من مكان سقيا البعيجا الواقعة إلى الشمال من الغـيل، وغطّت على الأفق فـوق سلسلة التـلال التي تكوّن الجـانب الأيسـر للوادي. ثمّ تقدمـوا نحونا، إنّ منظر قافلة بدوية مـتحركـة منظر خلاّب في كل الأحوال، ولم يكن أمر هؤلاء مختلفاً.

كانت القـافلة مكوّنة من نحـو ثلاثين رجلاً يقـودون الركب فوق نيـاق مزيّنة مزركـشة، وكان يتـبعهـم حوالي مئـة من النساء والأطفال فـي هوادجهم أو على أحمال البعير، كما كان يحـرسهم حوالي اثني عشر كلباً. كانت كل النساء يرتدين ملابس حـمراء، وعلى رؤوسهن خُمُـر سود، ولكن باستثناء هذا كـان يبدو أنهنّ يستمـتعن بحرية كاملة بـالتحرك وسط الرجال، وكان عـليهن بطبيعـة الحال تحمّل نصيب الأسـد من المسؤوليـات بعد وصـول القافلة إلى جوار الآبار، مـثل نصب الخيام وفرز الأمـتعة ومهام على هذه الشاكلة، بينمـا يتجمع الرجال في دوائر أنس يُعدُّون القهوة ويتـسامرون حتى يحين وقت السقيـا. كان رأس القافلة رجل يدعى حمـداً وهو أحـد أقرباء ابن ثلاب، أمـير الغـيل. أتى حمـد هذا ليعـرض علينا خدماته، تحدثنا لبـعض الوقت وبعدها أصرّ أن يصحبني للبئر حـيث وجدت كثيراً من رجاله يُقدِّمون يد العون لرفاقي وهم يسـقون الإبل. سألني أحد رجاله مازحاً

إن كنت أودّ أن أكتب في البئر، إذ أنّ العرب مقتنعون بأن الأجانب الذين يزورون بلادهم يفعلون ذلك من أجل تسجيل عجائبهم، وهم في تفكيرهم هذا ليسوا بعيدين عن الحقيقة.

إحدى البئرين اللتين تشكلان مجموعة الورهية مدفونةٌ بالرمال تماماً حتى موقع البنيان الذي يحيط بفم البئر. بينما تغور البئر الثانية إلى عمق خمس قامات، وهي غير مبطنة ولكنّها محاطة بدائرة من الصخور حول أعلاها. إنّ الاستهلاك المتّصل لمياه هذه البئر يجعل منسوب الماء بها منخفضاً ولكن الماء كثير جداً في القاعدة الرملية للبئر ويرتفع فيها الماء كلما تُركت البئر لبعض الوقت، بينما يكفي خدش يسير في رمال القاع لزيادة الحصيلة مؤقتاً. طبيعة الماء في هذه البئر ممتازة وكذلك في بئر أخرى تُسمّى قَلْها، تقع على بعد ثلاثة أميال في اتجاه أدنى الوادي بالقرب من موقع التقائه بالدريعي.

واصلنا سيرنا بعد أن أخذنا قسطاً طيباً من الراحة، وخرجنا من الشعيب إلى المرتفعات المحيطة ودلفنا- خارجين من منطقة الأفلاج إلى منطقة الفرع، إذ أننا تتبعنا غلغل وأحد روافده ويُسمّى نعض غلغل لمسافة ما حتى بلغنا المنطقة الفاصلة بين نعض غلغل ووادي نعض بعيجاء، وهذه هي آخر قنوات التصريف شمالاً في هذا الصقع والتي لا تسهم بتصريف سيولها السنوية لمجرى العقيمي العظيم، ولكن بوصفها روافد للدريعي فإنها تجد طريقها لشعيب الديّة ومن ثمّ تنصرف مياهها جنوباً نحو سهل الأفلاج ومن ورائه لصحراء البياض.

٤- إقليم الفرع:

إن أسمـاء الحوطة والحريق محفورة بعمق في تـاريخ نجد ولكن الإقليم الذي تشكلان مدنه الرئيـسة لم يحظ بتـقصي الجغـرافيين الأوروبيين. ولقد كـان من قام بإعداد وتجـميع الكتاب الرسـمي عن الجزيرة العربيـة حذراً في تجمـيع المعلومات الضئيلة والمتضاربة التي كانت متـاحةً له حول الموضوع. لقد كان يتساءل «هل هذا إقليم واحد أم هما إقليمان؟ وهل يحملان الأسماء نفسها أم أنّ لهما أسماء أخرى وهل هذه الأسمـاء هي في الأصل للمدن الرئيـسة في كل إقليم؟ كل هـذه أسئلة تبحث عن إجابات» كـان خطأ بلجريف فاحشاً في تحديد مـوقع الإقليم إذ وضعه على حافة الصحراء الجنوبية العظيـمة كما رآه بعينيه[1]. ولكن واضع ذلك الكتاب رفض قبول شـهادة بلجريف، شاهد العيان الوحيد وآثر الأخـذ بوصف جاء عن طريق غيـر مباشر فـوضع الصقع على الخريطة بدقـة من حيث موقعـه من الخرج والعارض، وبمعنى أدق غرب الخرج وجنوب الثانية، ولكنه في الوقت نفسه يخطئ بوضعه جنوب الأفلاج استناداً على رواية بـلجريف مفضلاً إيّاها على رأي لوريمر الذي حدّد موقعاً صـائباً للمواقع النسبية للإقليمين بعد استفـسارات كثيرة من زوار عرب وفدوا إلى الخليج العربي.

اسم هذا الإقليم الفرع، وأهم مـلامحه هو ممر المجـمعة الضيّق العـميق الذي يشكل أيضاً حدوده الشـمالية. وعلى جانبي هذا الممر الذي يشق مـرتفعات طويق تقع الواحة الكبرى التي تضم مستـوطنات الحريق والحوطة. وإلى الشمال من هذا الخط يقع قـسم طويق المعـروف باسم العارض حـيث تنتـشر على جـزئه الجنوبي

(١) كتاب بلجريف، الجزء الثاني، ص١٢٨. (المؤلف).

الغربي كتل علـيّة الشامخة التي تشـكل أعلى قسم في كل الهضبـة، وهي مصدر السيول التي صاغت الواحتين الكبيـرتين. يمتدُّ الإقليم على امتداد عرض طويق من الغرب للشـرق لمسافة تقدَّرُ بثلاثين مـيلاً، ثم يستمـرُّ لعشرين ميـلاً أخرى بمحاذاة مرتفعـات الأفلاج، بطول الخط الفاصل بين مجاري بعيـجاء والدريعي. ويبدو أنّه يغطي مـساحـة تبلغ ١٥٠٠ ميل مـربع من أكثـر المناطق الكالحة خـواءً في وسط الجزيرة العربية. وإن جاز لنا أن نقارن بين الجـزء والكل فإننا نرى هذه المنطقة مثالاً مصـغراً في النواحي الطبيـعية والإنسانـية لوسط الجزيرة العـربية، وهو مثال غـير مبـهج. هنا وجدنا سـلالة بني تميم القديمة، سـلالة فخـورة من صغـار الفلاحين راضون بانعـزالهم عن العالم المحيط بـهم ويبحثـون في المقابل فقط عـمّا يمكنهم الحصـول عليه بكدحـهم. وهم مصنفـون - مع سكان قرى العـارض- من أقوى المحـاربين شـكيمـة في الجـزيرة العربيـة، كمـا أنهـم من السلفـيين الأتقيـاء التقـليديين ويفخـرون بولائهم لرأس الدولة السعـودية. ذلك الولاء الذي برهنوا عليه أيام احتلال الرشـيـديين بأن عاقبوا جابي الزكاة التـابع لإدارة المغتصبين علناً في سوق الحـوطة، بعد أن تهـدّر بظهوره بينهم مطالـباً إياهم بدفع الزكـاة لخزينة الدولة.

بالطبع لم أكن أدري موقع مستـوطنات الفرع تحديداً، وبدا لي أنّ الطريق كان يقودنا بعـيداً نحو الشـرق في اتجاه وادي العقـيمي، تاركين مرتفـعات طويق عن شمالنا. في ظل هذه الظروف تشجعت في مـساء ذلك اليوم وفتحت الموضوع مع إبراهيم، فبدت علـى وجهه نظرة غريبة عندمـا ذكّرته بوعده لتأكـيد ظني بأنه كان ينوي خـداعي عندما قـطع ذلك الوعد. قـال لي: «ألم يحـذرنا ابن سعـود عند

مغادرتنا آمراً إيانا أن نتجنَّب الحوطة والحريق؟» أجبت: «بلى، ولكن ألَمْ تعدني أنت بأخذي إلى تلك المناطق معلناً أنّ ابن سعود قصد ألاّ نتوقف في وسطها؟ ألم تعدني بأننا عندما نقترب من الحريق سنرسل أمامنا الحملة ليلاً وننتظر الفجر، ثم نركب مسرعين عبر الحريق حتى أسفل الشعيب مروراً بالحوطة دون أن يلحظ الناس أن هناك ما يُريب؟» قال بإصرار: «والله إذا أردنا أن نفعل ذلك ما كان علينا اتباع هذا الطريق الذي سلكناه، ولكن كان علينا أن نتّبع منحدر طويق الصخري الشاهق على الجانب الآخر لنصل إلى الممر الذي يقودنا إلى الحريق، ولكنك في الوادي قلت إنك تريد رؤية الأحمر والهدّار وما كان يمكننا المرور بالجهتين معاً».

قلت: «يا إبراهيم لقد خدعتني، ولقد كنت طوال هذه الرحلة فظاً سيئ المعاملة لي. لقد كان لدينا كل الوقت للالتفاف لنصل إلى تلك المواقع ولكن كل الأمر بيدك وما يمكنني قوله هو الآتي: إن لم أرَ مدن الفرع كما وعدتني إياي فلن تكون لي معك علاقة قط منذ اللحظة التي نصل فيها إلى الرياض، وحتى ذلك الحين أنت المسؤول عن سيرنا، وليس لي ما أقوله بعد».

شعرت الآن أن إبراهيم وقد علم رأيي حول محاولة خداعه لي، سيحاول أن ينجز وعده ولو جزئياً؛ لأننا وقد ذهبنا بعيداً سيصعب علينا تحقيق المبتغى بكامله. كان هذا الاستنتاج منطقياً ولكن ليس عليَّ أن أستبق الأحداث. انتهى مجرى سيول نعض بعيجاء في نهاية الأمر بجوار صخرة بارزة مخروطية الشكل تسمى رُبع، وذلك بعد أن اتخذ مجرى متعرجاً ماراً خلال فجوة بين التلال. وفي جوار تلك الصخرة المخروطية التقى وذاب في أحمرة، وهو حوض عظيم تقع مقدمته

في المرتفعات البعيدة في غرب طويق، ويشكّلُ لساناً ممتداً في داخل هضبة شعيب البعيجا. وهذا الأخير كنا قد مررنا بالموقع الذي يلتقي فيه مع شعيب حلفاوي في نهاية وادي العقيمي، في رحلتنا نحو الجنوب قبل أكثر من شهر.

يجري وادي أحمرة -المحاط على الجانبين بجروف عالية عظيمة كدعامات تسند جدران الهضبة- في الاتجاه الشمالي الشرقي من النقطة التي دخلنا إليه بها وهو مغطى بشجيرات صحراوية وأشجار طلح كثيرة وأنواع أخرى من أشجار السنط والمرخ الذي يشبه المكنسة. ويسدُّ الوادي هنا وهناك كتلٌ كثيفة من الطمي المتراكم يصل ارتفاعها عشرة أقدام أو أكثر، ومن خلالها يجري مجرى السيل الذي يتكون مهده من رمال وحصباء تظهر في شكل منحنيات ناعمة حول أكتاف صخرة بارزة من الدعامات الجانبية. وبعد مسافة وأخرى تتقلص الصخور الشاهقة تدريجياً لتكوّن خلجاناً تتجمع فيها المياه من الأراضي العالية في الخلف لتجري في روافد صغيرة[1].

بعد مسافة خمسة أميال أسفل المجرى بلغنا بئر بعيجاء وقد نصبت حولها حوالي خمسين خيمة لبدو القبابنة الذين تجمعوا في المراعي المجاورة استعداداً للسير في اليوم التالي إلى الغيل. لم يتسبب ظهورنا حول منحنى الوادي في أي نوع من الإثارة وسط سكان الخيام الذين كانوا يعلمون جيداً بأننا لكي نصل إلى تلك النقطة لا بد أننا قد مررنا بوديان ومرتفعات تسكنها عشيرتهم. مررنا بإزاء البئر الوحيدة التي يبلغ عمق الماء فيها خمس عشرة قامة والتي تميّزت بماء وفير جيد

(١) سُمَيّرية: على بئر بعيجاء ومسيدر وأم الفرائد وعبيران وأم طليحة أسفله. (المؤلف).

تجمهر حوله حوالي مئة من الإبل وعــدد لا يحصى من الخراف لتستقى في المساء. أنخنا رواحلنا على بعد من أجل المبيت. كان حمد بن غـيل أمير الغيل نفسه هنا. ولـم يكتف بإرســال شاتين لعشـائنا فحـسب بل جاء بعـد الوجبة ليـتحـدث معنا ويرتشف القهوة حـول نار مخيمنا. شاركنا عـشاءنا ثلاثة من الشكرة الدواسر أتوا ليسمعوا أخبار بلادهم التي أتينا منها، والتي ظلّوا بعيداً عنها لعدّة شهور بحثاً عن المرعى. كنت أنا لسوء الطالع قد عدت إلى خيـمتي لأكتب أو أقرأ بعد أن غادرنا ضيوفنا هؤلاء؛ لذا لم أحظ بلقاء حـمد في زيارته تلك، وهو الذي تحدث الرفاق في اليوم التالي عن شخـصيته الودودة المرحبة. بيـد أنهم عزوا تودده إلى انتقادات ابن سعود الأخيرة له. إن حكم بلاد كالجزيـرة العربية ليس أمراً سهلاً. هو أمر لا مفرّ فيه من تبادل الضربات في البداية. ولـم يكن أحد غير ابن سعود ليستطيع أن يدير بلداً كهذا، وهو الذي يعرف كيف يداوي الجـراح التي يتسبب فيها. والدليل على نجاحـه تنبئ عنه قائمة طويلة من الأعـداء الذين تحولوا إلى أصدقاء أوفـياء، ليس بتقـديم الهدايا لهم، ولا بالترفق بهم، ولكن بالضـربات الموجـعة دون هوادة أو رحـمـة لكل من يقف في طريـقه مناوئـاً، ثم السمـاح والعـفـو الكامل بعـد العقاب.

تتبعنا في اليوم التـالي الوادي نحو الأسفل حتى النقطة التي يتّسع فيـها سريعاً بعد أن يتـباعـد جانبـاه ويصبحـا منخفـضين، وهو الذي يصبُّ بعدهـا في سهل العـقيـمي من خلال الزاوية التي تكوّنـت بالتقـاء تلال انصلح والمنحدر الخـارجي اللطيف لطويق. وبعد أن توقفنا قليـلاً للإفطار في شعيب رملي يدعى أم الرمال، تابعنا سيـرنا فوق كتف منخـفض للهضبة يبـرز داخل السهل، ومن قمـته لاحظنا

وادي العقيمي المرتفع الممتد أمام أعيننا، وهو الحوض الدائري المتسع الذي مررنا به سابقـاً، ومعالمه البارزة خـشم خرطم والأرض الرأسية نسـوان يبدو أن هناك على البعد في أطرافه.

سرنا الآن بطول حافـة منحدر طويق فوق أرض ثابتة بعـرض الأطراف العليا لشعيب طلحا بالقرب من الموقع الذي يصب فـيه في السهل، وتوجهنا نحو خليج متـسع يجري نحو الهـضبة وتحـدّه على الجانبين تلالٌ منخـفضة عـارية. كان هذا الخليج الذي فصله عن السهل لسان رملي هو وادي برك الذي كوّن شكلاً إسفينياً، قمته في الموقع الذي يتوقف فيه الوادي عن الجري بين الصخور الترسيبية الشاهقة. وتمتـد قاعـدة الشكل الإسفـيني لمسـافة مـيل في الموقع الذي يلتـقي فيـه الوادي بالسهل. لم يكن في هذا الحوض مـا يثبت وجود مجاري سـيول دائمة، ولكن من المحتـمل أنَّ مياه السيل تنتـشر بعرض الشكل الإسـفيني نحو السهل حـيث تلتقي بصورة طبيعية بمجاريه لتنحت مهـدها مخلّفةً الرمال والصخور التي رأيتها في ذلك السـهل.

تقدمـنا إلى أعلى الوادي في اتّجاه القـمّة لنقـيم، مخـيمنا تحت ظل أشـجار السرح الضـخمـة التي تحيط بها سلسـلة من البرك الجافّـة تماماً وتسـمى مزعب. فخرجت لأرتقي تلاً خـفيضاً حتى أتمكن من رؤية منظر المنطقـة المحيطة بنا بدرجة أفضل. كنت أتفـحص المكان عندما رآني أحـد البدو الذي كان يـبحـث عن جمل مفقود. سألت نفسي إن كنت دون أن أقصد قـد أرشدت عصابة مغيرة على موقع مخيّمنا، وتراجعت سريعاً نحـو المخيّم يتبعني ذلك الأعرابي حتى توسطنا الرفاق. وشعرت بالارتياح عندما علمت بأنه كان يبحث عن الجمل وأنه عندما رآني أتطلع

إلى المكان ظنّ أنني وجدت الجمل المفقود وأنني كنت أبحث عن صاحبه. وبعد أن تناول مشروباً تركنا الرجل ليواصل بحثه.

لا يفصلنا الآن عن قمة الإسفين سوى ميل أو نحوه حيث وسمت بركة جافة تسمى ثقب حَيْد الطرف الشرقي للقناة الطويلة التي تحفّها الصخور الشاهقة ويَشقُّها وادي برك العظيم الجاف عبر حاجز طويق الضخم من الغرب للشرق. يجري الوادي الذي تعرف أجزاؤه العليا باسم وادي السرّة مرتفعاً في أراضي عالية نجد التي عبرتها بالقرب من مصدر ذلك الوادي أثناء رحلتي إلى جدة قبل شهور. ويجري الوادي في مساره الطويل خلال المنطقة الجبلية والرملية غير المعروفة غرب طويق. ثمَّ يتغيّر اسمه فيصبح وادي برك، وعندما يقترب من الحاجز ينشطر إلى جزأين كما يفعل وادي الدواسر في الجنوب، ومجاري نساح ولحا والعتش إلى الشمال من ذلك. ثم يعاود برك الظهور مجدداً مستجمعاً مياه سيوله ليلتقي بمجاري العقيمي وروافده المتعددة. لم يكن هناك ما يُميِّز الصخور العالية في نهاية الممر الضيّق، ولكنّ رفاقي أخبروني أنّه في أعلى الممر وخاصة عند النقطة التي يدخل فيها المجرى في الحاجز، ترتفع الصخور إلى سماوات عُلاً في مهابة وجلال. رغم أنَّ الوادي من المناطق الرعوية المفضلة للبدو إلاّ أنّه لا يضمّ مستوطنات، وهو يُعد الحدود الجنوبية لمنطقة الفرع، وهو بلا شك الحد الشمالي للقبائل التي تتخذ من الأفلاج ديرة لها.

تفصل سلسلة تلال ضيقة منبع وادي برك عن وادي الفارعة الذي يبدو للوهلة الأولى كرافدٍ له رغم أنه في حقيقة الأمر ليس كذلك. يقوم حاجز يُرى تقريباً بتغيير سير مياه برك شرقاً في اتجاه السهل، كما يقوم بتجميع وتوجيه مياه تصريف

الهضبة المحيطة نحو شعيب الفـارعة الذي يصب عن طريق عدد كبير من الأخاديد في وادي النصبية القصير المتسع الذي يكتظ بالأشجار، والذي خيمنا في منبعه. إن وادي النصبـية جـزء لا يتجزء من وادي الفـارعة وهو يمثل ظاهرة طبـيعـية لم أرَ أعجب مـنها في كل الوقت الذي قـضيـته في الجزيـرة العربيـة. إذ يجري وادي النصبية لميلين أو ثلاثة في جزئه الأعلى مـوازياً لوادي برك ولا يفصل بينهما سوى ميل واحد. وفي حين أن وادي برك يجـري نحو الشرق، فإنّ النصبـية يجري في الاتجاه المعاكس مـخترقاً قلب طويق الصـخري بدلاً عن أن يتّبع خطّاً أقلّ مـقاومة نحو وادي بِرك. بعـد ذلك يتجه النصبـية ملتفتـاً نحو الشمال ليلتـقي بمجمع في منطقة الحـوطة، ومن ثمّ منطقة المجرى المتـحد شرقاً نحـو السهل ليعبـرهُ ويلتقي بوادي العقيـمي في إقليم الخرج. ابتداءً من الموقع الذي خـيّمنا فيه للمـبيت حتى الموقع الذي التقينا فـيه مجدداً بوادي الفارعـة بعد مسيرة خـمسة عشر مـيلاً نحو الشمال، يتخذ وادي الفارعة شكلاً نصف دائري في الهضبة ناحتاً لمجراه بعمق في صُمِّ الصـخور، ومن ثمَّ يجـد طريقه للسـهل ثانيةً في ذات الحـافة التي يبـدأ فيـها بالجريان في اتجاه معاكس.

فشل بعض رجالنا في اصطياد الحـبارى الأولى التي رأيتها منذ أن تركت تلال الصمـان وراء ظهري في الربيع. ومـا إن يئس منها الرفـاق حتى رأينا قطيـعاً من الغزلان يرعى أمامنا على البعد، وحبس أفـراد القافلة أنفاسهم وقوفاً على أرجلهم عندما بدأ صيـادونا عملهم، بيد أنهم عادوا ثانيةً خـالي الوفاض في حين اندفعت الطرائد الخائفة نـحو القفـار المهجـورة. كنـت قـد رأيـت في الصـباح البـاكـر في

ممر أحمرة طائرالحجل[1]، لكن الصيد أثناء السفر هو اصطياد في ظروف صعبة غير مناسبة ونادراً ما سارت الأمور لصالحنا في محاولاتنا. رغم أن النجاح في الصيد كان يملؤنا بالسعادة خاصة في تلك الأيام التي نفد فيها مخزوننا من الشاي والأرز وهي سلعة لا يمكن شراؤها في الإقليم الجنوبي، فهي ليست معروضة للبيع في متاجرهم. حتى التمر الذي ابتعنا في الغيل كان قد تسوّس وما كان يمكن إدخاله إلى الفم قبل عمليات فحصٍ متئدة. ومن بقية قائمة المأكولات كان لدينا ما يكفينا من الدقيق الذي يُمكن أن يُصنع منه خبز خشن، إضافة لما كان متوافراً في الجنوب من القمح الذي يُصنع منه «الجريش».

كان هناك طريق واضح المعالم يرتقي الهضبة من منبع وادي النصبية. وكانت تقاطعه في زوايا قائمة الممرات التي حفرت في الأرض من جراء سير قاطعي الحشائش من سكان مناطق الفرع الذين يغدون ويروحون عليها في رحلاتهم المتعاقبة لمراعي البياض من واحة الحلوه. كانت تسم قرية القويع الصغيرة في طرف الواحة الجنوبي أكوام من الحجارة على الجرف الصخري الشاهق. أمّا أودية الفارعة والمجامع في الحوطة، وحتى شعيب طرش، كل هذه الأودية مُحصّنةٌ تماماً ضد المرعى إلاّ لماشية أهل الإقليم فحسب. وهم من الشح بحيث يمنعون الماء عن البدو وماشيتهم، كما حدث قبل يوم أو يومين مع مجموعة القبابنة التي التقينا بهم في بئر بعيجاء إذ أبعدوا بخشونة، ومُنعوا من سقي إبلهم العطشى وخرافهم من آبار المنطقة. إنهم يخشون أن يعلمَ الآخرون مخابئهم الطبيعية التي يحتالون فيها على

(١) ربما من نوع Ortyogornis pondicerianus وقد يكون سيسي Sisi ، والأول هو طائر حجل عادي رمادي اللون يعرفه سكان الهند. (المؤلف).

العيش في طيات طويق. ويساعدهم على الاكتفاء الذاتي الخصوبة العالية لواحاتهم المحصنة ضد الاعتداء الخارجي بفضل ساحات الصحراء الشاسعة القاسية الخالية من الماء التي تحيط بهم، فلا يستطيع العدو أن يبقى فيها لمدة طويلة في انتظار تداعي دفاعاتهم القويّة.

عندما بدأنا سيرنا صباح اليوم التالي عبر المسار المطروق فوق الهضبة لم يكن إبراهيم قد قرر شيئاً حول ما يريد أن يفعله تجاه الوضع الحرج الذي وجد نفسه فيه بتذكيري إياه بضرورة إنجاز وعده. كان المشهد حولنا يمتدّ إلى الأفق من كل الجهات، وكانت الحافة لمنحدر طويق على بعد ثلاثة أميال منا إلى جهة اليمين مواجهة لوادي العقيمي، بينما امتدّت الهضبة نحو الغرب على امتداد أبصارنا وهي ترتفع بانتظام نحو الهيكل البعيد لعلية هناك في العمق. لكن كانت تظهر من آن لآخر ملامح للجروف الصخرية المجاورة للصدع العميق لوهد المجمع. وعلى مسافة أقل، لعلها على بعد ثلاثة أو أربعة أميال في الاتجاه نفسه بدا وادي الفارعة موازياً لمسارنا. كان المشهد إلى يميننا - أي في اتجاه الخرج - تسدّه سلسلة تلال شعارى الممتدة، وهي سلسلة منعزلة تقع خارج إطار طويق ويفصلها عنه نفود من الرمال يدعى كراضيّة.

عندما تحركنا دهسنا في الطريق خمس عقارب صغيرة وجدناها مختبئة في ظل شجيرة صغيرة، ثمّ لاحت لنا نخيل الحلوة في اتجاه الغرب من عمق وهد الفارعة. يبدأ الطرف الجنوبي لواحة الحلوة في قرية القويع، وتمتدّ في خطٍّ مستمر من البساتين الغنية لأربعة أو خمسة أميال حتى مسافة قريبة من بداية النخيل للمدينة الرئيسة الحوطة. توجد في هذه المسافة ثلاث قرى مهمة هي: القويع

والحلوة والعطيان، وبـها عدد كبـير من القصـور المنعزلة، ويسكن هذه القـرى ما يقارب ٥٠٠٠ نسمة معظمهم من قـسم آل مرشد من بني تميم، وهو قسم يساوي من حيث القـوة في واحة الحوطة أبناءَ عمومـتهم قسم آل حسين الذين يـفوقونهم عدداً. هناك أيضاً عناصـر من بني خضير يكثر وجـودهم في الواحتين وكذلك في الحريق. أمّا العناصر الغالبـة في الحريق فهم قسم الهزازنة[١] التابعين لقبيلة عنزة. وآل ختلان الذين يرجعون إلى قبيلة سبيع.

عند هذا الموقع كنا لا نزال بعيدين عن واحة الحلوة، وكنت متأخراً عن الركب أتملّى في المشـاهد من حـولي عندمـا لاحظت أنّ إبراهيم وابن جلهم اللذين كـانا راكبين في المقدمة التفتا فجأة مـغيرّين خطّ مسارنا في زاوية قائمة لخط السير الذي كنا فيه إلى ناحـية الغرب. حدث ذلك عند بلوغنا رابيـتين صغيرتين تسـمّيان بني دريْم. عندها أسرعت للأمام علـى أمل أن يكون تغيير المسار هذا يعني تغـييراً في الخطط، ولكني اكتشفت أن الغرض منها لم يكن أكثر من أن يعطيني الفرصة لألمح قرية الحلوة، كان الوادي على بعد مـيل تقريباً من ذلك الموقع، وكنا نستطيع النظر إلى بعض أجـزاء القرية فـقط، ولكن بالنظر أمـامنا تمكنت من رؤية وهد المجـمع ولمحت مدينة الحلّة في موقعها وسط النخيل بالقرب من ملتقى الواديين.

لـم تكن شهـيّتي تأبى المزيد، واستـجاب إبراهيم - مع إظهـار بعض التوتر - لضغطي حتى وافق على اسـتمرار سيرنا بطول الجرف الصخـري حتى بلغنا مصدر أخدود عـميق يسمّى شـعيب مرهج، حـيث توقفنا للإفطار، واقتـيدت الإبل إلى الأسفل للسـقيا في قـصر في أدنى الأخدود. انتهـزت فرصة التـأخّر هذه لأذهب

---

(١) المفرد هزاني. (المؤلف).

لبروز ذي موقع ممتاز يطل على الوادي، وهناك استمتعت بمنظر لبعض أجزاء مدينة الحوطة وجزءٍ من مدينة الحلّة العظيمة. هذا كلّ ما توّفر لي من منظر لأرضٍ يسيل فيها اللبن والعسل ولا أرى نفسي زائراً لها.

يلتقي شعيبا مرهج والفـريع في فناء عريض على بعد ميلٍ من مصدر الأول، ومن هناك يمكن أن تُرى مـدينة الحوطة، لا يفصلهـا سوى مـيل واحد من الطرف الشمـالي لبسـاتين نخيل الحلوة. بين تلك النقطة والموقع الذي يلتـقي فيـه الفريع والمجمع توجد غـابة كثيفة من النخـيل. كان هناك جزءٌ من هذا المنظر قد حـجبه جرفٌ صخـري عال، ومن طرف ذلك الجرف بدت أجزاء من المدينة غـير المسوّرة مدينة الحِلّة. كانت الحلة غير مسوّرة لأن طبيعة المنطقة حبتها بكل التحصينات التي تحتاج لها في شكل جروف صخرية كما الأبراج على جانبي الوادي. وكانت تنتشر أمام المدينة في الفناء العـريض قصور متـفرقة، وقرية أو اثنتين مـهدمتين. لاحت إحدى القرى الصغيرة في طرق المنطقة متهدمة تماماً ومهجورة. وبجوار تلك القرية الصغـيرة وتحت الجرف الصخـري الشاهق الذي يكوّن الجانب الأيسـر للفريع يقع قصـر ابن خُريّف، أمـير قسم آل حـسين، وفي المرهج نفســه كانت توجـد نخيل أبوتيوس حـول قرية صغـيرة تحمل ذلك الاسم، وكـان مخيّـمنا بالقرب من هذه القرية بجوار قصر شعبه في بستان صغير، حيث كانت إبلنا تستقي.

من واقع الجزء الذي رأيـته من مدينة كلّة مـن على البعد، ومما جـمعـته من معلومات في ذلك الوقت من رفاقي، فإن المديـنة تغَطّي مساحة طولها ثلاث أرباع الميل وعرضهـا - في أوسع أجزائها- حوالي ٣٠٠ مـتر، وهي بالتقريب بـيضوية

الشكل وتتكوّن من منازل طيـنية ذات مظهـر متـواضع، بلغ تعداد المدينة حـوالي ١٠,٠٠٠ نسـمـة،ولكن إن تحـدثنا عن المنطـقـة كلهـا فـلا بدّ أن تعـدادها يبلغ ٢٠,٠٠٠ نسمة كمـا أخبروني. وفي أدنى المدينة في موقع التقاء شعـيب السُّلاميّة مع الفارعـة تقع قرية يسكنها قسم آل حـسين وتسمى عميـريّة، ولقد لمحتـها لمحة خاطفة بعد أن عاودنا المسير بقليل أثناء عبورنا للشعيب.

أسجل على مـسؤولية رفـاقي أنّ ذلك الجزء من المنطقـة- وهو الجزء الأعظم منها - والذي يقع في وهد المجـمع قبل التقـائه مع الفارعة يمتـدّ لمسافة سبـعة أو ثمانية أميال حـتى نقطة تتقارب فيها الجروف الصخرية على شـاطئ المجرى ليصير جدّ ضيـقاً. كان هنـاك شـريط من نخيل كـثيفة حول هذه النقـاط، وكانت تحتل أعلى الواحة قـرية كبـيرة هي قريـة بُريْـك التي يســكنها جـماعـة من قسـم آل مرشـد.

ولمسافة عـدّة أميال بعد ذلك، كان الوهد خلواً من الزراعـة ومن المستوطنات حتى مدينة الحـريق التي تقع في ملتقى ستة شـعيبات تنزل من المرتفـعات المحيطة وتكوّن نواة المجمع، وفيها مساحة كـبيرة مغطاة بالنخيل. تتكوّن مدينة الحريق من مدينة مركـزية وقريتين يصغرانها وعدد لا يحـصى من القصور ويسكنها مجـتمعة حوالي ٧٠٠٠ نسمة. وفي أدنى الموقع الذي تلتقي فيه الفارعة والمجمع يصير اسم الوادي الفرع أو ببـساطة الباطن، وتضـمّ قليلاً من البسـاتين المتفرقـة، وبعد ذلك تخنقها التلال الرملية التي تنبسط على سـهل العقيمي إلى ما بعد الطرف الخارجي لمنحدر طويق.

وفقاً لإفادة ابن جلـهم، فإن الحريق هي أقدم مستوطنات الـفرع، ولقد كانت مركزاً جيداً للزراعة في وقت مـضى، في ذلك الوقت الذي كان فيه وادي المجمع عارياً تماماً مثل وهد الضبيعة في الوقت الراهن. ولعله كان يسكن الحريق في ذلك الوقت بقايا من بني تميم الذين تمّ إجـلاؤهم -فيما مـضى من زمان- من ديارهم بواسطة المغيرين من عـنزة، وعندما وجدوا الماء متوفـراً هنا -رغم أنه على أعماق بعيدة، إذ إن آبار الحوطة قد تبلغ عمق سبع عشرة قـامة- أقاموا مستوطنة وسموها باسم مستوطنتـهما الأصلية: حوطة الحريق. وقدّر لـهذه المستوطنة بمرور الأيام أن تحلّ محل المدينة الـقديمة كعاصـمة للأنحـاء. والحريق هو اسم يفتـرض أنّه يحيي ذكرى حريق هائل شبّ في الماضـي البعيد، ولقد بدأت هذه الواحـة تضمحل في السنوات الأخيـرة، ولكن الحوطة مـا زالت في عنفوان شبـابها رغم أنّهـا تضرب بجذورها في تاريخ قديم قد امّحى.

عندما عاودنا المسير عبر الهضـبة هبطنا نحو شعيب السلميّة عن طريق ركامين من حجارة تسمى «أبو اثنين»، عبرناهما لنرتقي مجدداً إلى الهضبة عبر طريق وعر شديد التحـدر. كانت حافة منحـدر طويق الآن قريبةً منّا، وكان نفـود أجنبة يمتدُّ على نفس خط كثبان كراضيّة في الخط القريب من سلسلة تلال شعارى. وبعد أن سرنا قليلاً أسفل أخدود أم الحيران بين جروف صخرية يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً، وصلنا إلى الوادي الرملي المسمّى أم الأديان، وبعدها إلى شـعيب الفرع في الموقع الذي يصدر فـيه الشعـيب من الهضبة إلى السـهل. وخيّمنا للقـيلولة تحت سلسلة جبـال منخفضـة ممتدة، كانت تشكل لنا الحـدود الشماليـة لإقليم الفرع، وفي فم الوادي كانت الـكثبان الرمليـة مغطاة بوفـرة نباتيـة من كل الأنواع: السنط والمرخ والأثل والرحاء والشيح والعفر وغيرها.

٥- حافة جبل عليّة:

في رحلة ديسمبر (كانون الأول) الماضي وقفنا هُنيهة فوق قمة وهد السقطة لنرى المشهد الرائع قبل أن نهبط إلى وادي ضرما. كانوا قد أشاروا لي هناك بعيداً ناحية الجنوب لقمّة بارزة مسطحة، تسمو عالياً فوق الكتلة الجبلية المحيطة بها. كانت تلك الإشارة حينها لجبل عليّة.

لم تكن الفرصة الآن سانحة للاقتراب من تلك الجروف العظيمة التي كانت قمتها ترتفع لخمس مئة قدم أو أكثر فوق حافة جرف طويق، وهذا الأخير نفسه جرف شديد التحدّر يسمو هو الآخر لارتفاع ٦٠٠-٧٠٠ قدم مواجهاً للسهل الغربي. ويبدو لي أن قمّة جبل عليّة سمت لارتفاع لا يقل عن ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر. كانت هضبة طويق تنحدر بشدّة من الجانب الشرقي لذلك الجبل حتى حافة سهلي العقيمي والخرج.

كانت الهضبة كلها - بما في ذلك مرتفعات علية - من حدود وادي الفرع في الجنوب حتى العتش آتس العظيم في الشمال تُسمّى العارض، وهو الحاجز بين الصحاري الغربيّة ومراكز الحضارة المرتبطة بأسماء حنيفة واليمامة ومنفوحة والرياض والدرعية والعيينة. ويتكوّن إقليم العارض في الوقت الراهن - إضافة لأقاليم ما وراء طويق (أي غرب المحمل وضرما) من ثلاثة أصقاع، هي تحديداً: أعالي المحمل التي تخرج عن الإطار الذي يتناوله هذا الكتاب ويحدها من ناحية الجنوب وادي حنيفة. والصقع الثاني هو وادي حنيفة الذي ينتهي من ناحية الجنوب في الحاير وفي خط شعيب لحاء. والصقع الثالث هو جبل علية نفسه. ومن هذا

الصقع الأخير الذي يخلو من السكان في الوقت الراهن لم أرَ سوى الأطراف الخارجية لجوانبه بحيث لا أستطيع تقديم وصف عام له. ولكن استناداً على شهادة مترك الذي جاب هذه الأنحاء مع أفراد قبيلته قبل سنوات عديدة في عهد شبابه، وقبل أن يلتحق بِخِدْمَةِ ابن سُعود، فإن الإقليم مرتفع، غير مأهول بالسكان وتتخلله بعد فواصل وهاد جبلية عميقة تتشعب من الإقليم المرتفع في جوانبه الغربية. يتجوّل في هذه الوهاد رعاة آل شامر بقطعانهم آمنين في ثنيّات الجبال بيد أنهم كانوا في الأيام الخالية، في عهود غياب الأمن والنظام يغيرون بانتظام على القوافل المارة بين الخرج والإقليم والجنوبي. وكان مترك يخبرني عن دَوْرِهِ في بعض هذه الغارات كلما مررنا بموقع يُذكّره بها، إذ كنا نتتبع طريق القوافل مارين بالسهول وبالقرب من مصادر المجاري حيث كان يختبئ قطاع الطرق انتظاراً للانقضاض.

حكى لي مرة: «كان ذلك في أحد الأيام الممطرة وكنت أركب وحيداً بحثاً عن الرزق، ورأيت أمامي راكباً منفرداً يغطي رأسه بعباءته لتحميه من المطر. لم يرني ولم يسمعني وأنا أقترب من خلفه حتى مِلْتُ بجسمي عن السرج لأمسك بذراعيه على جانبي جسمه. استسلم الرجل خوفاً على حياته، بينما أخذت أنا كلّ ما كان عنده وكان سعيداً بأن تركته يرحل. هذه هي الطريقة التي كنا نكسب بها رزقنا في تلك الأيام. والله لقد نشأت كقاطع طريق، ولكني الآن والحمد لله والشكر من بعده لابن سعود تركت هذا الطريق. ساد الأمن الآن في البلاد ويلقى قطّاع الطرق أقصى العقاب. الآن لنا طرق أخرى لكسب العيش حيث إنه قد رحّب بي ابن سعود في خدمته. إنه يستخدم أمثالي لحمل رسائل مهمة عبر

الصحراء إذ أنّ أهل الحضر لا يستطيعون السفر لمسافات طويلة دون طعام وماء مثل ما يستطيع البدو».

كما أخبرني مترك أيضاً بأنّ مرتفعات عليّة تعجّ بالفهود التي تفتك بالقطعان الآمنة في مراعيها. وحكى لي أنّه جلس يوماً مع رفيق له على حافة صخران وهما يشاهدان اقتتال فهدين، وانتظرا نجاح أحدهما في قتل غريمه، وهكذا قضيا وقتاً من الإثارة حتى قفز عليهما فهد جريح مطبقاً على ذراع مترك قبل أن ينجحا في إبعاده باستخدام المدي. وأخبرني أيضاً بوجود الوعول في ثنايا هذه المرتفعات.

تغيّر الطقس كثيراً نحو الأسوأ منذ أن خلّفنا مرتفعات الأفلاج من ورائنا ظهرياً، وفي هذا اليوم على وجه الخصوص بلغت قراءة مقياس الحرارة في الظل، تحت شجرة سرح ظليلة في منتصف الامتدادات الرملية للوادي المتوهج بأشعة الشمس التي بلغت ١٠٧ درجات فهرنهايت في الساعة الرابعة عصراً، أي عندما عاودنا المسير. وقبل ذلك قاربت ١٠٩ درجات. ومما زاد الحال سوءاً رياحٌ جنوبية لم تتركنا لعدة أيّام بعد ذلك رافعةً الحرارة لدرجة ١١١° و ١١٢°. ولعلّ ارتفاع درجة الحرارة نتج جزئياً عن التغيير في اتجاه الريح، ولأننا هبطنا لأرض منخفضة. ولكن ابن جلهم أخبرني أنّ الإقليم شمال الأفلاج هو أكثر حرارة من الأقاليم الجنوبية في كلّ وقت طوال فصل الصيف.

تتبعنا مهد شعيب الفرع بطول حافة السهل الذي يحدّه منحدر طويق من ناحية وخط نفود أجنبة من الناحية الثانية. يمتد الفرع - ابتداء من هذه النقطة - بعرض السهل متتبعاً انحناء النفود ليلتقي بالعقيمي، بينما يمتد رافد آخر ويسمى السوط

بمحاذاة حافة منحدر طويق لمسافة ما، قبل أن يغيّر اتجاهه ليلتقي بمجرى العقيمي في واحة الدلم.

ينضمُّ أول الروافد النازلة من منحدر طويق، وهو أم سُلَيْم، للسوط قبل موقع التشعّب مباشرة. بعد ذلك بقليل بلغنا مجموعة كبيرة من المباني المهدمة لما كانت مستوطنة في الأيام الخالية، ولكن لا يعلم الناس شيئاً عنها في هذا الوقت . تشتق هذه المستوطنة المهدمة اسمها: أبو صحرا، من اسم وهد صغير[1] ينزل من طويق ليلتقي بالسوط في موقع أدنى، ولعلّ المدينة تعود للأيام التي نشأت فيها قرية ماوان التي بلغناها في اليوم التالي. ولكن الجهل التام عن تاريخها، وغياب الأساطير المرويّة عنها يجعلنا نعتقد أنّ بناة هذه المستوطنة عاشوا في عهد سابق لقدوم السكان الحاليين لهذه المناطق، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا العهد ضارباً في جذور التاريخ.

نصبنا خيامنا في تلك الليلة في مصب شعيب عُشيْران، ثمّ سرنا في اليوم التالي في وادي السوط. ويقع بين هذا الوادي وبين شعيب الفرع - الذي كان يتباعد سريعاً- صقعٌ من المرتفعات العارية، وهوامتداد لمنحدر طويق. عبرنا مصبّات الوهاد المتعددة الجارية نحو الوادي، عبرناها واحداً إثر آخر، وهي عُشيرية وقُرَيْنة وأبو فريدة وقحلول وقرّادة وأبو فهيد وأم نخلة وطرش، حتى بلغنا مجرى السيول المغطى بالحصباء، فمجرى أُثيلان (وثيلان) وهو أهم رافد للسوط ويجري نحو الدلم من وراء سلسلة تلال خشم الكلب، وهذا أيضاً معلم بارزٌ من معالم رحلتي في شقها الأول نحو الجنوب.

(١) يلتقي بهذا الوهد قبل بلوغه السوط مجرى صغير آخر يسمّى حملان . (المؤلف).

كان كل الوادي بالقرب من مصب شعيب طرش مغطىً بأجمة كثيفة من أشجار السنط والسرح والسدر وأشجار أخرى، وبوفرة من الحشائش. وكانت هذه المنطقة هي الحدود الشمالية الفاصلة لمراعي الفرع. هذه الظاهرة التي تحتكر فيها جماعة بعينها مراعي خاصة بها هو أمر نادر الحدوث في الأقاليم الشمالية في نجد، حيث إنّ ابن سعود فقط هو الذي يستمتع بهذا الحق في بعض المناطق مثل منطقة الخفس، ولكن هذه الظاهرة منتشرة في الجنوب، ومثل هذه الأراضي الرعوية المحتكرة تكون حقاً للجماعة وليس لأفراد.

يغذي وادي أُثيلان عددٌ من الروافد[١] بعد التقائه مع مجرى السوط، وكلّ هذه الأنحاء تشكّل أراضي رعوية ممتازة ويرتادها قطعان الحيوانات من الخرج. لاحظت أثناء سيرنا طوال الوقت وجود أسراب من القطا والحمام تحلّق فوقنا، بينما شغل مترك نفسه بمطاردة أربعة غزلان لم يأت عائداً بواحدة منهنّ. كانت الغزلان قد لاحت أمامنا على البعد حيث كان الوادي يتسع ممتداً في شريط من الرمال[٢] نحو السهل.

سرنا فوق نتوء[٣] لهضبة طويق ونحن نغيّر اتجاهنا لاتجاه يميل أكثر نحو الشمال. وكان مجرى خشم الكلب، وكذا إقليم الخرج يلوحان بعيداً هناك عن يميننا. ولم يكن المنظر حولنا يوحي بشيء، ولم يكن لي همٌّ سوى أن أسرع قدر ما نستطيع للخروج من هذا المكان الخاوي، ولكنّ تفكيري لم يكن متوافقاً مع نوايا

---

(١) أبو حلفا وخمسة والسليم. (المؤلف).

(٢) تسمّى قصائم. (المؤلف).

(٣) كان يشق هذه أخدودان صغيران: دحلة القعود والمندمّة التي كانت تجري نحو أثيلان لتلحق به بعد حين. (المؤلف).

رفاقي الذين أجبروني بإلحاحهم أن نتـوقف في وسط أجمة طرش الغنيّة بالأعشاب رغم أنَّ الساعة كانت حينها السابعة، وكان الوقت مبكراً جداً للإفطار، ولكن بعد ساعتين شعر الجميع بالجوع وبدأت الهمهمات وسطهم. كنت أتقدّم الجميع وكنت قد مررت بمنطقة معشبة في وادي تُمَيّر الذي يمتد منحدراً بعرض المنحدرات اللطيفة للهضبة حتى يلتقي بوثيلان في السهل. عندها جاء مترك من خلفي وتخطَّاني وقد دفعه زمـلاؤه ليقول لي: «انظر ذلك العشـب هو آخر ما سيصـادفنا قبل أن نصل لشعيب ماوان، دعنا نتوقف لنعـلف إبلنا بينما نتناول نحن إفطارنا». سألته: «وكم تبعـد ماوان؟» فأجـاب «والله سيحلّ وقت الظهـيرة قبل أن نصل للشـعيب. إنني أعرف هذه المنطقـة جيداً إذ أنني سافرت كـثيراً عبـرها وليس هناك عشب بين هذا الموقع وذاك». أصررت قـائلاً: «إن شاء الله سنأتي لأرض مـعشبـة بعد قليل من السير، وعلى أيّ حال إنّ الوقت باكرٌ جداً للقـيلولة، ولقد أضعنا وقتاً للرعي في شعيب طرش. فلا بد أن نسير لمسافة قليلة، وإن شاء الله سنجد مرعى بعد نصف ساعـة». كان توقعـاً جريئاً إذ أن السهل أمـامنا لم يكن يعد بشيء كـهذا، ولكنّي فرضت إرادتي وواصل الجـمع السير في صمت مـطبق. قدتُ الطريق وأنا أبحث عن دليل أدحض به ادّعاءات حُداة ركبنا والرفاق.

صار السطح المنحدر الممهد أكثر وعورةً كلمـا تقدمنا، وبعد عشرين دقيقة من حديثي معهم وجدنا أنفسنا في حافة مجرى سيول رملي عريض يصدر من مجرى تحفّه الجروف الصـخرية وينزل من ثنيات المرتفعات. كـان المجرى الرملي العريض مكسواً ما بين جـانبيه بأعشاب صحـراوية كثّة. التفتّ إلى متـرك قائلاً: «ماهذا؟» فأجـاب: «والله عشب!!». فقـلت له: «ألم أقل لك أن الله سيرزقـنا العشب في

الوقت المناسب، انظر يا مترك أنت دليلي وأنت رجل هذا الإقليم ولقد كذبت عليَّ. أتدري ما سأفعله الآن؟ والله لن نتوقف هنا ولا في أي مكان آخر حتى نبلغ ماوان نفسها. فلتتقدم وكفَّ عن الكذب. ما اسم هذا الشعيب حتى أسجل الأعشاب التي يحتويها؟» فأجاب مرتبكاً: «والله يا صاحب لقد مرّت سنوات طويلة منذ أن تركت هذه الأصقاع، ولم أزر هذا المكان من قبل، ولكن هو شعيب ماوان نفسه وليس شيئاً آخر. لقد قمت بزيارة القصو والبرك المائية في أعلى هذا الصقع ولكني لم أصل لهذا المكان من قبل». قلت له: «ولكنك رغم هذا، وأنت الذي تعرف هذا الإقليم جيداً، كلَّ حجر فيه وكل نبت يخرج من أرضه، قلت لي إنه ستمضي ساعات قبل أن نبلغ تُمَيْر! يا مترك لقد كذبت عليَّ وأنت تعلم بأنك تخدعني، وأنت فعلت هذا بإيحاء من إبراهيم، أنا أعلم هذا. سترى كيف سأعاملكم جميعاً من جراء فعلتك هذه».

بعد ذلك توقفنا لنقضي عدة ساعات في ذلك المكان المعشب قبل أن نواصل السير مرتقين طريقنا في ذلك الشعيب نحو مدينة ماوان المهدمة التي كانت على بعد ثلاثة أميال، وهناك خيمنا للمبيت. قلت لإبراهيم: «انظر هنا، من بداية هذه الرحلة حتى نهايتها كان الأمر يسير على نفس المنوال، لقد كنت تضع العراقيل في طريقي طوال الوقت. لقد عفوت عنك مرّة إثر أخرى، لكنك لم تتغيّر، تبحث دوماً عما يسبب لي الكدر. أنت تعلم أنّ ابن سعود ينتظر عودتنا بقلق لأننا تأخرنا في العودة ولكنك رغم هذا تزيد تأخيرنا يوماً إثر يوم بتوقفك هنا وتوقفك هناك. لقد تعبتُ من هذا، والآن لتتحمّل المسؤولية وليكن عبء التأخير واقعاً عليكم. إن أصاب الإبل النصب اتركوها ترتاح، وإن كان هذا يريحها فلنقض طوال يوم غد

هنا لعلكم تسيـرون سيراً أفضل فـي اليوم الذي يلي». قوبل هذا القرار بمعـارضة وكانت هناك محاولات عديدة لإثنائي عن هذه الفكرة، ولكني أصررت أن نقضي يوماً سـعيداً - رغم حـرارة الطقس - بجوار برك ماوان فـي وسط خرائب المدينة القديمة المهجورة. رغم أنّ العربي يكره أن يتـعرض للنَّصَب من جرّاء السير المتَّصل ليومٍ طويل، لكنه يكتفي بوقـفات قصيرة يتناول فيهـا القهوة من آن لآخر، ولكنه في الوقت نفسـه يكره التوقف الطويل في الصحراء. عندمـا يسير العربي مـسافراً يكون هَمّـه هو العودة إلى داره. ولكنه يجب أن يفـعل ذلك وفقـاً لمنظوره، وفي العادة هو يفضّل أن يستمـر في السير نهاراً وليلاً لمسافات محـددة تتخللها وقفات للراحـة. أحزنني أن مـتـرك الذي كان حـتى هذا الموقف صـديقي الوفي من بين الجميع، سـمح لنفسه بأن يُستَغَلّ لتـحقيق مآرب إبراهيم، لكنَّني أعلنت لكليـهما أنهـما لن ينالا نصـيبـاً من العطاء الذي يسـتحـقـه الرفاق عند العـودة للرياض، وحافظت على قراري. ولكنيّ لم آسف أن تمكنت بعد ذلك بشهور أن أحسن إلى مترك تعويضـاً عمّا فقده في هذه الرحلة، وبعدها ضمنـت خدماته إذ بقي بجانبي -تقريباً- طوال الفترة التي أقمت فيها بالجزيرة العربية.

كنت قـد قررت أن أقـضي يوم الراحـة المقررة بأن أتجـوّل في أعلى الوادي، وجُمعـت الإبل لهذا الغرض استـعداداً للجولة في انتظار استـيقاظي صبـاح اليوم التالي. ولكن الرحلة الطويلة التي كانت أمـسياتها قصيرة بسبب الاسـتيقاظ المبكر كل يوم - أنهكت قواي وقررت أن أرتاح ذلك اليوم، لذا كـان تحرُّكي الوحيد هو أن قمت بجـولة على الأقدام مـرتقياً أعلى الوادي لمسـافة لم تتـعدَّ ميـلاً واحداً، وعدت بعدها للمخيم متتبعاً قمة الجرف الصخري الممتد في الجانب الأيسر للوادي.

كان الموقع الذي خيّمنا فيه انبعـاجاً عريضاً للوادي، يضيق لعرض ١٠٠ ياردة في الطرفين، وكان أقصى مـا بلغه عرض ذلك الانبعاج هو ربع ميل تقـريباً. كان مهد الوادي مـغطى بالرمال في غالبه مع رقاع من التـربة الطفلية هنا وهناك، وفي هذه الرقاع كان أهل الحلوة يزرعون الحبـوب إذ كانوا يملكون -لسببٍ ما- الحقّ في زراعة هذه البقـاع من الوادي، كانوا يروون هذه الأراضي بمياه السـيول وأيضاً من عدد من البرك الدائمة التي ينبثق فيـها الماء من عيون تتدفق من تحت المهد الرملي. كانت هذه البرك أجمل معالم المكان، كمـا كانت هناك سلسلة من الجداول الضيقة التي ينتهي آخرها في بركـة متوسطة الأبعاد تقع بالقرب من مـخيَّمنا. علمت من بعض الرعاة الذين زاروا الموقع أثناء نزولنا به أنّ هذه البرك ينـضب معينها من الماء في نهاية موسم الصيف ولكن في سنوات الأمطار الجيّدة يبقى بهنّ الماء من الموسم إلى الموسم فيستفيد منه الرعاة والزرّاع.

لن نستطيع الإجابة عن التساؤل الذي يقول كـيف لم تستمر هذه المنطقة مكاناً للاستيطان فيما مضى من زمان؟ إن كثـيراً من هذه الخرائب في حقيقة الأمر بقيت على حـالهـا هذا لأوقـات طويلة حـتّى أنه لا تـوجد دلالات عـلى الناس الذين استوطنوا هنا في تلك العهود ولا عن الأسباب التي دفعت بهم بعيداً عن هنا.

تغطي غيـضات غنية الأجزاء العلـيا من الوادي، وتنمو فيـها وتنتشر أشـجار الحوْر القزميَّة وأشـجار الصفصاف ونباتات الحلفا، بينما كـانت المساحات المزروعة بالحبوب بواسطة المهـاجرين الموسميين كبـيرة جداً، وكان بجوار كل مجـموعة من الحقول مساحة لدرس الحبوب يغطّيهـا تبن المحصول الأخير. كما كانت توجد هنا وهناك آبار يصل عمـق الماء فيهـا لأربع قامات، وبجـوار إحدى هذه الآبار تُركَت

بعض معدات البذر لتبقى هناك حتى يعود أصحابها ثانية لاستخدامها. ولعلّ هذا يعطي دلالةً على أمانة البدو، رغم أنّ الأمر ليس هكذا طوال الوقت.

كانت بعض القصور تتوسط رقعة من الحوْر في أعلى الوادي، وكان أحد هذه المباني سليماً من الخارج، وبالداخل تراكمت فيه النفايا بسبب بقائه خالياً، وهو مبنى طيني يشد الانتباه نحوه ذلك الشكل ذو الأبراج الذي كان ينتئ إلى الأمام قليلاً فوق الباب الرئيس. وكانت «المساليت»[1] - وهي فتحات- تحتلّ الجزء الأسفل من الشكل. وكان هناك قصر آخر على قمة الجرف الصخري الواقع على الجانب الأيسر، قصرٌ ضخم من الحجارة تمت الاستفادة بذكاء في بنائه من الحوائط الصخرية الطبيعية فصار أشبه بالقلعة الطبيعية إلاّ من الجانب المواجه للمدينة. أمّا القادم من ناحية الهضبة فلقد كان يرى بناءً صخرياً قوياً في مواجهته. وكان في أحد جوانب المبنى، وبين الصخور فلق عظيم بطول ٢٠ ياردة وعرض بضعة أقدام، وكان غائراً في الأرض؛ ولعله كان يُستخدم مستودع لحفظ مياه الأمطار لاستخدام القلعة.

لكن أهم أجزاء المستوطنة القديمة كان - فيما يبدو- قصراً أو لعلها كانت قرية صغيرة بُنيت على مدرجات فوق المنحدر على الجانب الأيمن للجرف ابتداء من موقع قريب من قمة الجرف وامتداداً لداخل الهضبة. وكانت جميعها محاطة بحائط صخري به كوّات لمراقبة الوادي والهضبة من كل جانب يُتوقّع أن يأتي من قِبَلِه الهجوم. انتصبت على أركان المبنى أبراج عظيمة، كما كانت في داخله بئر

---

(١) مفردها مسلوت. (المؤلف).

واحدة، أو اثنتين. كانت طبيعة هذا البناء تنبئ عن الأيام المضطربة التي عاشتها المدينة والتي استوجبت أن تكون المدينة محصنةً تماماً ضد الأعداء المغيرين.

حمل إلينا البدو الذين زارونا خلال اليوم أنباء عن رحيل تركي[1] نحو القصيم مع قوة من الخرج وضرما قوامها ٥٠٠ رجل ليكونوا نواةً للقوة التي كان عليها أن تغير على شمّر. وأخبرونا أيضاً عن قتال وقع في الخُرمة حينما اقتتلت قوّة تابعة «للشريف» مع محاربين من قبيلة سبيع يساندهم عناصر من عتيبة استجابوا لنداء العون الموجّه لتجمعات «الإخوان» في الرين والغطغط. جاءت الأخبار في البداية أن قائد قوة الحجاز كان ابن الشريف، ولكن وضح فيما بعد أنّ ذلك لم يكن صحيحاً. خلافاً لهذا، يبدو أنه لم تقع أحداث مهمة في الفترة الطويلة التي احتجبنا فيها عن مواقع الأحداث، غير أن جامعي الزكاة التابعين لابن سعود قد بدؤوا عملهم السنوي حيث أرسل ابن سويلم إلى أرض قحطان وابن زيد للخرج بينما كانوا ينتظرون بقلق عودة ابن جلهم لإرساله مجدداً إلى الوادي لذات الغرض.

في اليوم التالي وبعد أن قضينا يوماً كاملاً في خرائب ماوان تتبّعنا الشعيب الذي كان يلتف في آخره حول نتوء سلسلة خشم الكلب ليلتقي بأثيلان في السهل المقابل للدلم. لكننا سرنا بعيداً عن مساره هذا متجهين نحو الشمال متتبعين أطراف الأرض المرتفعة حيث كان الموطأ سهلاً. بعد أن عبرنا عُبيِّد، وهو رافد مهم لماوان، ارتقينا الأرض المرتفعة مجدداً حيث تمتعنا من فوق الجبال بمشهد سهل الخرج حتى سلسلة فرزان البعيدة.

---

(١) الأمير تركي بن عبدالعزيز المعروف بتركي الأول والذي مات عام ١٣٣٧هـ بسبب الحمى. (المراجعون).

بلغنا الآن، ثم عبرنا المهد الصخري العريض لشعبي سُوَيْس الذي يجري بين الجروف الصخرية العالية ليلتقي مع مجرى العَيْن. ونزلنا قليلاً لتناول الإفطار في منخفض ضحل يُسمى إرزة، وكانت تسم المنخفض شواهد حجرية لقبور ضحايا حرب قديمة دارت بين زعماء آل شامر الذين كانوا يجوبون عليّة للمرعى وبين مغيرين من بني هاجر الذين يعيشون الآن في صحاري الأحساء. أما الآن فإن آل شامر هم ملاك هذه الأصقاع دون نزاع بينما يحتل بنو عمومتهم المطرة سفوح الجبال من مرتفعات الأفلاج وبنو عمومتهم العرجا يحتلون المرتفعات الواقعة إلى جنوب السليل حتى موقع متقدم من نجران. هذا هو التوزيع القبلي الحديث الناتج عن انتشار العجمان في الأزمان السابقة نحو الشرق نحو الأحساء، إذ أنّ هذه الأقسام الأربعة يدّعون صلة قربى تربطهم جميعاً.

بينما كنا نتناول إفطارنا مرّت بنا جماعة من بدو آل شامر مع قطعانهم وأخبرونا أنّ ابن سعود بعد استلامه تقرير إبراهيم عن استقبالنا في الوادي قد اتخذ الإجراءات اللازمة ليصون سطوته وسلطانه هناك.

بعد أن تحركنا بقليل، بلغنا شعيب العين الذي يجري نحو السهل الواقع بين نعجان والضبيعة. وهذا الشعيب مثال جيّد لوهاد طويق إذ أنّ مهده العريض المغطّى بالحصباء يتلوّى متتبعاً الوادي المحاط بالصخور الترسبية العالية التي يبلغ ارتفاعها مئة قدم. هبطنا نحو شعيب العين هذا عن طريق أخدود له جانب لطيف التحدّر، وتتبعناه لعدة أميال حتى بلغنا شعيباً صغيراً آخر هو شعيب غوينم، وارتقينا إلى الهضبة مجدداً عن طريق هذا الشعيب الأخير. كنّا نرى في ارتقائنا ذاك - بعد فواصل - مجموعات صغيرة من الخيام السوداء التابعة لبدو آل شامر

الذين كانـوا يؤدون فريضة الصـوم في صبـر. كانت خـيامهم منصـوبة في ظلال شجيـرات السنط والحوْر بالقرب من البرك الضحلة التـي ما زالت نديّة منذ موسم الأمطار السابق. في حقيقة الأمر يمكن الحصول على الماء في هذا الوادي دون كبير عناء، إذ يكفي نبش الرمال لعمق قدم أو قـدمين من الوادي الرملي للحصول على ماء وفير، وكانت لكلّ مجموعة خيام حُفَرُ الماء الخاصة بها على مقربة منها. كانت بعض أجزاء الوهد مغطّاة بأعشاب كثيفة وبالطرفاء، وفي هذا الخضم الأخضر لمحنا غـزالاً لكنه كان سـريعاً واتخـذ الجانب المنـحدر نحـو الوادي سبـيلاً للنجـاة من مطاردتنا. كان أكـبر هذه المجـموعات مكوناً من حـوالي عشرين خـيمـة يسكنها السود، وكان رجال هذه المجموعة متجـمعين تحت أجمة من أشجار الحور بالقرب من بركة صغيرة يقضون النهار بين الحديث والنوم.

كان بالجروف الصـخرية على جانبي شعـيب غوينم فتحات أشـبه بالمغارات. اتخذنا إحـداها مكاناً للمقـيل بعد أن سقـينا إبلنا من ثقب ماء احـتفر حـديثاً في مصب الشعـيب. كان ارتفاع الهضبة في ذلك المـوقع الذي ارتقينا يبلغ ٢٠٠ قدم فوق مـستوى النظر، وكنّا قد بلغنـا أعلى الهضبة سـالكين طريقاً متعـرجاً. بدت أمامنا الآن مرتفعـات متموجة تموجاً لطيفـاً، سرنا فيها طوال فترة مـا بعد الظهيرة حتى نصبنا خيامنا للمبـيت في إحدى المنخفضات الثلاثة(١) التي تتجمع بعد حين في المنحدر لتكوِّن شعـيب بلجان، وهو آخر روافد العين من ناحية الـشمال كانت طيات الهضـبة من ناحية اليســار تمتدّ بعيداً طيّة إثر أخرى حـتى سلسلة تلال عليّة

(١) تُسمّى جماعياً بلاجين. (المؤلف).

العاليـة. وكان يكسر امـتداد سلسلة علية فـتحة ضـخمة تحيط بها قمم صـخرية متعـريّة. ولعلّ شعيب نساح يدخل عبـر هذه الفتحة ليصل الأخـدود الذي يصير مجرى له بعرض الهـضبة، بيد أنني لم أجد ما يؤكد زعـمي هذا. وشعيب نساح هذا من الوهاد العظيمة التي تعبر الهضبة. كانت تسمُ سطح الهضبة بيننا وبين عليّة صدوع كثيرة تكوّن منابع الوهاد الصغيرة المتعددة التي تنتشر من أعلى العين. بينما كان المنحدر ينحدر بلطف عن يمـيننا في اتجاه الخرج ولمسافة خمسة أو سـتة أميال. شكلت المعـالم البارزة مـثل أبو ولد وخـشم الكلب من ناحـية، وسلسلة فـرزان وبعض الروابي من ناحية أخـرى، وشكلت روابط طبيعيـة مع الإقليم الذي عبرناه في المراحل الأولى لرحلتنا. ولاحـت على البعـد من وراء سلسلة فرزان الجـروف الصخرية وأراضي الجبيل المرتفعة التي تنتهي في الشمال في منحدرات خشم هيت العظيمة.

ارتقينا صباح اليوم التالي الهضبة مـتتبعين مرتقىً هيناً من منخفضات بلجان، ثم انحدرنا مجدداً بلـطف لنجد أنفسا في حافة شعـيب نساح الذي دلفنا إليه عن طريق وهد سدير الصخري، وكان الشكل المخـروطي لأم الرغيبة يلوح في الجانب الأبعد من شعيب نساح في الـطرف الغربي لسلسلة تلال فرزان التي تكوّن الجانب الأيسر للشعيب.

كان عـرض المهد الرملي لنساح حوالي مـيلين يجري بين السلاسل الصـخرية المنخفضة التي تحـدّ مجراه. وفي داخل نساح كان هناك مجرى سـيول رقيق أرضه طينية متمـاسكة يجري بين الغرب والشرق، بين فتحة عليّـة التي ذكرتها آنفاً وبين الدلتا العـريضة التي تشكل مدخل نسـاح في سهل الخرج. ارتقـينا الطريق المحدد

المعالم طبقة إثر طبقة حتى بلغنا القمة وصرنا على مرأى من رابية عبدة وسلسلة تلال الزويليات في الطرف الأبعد لوادي حنيفة. قطع مسارنا طريقٌ يقود لبعض الآبار في شعيب بعجياء الذي بدا وهده العميق إلى يسارنا يتلوى عبر الهضبة نحو وادي حنيفة هبطنا من رابية عبده ولم تكن الإبل تسير بل كانت تتزلق وهي تهبط أسفل الرمال المتراكمة في جانب شديد الانحدار، وتوقفنا للقيلولة وسط شجيرات شوكية - كانت تكثر في المنخفض بجوار مجرى بعيجاء الذي كان يكثر فيه الحرمل والرمث ونباتات أخرى، وتحدُّ جانبيه الصخور. كان عرض المنخفض يبلغ حوالي ٢٠٠ ياردة، تتبعنا فيه شريطاً ضيقاً مليئاً بالحصباء حتى بلغنا منحنى لاحت لنا بعده نخيل الحائر. وبعد لحظات قليلة كنا في وادي حنيفة، وعدنا لرؤية المشاهد المعتادة للواحة التي لم يطرأ عليها تغيير منذ أن غادرناها في أول الصيف. انكمش حجم البركة الوسطى كثيراً وأصبحت ثمار النخيل أقرب شبهاً بالتمر مقارنة بما كانت عليه، وانتشرت هنا وهناك خيام سبيع السوداء وقد تجمعوا لأداء فريضة الصوم ولموسم خراص التمر. فيما عدا هذا كانت القرية نفسها وبساتين نخيلها والقلاع التي تعلو الجروف الصخرية، كانت كلها على حالها السابق وكما كانت على مرّ العصور، وكما ستبقى مستقبلاً على مرِّ الأجيال.

كانت الليلة الأخيرة في رحلتنا، وقمنا بإرسال الرسل لإخطار ابن سعود بقدومنا. جاء إبراهيم إلى خيمتي بعد العشاء ليعقد صلحاً معي، ولكن كان المستقبل أمامي وكنت مُصراً على ألاّ يكون لإبراهيم علاقة بسفري وعودتي فيما يأتي من أيام. ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من اتباع أسلوب التحفظ الذي اتخذته منذ حادثة ماوان نحو قادة المجموعة، ولقد أتت هذه السياسة أكلها أثناء سيرنا في

ذلك اليـوم. بينما كنا نسـير التـفتّ لابن جلهم على مسـمع من إبراهيم ومـترك وطامي والآخرين بسؤال طرحته لأرى ما إن كـان حديثي الصريح معهم في ماوان قد أدّى لنتـائج، قلت: «كيف يجـري طريقنا بين الحاير والرياض؟» فـأجاب دون تردد: «والله مع الوادي». بالطبع كـان همهم الأول العـودة لدورهم سريعـاً رغم علمهم برغبتي في رؤية إقليم لم أكن قـد رأيته من قبل. ولكنني ألححت: «ولكن أنا أفضّل أن نسلك طريقاً آخر، إذ سـبق لي أن رأيت الوادي وكل ما فيه» وكانت الإجابة: «لا ولكن الطريق الوحيد مـن الحاير إلى الرياض هو عبر الوادي، إلاّ إن ذهبنا إلى لحاء ثمّ إلى ضرما ومن ثمّ نعود عن طريق ممر أبا القد».

احتفظت برأيي لنفسي في ذلك الوقت تجـاه تلك المؤامرة التي كانت تحاك لئلا أحقق خطتي، ولكن عندما جاءني إبراهيم في المساء متكلفاً الابتسام وخجلاً بعض الشيء يهنئني بختام مـغامرتنا العظيمة بسلام لم أتردد في أن أنتـهز هذه الفرصة، فـقلت له: «يا إبراهيم أنا أعلم أنّ هناك طريقـاً آخر يـقود من هنا للرياض فـوق الهضـبة خـلافاً لطريق الوادي، وباتّبـاع ذلك الطريق سأعود عـلى أي حال، إلى الرياض في معيـتكم أو دون أن تصحبوني، لا أهتمّ، وإذن كن عـاقلاً ودبّر الأمر على ما أشتـهي». وبدأ حديثه مدافـعاً: «والله لقد سمعت الـيوم أنه لا طريق آخر غـير طريق الوادي ولا يعلـمُ أحدٌ منا عن وجـود طريق آخـر، ولكن هناك بعض الرجال من القرية يشربون معنا القهوة وسأذهب لأستعلم منهم». وعاد بعد لحظات بالمعلومات بأنّ هناك طريقاً ولكنه بالغ الصعوبة والوعورة، يجري فوق أحد أخاديد لحاء ثم يرتقي الـهضبـة. أجبتـه: «فليكن الأمر كذلك، سـأذهب بذلك الطريق. وهكذا تم الاتفاق على أن نذهب جميعاً عبر ذلك الطريق.

وفي فجر اليوم التالي سرنا عبر المنطقة مرتقين وهدها العظيم الذي كانت تسمه في أطرافه الجروف الصخرية العالية وتزينه رقاع النخيل، تهكمت منهم ومن عجزهم عن أن يخدعوني بأكاذيبهم. عندها أقسم طامي أنه لم يكن أحد منهم على علم بهذا الطريق الذي وصفه لهم أهل الحاير. فأجبته: «إذن كيف عرفت أنا بوجوده؟ وما أنا إلا غريب في هذه الأنحاء. كلا، بل أجمعتم أمركم خلال الأيام السابقة لتشبيط همتي بكذبكم والخداع. هل نسيتم مرعى ماوان والمناسبات الأخرى التي كذبتم فيها عليّ؟ ألم تلاحظوا أنني أدوّن كل يوم ما أراه وأسمعه؟ اسمعوا لما سأقوله لكم لقد كان واحد منكم هو الذي أخبرني عن وجود هذا الطريق عندما أتينا الحاير للمرة الأولى قبل شهرين، وهذا مكتوب في مدوناتي، وهكذا علمت بوجوده». أصابهم الهلع لما سمعوا ونظروا نحو من كان سبباً في هذا، ولكن مترك الذي كان فيما يبدو قد نسي أنه أخبرني بهذا قائلاً بأنه هو نفسه قد سلكه عدداً من المرات، أعلن الآن مدافعاً بأنه لا يعلم قط بوجود هذا الطريق وأنه قد يكون أخبرني عن طريق ضرما.

سألتهم: «حسناً أين حادي ركبنا؟ ألم تطلبوا من أحد رجال القرية أن يرينا الطريق إلى أعلى الأخدود؟» فأجابوا: «أنهم لم يجدوا من بين أهل القرية من يرغب في مصاحبتنا، وأنّ مترك سيستجلي حقيقة الأمر ليجد في ذلك الخضم من المتاهات الطريق الصحيح». وتلا ذلك تحركات لمسرحية غير جيدة قام بها الكشافون لمعاينة الفتحات والمخارج في الأخاديد للوصول إلى الطريق، وتحرك مترك في سرعة عظيمة نحو النقطة الصحيحة بغريزة القائد التي لا تخطئ في أصقاع يعرف كل شيء عنها. كانت مخلفات الإبل وبعض آثار أخفافهم في التربة الصلبة تقودنا لنرتقي نحو عنق ضيق تحف به الصخور الجلمودية ويجري نحو أعلى الأخدود إلى الهضبة المكشوفة في الخلف التي اختطت فيها قوافل الإبل طرقاً ملتوية. كان المرتقى صعباً واستغلوا ذلك ليدللوا على صدق رواياتهم في أن

الدرب غير مطروق، لكن لم يكن هناك ما يستطيعون قوله عندما بلغنا بداية الطريق الذي يؤدي إلى الرياض في خط مباشر فوق الهضبة، حيث انحنى نحو اليمين ثم استقام في اتجاه المنخفض العريض لوادي حنيفة.

كان الطريق يعلو وينخفض وفقاً للحال، خروجاً من أو دخولاً للشعاب[1] المنخفضة المتجهة نحو الوادي، بينما امتدت عن شمالنا قفار الهضبة العارية التي تسمها في أحد المواقع ثلاث رواب صخرية خفيضة تسمى كُسَيْعَان. حاول مترك الآن أن يكفر عن عناده السابق بأن أمدَّني بأسماء المعالم التي مررنا فيها من طريقنا لكنني أبديتُ شكوكاً حول صدق وأهمية معلوماته إذ أنّ هذه الزيارة - حسب زعمه- كانت زيارته الأولى لهذه الأنحاء. أبديت وجهة نظري هذه بطريقة لافتة للنظر بأن رفضت تسجيلها في مدوناتي. وهذا العجز في المعلومات حاولت تدارك تبعاته بأن قمت -كلما سنحت لي الفرصة- خلسةً بتدوين ما أخبرني به.

وفي النهاية، وبعد أن تقدمنا لاحت لنا في الأفق ظلال سوداء نشأت من بين الصخور وسلاسل التلال البعيدة. ولقد دلّني على ظهور نخيل العاصمة السعودية أمام ناظريّ صيحات الأذكار الورعة التي صدرت عن الرفاق. كان المشهد الهلامي يتضح قليلاً قليلاً كلما دنت خطواتنا من غايتنا، بيد أننا فقدنا المنظر ثانية بنزولنا لوادي حنيفة في الموقع الذي كنا قد توقفنا فيه في رحلتنا نحو الجنوب: شعيب بقرة. وهكذا تقدمنا إلى أعلى الوادي عبر بقايا الجزعة، ثم أول النقاط المتقدمة لقرية منفوحة: مزرعة مزعل، ثم تركنا المصانع عن يسارنا وتتبعنا حافة بساتين النخيل حتى منفوحة نفسها.

---

(١) عويجة وأمهات الفرائد وأم غار. (المؤلف).

التقينا قبل دقائق قليلة من بلوغ القرية بفارس على ظهر جواده وهو عبدالعزيز ابن ربيع الذي بعث به ابن سعود ليرحب بنا مهنئاً بسلامة العودة. وأخبرنا الرجل أنّ ابن سعود قد عقد جلسة الصباح وعاد الآن للقيلولة بداره وأنه سيستقبلنا في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، وحتى ذلك الوقت كان علينا أن نخلد لفترة من الراحة حيث كنّا، وفي حقيقة الأمر كانت التقاليد المرعية تفرض علينا ذلك، مؤجلين دخولنا للمدينة حتى يحين الوقت الذي يناسب مضيفنا. أحضر ابن ربيع لي معه حقيبة بها رسائل وصحف قضيت ساعات النهار القائظة وأنا أتصفّحها وأنا أتمتّع بأكل كمية وافرة من بطيخ[1] ممتاز تذوقته للمرة الأولى في تلك البلاد.

حان الوقت في النهاية لدخول المدينة، وبعد مسيرة قصيرة بعرض سلاسل التلال التي أحرقتها أشعة الشمس بين شقّي المنطقة، ثم بارتقاء مجرى سيول الشمسيّة الذي تتخلله الآن بكثافة الخيام السوداء للبدو الزائرين، بلغنا البوابة الرئيسة في جانب المدينة الشمالي الشرقي. عدنا إلى الرياض- بعد خمسين يوماً كاملة منذ أن ركبنا في اتجاه الجنوب - في يوم ٢٤ يونيو (حزيران) الموافق لليوم الرابع عشر من شهر رمضان، شهر الصوم العظيم الذي صادف في هذا العام كما يحدث مرة كل عدة سنوات أن تضمّن أطول نهار في العام، وهو ما يسبب للصائم أكبر مشقة لكنّه يجلب أيضاً قدراً أكبر من الرضا الروحي لمن يتبعون أوامر الله بكل دقة ووفقاً لما تمليه عليهم ضمائرهم الحيّة، كانت شوارع المدينة مهجورةً، وكان الغبار الكثيف يومض تحت أشعة الشمس الحارقة. ما أشبهها بشوارع مدينة مهجورة، بدت لنا الرياض هكذا ونحن نعبرها في صمت إلى حيث كان علينا أن ننيخ ركائبنا أمام المبنى الشهير: قصر ابن سعود العظيم.

---

(١) يسمونه جج أو حبحب. أما تسميات بطيخ، ورقّي المستخدمة في بلاد ما بين الرافدين فهي نادرة الاستخدام هنا. (المؤلف).

الملاحق

ملحق (١)

مقتطفات من تقرير أعدّه البروفسور ر. نيوتن التابع للمتحف البريطاني حول مجموعة من المتحجرات (Fossils) جُمعت من وسط الجزيرة العربية (جبل طويق).

نوضح في هذا التقرير دراسة لمجموعة من المتحجرات التي جَمعها السيد فيلبي من وسط الجزيرة العربية أثناء رحلته التي تدعو للإعجاب والتي قطع فيها ذلك القطر في عام ١٩١٨م من الخليج العربي إلى البحر الأحمر عندما كان في مهمة دبلوماسية رسمية.

تعطي هذه العينات - رغم أنها مؤلفة من شظايا غير مكتملة - الدليل على وجود حيوانات بحرية من العهد الجورسي، وهذا يمثل وجود علاقة لها مع مواد سبق وصفها في الإقليم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. وتم جمع متحجرات السيد فيلبي من أربعة مواقع:

١- **الأبكّين**: في جوار سدوس (خط طول ٤٦°، وعرض ٢٥°). وهي على ارتفاع ٣٢٠٠ قدم تقريباً فوق سطح البحر، وصخورها ملوّنة ومكونة من الأحجارالجيرية السلكونية الصلبة، ويبدو في بعضها بناء كلسي.

٢- **الحيش**: ويبدو أنها بجوار سدوس[1] أيضاً، وعلى ارتفاع ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر، ومتحجراتها ذات لون أصفر شاحب وهي مثال للإساسترا دون أن يكون لها نسيج. وُجدت هذه المتحجرات في هذه المنطقة وقد أصابتها عوامل التعرية، لذا يمكننا افتراض أنّ لها ارتباطاً بالصخور الجيرية كما أنها تحمل لونها.

---

(١) الصحيح أنها بالقرب من ضرما. (المراجعون).

٣- **عشـيْرة** : وهذه على خط طول ٤٦ْ وخط عرض ٥٠َ ٢٢ْ. إن الصـخور الجيـرية المتحـجرة في هذه المنطقـة ذات لون أصفر شـاحب. ويقع هذا الموقع والموقع الذي يليه (حمر) على بعـد حوالي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب من سدوس.

٤- **الأحمر** : على خط طول ١٠َ ٤٦ْ وعرض ٣٠َ ٢٢ْ. والحجـارة الجيرية في هذه المنطقة بلَوْنِ صدأ الحديد، وكثيراً ما تحتوي على حبيبات فَوق أكسيد الحديد، ولأنها من السليكون الكـلي فهي شديدة الصلابة وتبدو شبـيهة بالحجارة الرملية الخشنة.

أوردنا أدناه وصفاً تفصيلياً للمتحجرات.

الفصيلة		النوع	
سيفالوبودا	Cepphalopada	Lytoceras	لايتوسيرا
قاسترو بودا	Gastro poda	Nerinea cf. Decvoidyi Orbigni	نيرينا
بليسيبودا	Pelecypoda	Ostrea, cf. Mont beliardensis	أوستريا
»	»	Lopha (?) Philbyi, n.sp.	لوفا
»	»	Lopha Solitaria J. De. C. Sowrby,	لوفا
»	»	Gryphaea cf. Dilatala J. Sowrby	قريفيا
»	»	Exogyra bruntrutana	إكسوجيرا
»	»	Chlamys articulatus	كلاميس
»	»	Hinnites cf. Inaequistriatus	حنّايتس
براكيبودا	»	Trrebratula subsella	تربرايتولا
»	»	Rhynchonnella sp.	رينكونيللا

الفصيلة		النوع
براكيبودا	Brachipoda	رينكونيلا Phynchonnella sp. subvariabilis
بولي زوا	Polyzoa	ستوماتوبورا Stomatopora cf. Waltoni Haime
أجينودبرماتا	Echino devmala	بايقورس (?) Pygurus
«	«	فابدوسدارس Rhabdocidaris sp.
أكتينوزوا	Actionzoa	مونتلياليتا Montlivaltia sp
«	«	إيزارسترا Isastrae sp.
سبونجالا	Spongalae	ليمنوريللا Lymnorella sp.

الخلاصة:

تمثل المتحجرات الموصوفة هنا بقايا حيوانات بحرية عاشت في العصر الجورسي على امتداد مساحة كبيرة من المنطقة التي تعرف الآن باسم الجزيرة العربية. لقد تم الحصول على معظم هذه المتحجرات من منطقة الأبكّين، وكانت هناك عينتان فقط - مما تم التعرف عليه - من الأحمر واثنتان من عشيرة وواحدة من الحيش.

رغم أن بعض العينات لم تكن جيدة إلاّ أنها كانت تفي بغرض التعرّف عليها. فهي قد تعود لمراحل السكوانين والكمريدجيان من العهد الجورسي الأول. كما ارتبط النوع إكسوجيرا أيضاً بالعهد البورتلاندي رغم أن أصله كان في العهد الأكوفوردي، بينما امتدّت مراحل النوع كلاميس من العهد الباثوني إلى الكمردجياني. من ناحية أخرى كان نوع البولي زوا معروفاً فقط في العهود الباتونية. أما النيترينا Netrinea. فلقد وُجدت في السابق في صخور العهد

الجورسي الأول إلى شمال عدن لقد كانت شظايا هذا النوع مرتبطة من المتحجرات المعروفة التي تمثل العهود السكوانية والكمردجانية.

إنه لأمر يشير الاهتمام أن تكون الحيوانات في هذه المتحجرات ذات شبه مع متحجرات العهد الجورسي الأول في الصومال والحبشة والتي وصفها - على التوالي - داكو وفترر، والتي ترتبط أيضاً بحيوانات أوروبا وبريطانيا. يمكننا الآن أن نعد هذه الحيوانات من العهد السكواني/ الكمردجاني. ونأمل أن تثمر الجهود المستقبلية في الاستكشافات الحصول على أنواع أكثر من عينات حفظت بطريقة أحسن وبكميات وافرة، حتى نتمكّن من الحصول على معلومات أكثر من الطبقات الجيولوجية في الجزيرة العربية.

لا بد أن نهنئ السيد فيلبي على استكشافاته وعلى إحضاره هذه العينات التي زادت علمنا حول التركيب الجيولوجي لقلب الجزيرة العربية التي لم يعرف عنها الكثير بعد.

ملحق (٢)

مسرد بالمصطلحات العربية التي استخدمت في هذا الكتاب

(أ) أشجار ونباتات ... إلخ.

تم التعرّف على معظمها بواسطة جمعية بومباي للتاريخ الطبيعي.

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
عضيد	من الفصيلة النجمية	Lactuca remotiflora, D.C.
عاضر		
عبيد	من الفصيلة النجيلية	Tetrapogon Villosus
عجلة	من الفصيلة النجيلية	Gramineae sp.
علقة		
عليجان	من الفصيلة الصليبية	Cruciferae sp.
أمباوت	تشكيلة من التمور.	
عنقوت (ثدا)	من الفصيلة النجيلية.	Graminae sp.
عرفج	شجيرة صحراوية واسعة الانتشار	
عرّا	من الفصيلة النجيلية	Aeruatomentos
أرطا	من الفصيلة الإقدرية	Ephedra sp.
عسل		
عشيرقان	من الفصيلة البقولية	Ephedra sp.

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
عوشز	من الفصيلة الباذنجانية	Lycium hawii
بان	من الفصيلة البانية	Moringa peregrina f.
زب البان	فاكهة الفصيلة أعلاه	
بانة	من الفصيلة النجيلية	Euophorbia granulata F.
بقرا	من الفصيلة النجمية	Lannaea mudicaulis L.
بريّة	ثمار شجرة البن اليمنية.	
برسيم	من الفصيلة الزنبقية	Asphodelus tenuifolius
بَرْوَق	من الفصيلة الرطريطية	Atriples sp.
بطباط	»	
بطيخ	» » الخيمية	Pycaocula ancheriana
بسباس		
ضعّ	من الفصيلة النجيلية	Gramineae sp
ضبية	من الفصيلة البقولية	Tephrosia apollinea L.
ذنب ناب	نبات صحراوي ريّان (كثير العصارة).	
ضمران	من الفصيلة السرمقية	Sasola forskalii
دريْمة	من الفصيلة الرطريطية	Fagonia sp.
فقع	نوع من الكمأ	Chenopodracea sp
غضا	عينة من خور قزمي	

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
غاف		Chenopodlacea sp.
غلقة	عينة من خور قزمي	
غريرة	من الفصيلة الزراوندية	Aristolochina sp
غرز	من الفصيلة الصليبية	Malcohina nana, B.
غُلسيرة	من الفصيلة النجيلية	Graminae sp.
حبحب	من الفصيلة الرمرامية	Cornulaca monacanth D.
حدج	البطيخ	
حاذ	من الفصيلة القرعية	Cucumis pustulatus H.
حلفا	من الفصيلة الرمرامية	Salsola sp.
حما	عينة من القصب	
حماط	من الفصيلة الصليبية	cruciferae sp
حباط	من الفصيلة البوراجينية	Arnebia hispidissima
خبيز	التين البري	
حمبصيص	نبات صحراوي ريان معترش.	
حمض	نبت صغير يوجد في الصحراء	
حمرور	من الفصيلة الرمرامية	Chenopodia sp
حمرور الحبل	من الفصيلة النجيلية	Graminaes sp

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ
حرمل	من الفصيلة النجيلية Androgogon caricosus L.
حسك	
حثارة	من الفصيلة البقولية Medicago Laciniata, All
حوّذان	
حليوة	من الفصيلة الصليبية Notoceras sp.
حيش	نبات مزهر
إضريس	من الفصيلة الرطريطية Fagonia cretica, L.
عشب	نخيل قزمية
عشرق	نبات شوكي صحراوي
أثل	
أتلة	من الفصيلة البقولية Cassia obovata, Collad.
جح	من الفصيلة الأثلية Tamarix marrocarpa, Bunge
قحويان	من الفصيلة العشارية Asclepiadacea sp
قت	بطيخ
جنجات	زهرة ربيع صحراوية
جنة	برسيم
كحيل	من الفصيلة النجمية Vernonia cinerascens

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ
كرب	من فصيلة الزيزفونيات Grewia ternax, F.
كرش	من الفصيلة البوراجنيّة Anchusa hispida, forst
كرّاث (قريْص)	القاعدة السميكة لسعف النخيل
خضّار	نبات صحراوي مزهر
خضري	من الفصيلة النجمية
خريط	نبات صحراوي
خرشف	صنف من التمور
خسّابب	نبات صحراوي مزهر
خطمي	نبات شوكي
خطرة	من الفصيلة النجيلية
خرّية (سمنة)	من الفصيلة المحمودية (العيلقية) Convolvulus Jp.
خيس	من الفصيلة الخنازيرية Schweinfurthia pterosperma
خزامى	نبات العصفر
خبّيز	نخيل قزمية
كداد	من الفصيلة الصليبية Carrichtera vellae, D.C.
كرمة	من الفصيلة الجنازية Malva sp.
لوبيا	من الفصيلة البقولية Acacia hamulosa

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
مكر	ثمار الإثل	
مقفزي	ثمار من البقوليات	
مرار	من الفصيلة القرنفلية	Polycarpaea repens
مرخ	صنف من التمور	
مليح	من الفصيلة النجمية	Dicoma sp
مشط الذيب	شجيرة عالية تشبه المكنسة	
مسكاني	من الفصيلة الرمراميّة	Halopeplis sp
مصيع	من الفصيلة القرعية	Cucumis prophetarum L.
مسيكة	صنف من التمور	
نبت سيف	عشب صحراوي	
نجيع	من الفصيلة القبارية	Cleome sp.
نِق (نقت أونُقت)	صنف من التمور	
نِشا	عشب صحراوي	
نصي	من الفصيلة الفربيونية	Chrozophora sp
قيصوم	من الفَصيلة النجيلية	Oropetium thomaaeum, Trin
قرنوط السهل	من الفصيلة النجيلية	Aristida sp.
قصبة	نبات يشبه الزعتر	

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ
قصيص	من الفصيلة الفربونية Erodium sp.
قطف	
قطّين	من الفصيل اللاذنية Helianthemum sp
قرضة (قرضي)	من الفصيلة البقولية Astfagolus sp L.
قطن	من الفصيلة العلاقية Convolvulus Sericophyllu
قويفة	من الفصيلة النجمية Composita sp.
رَغَل(رُغل)	من الفصيلة الجنارية Gossypeum Arboieum
راك	Trian thema sp (?)
رمرام	من الفصيلة الزراوندية Aristolochia bracteata, Retz
رَقم	من الفصيلة الراكية Salvadora persica L.
رقي	من الفصيلة البوراجينية Heliotro penus sp
رقروق	من الفصيلة البقولية Rhynchusia memnoina, D.C.
ربّة (صُميمة)	بطيخ (اسم يستخدم في بلاد ما بين الرافدين)
ريَلة	من الفصيلة اللاذنية Helianthemum Lippii,
رِمث	من الفصيلة النجيلية Aristida sp.
رُخَيمة	من الفصيلة الحملية Plantago coronopus, L.
روثة	من الفصيلة الرمرامية Haloxylon sp.

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
سَبت (سُبت)	من الفصيلة المحمودية	Convolvuls sp.
سعدان	شجيرة تشبه العرفج	
صفري	الفصيلة النجيلية	Grmineae sp.
سَلم	من الفصيلة الوردية	Neurada procumbens, L.
سَمع	صنف من التمور	
سمر	عينة من السنط	
سمنة	حشائش صحراوية تشبه الشعير	
سمنة خرّية	عينة من السنط	
سرحا	نوع من الشوكيات	
شفلح	نبات العصفر	
شَية	من الفصيلة الوردية	Cotoneaster nummularia
شجرة الداب	من الفصيلة القبارية	Capparis galeata
شار	من الفصيلة النجمية	Vernonia inulaefolia
شبرم	من الفصيلة البنفسجية	Viola sp.
شِنان	شجيرة كبيرة الحجم تنتج مادة كاللبن من سيقانها	
شِقارة	شجيرة شوكية صحراوية	
شرشير	من الفصيلة الرمرامية	Arthrocnemum glaucum

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ
شعلة	نبات صحراوي زهرته أرجوانية اللون
سدر	من الفصيلة الرطريطية Tribulus terrestris, L.
سيح	من الفصيلة البليخاوية Reseda ambly ocarpa
سِلِج	شجرة النبق (برقوق الصحراء)
سري	نبات شوكي صحراوي
صفارة	من الفصيلة الرمرامية Salsola sp
سُلَيْكة	صنف من التمور
سُلَيَّان	نبات صحراوي زهرته صفراء اللون
صُميمة (ربّا)	من الفصيلة القرنفلية Polycarpon sp.
سُواد	من الفصيلة النجيلية Aristida sp
طلح	من الفصيلة النجيلية Aristida sp
تنضم	من الفصيلة الرمرامية Schanginia baccata
تنّوم	نوع من السنط
طرفا	نوع من الوزال
طرطوث	من الفصيلة الفربيونية Chrozophora obliqua, Juss
ثيّل	نوع قزمي من الإثل Tamarix manifera
ذعلوق	نبات صحراوي واعر (يسمونه زب الصحراء)

المصطلح العربي	الوصف / أو التسمية العلمية... إلخ	
ذعلوق حما	من الفصيلة النجيلية	Cynodon dactylon
ثمام	من الفصيلة النجمية	Koelpinia linearis
ثرار	من الفصيلة الصليبية	Crucifera sp
ثدّا (عنقوط)	من الفصيلة النجيلية	Graminia sp
ترنج	من الفصيلة القاتية	Gymnosporia
وهط	من الفصيلة النجيلية	Graminea sp
زهر	نوع من البرتقال	
زريّة	نوع سنط له شوك شديد	
زريّة الجبل	من الفصيلة الرطريطية	Tribulus alatris
زب الحماد (طرطوث)	من الفصيلة النجيلية	Agropyron orientale

ب- حيوانات، طيور، زواحف، حشرات

المصطلح العربي	الوصف (علامة √ : تعني مصطلحًا معروفًا)
أرنب	√
عَرْقى (عرقية)	نوع من الإبل
داب	ثعبان
دبّاس	من أمراض الخيول

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
درج/ درّاج	طائر الحَجل
ضبع	√
ضب	√
ظبي	√
ذلول	ناقة الركوب
حبس	قمل الشياه الأبيض
حيّة	√
حجلة	درج/ طائر الحجل
حمرة	نوع من العصافير
حنش	ثعبان
حبارى	√
أدمي	نوع من الغزال
جخاخ	جراد غير مكتمل النمو
جرب	/ المرض الذي يصيب الإبل
جربوع	(/) فأر
جذع	المهر أو ولد الناقة في عمر سنتين
جلة	لحم الغزال المجفف

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
نعام	√
ناقة	√
نسر	√
قعود	جمل الركوب ذو السنام الواحد
راس مريضان	نوع من الصقور
ريم	نوع من الغزال
رباع	المهر أو الجمل في عمر أربع
ربيان	القُريد (من أطعمة البحر)
صبري	نوع من الصُرَد
سلوقي	كلب الأيائل
سمق	نوع من الزقزاق (طائر)
أم سالم	نوع من الطيور
وعل	تيس الجبل
وجوج	الجُدْجُد، صرّار الليل
وضيحي	الماريا

ج- الزراعة، الرّي، أعشاب المراعي... إلخ.

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
عمار	الأرض المزروعة
عريش	قرية مسوّرة بسعف النخيل
درّاجة	بكرة القليب (البئر)
دمال	روث الإبل
غدير	ثقب ماء في مهد الوادي
حضر	عشب مجفف
هماج	ملوحة (الماء)
عِدّه	عشب مجفف
قليب	بئر السحب
جلّة	روث الإبل
جلطة	ثقب ماء بين الصخور
جاو	منخفض أو مجرى تصريف
كدّاد	العامل الزراعي (الفلاح)
الخرز	نفق ري مع فتحات عمودية متكررة
خفس	بركة في فتحة طبيعية
خيول	فزّاعة الرعاة

المعنى/ الوصف	المصطلح العربي
بساتين غير مزروعة	خراب
قناة ري	خرز
فرجة في صقع رملي	خريمة
رياح جنوبية	كوس
بكرة في القليب	محالة
مكان الخروج	مخرج
يقصد به موسم خراص التمور	موسم
ضمارة الكتف للإبل	مركة
عصا الإبل	مشعاب
مصدر ماء في موقع رملي	مشاش
صليب الجنوب	نُعيْم
صليب (معروف)	قيظ
مزرعة كالقلعة	قصر
√	قربة
√	ربيع
√	روضة

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
سبخة	أرض مالحة
صفرا	الصحراء
صيف	√
سيل	√
سماد	√
ساقي (جمعها سواقي)	قناة ري
شعيب	مجرى مائي جاف
شاوي	راعي (الماعز والخراف)
سموم	رياح جافة حارة
ثميلة	منخفض به ماء
ثقب	حفرة ماء عميقة في أرض صخرية
الثريا	النجم المعروف

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
أذان	√
أهل الكتاب	√
العِشاء	√

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
العصر	√
بين العصرين	الجمع بين صلاتي الظهر والعصر
الظهر	√
الحديث	√
الحج	√
العيد	√
الجاهلية	(ماقبل البعثة)
إحرام	√
الإخوان	الإخوان السلفيون
إمام	√
إسلام	√
جامع	√
جهاد	√
جن	√
جمعة	√
كعبة	√
كافر	√

المصطلح العربي	المعنى / الوصف	المصطلح العربي	المعنى / الوصف
خطبة	√	شيخ	√
لِوان	(في المسجد)	شرع	√
مغرب	√	شيعة	√
مالكي	√	شِرك	√
مسجد	√	سورة	√
محراب	√	تفسير	√
مؤذن	√	طاغوت	√
متديّن	√	تخفيف	√
مشرك	√	تلاميذ	√
مسلم	√	طلاق	√
مطوِّع	√	قصر	في الصلاة
قضاء	(خلص الصلاة)	علماء	√
قاضي	√	سلفي	√
قِبلة	√		
قرآن	√		
ركعة	√		
صلاة المغرب	√		

هـ الحرب / السفر / الإدارة / المال / الملابس وغيرها

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
عباءة	√
أتاوة	رسوم يفرضها البدو للمرور عبر حدودهم
أمير	√
أندرون (فارسية)	الجزء الخاص بالبناء في الدار
عقيل	حراس متخصصون لحراسة طرق الحج
عرايف (عرافة)	شيء مفقود (خاصة الإبل) تم العثور عليه
بدو	√
بيرق	راية
بليت	√
بيت الحكم	قاعة الحكم/ قاعة القضاء
بيت المال	√
بيزه	عملة معدنية مسقطية
براح	فناء للمخيمات داخل المدينة
براخيس	رواب رملية مخروطية
بشت	عباءة
برغل	عصيدة من دقيق القمح مع اللحم والمرق

المصطلح العربي	المعنى/ الوصف
جباتي (هندي)	خبر مسطح
دفتر	دراسة مكتب
ضو	مركب شراعي
ديرة	√
ديوانية	قاعة عامة للاجتماعات
فلج	آثار أقدام في الصحراء
فروة	فراء
غرامين	تلال رملية مخروطية
غزو	√
غزو عام	√
غزو خاص	√
قوْم	البدو في حالة الحرب/ الجيش/ العدو
حضر	√
حجر	√
حاكم	√
حرة	الصخور البركانية البازلت
حملة	جزء القافلة الذي يحمل المتاع

المصطلح العربي	المعنى/ الوصف
حمّام	√
حنشلي	لص/ قاطع طريق
حريم	√
حرة	صخور بركانية، حلا
حصى	√
حصى أحمر	√
حصى أخضر	√
حومة النقيعان	سلسلة من التلال الرملية المخروطية
أقط	خثارة اللبن المجففة
خبابية	خنجر
جريش	عصيدة من دقيق القمح مع اللحم والمرق
جص	جبس/ جير
كفيّة	منديل
كاتب الخرجية	جابي الضرائب
خشم	أرض رأسية
كتاب	هودج النساء على الإبل
لبن	حليب

المصطلح العربي	المعنى/ الوصف
مضيف	بيت الضيافة
مفتول	برج الحارس
محنذ	فرن حجري
مجلس	√
منزل	معسكرالبدو
مقيل	مخيم الظهيرة
مراح	مخيم المساء
مرو	رخام/ مرمر
مسلوت	فرجة في جدار (للرمي)
مدخنة	للبخور
مبرّز	نفس معنى تبريز
مدير	√
مهلبي	نوع من المهلبية مصنوعة من اللبن والسكر
منشي	كاتب/ سكرتير
نقود	√
نائب	√
نارجيل	√

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
نقع	رابية رملية مخروطية
نوره	جير
بارة (تركية)	عملة تركية ذات قيمة صغيرة
باشا (تركية)	√
بلاف (تركية)	وجبة من أرز ولحم مطبوختين معاً
قيمات	كبك صغير من الدقيق والسكر
قِيْمي	عصيدة من دقيق القمح مع اللحم والمرق .
قطرة	√
قِن	هودج نسائي على الإبل
جمرك (تركية)	√
رفق	رجال القبائل الذين يصاحبون القافلة حفاظاً عليها
ريع	ممر جبلي
ريال	√
صاع	√
صلبوخ	صخور (حجر القداحة)
سمن	√
صامل	زيت (زبد نقي)

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
سم	سمّ الله
سراجي (تركية)	مبنى حكومي
شيخ	√
شرطة	√
الشيوخ	يطلق على ابن سعود
سروال	√
سلطان	√
ضافرة	زنوج أو عبيد
سوق	√
تبريز	السير لمسافة قصيرة في اليوم الأول للرحلة
كاتب خرجية	جابي الضرائب
تنوين	(في اللغة)
تعز	رابية رملية مخروطية
طويلة الحساء	عملة نحاسية غريبة الشكل في الأحساء
ثوب	√
تمن	الأرز
عُشر	√

المصطلح العربي	المعنى / الوصف
وكيل	√
والي	√
وسم	علامة قبلية.. إلخ
وزنة	وزن معروف في الجزيرة العربية يعادل وزن ٥٠-٦٠ ريالاً (الاختلاف حسب الموقع)
ولايات (تركية)	أقاليم
يوزباشي (تركية)	رتبة عسكرية
زبون	ثوب طويل يُلبس تحت العباءة
زكاة	√
زكاة الأرض	√
زرنيخ	علاج للإبل حمضي في طبيعته
زنجبيل	√

كشاف الأعلام والأسماء والقبائل ونحوها

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

كشاف الأماكن والأودية والجبال ونحوها

(أ)

(ب)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الصور

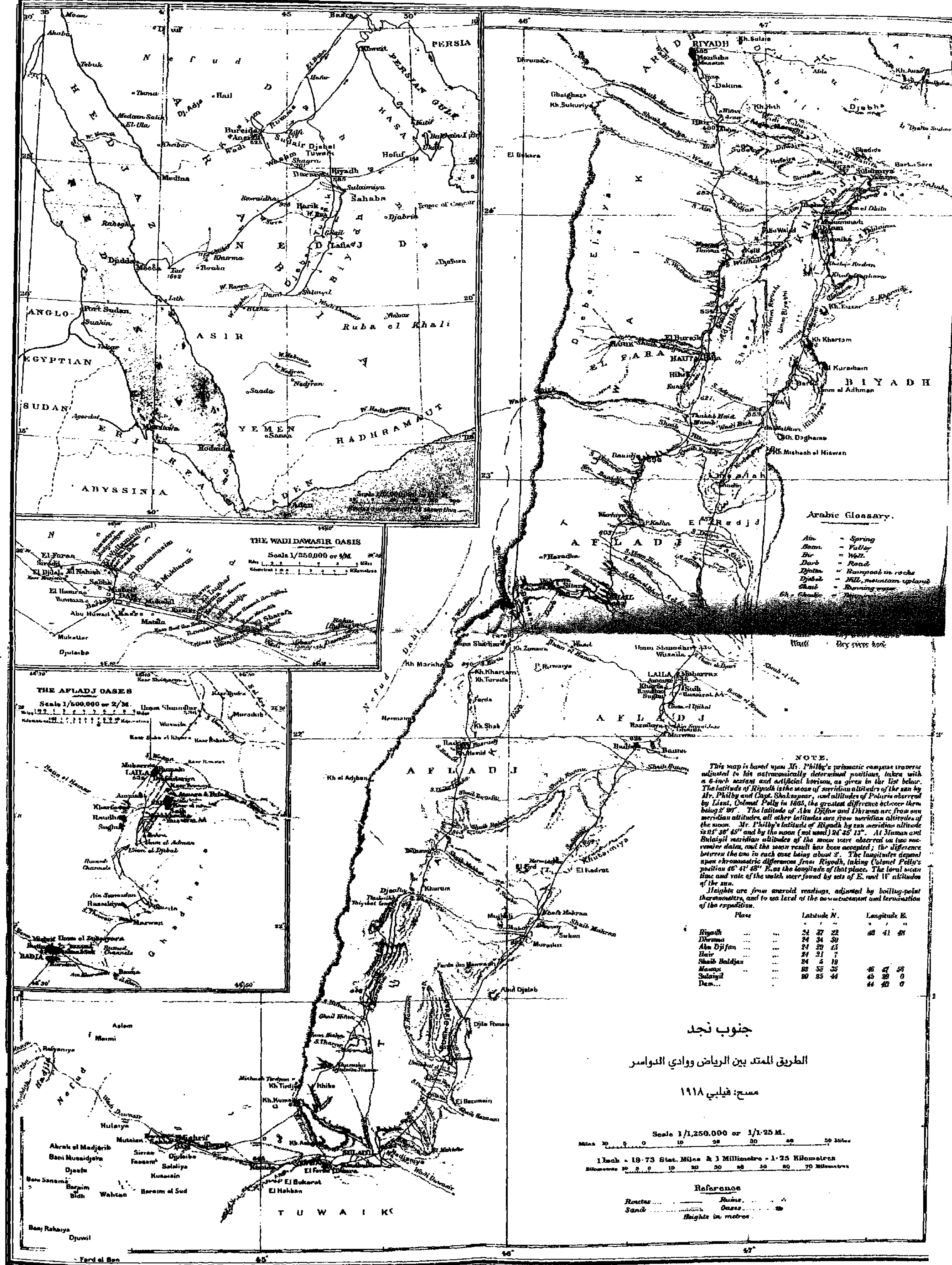
فهرس الملاحق

الصفحة

المحتويات

الموضوع الصفحة

الفصل العاشر


جنوب نجد
الطريق الممتد بين الرياض ووادي الدواسر
مسح: فيلبي ١٩١٨
THE WADI DAWASIR OASIS
Scale 1/250,000 or 4/M
THE AFLADJ OASES
Scale 1/500,000 or 2/M.
PERSIA
PERSIAN GULF
ANGLO-EGYPTIAN SUDAN
ERITREA
ABYSSINIA
ASIR
YEMEN
HADHRAMAUT
ADEN
Ruba el Khali
Tropic of Cancer
Riyadh
Bureida
Hofuf
Medina
Djidda
Mecca
Port Sudan
Suakin
Hodeida
Sanaa
Saada
Nedjran
Koweit
Basra
Tebuk
Hail
Akaba
RIYADH
LAILA
DAM
AFLADJ
EL FARA
BIYADH
TUWAIK
Wadi Dawasir
NOTE.
This map is based upon Mr. Philby's prismatic compass traverse adjusted to his astronomically determined positions, taken with a 6-inch sextant and artificial horizon, as given in the list below.
Heights are from aneroid readings, adjusted by boiling-point thermometers, and to sea level at the commencement and termination of the expedition.
Place
Latitude N.
Longitude E.
Riyadh
Dhruma
Abu Djifan
Hair
Shaib Baldjan
Maman
Sulaiyil
Dam
Arabic Glossary.
Ain - Spring
Batn - Valley
Bir - Well.
Darb - Road
Djilta - Rainpool in rocks
Djebel - Hill, mountain upland
Shaib - Running water
Scale 1/1,250,000 or 1/1·25 M.
1 Inch = 19·73 Stat. Miles & 1 Millimetre = 1·25 Kilometres
Reference
Routes
Ruins
Sand
Oases
Heights in metres

وسط الجزيرة العربية

الطريق الممتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر

مسح: فيلبي ١٩١٧

Scale 1/2 000 000 or 1/2M

1 Inch = 31·56 Stat. Miles & 1 Millimetre = 2 Kilometres

This map is based upon Mr. Philby's prismatic compass traverse, adjusted to his own meridian altitude latitudes, taken with a sextant and artificial horizon. The results of these are given in figures on the map. The latitude of Riyadh is the mean of the meridian altitudes of the sun taken by Mr. Philby and Capt. Shakespear, and the altitudes of Polaris observed by Lieut.-Col. Pelly in 1865, the greatest difference between them being 2' 20". The longitudes depend upon the traverse, adjusted to points on the coast, and to Col. Pelly's position of Riyadh taken as 46° 41' 48" E. Heights are from aneroid readings, adjusted by boiling point thermometers, and to sea level at the commencement and termination of the journey.

Route ——— Sand ---- Heights in metres

Scale 1/8,000,000

قائمة كتب فيلبي
التي تحت الطبع

١- حاج في الجزيرة العربية. / طُبع /
A Pilgrim in Arabia

٢- مغامرات النفط العربي. / طُبع /
Arabian Oil Ventures

٣- الربع الخالي. / طُبع /
The Empty Quarter

٤- بنات سبأ. / طُبع /
Sheba's Daughters

٥- أيام عربية. / طُبع /
Arabian Days

٦- العربية السعودية. / طُبع /
Saudi Arabia

٧- قلب الجزيرة العربية. / طُبع /
The Heart of Arabia

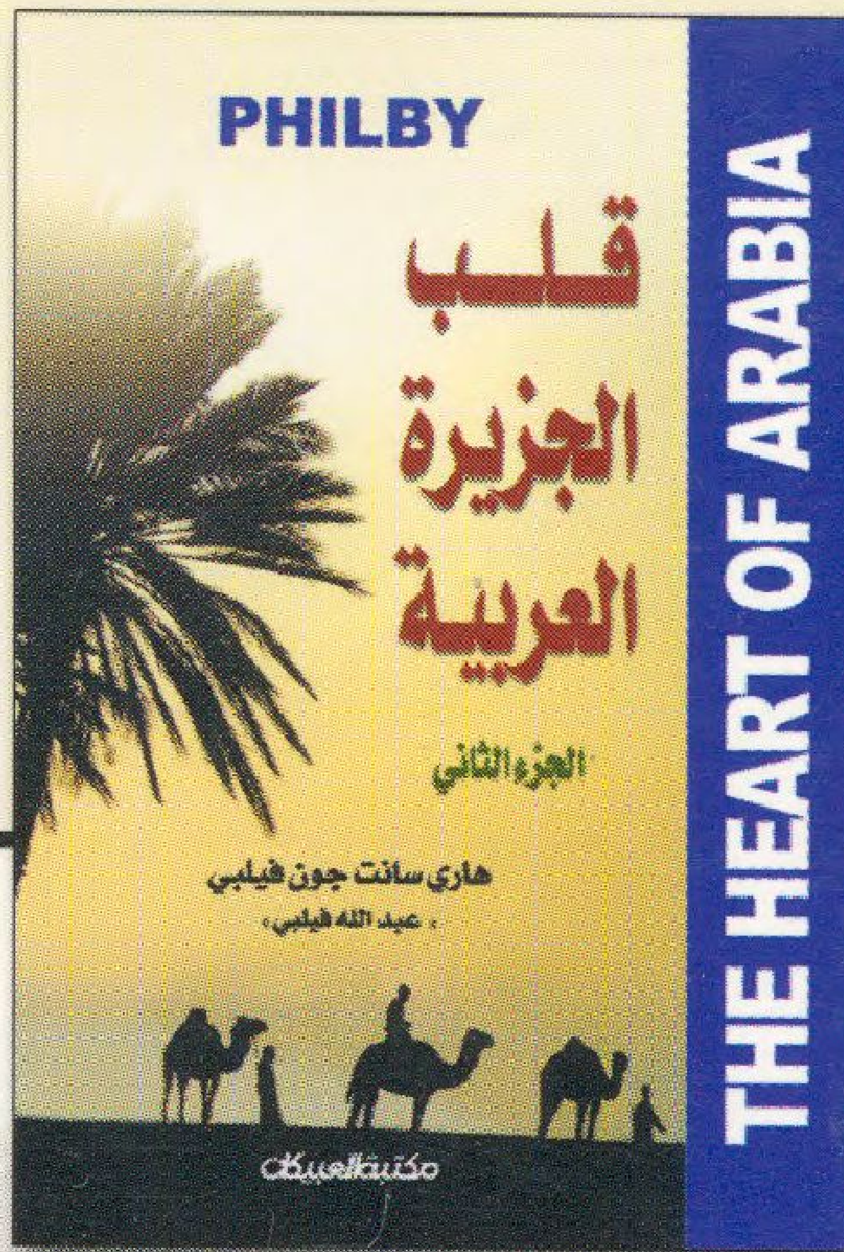
٨- نجود الجزيرة العربية.
Arabian Highlands

٩- الذكرى الذهبية
للمملكة العربية السعودية.
Arabian Jubilee

١٠- أربعون عاماً في البرية.
Forty Years in The
Wilderness

١١- أرض مدين.
The Land of Midian

١٢- جزيرة العرب الوهابية.
Arabia of The Wahhabis



تعد كتب فيلبي أول موسوعة معربة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية، حيث غطت حقبة زمنية مهمة، وقد تناول فيها فيلبي تاريخ المملكة وجغرافيتها وأعلامها وآثارها واقتصادها وقبائلها بأسلوبه الرصين، وتحليله العلمي الدقيق، وقد دعم ذلك كله بالكثير من الصور الشمسية التي تعين القارئ على تصور الأشياء وحسن فهمها.

وقد جاء عمل فيلبي هذا ثمرة للمدة الطويلة التي أقامها في المملكة واتصاله بالملك عبد العزيز -يرحمه الله- مما أتاح له فرصة التنقل في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، والاطلاع على المواقع الأثرية والنقوش القديمة. وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الكتب لنشرها في سلسلة تاريخية؛ لتكون رافداً ثقافياً لأبناء هذا الجيل، ومن هذه الكتب كتاب (**قلب الجزيرة العربية**) الذي يعد سجلاً للرحلات والاستكشافات التي قام بها المؤلف متجولاً في قلب الصحاري والواحات بالجزيرة العربية، وذلك في وصف شامل ودقيق للأماكن التي زارها، ليكون هذا العمل خدمة لكل من يأتي بعده من الباحثين، وذلك بوصفه دليلاً موثقاً ومزوداً بخرائط للجزيرة العربية لتتضح معالمها لكل راغب أو طالب أو باحث.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تقدم للقارئ الكريم هذه الكتب لأول مرة بال... إدراكاً منها لأهمية الدور ال... الذي تقو... خدمة للوطن، وأداءً لواج... الجوانب المضيئة من تاريخها لأبنا... هذا ...وطن الغالي، راجية الفلاح لل...

هذا والله من وراء القصد.

الناشر



ردمك: ٦- ٨٥١- ٢٠- ٩٩٦٠
٩- ٨٥٥- ٢٠- ٩٩٦٠ (ج٢)

